الآيات الساطعة

في العبر النافعة

2274
.983
.313
V.3

2274.983.313 V.3
al-Sūdānī
al-Āyāt al-Sāṭʻah

2274.983.313 V.3
al-Sūdānī
al-Āyāt al-Sāṭʻah

DATE	ISSUED TO

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE

Princeton University Library
32101 072238262

al-Sūdānī, Mūsā Ja'far

al-Āyāt al-sāṭi'ah

الآيات الساطعة

في العبر النافعة

علمي ، ديني ، فلسفي ، أخلاقي

وتفسير

تأليف

الشيخ موسى الشيخ جعفر
السوداني

الجزء الثالث

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

مطبعة النجف - النجف الاشرف

١٣٨٦ هـ

2274
.983
.313
v.3

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد النبيين وخاتم المرسلين نبينا محمد صلى الله عليه وآله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه المرضيين .

الفصل الثاني

في الجهل

وحيث انه ضد العلم فكلما ذكر في فضل العلم فعدمه يكون ذماً للجهل سواء كان من القرآن الكريم او من الأحاديث والأخبار والحكم ، فلهذا نقتصر الكلام في هذا الفصل خوف الاطالة واعتماداً على الحوالة .

من أقوال امير المؤمنين (ع) في ذم الجهل : كفى بالجهل ضعة ان يتبرأ منه من هو فيه ، ويغضب إذا نسب اليه .

ومن أقوال الصادق (ع) في التنفير عن الجهل : لا شيء احسن من الصمت ولا عدو أضر من الجهل ، ولا داء أدوى من الكذب .

وقال الامام الرضا (ع) شعراً في التباعد عن المتصف بالجهل :

إذا كان دوني من بليت بجهله   أبيت لنفسي أن تقابل بالجهل
وإن كان مثلي في محلي من النهى   أخذت بحلمي كي أجل عن المثل

وإن كنت ادنى منه في الفضل والحجى عرفت له حق التقدم والفضل

وقال الامام الهادي ﷺ : والهزء فكاهة السفهاء، وصناعة الجهال .

وقال الامام العسكري ﷺ في بيان ضرر الجهل : الجهل خصم والحلم حكم ولم يعرف راحة القلب من لم يجرعه الحلم غصص الغيظ .

وقال ﷺ محذراً عن مبادئ الجهل : من الجهل الضحك من غير عجب .

وقال ﷺ : صديق الجاهل تعب .

حقيقة الجهل

هو خلو النفس عن العلم وإذا انضم إلى ذلك العلم بأنها خالية عن العلم يكون الجهل جهلا بسيطاً ، وهو في بدايته غير مذموم لتوقف العلم عليه لأن النفس ما لم تعتقد جهلها بالمعارف لم تنهض لتحصيلها . نعم إذا بقي على جهله وثبت عليه ولم يسع لازالته بطلب العلم يكون من المهلكات الفعالة والمرديات القتالة ، واما إذا انضم إلى خلو النفس عن العلم الاعتقاد بأنها عالمة فحينئذ يكون الجهل مركباً لأن صاحبه لا يعلم ولا يعلم انه لا يعلم ، وهو أشد الرذائل وأقبحها وإزالته ايضاً بمنتهى الصعوبة وقد اعترف أطباء النفوس بالعجز عن معالجته كما اعترف أطباء الأبدان بالعجز عن معالجة بعض الأمراض المزمنة ، وقد قال عيسى بن مريم ﷺ : « إني لا أعجز عن معالجة الأكمه والأبرص وأعجز عن معالجة الأحمق » وكما قال الشاعر : وداء الجهل ليس له دواء ، والسبب فيه انه مع خلوه من العلم لا يتنبه لنقصه فلا يتحرك للطلب فيبقى في الجهل والردى ما دام في الدنيا .

طريق التخلص والخروج من الجهل

أن يعرض الانسان على ذاكرته الأمور التي دلت على قبحه ونقصه، العقلية منها والعرفية وأن يعلم بأن الجاهل لايستحق إطلاق الانسانية عليه وإذا اطلقت فاطلاقها عليه من باب المجاز لمشابهته للانسان في الصورة وهو أجدر بأن يطلق عليه الحيوان لأن المميز للانسان عن سائر الحيوانات المشاركة له في الجسمية والقوة الغضبية والشهوية، هو الادراك الكلي المعبر عنه بالعلم ولولاه لم يبق فرق بينه وبين سائر الحيوانات والبهائم. ولذا ترى الجاهل إذا كان بين أهل العلم وهم في محاوراتهم ولم يفهم أقوالهم كالبهيمة الرابضة في وسطهم، فاذا استعرض الجاهل هذا المعنى وتأمله يحدث في نفسه المحفز لازالة هـــذا الجهل والالتحاق بركب الانسان لكي يستحق إطلاق لفظه عليه، وبمرور الأيام يكون عالماً. وقد قيل: إن الجاهل لا يعرف العالم لأنه لم يكن عالماً والعالم يعرف الجاهل لأنه كان جاهلا.

وقيل أيضاً: إن زلة الجاهل يخفيها الجهل وزلة العالم يضرب فيها الطبل. وذلك لأن الناس يحسبونه منظار الجمال ومجموعة الكمال.

وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام في وصف الجاهل المركب من خطبته السادسة والثمانين بعدما ذكر أحب العباد إلى الله تعالى أردف ذلك بذكر المبغوضين له تعالى: «وآخر قد تسمى عالماً وليس به فاقتبس جهائل من جهال، وأضاليل من ضلال ونصب للناس أشراكاً من حبائل غرور وقول زور قد حمل الكتاب على آرائه وعطف الحق على أهوائه يؤمن الناس من العظائم ويهون كبير الجرائم يقول أقف عند الشبهات وفيها وقع ويقول اعتزل البدع وبينها اضطجع فالصورة صورة انسان والقلب قلب حيوان لا يعرف باب الهدى فيتبعه ولا باب العمى

فيصد عنه وذلك ميت الأحياء » وإنما كان ميتاً لأن المقصود بالحياة في الحقيقة هو استكمال النفس واكتساب الفضائل المسببة للسعادة الأبدية والمنتهية بذيها إلى اللذة السرمدية ، وقال الشاعر :

ليس من مات فاستراح بميت   إنما الميت ميت الأحياء

وروي عن النبي ﷺ في التحذير عن البقاء على الجهل انه قال : إن الله آتاني القرآن وآتاني من الحكمة مثل القرآن ، وما من بيت ليس فيه شيء من الحكمة إلا كان خراباً ، الله فتفقهوا وتعلموا فلا تموتوا جهالا .

أضر جهل وأقبحه

هو أن يجهل المخلوق خالقه ولا يعرف محسوس نعمائه التي قد أغرقه فيها والظواهر من آلائه التي قد غمسه في مجاريها فضلا عن بواطن فيوضاته وأسرار إحكاماته ودقائق مصنوعاته ، بل أنه سبحانه قد جعل الدليل على قدسي ذاته حتى في أسمائه تقدست أسماؤه قال تعالى : « ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون » (١) . وقال تعالى : « قل ادعوا الله او ادعوا الرحمن أياً ما تدعو فله الأسماء الحسنى » (٢) .

اخبر تعالى بأن له الأسماء الحسنى لحسن معانيها مثل الجواد والرحيم والرزاق والكريم ، ويقال : إن جميع أسمائه داخلة في قوله الحسنى وانها كلها حسنة متضمنة لمعان حسنة .

(فمنها) ما يرجع إلى صفات ذاته كالعالم والقادر والحي والاله والقديم والسميع والبصير .

(١) سورة الأعراف الآية ١٨٠ . (٢) سورة الاسراء الآية ١١١

(ومنها) ما هي صفات فعله كالخالق والرازق والعدل والمحسن والمجمل والمبدع والمحيي والمميت .

(ومنها) مايفيد تنزيهه ونفي صفات النقص عنه كالغني والواحد والقدوس والقادر « ومعنى قوله تعالى فادعوه بها » بأن تقول : يا الله يارحمن يا رحيم ياخالق السموات والأرض .

وقد ورد في الحديث ان لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة انه وتر يحب الوتر « واما قوله تعالى وذروا الذين يلحدون في أسمائه » .

فمعناه دعوا الذين يعدلون بأسمائه عما هي عليه فيسمون بها أصنامهم ويغيرونها بالزيادة والنقصان فاشتقوا اللات من الله والعزى من العزيز ومنات من المنان

وقيل : إن معنى يلحدون فى أسمائه يصفونه بما لا يليق به ويسمونه بمالا يجوز تسميته به كقولهم مثلا : المسيح بن الله وأمثاله ، وفي هذا دلالة على انه لايجوز ان يسمى الله تعالى إلا بما سمى به نفسه ، وان اسماءه توقيفية « سيجزون ما كانوا يعملون » في الآخرة وقيل : يجزون في الدنيا والآخرة ، واما قوله تعالى « قل » أي يا محمد لهؤلاء المشركين المنكرين نبوتك « ادعوا الله او ادعوا الرحمن » فقد ذكر في سبب نزولها أمور :

(أحدها) ان النبي ﷺ كان ساجداً ذات ليلة بمكة يدعو يا رحمن يا رحيم فقال المشركون : هذا يزعم أن له إلهاً واحداً وهو يدعو مثنى مثنى .

(ثانيها) ان المشركين قالوا : إما الرحيم فنعرفه وإما الرحمن فلا نعرفه .

(ثالثها) ان اليهود قالوا : إن ذكر الرحمن قليل في القرآن وهو في التوراة كثير فقال تعالى : « أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى » أي بأيها دعوتم فانه حسن ، لأن اسماءه تعالى تنبيء عن صفات حسنة وأفعال حسنة ، لأن منها مايرجع

إلى صفات ذاته ومنها إلى صفات افعاله ومنها إلى تنزيهه ونفي النقص عنه كما تقدم وفي ذلك دلالة على انه تعالى لا يفعل الظلم ويوصف بأنه ظالم ، لأنه قبيح وينافي حينئذ ما ذكره سبحانه من ان اسماءه كلها حسنة .

ومن حسن اسمائه انه يوصف بالأضداد كوصف امير المؤمنين عليه السلام له تعالى في خطبته الرابعة والستين من النهج التي اشتملت على نكات لطيفة من العلوم الالهية ومتضمنة لجملة من الصفات الكمالية المبتدأة بقوله عليه السلام : الحمد لله الذي لم تسبق له حال حالا فيكون اولا قبل ان يكون آخراً ويكون ظاهراً قبل ان يكون باطناً ... الخ ، فتراه سبحانه موصوفاً بأنه اول وآخر وبأنه ظاهر وباطن كما قال في سورة الحديد هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم والحالة ان سائر الموجودات إذا وصف أحدها بأنه اول لا يوصف بأنه آخر وإذا وصف بأنه ظاهر لا يوصف بأنه باطن بل يكون مورداً للنقد ، لأنه جمع بين الضدين ، اما بالنسبة اليه تعالى فتراه مقبولا ممدوحاً حسناً .

قال الصدوق في التوحيد : معنى هو الأول أي بغير ابتداء والآخر أي بغير انتهاء ، والظاهر أي بآياته التي اظهرها من شواهد قدرته ، وآثار حكمته ، وبينات حجته التي عجز الخلق جميعاً عن إبداع اصغرها وإنشاء ايسرها واحقرها عندهم كما قال تعالى : « إن الذين يدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له » فليس شيء من خلقه إلا وهو شاهد له على وجوده وتفرده .

وهناك معنى آخر لقوله تعالى : هو الظاهر أي الغالب القادر على ما يشاء ومن هذا الاستعمال قوله تعالى : « فأصبحوا ظاهرين » اي غالبين ، واما الباطن فمعناه انه قد بطن عن الأوهام فهو باطن لا يحيط به محيط ، فذاته لا تدرك فهو باطن بالذات ظاهر بالصفات .

وقيل : إن معنى الأول اي اول الموجودات ، والآخر اي بعد فناء كل

شيء ، لأنه يفني الأجسام كلها وما فيها من الاعراض ويبقى وحده ، والظاهر هو العالي الغالب على كل شيء فكل شيء دونه ، والباطن العالم بما بطن فلا احد اعلم منه كما قال : « يعلم السر وأخفى » .

وقيل ايضاً في معناه : الأول ببره إذ هداك والآخر بعفوه إذ قبل توبتك والظاهر باحسانه وتوفيقه إذا أطعته والباطن بستره إذا عصيته .

وقيل : هو الأول بالخلق والآخر بالرزق والظاهر بالاحياء والباطن بالاماتة ثم إن السبق والمقارنة والقبلية والبعدية امور تلحق الزمان لذاته والزمانيات بواسطته ، وقد ثبت انه تعالى منزه عن الزمان إذ كان من لواحق الحركة المتأخرة عن وجود الجسم المتأخر عن وجوده تعالى فاذاً لا تلحق ذاته المقدسة وما لها من صفات الكمال ونعوت الجلال فلم يجز ان يقال كونه مريداً او كونه عالماً قبل كونه قادراً او كونه قادراً قبل كونه مريداً او كونه حياً وما يلحق ذاته المقدسة من ذلك فاعتبارات ذهنية تحدثها العقول عند مقايسته إلى مخلوقاته فيقال ويوصف بأنه اول اي قبل الخلق ، وآخر اي بعد الخلق وغير ذلك .

وهذه الاعتبارات ايضاً لا تفاوت فيها بالنسبة إلى ذاته تعالى فلا يقال انه مستحق لهذا الاعتبار قبل هذا الاعتبار مثلا وإلا لكان كمال ذاته قابلا للزيادة والنقصان فلاحال يفرض إلا وهو يستحق فيه أن يعتبر له الأولية والآخرية معاً استحقاقاً اولياً ذاتياً عرضياً لاطولياً على وجه الترتيب وان تفاوتت الاعتبارات بالنظر إلى اعتباراتنا ، وهذا بخلاف غيره تعالى من الأمور الزمانية فان الجوهر مثلا يصدق عليه كونه اولا بالنسبة إلى العرض ولا يصدق عليه مع ذلك انه آخر بالنسبة إلى العرض ايضاً ، لأنه جمع بين الضدين .

وقال الصدر الشيرازي : هو الأول والآخر ، لأنه مبدأ كل شيء وغايته والظاهر والباطن ، لأن غاية ظهوره منشأ بطونه فهو الظاهر من حيث هو الباطن

والباطن من حيث هو الظاهر ، ومن ذلك ما ورد في بعض فقرات دعاء الجوشن يا ظاهراً في بطونه ويا باطناً في ظهوره .

وكذلك اتصافه تعالى بأنه واحد ليس على قياس وصف غيره بالواحد فان اتصاف غيره من المعدودات بالواحد يعطي معنى القلة في مقابل الكثرة اما بالنسبة اليه تعالى ، فعلى معنى انه ليس له في الأشياء شبه ، وانه أحدي المعنى اي لاينقسم في وجود ولا عقل ولا وهم وكذلك ربنا حقاً .

فغيره تعالى إذا وصف بأنه ظاهر لايوصف بأنه باطن وكذا العكس ، مثلا ان الشمس توصف بالظهور فلا توصف بالخفاء ، ومثل الهيولي والعدم وما تحت الثرى يوصف بالبطون والخفاء ولا يوصف بالظهور والجلاء ، واما الله الحي القيوم المظيم الشأن فهو متصف بالظهور والبطون معاً فهو في كمال ظهوره باطن وفي غاية بطونه ظاهر بل هو أجلى الأشياء وأظهرها ومنتهى ظهوره صار سبباً لخفائه كما حقق ذلك صدر المتألهين وأوضحه بمثال تقريباً للأذهان قال : فانا إذا رأينا إنساناً يكتب او يخيط كان كونه حياً عالماً قادراً مريداً عندنا من أظهر الأشياء وصفاته ، هذه تكون عندنا أجلى من سائر صفاته الأخرى الظاهرة منها والباطنة ، إذ لا نعرف بعضها كشهوته وغضبه وخلقه وصحته ومرضه ونشك في بعضها كمقدار طوله وعرضه ولون بشرته وغير ذلك .

اما حياته وعلمه وقدرته وإرادته فانه جلي عندنا ، مع إنا لم ندركها بالحس الظاهر ، لأنها غير محسوسة بشيء من الحواس الظاهرة ، فوضوحها وجلاؤها عندنا ليس إلا لدليل واحد وهو كتابته او خياطته وهي اثر واحد من آثاره .

واما وجود الباري عز وجل وقدرته وعلمه وحياته وإرادته فيشهد له ويدل عليه جميع ما في الكون وكلما نشاهده وندركه بالحواس الظاهرة والباطنة من حجر او مدر ونبات وشجر وحيوان وأرض وسماء وكوكب وبحر وبر ونار

وهواه ، بل اول شاهد عليه انفسنا وأوصافنا وتقلب أحوالنا من الصغر والكبر والقوة والضعف والصحة والسقم والرضا والغضب والفرح والحزن والحب والبغض والشهوة والكراهة والأناة والارادة والرغبة والرهبة والرجاء واليأس فانها جميعاً آثاره جل شأنه وشواهد ناطقة وأدلة شاهدة بوجود خالقها ومدبرها ودالة على علمه وقدرته ولطفه وحكمته ، فقد كانت حياة الكاتب ظاهرة ثابتة عندنا وليس لها شاهد ودليل إلا حركة يده ، فكيف لا يظهر لدينا ويثبت وجوده عندنا من لا يتصور شيء داخل نفوسنا وخارجها إلا وهو شاهد عليه ، وما من ذرة إلا وهي تنادي بلسان حالها أن ليس وجودها وحركتها بذاتها ، بل انها تابعة لارادة موجدها ومرتبطة بحكمة مبدعها . فاذا كان كذلك فنقول : لم يبق في الوجود مدرك ولا محسوس ولا معقول ولا حاضر ولا غائب إلا وهو شاهد واضح على وجوده لعظم ظهوره جل شأنه بعظيم آثاره فانبهرت العقول ودهشت عن إدراكه لأن الذي تعجز العقول عن إدراكه يكون لأحد أمرين :

الأمر الأول لخفائه كالهيولى والعدم والزمان والحركة والنسبة وأمثالها ، وهذا باطل بالنسبة اليه تعالى لظهوره وعدم خفاء ذاته بظهور آثاره ودلائله .

الأمر الثاني ان السبب في عدم إدراك العقول له وعجزها عن ذلك هو جلاؤه ووضوحه وقصور القوة الادراكية عن ادراكه نظير نور الشمس وبصر الخفاش فلضعف بصره يبهره نور الشمس في النهار اذا أشرقت فلاتستطيع رؤيتها لا لخفائها لأنها بمنتهى الظهور ، وانما هو لضعف بصره عن ادراكها ، ولهذا اذا امتزج الضوء بالظلام وضعف ظهورها أبصر بالليل ، فكذلك عقول البشر ضعيفة عن ادراك جلالة الخالق وجماله مع انها في غاية الاشراق ونهاية الشمول والاستغراق حتى لم يشذ عن ظهوره ذرة من السموات والارض فصار ظهوره سبباً لخفائه فسبحان من احتجب بشدة ظهوره واختفى عن البصائر باشراق نوره .

ايضاح آخر لظهوره جل شأنه

هو أن الاشياء قد تستبان بأضدادها ، فإن الشمس ازدادت وضوحاً بغروبها وانسدال الظلام ، ولو انها كانت مستمرة بظهورها لظننا ان لا هيئة في الاجسام والسطوح إلا ألوانها وانها طبيعتها وليست شمساً واقعة عليها ولكن لما غابت واظلمت مواضع شروقها ادركنا الفرق بين الحالتين وعرفنا وجود النور بعدمه في حالة الغروب ، ولولا عدمه لما كنا نطلع عليه إلا بعسر شديد . كما قال الشاعر :

ضدان لما استجمعا حسنا والضد يظهر حسنه الضد

وحيث أن جلاله قد عم وجوده وشمل كل الموجودات حتى صار لا ضد له يظهره فعسر إدراكه ، فلو كان له عدم او غيبة او تغير لانهدمت الارض والسماء ولانعدمت الاشياء كلها وبطل الملك والملكوت ، ولأدركنا الفرق بين الحالتين كما ادركنا الفرق بين حالتي ظهور الشمس وانعدامها ، فوجوده دائم في الاحوال ودلالته عامة على نسق واحد في الاشياء فلا جرم سبب شدة ظهوره خفاءه .
قال الشاعر :

على م القول ان الله قد حجّب عنا هو في النهر وفي الحقل وفي الغصن تثنى
هو في البحر وفي الريح وفي الغابة غنى هو في الليل وفي الفجر إذا فتحت جفنا
هو في البرق وفي الرعد إذا أرهفت أذنا هو في الاكوان مذ كانت وفينا منذ كنا

الارشاد منه تعالى لازاحة الجهل

فقد ندب سبحانه عباده الى التفكر في عدة مواضع من القرآن العظيم كل ذلك لازاحة الجهل وصقل النفس وتنوير العقل لعلمه تعالى ، بأن الجهل ركيزة كل شر كما ان العلم منبع كل خير ، ففتح لهم ابواب العلم على مصارعها ودعاهم الى الدخول منها والاخذ بمبادئها والتدرج من طريق التفكير الى اعاليها و كم قد رغب وأوعد بعظيم الاجر وجزيل الجزاء على ألسنة الاولياء لطالب العلم ، وقد ذكرنا شطراً منه ، وبالاضافة الى ما ذكرناه قال امير المؤمنين عليه السلام : اذا مات مؤمن وترك ورقة واحدة عليها علم تكون تلك الورقة ستراً بينه وبين النار وأعطاه الله بكل حرف عليها مدينة اوسع من الدنيا سبع مرات .

وقال الصادق عليه السلام : لو يعلم الناس ما في فضل معرفة الله تعالى ما مدوا اعينهم الى ما متع به الاعداء من زهرة الحياة الدنيا ونعيمها ، وكانت دنياهم اقل عندهم مما يطأون بأرجلهم ولتنعموا بمعرفة الله وتلذذوا بها تلذذ من لم يزل في روضات الجنان مع اولياء الله ان معرفة الله انس من كل وحشة وصاحب من كل وحدة ، ونور من كل ظلمة ، وقوة من كل ضعف ، وشفاء من كل سقم ... الخ

وقال الرضا عليه السلام من حديث طويل عن النبي صلى الله عليه وآله : إن العلم حياة القلوب من الجهل ، وضياء الأبصار من الظلمة ، وقوة الأبدان من الضعف ، يبلغ بالعبد منازل الأخيار ، ومجالس الأبرار والدرجات العلى في الآخرة والأولى .

فهذه الارشادات والترغيبات منه تعالى لغرض المحافظة على اصل الخلقة والفطرة التي فطر الناس عليها وما اودع فيها من العقول الصحيحة من ان يلحقها مكروب الجهل ويسممها مرض السفه فتعود مريضة بعد ان كانت صحيحة وحينئذ تخسر كسب المعارف وتكون عرضة للمهالك .

آيات الأمر بالتفكر

قال تعالى : « أو لم يتفكروا في انفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى » (١) ، والاستفهام إنكاري ومعناه الطلب .

ومعنى في انفسهم أي في حال الخلوة ، لأن في تلك الحالة يتمكن الانسان من نفسه ويحضره ذهنه .

وقيل : إن معناه في خلق الله لأنفسهم .

وقال تعالى : « كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة » (٢) .

وقال تعالى ايضاً : « كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون » (٣) أي تنظرون وتتفهمون ، والترجي فيها ليس على حقيقته ، لأنه محال عليه سبحانه فالمراد منه الطلب ايضاً .

وقال تعالى : « قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون » (٤) ، والآية في معرض الانكار على عدم التفريق والتمييز بين الأعمى والبصير الناتج من الجهل وعدم المعرفة بواسطة التفكير والعلم فجعل سبحانه الأعمى مثلا للجاهل والبصير مثلا للعالم .

وقال تعالى : « ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا » (٥) مادحاً لهم ومعيراً بهم غيرهم ممن تمادى بجهله ولم يهتد بتفكيره وأخيراً

(١) سورة الروم الآية ٧ . (٢) سورة البقرة الآية ٢١٧ .
(٣) سورة البقرة الآية ٢٦٨ . (٤) سورة الأنعام الآية ٥٠ .
(٥) سورة آل عمران الآية ١٨٨ .

يعود عليهم بالجزاء واستجابة الدعاء بقوله تعالى : فاستجاب لهم ربهم ، مقدراً لهم صحيح اعمالهم المنبعثة من نور علمهم وعميق تفكيرهم بابداع خلق السموات والارض بما فيها من البدائع والامور الجارية على غاية الانتظام والاتساق الذي يدلهم على ان مبدعها عالم ، لان الفعل المحكم المنتظم لا يصح إلا من عالم ، كما ان الايجاد لا يصح إلا من قادر ، ويدل على ان صانعها قديم ، لانه لو كان محدثاً لاحتاج إلى محدث فيؤدي إلى التسلسل ، ووجه الدلالة في تعاقب الليل والنهار السابقة على هذه الآية هو أن ترادفها على مقدار معلوم لا يزيدان ولا ينقصان ونقصان كل واحد منها عن الآخر في حال وزيادته عليه في حال وازدياد احدهما بقدر نقصان الآخر، كل ذلك دلالة ظاهرة على ان لها صانعاً قادراً حكيما لا يدركه عجز ولا يلحقه سهو وان خلقها بهذا الاتقان لم يكن باطلا أي للعب والعبث بل لغرض صحيح وحكمة ومصلحة وهي ان يعرفه عباده اولا وتعريضاً لهم لاكتساب الثواب والأمن من العذاب ثانياً .

فضل هذه الآيات الخمس من آل عمران

عن علي بن ابي طالب عليه السلام ان رسول الله صلى الله عليه وآله كان إذا قام من الليل استاك ثم ينظر إلى السماء ثم يقول : إن في خلق السموات والارض إلى قوله : فقنا عذاب النار .

وقد اشتهرت الرواية عن النبي صلى الله عليه وآله انه لما نزلت هذه الآيات قال : ويل لمن لاكها بين فكيه ولم يتأمل ما فيها .

وورد عن الأئمة الاطهار (ع) الامر بقراءة هذه الآيات الخمس وقت القيام بالليل للصلاة وفي الضجعة بعد ركعتي الفجر .

وعن ابي عبدالله عليه السلام ان النبي صلى الله عليه وآله كان يؤتى بطهور فيخمر عند رأسه ويوضع سواكه تحت فراشه ثم ينام ما شاء الله فاذا استيقظ جلس ثم قلب بصره إلى السماء وتلا الآيات من آل عمران ان في خلق السموات والارض الآيات ثم يستن ويتطهر ثم يقوم إلى المسجد فيركع اربع ركعات ثم يعود إلى فراشه فينام ماشاء الله ثم يستيقظ فيجلس فيتلوالآيات ويقلب بصره في السماء ثم يستن ويتطهر ويقوم إلى المسجد فيصلي اربع ركعات ثم يعود إلى فراشه فينام ما شاء الله فيستيقظ فيتلوالآيات ويقلب بصره في السماء ثم يستن ويتطهر ويقوم إلى المسجد فيوتر ويصلي ركعتين ثم يخرج إلى الصلاة .

خلاصة العقد الخامس وختامه

هو إنا قد علمنا عقلا وحساً فضيلة العلم وانه نور الله تعالى والدليل على كل خير وفهمنا رذيلة الجهل وانه الداء العضال وركيزة كل شر وقد أعيى الاطباء وإن التفكر علاجه الوحيد بارشاد القرآن المجيد .

العقد السادس

الانسان فيما بين الدارين

وفيه فصول :

الفصل الاول حالته في الاحتضار

قال تعالى : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة » (١) .

المعنى انه تعالى يثبتهم في كرامته وثوابه بالقول الثابت الذي وجد منهم وهو كلمة الايمان ، ومعنى كونه ثابتاً لانه قد ثبت بالحجج والادلة .

وقيل : إن المعنى يثبت الله المؤمنين بسبب كلمة التوحيد وحرمتها في الحياة الدنيا حتى لا يزلوا ولا يضلوا عن طريق الحق ويثبتهم بها في الآخرة حتى لايزلوا ولا يضلوا عن طريق الجنة .

وقيل : إن معناه يثبتهم بالتمكين في الارض والنصرة والفتح في الدنيـا وباسكانهم الجنة في الآخرة .

وقال اكثر المفسرين : إن المراد بقوله في الآخرة في القبر وفي الدنيا عند الموت والاحتضار ، وان الآية وردت في سؤال القبر وهو قول ابن عباس وابن مسعود وهو المروي عن أهل البيت (ع) .

---

(١) سورة ابراهيم الآية ٢٧ .

وروى محمد بن يعقوب الكليني (رضي الله عنه) في كتاب الكافي باسناده عن سويد بن غفلة عن امير المؤمنين عليه السلام انه قال : إن ابن آدم إذا كان في آخر يوم من الدنيا وأول يوم من الآخرة مثل له ولده وماله وعمله فيلتفت إلى ماله فيقول (١) : والله اني لقد كنت عليك حريصاً (حيث قد عصى ربه فيه بمنع ما فرضه عليه) شحيحاً فمالي عندك فيقول : خذ مني كفنك فيلتفت إلى ولده فيقول : والله اني كنت لكم لمحباً وعليكم لمحامياً فماذا لي عندكم ؟ فيقولون نؤديك إلى حفرتك نواريك فيها (نعم يسرعون في ذلك ليأمنوا من معايبه وعوارضه ويستروه عن الناظرين) قال : فيلتفت إلى عمله فيقول : والله اني كنت فيك لزاهداً وقد كنت علي لثقيلا فماذا لي عندك ؟ فيقول : أنا قرينك في قبرك ويوم نشرك حتى أعرض أنا وانت على ربك (ولهذا قيل : الناس نيام حتى إذا ماتوا انتبهوا) فيرى نفسه قد قصر فيما يصحبه وينفعه واهتم لما يفارقه ويضره حيث انه يحاسب على ماله وعلى ولده ايضاً ، لأنهم نعمة وقد ترك كل ما يملك لهم كما تقدم من قول هشام بن عبدالملك عندما حضره الموت لأهله (جاد لكم هشام بالمال وجدتم له بالبكاء وترك لكم كل ما ملك وتركتم عليه كل ما حمل) فان كان المحتضر ولياً لله تعالى أتاه أطيب الناس ريحاً وأحسنهم منظراً ورياشاً فقال : ابشر بروح وريحان وجنة نعيم ومقدمك خير مقدم فيقول له : من أنت ؟ فيقول : أنا عملك الصالح ارتحل من الدنيا إلى الجنة ، وانه ليعرف غاسله ويناشد حامله أن يعجله (له بقية تخص حالة القبر) وإذا كان لربه عدواً فانه يأتيه أقبح خلق الله زياً وأنتنه ريحاً فيقول : ابشر بنزل من حميم وتصليه جحيم وانه ليعرف غاسله ويناشد حملته أن يحتبسوه (له بقية ايضاً تأتي في فصل حالته في القبر) .

(١) لا يبعد أن يكون ذلك بلسان الحال أو أنه ينطق وقد حجب الله تعالى أسماعنا عنه كما قد حجبها عن سماع أصوات الملائكة إقامة للنظام

وروي بسند عن جابر الجعفي عن الباقر عليه السلام (١) قال : إذا أراد الله قبض روح الكافر قال : يا ملك الموت انطلق انت وأعوانك إلى عدوي فأني قد ابتليته وأحسنت البلاء ودعوته إلى دار السلام فأبى إلا ان يشتمني على عرشي و كفر بي وبنعمتي فاقبض روحه حتى تكبه في النار فيجيئه بوجه كريه كالح وعيناه كالبرق الخاطف وصوته كالرعد العاصف لونه كقطع الليل المظلم نفسه كلهب النار رأسه في السماء الدنيا ورجل في المشرق ورجل في المغرب ومعه أعوانه خمسمائة ملك معهم سياط من قلب جهنم تلتهب ثم يدخل عليه ملك من خزان جهنم اسمه سحقطائيل فيسقيه شربة من النار لا يزال منها عطشاناً حتى يدخل النار ، فاذا نظر إلى ملك الموت شخص بصره وطار عقله وقال : يا ملك الموت (ارجعون لعلي أعمل صالحاً فيما تركت) قال كلا انها كلمة هو قائلها ، فيقول : يا ملك الموت فالى من أدع مالي وولدي وأهلي وما كنت فيه من الدنيا ، فيقول : دعهم لغيرك واخرج إلى النار فيضربه ضربة بمرزبة لا تبقى منها شعبة إلا أنبتها في عرق منه ومفصل فيسل روحه من قدميه نشطاً فاذا بلغت الركبتين ، أمر اعوانه فأكبوا عليه بالسياط ضرباً فيذيقه سكرات وغمرات الموت قبل خروجها فلو كان له قوة الجن والانس لاشتكى كل عرق منه فاذا بلغت الحلقوم ضربت الملائكة وجهه ودبره وقيل له : (اخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق و كنتم عن آياته تستكبرون) وقوله تعالى : « يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجراً محجوراً » فيقولون : حرام عليكم الجنة .

وقال عليه السلام : تخرج روحه فيضعها ملك الموت بين مطرقة وسندان فيفضخ أطراف أنامله وآخر ما يشدخ منه العينان فيخرج منه ريح منتن يتأذى منه اهل السماء ويقولون : لعنة الله عليها من روح كافرة منتنة خرجت من الدنيا ويلعنه

(١) في دار السلام ج ٤ ص ٧٢

الله ويلعنه اللاعنون فاذا أوتي بروحه إلى السماء الدنيا اغلقت عنه أبواب السماء وذلك قوله تعالى : « لا تفتح لهم ابواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط وكذلك نجزي المجرمين » ثم يقول الله تعالى : ردوها عليه ، فمنها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها اخرجهم تارة اخرى فاذا حمل سريره (فيما تراه العيون ظاهراً) حملت نعشه الشياطين ، فاذا انتهوا به إلى قبره قالت كل بقعة من الأرض اللهم لا تجعله في بطني حتى يوضع فى الحفرة التي قضاها الله له ، وللخبر بقية تأتي ايضاً في حالة القبر .

وفي عقائد الصدوق قيل لأمير المؤمنين عليه السلام : صف لنا الموت ، فقال عليه السلام : على الخبير سقطتم ، هو أحد امور ثلاثة يرد عليه إما بشارة بنعيم الأبد ، وإما بشارة بعذاب الأبد ، وإما تخويف وتهويل وأمر مبهم لا يدري من أي الفرق هو ، إما ولينا والمطيع لأمرنا فهو المبشر بنعيم الأبد ، وإما عدونا والمخالف لأمرنا فهو المبشر بعذاب الأبد ، وإما المبهم امره الذي لا يدرى ما حاله فهو المؤمن المسرف على نفسه لا يدري ما يؤل اليه حاله يأتيه الخبر مبهما مخوفاً لن يشوبه الله بأعدائنا ، ولكن يخرجه من النار بشفاعتنا ، فاعملوا وأطيعوا ولا تتكلوا ولا تستصغروا عقوبة الله ، فان من المسرفين من لا تلحقه شفاعتنا إلا بعد عذاب الله بثلاثمائة الف سنة .

وسئل الحسن بن علي عليه السلام ما الموت الذي جهلوه ؟ فقال : اعظم سرور يرد على المؤمنين ، إذ نقلوا عن دار النكد إلى نعيم الأبد ، واعظم ثبور يرد على الكافرين ، إذ نقلوا من جنتهم إلى نار لا تبيد ولا تنفد (١) .

وقيل لعلي بن الحسين عليه السلام : ما الموت ؟ قال عليه السلام : للمؤمن كنزع ثياب

(١) لعله يشير (ع) إلى أن الجنة كانت لهم ويستحقونها لو انهم عملوا لها لكنهم نقل استحقاقهم بكفرهم إلى النار أو المراد من جنتهم الدنيا كما هو الظاهر

وسخة قملة ، اوفك قيود وأغلال ثقيلة ، والاستبدال بأفخر الثياب وأطيبها روائح وأوطأ المراكب ، وآنس المنازل ، وللكافر كخلع ثياب فاخرة ، والنقل عن منازل انيسة ، والاستبدال بأوسخ الثياب وأخشنها ، وأوحش المنازل واعظم العذاب .

وقيل للصادق ﷺ : صف لنا الموت ، قال ﷺ : هو للمؤمن كأطيب ريح يشمه فينعش لطيبه فينقطع التعب والألم كله عنه ، وللكافر كلسع الأفاعي ولدغ العقارب ، واشد من ذلك .

فقيل له : فمالنا نرى كافراً يسهل عليه النزع فينطفي وهو يتحدث ويضحك ويتكلم ، وفي المؤمنين من يكون كذلك ، ونرى في المؤمنين والكافرين من يقاسي عند سكرات الموت هذه الشدائد ، فقال ﷺ : ما كان من راحة للمؤمن فهو من عاجل ثوابه ، وما كان من شدة فهو تمحيصه من ذنوبه ليرد إلى الآخرة نقياً طاهراً نظيفاً مستحقاً لثواب الله تعالى ليس له مانع دونه ، وما كان هناك من سهولة على الكافرين فليستوفوا اجر حسناتهم في الدنيا (١) ليردوا إلى الآخرة وليس لهم إلا ما يوجب عليهم العذاب ، وما كان من شدة على الكافرين فهو ابتداء عقاب الله عند نفاد حسناته ، ذلك بأن الله عز وجل عدل لا يجور .

وعنه (ع) جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله مالي لا احب الموت ، فقال ﷺ : ألك مال ؟ قال : نعم ، قال : قدمته أمامك ، قال : لا ، قال : فمن ثم لا تحب الموت .

وجاء رجل إلى ابي ذر وقال : مالنا نكره الموت ؟ فقال : لأنكم عمرتم الدنيا وخربتم الآخرة فتكرهون ان تنقلوا من عمران إلى خراب .

وقيل له : كيف ترى قدومنا على الله تعالى ؟ فقال : اما المحسن فكالغائب

---

(١) لقوله تعالى : إن الله لا يضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى ، وحيث أن الكافر لا تقبله الجنة فيجزى على أعماله الحسنة بالتخفيف عليه عند الموت

يقدم على اهله ، واما المسيء فكالآبق يقدم على مولاه وهو منه خائف .

وقيل له : وكيف ترى حالنا عند الله تعالى ؟ قال : اعرضوا اعمالكم على كتاب الله فانه قال : « إن الأبرار لفي نعيم وان الفجار لفي جحيم » قال رجل : فأين رحمة الله قال : إن رحمة الله قريب من المحسنين .

ومثله قد روي عن النبي ﷺ غير ان في اوله يا رسول الله أليس الموت حق ؟ قال ﷺ : نعم ، قيل له : فما لنا نكره الحق ؟ قال ﷺ : لأنكم عمرتم الدنيا وخربتم الآخرة ... الخ .

حضور أمير المؤمنين عليه السلام

عند الميت في احتضاره

فانه من الأمور التي اجمعت كلمة الامامية عليه إضافة إلى تواتر الأخبار به عن الأئمة الصادقين (ع) وقد جاء عنه (ع) نفسه انه قال للحارث الهمداني (رض) :

يا حار همدان من يمت يرني — من مؤمن او منافق قبلا
يعرفني طرفه وأعرفه — بعينه واسمه وما فعلا

رؤية المحتضرين

رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام

في الكافي بسنده إلى ابي بصير قال : قال ابو عبدالله (ع) : إذا حيل بينه وبين الكلام اتاه رسول الله ﷺ ومن شاء الله اي امير المؤمنين (بقرينة الأخبار

الصريحة الآتية) فجلس رسول الله ﷺ عن يمينه والآخر عن يساره فيقول له رسول الله ﷺ إما ما كنت ترجو فهو ذا أمامك ، وإما ما كنت تخاف منه فقد امنت منه ثم يفتح له باب إلى الجنة فيقول : هذا منزلك في الجنة ، فان شئت رددناك إلى الدنيا ولك فيها ذهب وفضة ، فيقول : لاحاجة لي في الدنيا فعند ذلك يبيض لونه ويرشح جبينه وتتقلص شفتاه وينتشر منخراه وتدمع عينه اليسرى فأي هذه العلامات رأيت فاكتف بها .

قال الحسن بن سليمان الحلي عن الصدوق باسناده عن الصادق (ع) انه قال من احب لقاء الله احب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه ، فقال اصحابه : هلكنا يابن رسول الله ، فانا لا نحب الموت ، فقال (ع) : ذاك عند معاينة رسول الله ﷺ وامير المؤمنين (ع) ما من ميت يموت إلا وحضره محمد ﷺ وعلي (ع) فاذا رآهما المؤمن استبشر وسر فيقوم النبي ﷺ لينصرف فيقول : إلى اين وقد كنت اغنى ان اراكما ، فيقول ﷺ : أتحب ان ترافقنا ؟ فيقول : نعم فيوصي به ملك الموت ويخبره انه محب لهما ، فهذا يرضى لقاء الله وأحبه والله تعالى يحب لقاءه (هذه إيضاحات معادن العلم واهل بيت الوحي لما تشابه على الأمة معناه واشكل إفهامهم على مغزاه) .

وعن العسكري (ع) في تفسيره ان المؤمن الموالي لمحمد وآله الطاهرين المطيع لهم بأمور الدين إذا حضره من امر الله ما لا يرد ونزل به من قضائه ما لا يصد ، وحضر ملك الموت وأعوانه وجد عند رأسه محمداً رسول الله ﷺ ومن جانب آخر علياً سيد الوصيين (ع) وعند رجليه من جانب الحسن (ع) سبط سيد النبيين ، ومن جانب الآخر الحسين (ع) سيد الشهداء وحواليه بعدهم خيار خواصهم ومحبيهم الذين هم سادة هذه الأمة بعد ساداتهم من آل محمد ﷺ ينظر العليل المؤمن اليهم فيخاطبهم بحيث يحجب الله صوته عن آذان حاضريه كما يحجب

رؤيتنا عن أعينهم ليكون إيمانهم بذلك أعظم ثواباً لشدة المحنة عليهم فيقول المؤمن : بأبي انت وأمي يا رسول رب العزة بأبي انت وأمي يا وصي رسول رب الرحمة بأبي انتما وأمي يا شبلي محمد ﷺ يا سيدي شباب اهل الجنة مرحباً بكم معاشر خيار أصحاب محمد وعلي وولديه ما كان أعظم شوقي اليكم ، وما أشد سروري الآن بلقائكم يا رسول الله هذا ملك الموت قد حضرني ولا أشك بجلالتي في صدره لمكانك ومكان اخيك ، فيقول ﷺ هو كذلك ثم يقبل رسول الله على ملك الموت فيقول : ياملك الموت استوص بوصية الله في الاحسان إلى مولانا وخادمنا ومحبنا ومؤثرنا فيقول له ملك الموت : يا رسول الله مره ان ينظر إلى ما أعده الله له في الجنان ، فيقول له رسول الله : انظر إلى العلو فينظر إلى ما لا يحيط به الألباب ، ولا يأتي عليه العدد والحساب فيقول ملك الموت : كيف لا ارفق بمن ذلك ثوابه وهذا محمد وأعزته زواره يا رسول الله لولا ان الله جعل الموت عقبة لا يصل إلى ملك الجنان إلا من قطعها لما تناولت روحه ، ولكن لخادمك ومحبك هذا أسوة بك وبسائر انبياء الله ورسله وأوليائه الذين أذيقوا الموت بحكم الله تعالى ، ثم يقول محمد ﷺ : يا ملك الموت هاك أخانا قد سلمناه اليك فاستوص به خيراً ، ثم يرتفع هو ومن معه إلى روض الجنان وقد كشف الغطاء والحجاب عن عين ذلك المؤمن العليل فيراهم هناك بعدما كانوا حول فراشه

مأثرة أخرى لاثبات ذلك

ذكر العياشي في تفسيره عن ابي حمزة الثمالي قال : قلت لأبي جعفر ؑ : ما يصنع بأحدنا عند الموت ؟ قال (ع) : أما والله يا ابا حمزة ما بين احدكم وبين ان يرى مكانه من الله ومكانه منا ، إلا ان يبلغ نفسه ههنا ، وأومأ بيده إلى نحره

ألا ابشرك يا ابا حمزة ؟ فقلت : بلى جعلت فداك ، فقال : إذا كان ذاك أتاه رسول الله ﷺ وعلي (ع) معه يقعد عند رأسه ، فقال له رسول الله : أما تعرفني أنا رسول الله هلم الينا فما أمامك خير لك مما خلفت ، اما ما كنت تخاف منه فقد أمنته ، واما ما كنت ترجوه ، فقد هجمت عليه ايتها الروح اخرجي إلى روح الله ورضوانه ، ويقول له علي (ع) مثل ذلك ، ثم قال : يا ابا حمزة ألا اخبرك بذلك من كتاب الله عز وجل « الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم » (١) . وقد مضى تفسيرها مفصلا .

ظاهرة أخرى

ذكر علي بن ابراهيم في تفسيره بسنده إلى ابي عبدالله (ع) قال : مايموت موال لنا ومبغض لأعدائنا إلا ويحضره رسول الله ﷺ وامير المؤمنين (ع) والحسن (ع) والحسين (ع) فيرونهم ويبشرونهم ، وإن كان غير موال لنا يراهم بحيث يسوؤه ، والدليل على ذلك قول امير المؤمنين (ع) : يا حار همدان ...الخ

دليل آخر

في العلل بسنده عن يحيى بن صابور قال : سمعت ابا عبدالله (ع) يقول في الميت : تدمع عينه عند الموت ، فقال : ذلك عند معاينة رسول الله ﷺ يرى ما يسره ، ثم قال (٢) : أما ترى الرجل إذا رأى ما يسره فتدمع عينه ويضحك

(١) سورة يونس الآية ٦٥ (٢) لايضاح ان الدموع قد تكون علامة السرور

وقال الصدوق في الخصال : قال امير المؤمنين (ع) : تمسكوا بما امركم الله به فما بين احدكم وبين ان يغتبط ويرى ما يحب ، إلا ان يحضره رسول الله ﷺ وما عند الله خير وأبقى ، وتأتيه البشارة من الله عز وجل فتقر عينه ويحب لقاء الله تعالى عند ذلك .

وذكر البرقي في المحاسن عن ابي يعفور قال : قال لي ابو عبدالله (ع) : قد استحييت مما أردد هذا الكلام عليكم ما بين احدكم وبين ان يغتبط ، إلا ان يبلغ نفسه هذه وأهوى بيده إلى حنجرته ، يأتيه رسول الله ﷺ وعلي (ع) يقولان له : اما ما كنت تخاف فقد آمنك الله منه ، وما كنت ترجو فأمامك .

وذكر الصدوق في الأمالي بسنده عن الحارث الأعور قال : اتيت امير المؤمنين (ع) ذات ليلة فقال : يا اعور ما جاء بك ؟ فقلت : يا امير المؤمنين حبك والله جاء بي ، قال (ع) : أما اني سأحدثك بشكرها . أما انه لا يموت عبد يحبني فيخرج نفسه حتى يراني حيث يحب ، ولا يموت عبد يبغضني فيخرج نفسه حتى يراني حيث يكره .

ايضاح آخر منهم (ع)

ذكر الشيخ الكشي في رجاله عن العياشي بسنده عن سعيد بن بشار انه حضر عند احد ابني سابور ، وكان لهما ورع واخبات فمرض أحدهما ولا احسبه إلا زكريا (١) قال : فحضرته عند موته ، قال : فبسط يده ثم قال : ابيضت يدي يا علي ، قال : فدخلت على ابي عبدالله (ع) وعنده محمد بن مسلم فلما قمت من عنده ظننت ان محمد بن مسلم أخبره بخبر الرجل ، فاتبعني برسول فرجعت اليه

(١) التردد من الراوي

فقال : اخبرني خبر الرجل الذي حضرته عند الموت ، أي شيء سمعته يقول ؟ قلت : بسط يده ، فقال : ابيضت يدي يا علي فقال ابو عبدالله (ع) رآه والله رآه والله رآه والله .

انارة مشهورة

ذكر الشيخ الطوسي في أماليه عن جماعة بسنده عن الحسين بن عون قال : دخلت على السيد الحميري عائداً له في علته التي مات فيها فوجدته يساق به ووجدت عنده جماعة من جيرانه ، وكانوا عثمانية ، وكان السيد جميل الوجه فبدت نكتة سوداء في وجهه مثل النقطة ، ثم لم تزل تزيد وتنمو حتى طبقت وجهه بسوادها فاغتم لذلك من حضره من الشيعة ، وظهر السرور والشماتة على وجوه الناصبة ، فلم يلبث بذلك إلا قليلا حتى بدت في مكانها لمعة بيضاء ، فلم تزل تزيد ايضاً وتنمو حتى أسفر وجهه وأشرق وافتر السيد ضاحكا وأنشأ يقول شعراً :

كذب الزاعمون ان علياً لم ينجي محبه من هنات
قد وربي دخلت جنة عدن وعفا لي الاله من سيئاتي
فابشروا اليوم اولياء علي وتولوا الوصي حتى الممات
ثم من بعـده تولوا بنيه واحداً بعد واحد بالصفات

ثم اتبع قوله هذا أشهد ان لا إله إلا الله ، ثم أغمض عينيه لنفسه فكأنما روحه ذبال طفيت او حصاة سقطت ، قال : وكان أذينة حاضراً فقال : الله اكبر ما من شهد كمن لم يشهد اخبرني وإلا صمتا الفضيل بن يسار عن ابي جعفر (ع) وعن جعفر (ع) انهما قالا حرام على روح تفارق جسدها حتى ترى الخمسة محمداً وعلياً وفاطمة وحسناً وحسيناً بحيث تقر عينها او تسخن عينها ، فانتشر هـــذا

الحديث في الناس فشهد جنازته والله الموافق والمفارق ، وزاد بعد قوله بالصفات انه قال شعراً :

أحب الذي من مات من اهل وده تلقاه بالبشرى لدى الموت يضحك
ومن كان يهوى غيره من عدوه فليس له إلا إلى النار مسلك

بشارة أخرى للموالين

ذكر الطبري في بشارة المصطفى بسنده عن ابي الجارود عن ابي جعفر عن آبائه عليهم السلام عن النبي ﷺ قال : والذي نفسي بيده لا تفارق روح جسد صاحبها حتى تأكل من ثمار الجنة او من شجرة الزقوم ، وحين ترى ملك الموت تراني وعلياً وفاطمة والحسن والحسين ، فان كان يحبنا قلت : ياملك الموت ارفق به انه كان يحبني ويحب اهل بيتي ، وإن كان يبغضنا قلت : ياملك الموت شدد عليه انه كان يبغضني (١) ويبغض اهل بيتي .

وقال ﷺ : يا علي ان فيك مثلا من عيسى بن مريم (ع) قال تعالى : « وان من اهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً » يا علي لا يموت رجل يفتري على عيسى حتى يؤمن به قبل موته ويقول فيه الحق حيث لا ينفعه ذلك ، وانك على مثله لا يموت عدوك حتى يراك عند الموت فتكون عليه غيظاً وحزناً حتى يقر بالحق من امرك ويقول فيك بالحق ويقر بولايتك ، حيث لا ينفعه ذلك ، واما وليك فانه يراك عند الموت فتكون له شفيعاً ومبشراً وقرة عين .

(١) لأن حبه (ص) وحب أهل بيته متلازمان كما ان بغض اهل بيته مع بغضه متلازمان بشهادة الأحاديث المتواترة عنه (ص) .

حتمية الموت

قال الحسين (ع) في خطبته عندما اراد التوجه إلى العراق لنصرة دين جده والانتقام ممن رام هدم عروشه : « خط الموت على ولد آدم مخط القلادة على جيد الفتاة لا محيص عن يوم خط بالقلم » ومن مظاهر حتمية الموت انه لا يشك فيه احد مهما كانت عقيدته ، وحتى منكر الخالق والبعث والنشور ، وحتى الحذاق من الأطباء قد اعترفوا بأن الموت إذا حل لا يجدي في دفعه اي دواء ، ولا في صده اي علاج ، وفوق ذلك كله قول الله عز وجل : « فاذا جاء اجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » (١) ، وقوله تعالى : « لكل أمة اجل إذا جاء اجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » (٢) ، وقوله تعالى : « ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ولـكن يؤخرهم إلى اجل مسمى فاذا جاء اجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » (٣) ، « قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون » (٤) .

فماذا ترى بعد هذا الحتم والجزم أفهل يبق لانسان امل او وهم وخيال في دفع محتم اجله وتمديد بقائه وعمره ، وقد وكل الله تعالى به ملائكة يضبطون عليه انفاسه فضلا عن ساعاته وايامه ، وحتى ورد ان ملك الموت يدخل البيوت في كل يوم خمس مرات .

فعن الصادق (ع) (٥) قال : دخل رسول الله ﷺ على رجل من

(١) سورة الأعراف الآية ٣٣ . (٢) سورة يونس الآية ٥٠ .
(٣) سورة النحل الآية ٦٤ . (٤) سورة سبأ الآية ٣٠ .
(٥) في كتاب عيون أخبار الرضا (ع) ص ٢٩٧ وأنوار النعمانية ج ٤ ص ٢١٤

اصحابه وهو يجود بنفسه فقال : ياملك الموت ارفق بصاحبي فانه مؤمن ، فقال : ابشر يامحمد فاني بكل مؤمن رفيق ، واعلم يامحمد إني اقبض روح ابن آدم فيجزع اهله فأقوم في ناحية دارهم فأقول : ما هذا الجزع ، فوالله ما تعجلناه قبل اجله وما كان لنا في قبضه من ذنب ، فان تحتسبوه وتصبروا تؤجروا ، وان تجزعوا تأثموا وتأزروا ، واعلموا ان لنا فيكم عودة ثم عودة فالحذر الحذر انه ليس في شرقها ولا غربها اهل بيت مدر ولا وبر ، إلا وأنا اتصفحهم في كل يوم خمس مرات ، ولأنا أعلم بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم ولوأردت قبض روح بعوضة ما قدرت عليها حتى يأمرني ربي بها فقال رسول الله ﷺ : إنما يتصفحهم في مواقيت الصلاة ، فان كان ممن يواظب عليها عند مواقيتها لقنه شهادة ان لا إله إلا الله وان محمداً رسول الله ونحى عنه إبليس .

ويستفاد من هذا الحديث ان البعوضة وغيرها من ذوات الأرواح لاتموت إلا ان يكون ملك الموت هو الذي يقبض ارواحها باذن الله تعالى ، كما يقبض ارواح بني آدم وانها منوطة ايضاً بآجالها .

تنبيه وتحذير

قال تعالى : « قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم قالوا ابصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون » (١) .

عن ابن عباس قال : جعلت الدنيا بين يدي ملك الموت مثل جام يأخذ منها ما شاء إذا قضى عليه الموت من غير عناء ، وخطوته ما بين المشرق والمغرب .

(١) سورة السجدة الآية ١٣

وقيل : إن له اعواناً كثيرة من ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فعلى هذا يكون المراد بملك الموت في الآية الجنس ، ويدل على هذا القول قوله : « حتى إذا جاء احدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون » (١) ، وقوله تعالى : « الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي انفسهم » (٢) .

واما إضافة التوفي إلى نفسه سبحانه وتعالى في قوله : « الله يتوفى الأنفس حين موتها » (٣) ، فلأنه تعالى خالق الموت ولا يقدر عليه احد سواه ، ولأنه العلة الأولى والملائكة ، إنما يقبضون الأرواح بأمره تعالى ، فهم اشبه بالسبب والآلة فاذا اسند الموت اليهم يكون على جهة المجاز وعرضاً لا ذاتاً .

وقال رسول الله ﷺ : الأمراض والأوجاع كلها بريد الموت ورسل الموت ، فاذا حان الأجل اتى ملك الموت بنفسه فقال : يا ايها العبد كم خبر بعد خبر وكم رسول بعد رسول وكم بريد بعد بريد ، أنا الخبر الذي ليس بعدي خبر ، وانا الرسول اجب ربك طائعاً او مكرهاً ، فاذا قبض روحه وتصارخوا عليه ، قال : علىم تصرخون وعلى م تبكون ، فوالله ما ظلمت له اجلا ولا اكلت له رزقاً ، بل دعاه ربه فليبك الباكي على نفسه فان لي فيكم عودات وعودات حتى لا ابقي منكم احداً .

ولهذا قال امير المؤمنين (ع) : كم من غافل ينسج ثوباً ليلبسه وانما هو كفنه ويبني بيتاً ليسكنه وانما هو موضع قبره ، وفي خبر آخر وقد صنع لبن لحده

ومن الأحاديث القدسية في ذلك قال تعالى : يابن آدم كل يوم ينقص من عمرك وانت لا تدري وكل يوم يأتيك رزقك وانت لا تحمد فلا بالقليل تقنع ولا بالكثير تشبع .

(١) سورة الأنعام الآية ٦٢ .　　(٢) سورة النحل الآية ٣١ .

(٣) سورة الزمر الآية ٤٤

يابن آدم إذا افنيت عمرك في طلب الدنيا ، فمتى تطلب الجنة .

يابن آدم من اصبح حريصاً على الدنيا لم يزدد من الله إلا بعداً . وفي الدنيا إلا كدا ، وفي الآخرة إلا جهداً ، وألزم الله على قلبه هماً لا ينقطع عنه ابداً ، وفقراً لاينال غناه ابداً ، وإقلالاً لايبلغ مناه ابداً . يابن آدم ما خلقتكم لأستكثر بكم ، ولا لآنس بكم من وحشة ، ولا لأستعينكم على امر عجزت عنه ، ولا لجلب منفعة ، ولا لدفع مضرة ، بل خلقتكم لتعبدون طويلا وتشكرون جزيلا وتسبحون بكرة وأصيلا ، ولو ان اولكم وآخركم وحيكم وميتكم وصغيركم وكبيركم وحركم وعبيدكم وإنسكم وجنكم اجتمعتم على طاعتي لما زاد في ملكي مثقال ذرة ، ولو اجتمعتم على معصيتي ما نقص ذلك في ملكي مثقال ذرة ، فكل شيء هالك إلا وجهه ولو خفتم من النار كما خفتم من الفقر لأغنيتكم من حيث لا تحتسبون ، ولو رغبتم في الجنة كما ترغبون في الدنيا ، لأسعدتكم في الدارين ، ولا تميتوا قلوبكم في الدنيا فان زوالها قريب .

يابن آدم من لم يبال من اين يأكل لم ابال من اي باب ادخله النار ، ومن لم يكن في الزيادة في دينه فهو في نقصان ، ومن كان في النقصان فالموت خير له ، ومن عمل بما علم زدته علماً إلى علم ، ومن طال امله لم يخلص عمله .

يابن آدم اذكر نعمتي التي أنعمت عليكم ، فكما لا تهتدون السبيل إلا بالدليل فكذلك لا تهتدون طريق الجنة إلا بالعلم ، وكما لا تجمعون المال إلا بالتعب ، فكذلك لا تدخلون الجنة إلا بالصبر على العبادة ، فتقربوا إلي بالنوافل واطلبوا رضائي برضاء المساكين ، فان رضائي لا يفارقهم طرفة عين .

يا عبيد الدنيا والدرهم إني ما خلقت لكم الدنيا إلا لتأكلوا فيها رزقي وتلبسوا فيها ثيابي وتغرسوا فيها علمي ، فأخذتم كتابي فجعلتموه تحت اقدامكم واخذتم الدنيا وجعلتموها فوق رؤوسكم فرفعتم بيوتكم وخفضتم بيوتي وآنستم

بيوتكم وأوحشتم بيوتي .

يا عبيد الدنيا إنما مثلكم كالقبور المجصصة يرى ظاهرها مليحاً وباطنها قبيحاً ، وانكم لم تنالوا ما عندي إلا بالصبر على ما تكرهون في طلب رضائي ، والصبر على طاعتي أيسر عليكم من حر النار وعذاب الدنيا ايسر عليكم من عذاب الآخرة ، إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله والذين يحسنون إلى من اساء اليهم ويصلون من قطعهم ، ويعطون من حرمهم ، وأنصفوا من خانهم ، وكلموا من هاجرهم واكرموا من أهانهم .

يابن آدم ارفق بنفسك في طلب الرزق ، فان الرزق مقسوم ، والحريص محروم ، والبخيل مذموم ، والنعمة لا تدوم ، والأجل معلوم ، وخير الحكمة خشية الله ، وخير الغنى القناعة ، وخير الزاد التقوى .

يابن آدم لا يدخل جنتي إلا من تواضع لعظمتي ، وقطع نهاره بذكري ، وكف نفسه عن الشبهات من اجلي ، يؤاخي الغريب ، ويواسي الفقير ، ويرحم المصاب ، ويكرم اليتيم ، ويكون له كالأب الرحيم ، وللأرامل كالزوج الشفيق ، فمن كانت هذه صفاته إن دعاني لبيته ، وإن سألني اعطيته .

يابن آدم اعمل بما امرتك ، وانته عما نهيتك ، اجعلك حياً لا تموت .

في الترغيب منه تعالى على العمل
قبل حلول الأجل

قال تعالى في خطاب ابن آدم : وأخر نومك إلى القبور ، ونحرك إلى الميزان ، ولذاتك إلى الجنة ، وكن لي اكن لك ، وتقرب إلي بالاستهانة بالدنيا ، تبعد عن النار .

يابن آدم ليس من انكسر مركبه وبقي على لوح في وسط البحر بأعظم مصيبة منك ، لأنك من ذنوبك على يقين ، ومن عملك على خطر .

أوحى الله إلى عيسى بن مريم ياعيسى إنك تفنى وأنا أبقى ، ومني رزقك وعندي ميقات اجلك وإلي إيابك وعلي حسابك فاسألني ولا تسأل غيري فيحسن منك الدعاء ومني الاجابة .

يا عيسى ما أكثر البشر وأقل عدد من صبر ، الأشجار كثيرة وطيبها قليل فلا يغرنك حسن شجرة حتى تذوق ثمرتها .

يا عيسى لا يغرنك المتمرد علي بالعصيان ، يأكل رزقي ويعبد غيري ، ثم يدعوني عند الكرب فأجيبه ، ثم يرجع إلى ما كان أفعلي يتمرد ؟ أم لسخطي يتعرض ؟ في حلفت لآخذنه أخذة ليس له منها منجاً ، ولا دوني ملجأ ، اين يهرب من سمائي وأرضي .

يا عيسى تب إلي من ذنبك ، فانه لا يتعاظمني ذنب ان اغفره وأنا ارحم الراحمين .

يا عيسى لا تحلف باسمي كاذباً فيهتز عرشي غضباً .

يا عيسى قل لظلمة بني إسرائيل كيف انتم صانعون إذا اخرجت لكم كتاباً ينطق بالحق فتنكشف سرائر قد كتمتموها .

يا عيسى قل لظلمة بني إسرائيل غسلتم وجوهكم ، ودنستم قلوبكم ، أبي تغترون أم علي تجرأون ، تتطيبون بالطيب لأهل الدنيا ، وأجوافكم عندي بمنزلة الجيف المنتنة كأنكم أقوام ميتون .

يا عيسى قل لهم قلموا أظفاركم عن كسب الحرام ، وأصموا أسماعكم عن ذكر الخنا ، واقبلوا علي بقلوبكم ، فاني لست اريد صوركم .

يا عيسى هب لي من عينيك الدموع ، ومن قلبك الخشوع ، واكحل

عينيك بميل الحزن إذا ضحك البطالون ، كن خاشعاً صابراً يقظاناً إذا نامت العيون ، حذاراً للمعاد والزلازل الشداد ، وأهوال يوم القيامة يوم لا ينفع مال ولا بنون .

يا عيسى قم على قبور الأموات فنادهم بالصوت الرفيع لعلك تأخذ موعظتك منهم ، وقل إني لاحق في اللاحقين .

يا عيسى وارفع طرفك الكليل إلى السماء وادعني ، فاني منك قريب ولا تدعني إلا متضرعاً وهمك هم واحد ، فانك متى تدعني أجبتك .

يا عيسى لا خير في لذاذة لا تدوم ، وعيش من صاحبه يزول .

يا عيسى لورأت عيناك ما أعددت لأوليائي الصالحين لذاب قلبك وزهقت نفسك شوقاً اليه ، فليس كدار الآخرة دار تجاوز فيها الطيبون ، ويدخل عليهم الملائكة المقربون ، دار لا يتغير فيها النعيم ولا يزول .

يا عيسى اهرب إلي مع من يهرب من نار ذات لهب ، ونار ذات أغلال وانكال لا يدخلها روح ولا يخرج منها غم أبداً ، قطع كقطع الليل المظلم ، ولن ينجو منها من كان من الهالكين ، هي دار الجبارين والعتاة الظالمين وكل فظ غليظ وكل مختال فخور .

يا عيسى لا تأمن إذا مكرت مكري ولا تنس عند خلواتك بالذنب ذكري

يا عيسى إني إن غضبت عليك لم ينفعك رضا من رضي عنك وإن رضيت عنك لم يضرك غضب الغاضبين عليك .

يا عيسى ادعني دعاء الغريق الذي ليس له مغيث ، وادعني وانت لي محب فاني أسمع السامعين أستجيب للداعين إذا دعوني .

يا عيسى أنا لا انسى من ينساني ، فكيف انسى من ذكرني ، أنا لا ابخل على من عصاني ، فكيف ابخل على من يطيعني .

يا عيسى أحي ذكري في لسانك ، واسكن ودي في قلبك .

يا عيسى إذا انعمت عليك نعمة فاستقبلها بالاستكانة أتممها عليك .

في التذكير منه تعالى لعباده

أوحى الله إلى موسى عليه السلام في التوراة من لم يرض بقضائي ولم يصبر على بلائي ولم يشكر نعمائي فليطلب رباً سواي ، من اصبح حزيناً على الدنيا فكأنما اصبح ساخطاً علي ، من تواضع لغني لأجل غناه ذهب ثلثا دينه ، وفي نسخة اخرى من تواضع لغني بلسانه ذهب ثلث دينه ، ومن تواضع لغني بلسانه وجوارحه ذهب ثلثا دينه ومن تواضع لغني بلسانه وجوارحه وقلبه ذهب دينه كله

يابن آدم ما من يوم جديد إلا ويأتي اليك من عندي رزقك ، وما من ليلة جديدة إلا وتأتي الملائكة إلي بعمل قبيح من عندك ، خيري اليك نازل وشرك إلي صاعد .

يا بني آدم زارعوني وعاملوني اسلفوني اربحكم عندي ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

ومن وصية السجاد عليه السلام للحسن البصري

يا حسن أطع من أحسن اليك وإن لم تطعه فلا تعص له أمراً وان عصيته فلا تأكل له رزقاً ، وان عصيته واكلت رزقه وسكنت داره فأعدّ له جواباً وليكن صواباً .

وسئل امير المؤمنين عليه السلام يوماً من الأيام ، ما الاستعداد للموت ؟ فقال :

أداء الفرائض واجتناب المحارم والاشتمال على المكارم ، ثم لا يبالي إن وقع على الموت او وقع الموت عليه .

وقال النبي ﷺ في بعض خطبه في التحذير عن فجأة الموت وعدم الاستعداد ، ايها الناس الأيام تطوى والأعمار تفنى والأبدان في الثرى تبلى وإن الليل والنهار يتراكضان تراكض البريد ويقربان كل بعيد ويخلقان كل جديد وفي ذلك عباد الله ما ألهى عن الشهوات ورغب في الباقيات الصالحات .

أي ان الذي ذكرناه من وصف الليل والنهار فيه كفاية للانصراف عن الشهوات وغرور الدنيا والاقبال على الصالحات ومتاع الآخرة .

ومن كلمات أمير المؤمنين عليه السلام القصار

مسكين يابن آدم انت مشغول في بطنك ، إن ملأتها فضحتك ، وإن أخليتها شنعتك ، فانت دائماً بين فضيحتين .

وصيته عليه السلام لبنيه عند وفاته

حيث لا هدف له إلا رضاه الله ، ولا غاية له إلا إصلاح عباده ، وأن يحصلوا على الزاد ليوم المعاد ، والانقطاع لرب العباد .

قال عليه السلام : يابني اوصيكم بتقوى الله في الغيب والشهادة وكلمة الحق في الرضا والغضب والقصد في الغنى والفقر والعدل في الصديق والعدو والعمل في النشاط والكسل والرضا عن الله في الشدة والرخاء .

يا بني ما شر بعده الجنة بشر ، وما خير بعده النار بخير ، وكل نعيم دون

الجنة حقير ، وكل بلاء دون النار عافية .

يا بني من أبصر عيب نفسه اشتغل عن عيب غيره ، ومن رضي بما قسم الله له لم يحزن على ما فاته ، ومن سل سيف البغي قتل به ، ومن حفر لأخيه بئراً وقع فيها ، ومن هتك حجاب اخيه هتكت عورات بنيه ، ومن نسي خطيئته استعظم خطيئة غيره ، ومن اعجب برأيه ضل ، ومن استغنى بعقله زل ، ومن تكبر على الناس ذل ، ومن خالط الأنذال احتقر ، ومن دخل مداخل السوء اتهم ومن جالس العلماء وقر ، ومن قل حياؤه قل ورعه ، ومن قل ورعه مات قلبه ، ومن مات قلبه دخل النار .

يا بني الأدب ميزان الرجل ، وحسن الخلق خير قرين .

يا بني العافية عشرة أجزاء تسعة منها في الصمت إلا عن ذكر الله عز وجل وواحدة في ترك مجالسة السفهاء .

يا بني زينة الفقر الصبر ، وزينة الغنى الشكر .

يا بني لا شرف اعلى من الاسلام ، ولا كرم اعز من التقوى ، ولا شفيع انفع من التوبة ، ولا لباس اجمل من العافية .

يا بني الحرص مفتاح التعب ومطية النصب .

فتراه يجري سلام الله عليه على مقتضى العادة ودافع الطبيعة الموجودين عند عامة البشر من ان المحتضر حيث قد علم فعلية الانتقال ومفارقة الأهل والأموال فيبادر إلى الوصية بأعز الأشياء عليه وتقسيم ما هو لديه من مدخراته وأغلى مكنوناته من ذهب وفضة ومتاع ؛ ويخص به بالذات اولاده ثم الأقرب فالأقرب والأحب فالأحب ، وحيث انه ﷺ لا شيء عنده اغلى من تقوى الله ولا اثمن من الحصول على رضاه ، كما انه ﷺ يرى ان لا شيء انفع للبشر من التحلي بمكارم الأخلاق وأداء حقوق الناس وحسن معاشرتهم والتخلي عن

رذائل الصفات كالعجب والكبر والخيانة والغدر إلى آخر ما تضمنته وصيته الحكمية ، فهو عليه السلام يجعل الذخيرة لأولاده وأفذاذ كبده ، عند حضور وفاته جوهريات الأمور واللباب دون القشور ، لأنه عليه السلام هو الجوهر والجوهر لا يأنس إلا بالجوهر .

الانذار وقاطع الاعذار

قال الله تعالى: « اينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة »(١) وقال تعالى : « أفأمنوا ان تأتيهم غاشية من عذاب الله او تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون » (٢) ، وقال تعالى : « أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون » (٣) .

قيل في تفسيره : إنه تعالى يعني بالبروج القصور .

وقيل : يعني البيوت التي تكون فوق الحصون .

وقيل : هي الحصون والقلاع نفسها .

وقيل : بروج السماء ، ويشهد لهذا القول ما رواه في الكافي بسنده عن ابي جعفر عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : أخبرني جبرئيل ان ملكا من ملائكة الله كانت له عند الله منزلة عظيمة فتعتب عليه فأهبطه من السماء إلى الأرض فأتى إدريس عليه السلام فقال : إن لك من الله منزلة فاشفع لي عند ربك ، فصلى إدريس ثلاث ليال لا يفتر وصام أيامها لا يفطر ثم طلب إلى الله تعالى في السحر (أي الشفاعة) في الملك فقال له الملك : إنك قد أعطيت سؤلك وقد أطلق لي جناحي

(١) سورة النساء الآية ٧٨ . (٢) سورة يوسف الآية ١٠٧ .
(٣) سورة يوسف الآية ١٠٠ .

وأنا احب ان اكافيك فاطلب إلي حاجة ، قال : تريني ملك الموت لعلي آنس به فانه ليس يهنيني مع ذكره شيء ، فبسط جناحه ثم قال : اركب فصعد به يطلب ملك الموت في السماء الدنيا فقيل له : اصعد فاستقبله بين السماء الرابعة والخامسة فقال الملك : يا ملك الموت ما لي أراك قاطباً ؟ قال : (العجب) اني تحت ظل العرش حيث امرت ان اقبض روح آدمي بين السماء الرابعة والخامسة ، فسمع إدريس بها فامتعض فخر من جناح الملك فقبض روحه مكانه ، وقال الله عزوجل : « ورفعناه مكاناً علياً » فهذا معنى قوله تعالى : ولو كنتم في بروج مشيدة .

ونظيرها ما ذكر في كتاب البراعة في شرح نهج البلاغة ص ٣٤٠ في بيان قوله تعالى : « وما تعلم نفس بأي أرض تموت » .

قال : روى الأعمش عن خثيمة قال : دخل ملك الموت على سليمان بن داود ﷺ فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظر اليه فلما خرج ملك الموت قال الرجل : من هذا ؟ قال : هذا ملك الموت قال : لقد رأيته ينظر إلي كأنه يريدني ، قال ﷺ : فماذا تريد ؟ قال : اريد أن تخلصني منه فتأمر الريح حتى تحملني إلى اقصى الهند ، ففعلت الريح ذلك بعدما امرها سليمان ﷺ ، ثم قال سليمان لملك الموت بعد ان أتاه ثانياً : رأيتك تديم النظر إلى واحد من جلسائي قال : نعم كنت أتعجب منه لأني كنت امرت ان اقبضه بأقصى الهند في ساعة قريبة وكان عندك فتعجبت من ذلك .

والغرض من مجموع هذه الأقوال ان الموت إذا حل بصاحبه لايجديه شيء ولايمنعه مانع كما مر عليك من امر سليمان بن داود ﷺ وانه قد دخل عليه ملك الموت وهو في مقصورته الزجاجية مانعاً لكل أحد من الدخول عليه والجن والانس عاملة بين يديه ناظراً اليهم من وراء الزجاج ويقبض روحه وهو متكىء على عصاه .

فابن آدم من حين ولادته قد ارسلت برقيته إلى موكلي الموت بأن فلاناً قد توجه اليكم وتحرك نحوكم فما هي إلا أيام وإذا به قد حمل على الأكتاف سريره وانقطع عليه عمله كما وقد تبرأ منه أهله وأحباؤه وأسلموه إلى حفرته وأودعوه في ملحودته بعدما استولوا على كل ملكه واقتسموا جميع ذخره .

نداء القبر لابن آدم

في الحديث القدسي يابن آدم ما من يوم جـــديد إلا والأرض تخاطبك (والحفرة تناديك) وتقول : يابن آدم تذنب على ظهري وتعذب في بطني .

يابن آدم أنا بيت الوحدة وأنا بيت الوحشة وأنا بيت الظلمة وأنا بيت الهوان وأنا بيت العقارب والحيات فاعمرني ولا تخربني ، هذا نداء القبر في كل يوم ، واما نداء ساكنيه والأجداث المودعة فيه فهو كما قال الشاعر :

تناجيك أجداث وهن صموت　　وسكانها تحت التراب خفوت

أيا جامع الدنيا لغير بلاغه　　لمن تجمع الدنيا وانت تموت

وأتم مما قال الشاعر قول أمير المؤمنين ﷺ حاكياً لنا عن لسان تلك الأجساد البالية مخبرة عما نالها قال ﷺ : « وهم ينادون ويقولون : كلحت الوجوه النواضر وخوت الأجسام ، النواعم ولبسنا أهدم البلا ، وتكاءدنا ضيق المضجع ، وتوارثتنا الوحشة ، وتهكمت علينا الربوع الصموت ، فانمحت محاسن أجسادنا وتنكرت معارف صورنا ، وطالت في مساكن الوحشة إقامتنا ، ولم نجد من كرب فرجا ، ولا من ضيق متسعا .

وقال رسول الله ﷺ : ما رأيت منظراً فظيعاً ، إلا والقبر أفضع منه ، وهو كما ذكر ﷺ ، لأن الانسان إذا نظر إلى بواطن القبور يرى أبداناً قد

نومت على جانبها الأيمن ، والهوام فيه تجول ، والصديد على خدودها يسيل ، وتخترقها الديدان مع نتن الريح وبلى الأكفان ، بعد حسن الهيئة وطيب الرائحة وتنادي بلسان الحال منبئة عما تنتهى اليه المآل .

يا ايها الناس كان لي أمل قصر عن بلوغه الأجل
فليتق الله ربه رجل امكنه في حياته العمل
ماأنا وحدي نقلت حيث ترى كل إلى مثله سينتقل

وقد انتقل من هذه الدنيا من هو اكرم الخلق على الله تعالى ، بل هو علة الايجاد (محمد ﷺ) ولو كان الخلود في الدنيا ممكناً ، والبقاء فيها جائزاً لكان ﷺ هو المخلد فيها كما قال الشاعر :

ولو كانت الدنيا تدوم بأهلها لكان رسول الله فيها مخلداً

لكن الله تعالى قد خاطبه بقوله : « إنك ميت وانهم ميتون » (١) ، وبقوله تعالى : « أفان مت فهم الخالدون » (٢) .

وهذه أبيات للمحقق الشيخ حسن بن الشهيد (رض) :

ولقد عجبت وماعجبت لكل ذي عين قريرة ووراؤه يوم عظيم فيه تنكشف السريرة
هذا ولو ذكر ابن آدم مايلاقي في الحفيرة لبكى دماً من هول ذلك مدة العمر القصيرة
فاجهد لنفسك في الخلاص فدونه سبل عسيرة

وقال آخر :

يا طويل الرقاد والغفلات كثرة النوم تورث الحسرات
إن في القبر إن نزلت اليه لرقاداً يطول بعد الممات
ومهاداً ممهداً لك فيه بذنوب عملت أو حسنات

(١) سورة الزمر الآية ٣١ . (٢) سورة الأنبياء في ذيل الآية ٣٣ .

وقال آخر :

غيرت موضع مرقدي ليلا ففارقني السكون قل لي فأول ليلتي في حفرتي أنى يكون

قصة غريبة وعبرة عجيبة

في كتاب دار السلام (١) بسنده عن صدقة بن مرداس البكري قال : نظرت إلى ثلاثة قبور على شرف من الأرض مما يلي بلاد طرابلس ، وعلى كل واحد منها شيء مكتوب ، وإذا هي قبور على قدر واحد ، مصطفة بعضها إلى جنب بعض ليس عندها غيرها ، فعجبت منها و نزلت إلى القرية القريبة منها فقلت اشيخ جلست اليه لقد رأيت في قريتكم عجباً ، قال : وما رأيت ؟ فقصصت عليه قصة القبور قال : فحديثهم اعجب مما رأيت ، قلت : فحدثني امرهم ، قال : كانوا ثلاثة اخوة أحدهم امير يصحب السلطان ، ويؤمر على المدائن والجيوش والآخر تاجر مؤسر مطاع في ناحيته ، والآخر زاهد قد تخلى و تفسه وتفرد لعبادة ربه قال : فحضرت اخاهم العابد الوفاة فاجتمع عنده اخواه ، وكان الذي يصحب السلطان قد تولى على بلادنا هذه أمره عليها عبد الملك بن مروان ، وكان في إمرته ظالماً غشوماً فلما حضرا عند اخيهما قالا له : ألا توصي ؟ فقال لهما : لا والله ما لي مال اوصي به ، ولا لي على أحد دين فأوصي به ولا اخلف من الدنيا شيئاً فأسلبه ، فقال له اخوه الأمير : يا اخي قل ما بدا لك وما تشتهيه ان يفعل فهذا ما لي بين يديك فأوصي منه بما احببت وأعهد على نفسي بما شئت لأفعله فسكت عنه ولم يجبه ، فقال اخوه التاجر : يا اخي قد عرفت مكسبي و كثرة مالي فلعل فى قلبك حاجة من الخير لم تبلغها إلا بالاتفاق ، فهذا مالي بين يديك فاحكم فيه بما

(١) ج ٢ ص ١٢٤ .

احببت ينفذه لك اخوك فأقبل عليهما وقال : لا حاجة لي في مالكما ولكن أعهد اليكما عهداً فلا يخالفني فيه احدكما ، فقالا : اعهد ، قال : إذا مت فغسلاني وادفناني على نشز من الأرض واكتبا على قبري :

وكيف يلذ العيش من هو عالم　　بأن إله الخلق لابد سائله

فيأخذ منه ظلمه لعباده　　ويجزيه بالخير الذي هو فاعله

فاذا فعلتما ذلك فأتياني في كل يوم مرة إلى ثلاثة أيام لعلكما تتعظان بي قال : فلما مات فعلا ذلك فكان اخوه الأمير كل يوم يركب في جنده حتى يقف على القبر فينزل فيقرأ عليه ما تيسر ويبكي ، فلما كان في اليوم الثالث جاء على عادته مع جنده فنزل ، فلما اراد ان ينصرف سمع هدة من داخل القبر كاد ان يتصدع لها قلبه ، فانصرف مذعوراً فزعاً فلما كان في الليل رأى اخاه في منامه فقال : يا اخي ما الذي سمعت من قبرك ؟ قال له : تلك المقمعة .

وقيل لي : رأيت مظلوماً فلم تنصره ، قال : فأصبح مهموماً فدعاه اخاه وخاصته وقال : ما أرى اخي اراد بما اوصانا ان نكتبه على قبره غيري واني اشهدكم اني لا اقيم بين اظهركم ، وترك الامارة ولزم العبادة ، فكتب اصحاب عبدالملك بن مروان اليه في ذلك فكتب ان خلوه وما اراد ، قال : فصار يأوي إلى الجبال إلى ان حضرته الوفاة في هذا الجبل وهو مع الرعاة ، فبلغ ذلك اخاه فأتاه وقال : يا اخي ألا توصي ؟ فقال : مالي من مال فأوصي به ، ولكن اعهد اليك عهداً إذا أنا مت فجهزني وادفني إلى جنب اخي واكتب على قبري :

وكيف يلذ العيش من كان موقناً　　بأن المنايا بغتة ستعاجله

فتسلبه ملكا عظيما ونعمة　　وتسكنه القبر الذي هو آهله

ثم تعاهدني ثلاثاً بعد موتي فادع لي لعل الله ان يرحمني ، فلما مات فعل به اخوه ذلك ، فلما كان في اليوم الثالث من إتيانه جاء على عادته فدعا له وبكى عند

قبره ، فلما اراد ان ينصرف سمع وجبة في القبر كادت تذهب بعقله فرجع مقلقلا فلما كان في الليل إذا بأخيه قد أتاه في منامه قال : فلما رأيته وثبت اليه وقلت : يا اخي اتيتنا زائراً ، قال : هيهات يا اخي بعد المزار فلامزار واطمأنت بنا الدار قال : قلت : كيف اخي ؟ قال ذاك مع الأئمة الأبرار ، فقلت : فما امرنا عند كم قال : من قدم شيئاً من الدنيا وجده فاغتنم وجودك قبل فقدك ، قال : فأصبح اخوه معتزلا للدنيا متخلعاً عنها ففرق امواله وقسم رباعه وأقبل على طاعة الله عز وجل قال : ونشأ له ابن حسن الشباب والهيئة ، فاشتغل بالتجارة فحضرت اباه الوفاة فقال له : يا أبة ألا توصي ؟ قال : يا بني ما بقي لي مال لأوصي به ، ولكن إذا انا مت فادفني إلى جنب عمومتك واكتب على قبري :

وكيف يلذ العيش من هو صاير إلى جدث تبلي الثياب منازله
ويذهب حسن الوجه من بعد ضوئه سريعاً ويبقى جسمه ومفاتله

وإذا فعلت ذلك فتعاهدني بنفسك ثلاثاً وادع لي ، ففعل الفتى ، فلما كان في اليوم الثالث سمع من القبر صوتاً اقشعر له جلده وتغير لونه ورجع مغموماً إلى اهله ، فلما كان من الليل اتاه ابوه في منامه وقال له : يا بني انت عندنا عن قليل والأمر ناجز والموت آخر ذلك فاستعد لسفرك وتأهب لرحلتك وحول جهازك من المنزل الذي انت ظاعن عنه إلى المنزل الذي انت فيه مقيم ولا تغتر بما اغتر به الغافلون قبلك من طول آمالهم فقصروا عن امر معادهم فندموا عند الموت اشد الندامة واسفوا على تضييع العمر اشد الأسف ، فلا الندامة عند الموت تنفعهم ولا الأسف على التقصير انقذهم من شر ما يلقاه المغبونون يوم الحشر ، يا بني فبادر فبادر فبادر .

قال صدقة : قال الشيخ الذي حدثني هذا الحديث ، فدخلت على الفتى صبيحة ليلته من الرؤيا فقصها علينا وقال : ما ارى الأمر إلا كما قال ابي ولا ارى

الموت إلا وقد قرب ، فجعل يفرق امواله ويتصدق ويقضي ديونه ويستحل من خلطائه ومعامليه ، ويودعهم كهيئة رجل قد انذر بأمر فهو يتوقعه ويقول قال ابي بادر ثم بادر فهي ثلاث ساعات وقد مضت او ثلاثة ايام وانى لي بها او ثلاثة اشهر وما اراني ادركها او ثلاث سنين وهو اكثر ذلك ، قال : فلم يزل يقسم امواله ويتصدق حتى إذا كان في آخر اليوم الثالث دعا اهله فودعهم ثم استقبل القبلة ومدد نفسه وغمض عينيه وشهد شهادة الحق ثم مات ، قال : فمكث الناس حيناً يقصدون قبره من الأمصار يصلون عليه .

وكم من امثال هؤلاء ممن هداهم الله لرشدهم فألقى في قلوبهم حلاوة انقطاعهم وزهدهم ، وايقظ بهم من جاء من خلفهم وجعلهم عبرة للمعتبرين وقدوة للصالحين في الانقطاع إلى رب العالمين والاستعداد ليوم الدين .

أقوال الحكماء والموعظة

قال امير المؤمنين عليه السلام : لا تكونن ممن لا تنفعه الموعظة ، إلا إذا بالغت في إيلامه ، فان العاقل يتعظ بالأدب ، والبهائم لا تتعظ إلا بالضرب ، وقال الشاعر

وليس يزجركم ما توعظون به　　والبهم يزجرها الراعي فتنزجر

وقال بعضهم : الموعظة جند من جنود الله تعالى ، ومثلها مثل الطين يضرب به على الحائط إن استمسك نفع وإن وقع أثر على الحائط اثراً ولو خفيفاً .

وكتب بعضهم إلى صديق له : إما بعد فعظ الناس بفعلك ولا تعظهم بقولك ، واستح من الله بقدر قربه منك ، وخفه بقدر قدرته عليك .

وقيل : من كان له من نفسه واعظ ، كان له من الله حافظ .

وقال لقمان : الموعظة تشق على السفيه ، كما يشق الوعر على الشيخ الكبير .

وفي رواية كما يشق الصعود على الشيخ الكبير .

وقال الرشيد لبعض الحكماء يوماً عظني وأوجز ، قال : هل عندك احد احب اليك من نفسك ؟ قال : لا ، قال : إن اردت ان لا تسيء إلى من تحب فافعل

وقال كعب الأحبار لعمر بن الخطاب لما سأله ان يوعظه ويخوفه من اهوال يوم القيامة قال له : لو فتح من جهنم قدر منخر ثور بالمشرق ورجل بالمغرب لغلى دماغه حتى يسيل من حرها فنكس عمر رأسه .

وقال بعض الحكماء لبعض الملوك : اعلم ان هذا الذي اصبحت فيه من الملك انما صار اليك بموت من كان قبلك وهو خارج عنك بمثل ما صار اليك ، فاتق الله فيما خولك من أمر هذه الأمة ، فان الله سائلك عن الفتيل والنقير والقطمير قال الله تعالى : « وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » (١)

وقال بعض الحكماء : يابن آدم حملت على نفسك حمل جميع من تحوطه عنايتك بالمعيشة والكد لهم ، ولو سألتهم يوم القيامة ان يحملوا عنك شقصاً من ذنوبك ما فعلوا ولكان اشدهم حباً لك ، اشدهم هرباً منك .

صلة الرحم تنسيء الأجل

قال الله تعالى : « هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده ثم انتم تمترون وهو الله في السموات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون » (٢) .

قد تقدمت الآيات المتعددة الناطقة بقولها : إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ، وتأتينا هذه الآية وتقول : إن هناك أجلين مما ظاهره

(١) سورة الأنبياء الآية ٤٧ (٢) سورة الأنعام الآية ٢

الثاني (والجواب) عن ذلك ان معنى الآية ان الله تعالى قد خلق آدم من طين وهو أبونا ونحن نسله فجاز أن يقول مخاطباً لذريته على معنى الأصل لهم : خلقكم من طين « ثم قضى أجلا » أي كتب وقدّر أجلا والقضاء يكون بمعنى الحكم وبمعنى الأمر وبمعنى الخلق وبمعنى الاتمام والاكمال « وأجل مسمى عنده » وفيه اقوال (احدها) انه يعني بالأجلين اجل الحياة إلى الموت ، واجل الموت إلى البعث وقيام الساعة .

وقد روي عن ابن عباس انه قال : قضى اجلا من مولده إلى مماته واجل مسمى عنده من الممات إلى البعث ، لا يعلم ميقاته احد سواه ، فاذا كان الانسان صالحاً واصلا لرحمه ، زاد الله في اجل الحياة ، ونقص من اجل الممات إلى البعث ، وإذا كان غير صالح ولا واصل نقص الله من اجل الحياة ، وزاد في اجل البعث قال : وذلك قوله تعالى : « ومايعمر من معمر ولاينقص من عمره إلا في كتاب »

(ثانيها) انه الأجل الذي يحيى به اهل الدنيا إلى ان يموتوا ، واجل مسمى عنده يعني به الآخرة ، لأنه اجل دائم ممدود لا آخر له ، وإنما قال مسمى عنده لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ في السماء وهو الموضع الذي لا يملك فيه الحكم على الخلق سواه .

(ثالثها) ان قوله اجلا ، يعني به اجل من مضى من الخلق واجل مسمى عنده ، يعني به آجال الباقين .

(رابعها) ان قوله قضى اجلا ، عنى به النوم يقبض الروح فيه ثم يرجعها إلى صاحبها عند اليقظة ، واجل مسمى عنده هو اجل موت الانسان وهو المروي ايضاً عن ابن عباس ، ويؤيده قوله تعالى : « فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى اجل مسمى » .

وجه خامس

ويمكن ان يكون المراد من قوله تعالى : قضى اجلا اي اجلا معلقاً زيده على فعل الخير والصلة ، ونقصه على فعل الشر والقطيعة مثلا انه تعالى قضى على فلان بأن يكون عمره في حياته الدنيوية مائة عام ، وان فعل الخير ووصل رحمه يزيد في عمره ويكون مائة وثلاثين عاماً ، وان فعل الشر وقطع رحمه ينقص من عمره الذي هو مائة عام ، ويكون سبعين عاماً ، وان لم يفعل الخير ولم يفعل الشر يكون عمره هو المائة عام دون زيادة ونقيصة ، وحينئذ يكون معنى قوله تعالى : واجل مسمى عنده ، اي انه تعالى يعلم من قبل إيجاده ، ومن قبل ان يفعل الخير او الشر بعد إيجاده ، ما هو مصير عمره هل انه مائة عام او مائة وثلاثون عاماً او سبعون عاماً ؟ فقد سمي عنده وفي اللوح المحفوظ ، وإنما قضى عليه اجلا معلقاً للابتلاء والامتحان بعد ان اوجد سبحانه فيه ملائكة الاختيار ، ورفع عنه الاضطرار عن فعل الخير او الشر ، ويكون حال هذه الآية حال سائر آيات الأحكام ، وجعل الثواب على الامتثال ، والعقاب على عدمه ، مع علمه الأزلي عز وجل بهم مفصلا من هو الممتثل ومن هو العاصي ، ومن قدر له الثواب ، ومن قدر عليه العقاب ، وجعل التكاليف والوعد والوعيد اختباراً لهم ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيي من حي عن بينة ، ويؤيد هذا ويشهد له الكثير من الأخبار الواردة في الحث على صلة الرحم ، نذكر منها ما يوضح اصل العنوان في صدر المبحث .

صلة الرحم تطيل العمر

فعن ابي عبدالله ﷺ قال : ما نعلم شيئاً يزيد في العمر إلا صلة الرحم ، حتى ان الرجل يكون اجله ثلاث سنين ، فيكون وصولا للرحم ، فيزيد الله في عمره ثلاثين سنة ، فيجعلها ثلاثاً وثلاثين سنة ، ويكون الرجل اجله ثلاث وثلاثين سنة فيكون قاطعاً للرحم فينقصه الله ثلاثين سنة ويجعل اجله إلى ثلاث سنين .

وقال ﷺ ايضاً : صلة الرحم وحسن الجوار يعمران الديار ويزيدان في الأعمار

وعنه ﷺ صلة الرحم تهون الحساب يوم القيامة ، وهي منسئة في العمر وتقي مصارع السوء وصدقة الليل تطفي غضب الرب .

وقال ابو عبدالله (ع) : إن صلة الرحم والبر ليهونان الحساب ويعصمان من الذنوب ، فصلوا ارحامكم وبروا بإخوانكم ولو بحسن السلام ورد الجواب .

وعن اسحاق بن عمار قال : بلغني عن ابي عبدالله (ع) ان رجلا اتى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله إن اهل بيتي ابوا ألا توثبا علي وقطيعة لي وشتيمة فأرفضهم ، فقال ﷺ : إذاً يرفضكم الله جميعاً ، قال : فكيف اصنع ؟ قال ﷺ : تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك فانك إذا فعلت ذلك كان لك من الله عليهم ظهير .

وقال ابو ذر (رض) : سمعت رسول الله ﷺ يقول : حافتا الصراط يوم القيامة الرحم والأمانة ، فاذا مر الوصول للرحم المؤدي للأمانة نفذ إلى الجنة ، وإذا مر الخائن القاطع للرحم لم ينفعه معها عمل وتكفأ به الصراط في النار

وقد مر في الجزء الأول بسنده ان مما ناجى به موسى (ع) ربه انه قال : إلهي فما جزاء من وصل رحمه ؟ قال : يا موسى انسىء اجله واهون عليه سكرات

الموت ، ويناديه خزنة الجنة هلم الينا من اي ابوابها شئت .

وكما ورد ان ابا عبدالله (ع) لما حضرته الوفاة قال : اعطوا الحسن بن الحسين بن علي بن الحسين (ع) وهو الأفطس سبعين ديناراً فقالت له ام ولد له : أتعطي رجلا حمل عليك بالشفرة ؟ فقال لها : ويحك أما تقرأين قوله تعالى : والذين يصلون ما امر الله به ان يوصل .

إلى غير ذلك من أخبار هذا الباب ، ثم يختم الآية سبحانه بقوله : « ثم انتم تمترون » يخاطب بها الشاكين في البعث والنشور ، ويحتج عليهم بأنه سبحانه خلقهم من طين ونقلهم من حال إلى حال ثم قضى عليهم بالموت الذي هو قسري وليس باختياري ، وهم يشاهدون ذلك كله ويعترفون بأنه لا محيص لهم عنه ، ثم بعد هذا يشكون ويكذبون بالبعث ، والحالة ان من قدر على ابتداء الخلق والحياة من الجماد وهو الطين ، فلا ينبغي ان يشك في قدرته على الاعادة والبعث حيث هي اسهل من الابتداء ، وان قسرية الحياة والموت وخلق الأجل دليل على ان الحياة منه تعالى وليست طبيعية ولوكانت طبيعية لم يمت احد بعد الحياة ، هذا أولا ، ولكان الموت غيرمؤجل ثانياً ، وبعد ان بين عز اسمه عظيم قدرته في إيجاد الانسان وخلق الحياة من الجماد وهو الطين ، مع ان اهل العصر متفقون على ان الأرض كانت في اول خلقتها حارة وشديدة الحرارة ، بحيث كان كل جسم فيها ذائباً لا يمكن ان يعيش فيها حيوان ، ثم برد قشر ظاهر منها وهو الطين وحدث منه الحيوان من غير أب ولا ام ، وان ذلك مما يجب ان يزيل الامتراء والشك بعد هذا كله يعطف عليه ما يدعم الحجة ويقوي البرهان ، ويودع الخوف منه تعالى الجنان وهوقوله : « وهوالله في السموات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم » اي هو هو وعلى ما هو عليه من القدرة لا يفرق في ذلك عليه تعالى بين السموات والأرض والسر والجهر ، وإنما عبر عن ذلك بقوله : وهو الله لأن لفظة الجلالة

موضوعة للذات المستجمعة لجميع صفات الكمال ، ومنها القدرة التامة والعلم الشامل ويكون الخطاب على هذا لجميع الخلق ، لأنهم إما ان يكونوا ملائكة فهم في السماء اويكونوا بشراً اوجناً فهم في الأرض ، فهوسبحانه عالم بجميع اسرارهم واحوالهم ومتصرفاتهم وحتى نياتهم لا يخفى عليه منها شيء ، ويعضد ذلك قوله تعالى اخيراً : « ويعلم ما تكسبون » اي يعلم جميع ما تعملونه من الخير والشر فيجازيكم على حسب اعمالكم ، ويجوز ان يكون المعنى هو المعبود في السموات وفي الأرض ، لأن لفظة (الله) اصلها الاله ومعناه المعبود ، فهو المتفرد بالتدبير فيهما والعالم بسركم وجهركم لا تخفى عليه منكم خافية ، (وإيهام) ذلك كون الباري جل شأنه في محل ومكان ولازم ذلك كونه جسماً (مدفوع) بأن المراد منه الاحاطة والسيطرة لا الحلول كما ذهب اليه من لا يعطي الله حقه ، كما قال هو سبحانه في حقهم : « وما قدروا الله حق قدره » (١) ، فهو نظير قوله تعالى : « وسع كرسيه السموات والأرض » .

والمقصود من ذلك كله ان يتوجه العبد إلى معبوده بخالص النية ويعتمده في جميع اموره الدنيوية ليفوز برفيع الدرجات الأخروية .

الاحياء بعد الموت في الدنيا

ومن الدلائل ايضاً على ان الاحياء والاماتة بيده وبأمره عزوجل وليست طبيعية ، وانه قادر على الاعادة بالمشاهدة ما صدر في الوقائع المختلفة والمقامات المتعددة سواء كان من امر عيسى بن مريم (ع) او من سائر اولياء الله تعالى ورسله (منها) ما ذكر في تفسير الامام العسكري (ع) عند بيان معاجز رسول الله ﷺ .

(١) سورة الأنعام الآية ٩٢ .

تكلم الشاة المشوية

إن رسول الله ﷺ لما رجع من خيبر إلى المدينة ، وقد فتح الله له جاءته امرأة من اليهود وقد اظهرت الايمان ومعها ذراع شاة مشوية وضعتها بين يديه فقال ﷺ : ما هذه ؟ قالت : بأبي انت وأمي يا رسول الله لقد همني امرك في خروجك إلى خيبر لأني اعلمهم رجالا جلداً وهذه شاة لي قد ربيتها كالولد ونذرت لله لئن سلمك الله منهم لأذبحنها وأطعمنك من شوائها ذراعيها ، حيث علمت ان احب الطعام اليك الشواء ، وأحب الشواء اليك الذراع ، وقد جئتك بنذري لسلامتك منهم ، وكان مع رسول الله البراء بن معرور وعلي بن ابي طالب (ع) فقال رسول الله ﷺ : إئتوني بالخبز فأتي به فمد البراء يده وأخذ لقمة من اللحم فوضعها في فيه فقال علي (ع) : يا براء لا تتقدم على رسول الله ، وكان براء اعرابياً فقال : يا علي كأنك تبخل رسول الله ، فقال (ع) : ما أبخل رسول الله ولكني ابجله وأوقره ليس لي ولا لك ولا لأحد من خلق الله ان يتقدم على رسول الله ﷺ بقول ولا فعل ولا اكل ولا شرب ، فقال البراء : ما ابخل رسول الله او اعاد كلامه الأول ما ابخل ، فقال (ع) : ما لذلك قلت ولكن هذا جاءت به يهودية ولسنا نعرف حالها ، فاذا اكلته بأمر رسول الله ﷺ فهو الضامن لسلامتك منه ، وإذا اكلته بغير إذنه وكلت إلى نفسك يقول علي (ع) ذلك والبراء يلوك اللقمة إذ انطق الله الذراع فقالت : يا رسول الله لا تأكل مني فاني مسمومة وسقط البراء فمات ، فقال ﷺ : إئتوني بالمرأة فأتي بها فقال لها : ما حملك على ما صنعت ؟ فقالت : وترتني وتراً عظيما قتلت ابي وعمي وزوجي واخي وابني ففعلت هذا وقلت : إن كان ملكا فسأنتقم منه ،

وإن كان نبياً كما يقول وقد وعد فتح مكة والنصر والظفر فيمنعه الله منه ويحفظه ولن يضره ، فقال رسول الله ﷺ : ايتها المرأة لقد صدقت ، ثم قال لها : لا يغرك موت البراء ، فانما امتحنه الله تعالى لتقدمه بين يدي رسول الله ﷺ ولو كان اكله بأمر رسول الله ﷺ لكفي شره وسمه ، ثم قال ﷺ : ادع لي فلاناً وفلاناً وذكر قوماً من خيار اصحابه فيهم سلمان والمقداد وابو ذر وعمار وصهيب وبلال وقوم من سائر الصحابة تمام عشرة وعلي حاضر معهم فقال ﷺ اقعدوا وتحلقوا عليه ووضع رسول الله ﷺ يده على الذراع المسمومة ونفث عليه وقال : بسم الله الشافي بسم الله الكافي بسم الله العافي بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم ، ثم قال : كلوا على اسم الله فأكل رسول الله ﷺ واكلوا حتى شبعوا ، ثم شربوا عليه الماء ، ثم امر بالمرأة فحبست ، فلما كان في اليوم الثاني جيء بها فقال : أليس هؤلاء اكلوا ذلك السم بحضرتك ، فكيف رأيت دفع الله عن نبيه وعن صحابته ؟ فقالت : قد رأيت يا رسول الله وقد كنت شاكة في نبوتك ، والآن قد ايقنت انك رسول الله حقاً وأقرت بالشهادتين وحسن إسلامها .

قال علي بن الحسين (ع) : ولقد حدثني ابي عن جدي ان رسول الله ﷺ لما حملت اليه جنازة البراء بن معرور ليصلي عليه ، قال ﷺ : اين علي ابن ابي طالب ؟ قالوا : يا رسول الله ذهب في حاجة رجل من المسلمين إلى قبا فجلس ﷺ ولم يصل عليه قالوا : يا رسول الله ما لك لا تصل عليه ؟ فقال ﷺ ان الله عز وجل امرني ان اؤخر الصلاة عليه إلى ان يحضر علي بن ابي طالب فيجعله في حل مما كلمه به بحضرة رسول الله ليجعل موته بهذا السم كفارة له ، فقال له بعض من حضر وشاهد كلامه معه ﷺ : يا رسول الله إنما كان مزحاً مازح به علياً ولم يكن منه جداً فيؤاخذه به الله عز وجل ، قال ﷺ : لو كان

ذلك منه جداً لأحبط الله اعماله كلها ، ولو كانت بمثل ما بين الثرى إلى العرش ذهباً وفضة ولـكنه كان مزحاً وهو في حل من ذلك ، إلا ان رسول الله يريد أن لا يعتقد احد منكم ان علياً واجد عليه فيجدد بحضرتكم إحلالا له ويستغفر له ليزيده الله عز وجل بذلك قربة ورفعة في جنانه ، فلم يلبثوا ان حضر علي عليه السلام فوقف قبالة الجنازة وقال : رحمك الله يا براء فلقد كنت صواماً وقواماً ولقد مت في سبيل الله ، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : لو كان أحد من الموتى يستغني عن صلاة رسول الله صلى الله عليه وآله لاستغنى صاحبكم هذا بدعاء علي عليه السلام له ، ثم قام فصلى عليه ودفن ؛ فلما انصرف وقعد في العزاء قال صلى الله عليه وآله : انتم يا اولياء البراء بالتهنئة اولى منكم بالعزاء ، لأن صاحبكم عقد له في الحجب قباب من سماء الدنيا إلى السماء السابعة وبالحجب كلها إلى ساق العرش لروحه التي عرج بها فيها ، ثم ذهب بها إلى روض الجنان وتلقاها كل من كان فيها من الخزان ، واطلع عليه كل من كان فيها من الحور الحسان ، فقالوا بأجمعهم له : طوباك يا روح البراء انتظر عليك رسول الله صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام حتى ترحم عليك واستغفر لك ، ثم قال صلى الله عليه وآله : أما ان حملة العرش ربنا حدثوا عن ربنا انه قال : يا عبدي الميت في سبيلي لو كان عليك من الذنوب بعدد الحصى والثرى وقطر المطر وورق الشجر وعـدد شعر الحيوانات ولحظاتهم وأنفاسهم وحركاتهم وسكناتهم ، لكانت مغفورة بدعاء علي ابن ابي طالب عليه السلام قال رسول الله صلى الله عليه وآله : فتعرضوا يا عباد الله لدعاء علي لكم ولا تتعرضوا لدعائه عليكم ، فان من دعا عليه اهلكه الله ولو كانت حسناته عدد مافي خلق الله ، كما ان من دعا له أسعده الله ، ولوكانت سيئآته عدد مافي خلق الله

معجزة لعلي عليه السلام باحياء الميت

لقد روي ان علياً عليه السلام أحيى الجمجمة في ايوان كسرى وكلامها معه برواية دلف بن مجير او الجمجمة على جانب الفرات عند توجهه إلى حرب معاوية في واقعة صفين في رواية أبي رواحة الأنصاري او الجمجمة النخرة عند رجوعه من حرب النهروان ، وكانت هي الملك برويز بن هرمز على حد تعبيرها له عليه السلام والغرض من ذلك خاصاً لاثبات إمامته للمشككين واستجابة الله تعالى لدعائه عند اقتضاء المصلحة ذلك ، وعاماً لاثبات قدرة الله تعالى على الاحياء والبعث والنشور رداً على الملحدين القائلين : « أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون قل ان الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم » .

ومن الاحياء بعد الموت في الدنيا قصة البقرة

قال تعالى: وإذ قال موسى لقومه ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزواً قال أعوذ بالله ان اكون من الجاهلين قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي قال انه يقول انها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال انه يقول انها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين - إلى قوله - وإذ قتلتم نفساً فادرأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون (١) .

(١) سورة البقرة الآية ٦٧

القصة وسبب النزول

روى العياشي مرفوعاً إلى الرضا عليه السلام ان رجلا من بني إسرائيل قتل قرابة له ثم أخذه وطرحه على طريق افضل سبط من أسباط بني اسرائيل ثم جاء يطلب بدمه فقالوا لموسى عليه السلام: سبط آل فلان قتل فأخبرنا من قتله؟ قال: إئتوني ببقرة قالوا: أتتخذنا هزواً الآية، ولو انهم عمدوا إلى أي بقرة أجزأتهم ولكن شددوا فشدد الله عليهم، قالوا: ادع لنا ما هي قال: إنه يقول: إنها بقرة (أي لا ثور) (لا فارض ولا بكر) (أي لا كبيرة ولا صغيرة) (عوان) أي متوسطة العمر بين ذلك إلى قوله تعالى: قالوا: الآن جئت بالحق فطلبوها بتلك الصفات فوجدوها عند فتى من بني اسرائيل، فقال: لا ابيعها إلا بملء مسكها (أي جلدها) ذهباً فجاءوا إلى موسى عليه السلام قال: فاشتروها.

وقال: قال لرسول الله صلى الله عليه وآله بعض أصحابه: إن هذه البقرة ما شأنها؟ فقال صلى الله عليه وآله: إن فتى من بني إسرائيل كان باراً بأبيه، وانه اشترى سلعة، وفي نسخة اخرى اشترى تبيعاً فجاء إلى ابيه لأخذ الثمن منه فوجده نائماً والاقليد تحت رأسه (أي المفتاح) فكره ان يوقظه فترك ذلك، واستيقظ ابوه فأخبره فقال: أحسنت خذ هذه البقرة فهي لك عوض ما فاتك، قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: انظروا إلى البر ما بلغ بأهله.

وقال ابن عباس: كان القتيل شيخاً مثرياً قتله بنو أخيه وألقوه على باب بعض الأسباط ثم ادعوا عليهم القتل فاحتكموا إلى موسى عليه السلام فسأل من عنده في ذلك عنهم؟ فقالوا: انت نبي الله وانت أعلم منا، فأوحى الله اليه ان يأمرهم بذبح بقرة فأمرهم موسى (ع) أن يذبحوا بقرة ويضرب القتيل ببعضها فيحيي الله

القتيل فيبين من قتله .

وقيل : قتله ابن عمه استبطاءً لموته ليرثه .

وقيل : إنما قتله ليتزوج ابنته ، وكان قد خطبها فلم ينعم له ، وخطبها غيره من خيار بني إسرائيل ، فأنعم له فحسده ابن عمه الذي لم ينعم له فقعد له فقتله ثم حمله إلى موسى عليه السلام فقال : يا نبي الله هذا ابن عمي قد قتل ، فقال موسى : من قتله ؟ فقال : لا أدري ، وكان القتل في بني إسرائيل عظيما ، فعظم ذلك على موسى .

وهذا هو المروي عن الصادق عليه السلام ، وقيل : كان من خيار بني إسرائيل فخطب امرأة فقبلوا وخطبها ابن عمه و كان فاسقاً فلم يقبلوا ، فحسده وقتله ، ولما أحياه الله تعالى طلب من الله أن يبقيه حياً ، وينعم بزوجته في الدنيا ، وأقسم عليه بمحمد وآله فبقي حياً سبعين سنة إضافة إلى مائة وثلاثين سنة السابقة وهو بتمام القوة .

(المعنى) ان هذه الآيات معطوفة على ما تقدمها من الآيات الواردة في البيان لنعم الله على بني إسرائيل ، ومقابلتهم لها بالكفران والعصيان ، فقال : واذكروا ايضاً من نكثكم ميثاقي الذي أخذته عليكم بالطاعة « إذ قال موسى إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزواً » أي أتسخر بنا حيث سألناك عن القتل فتأمرنا بذبح بقرة ، وإنما قالوا ذلك لتباعد ما بين الأمرين في الظاهر لجهلهم بأسرار حكمة الله فيما أمرهم به ، لأنه أمرهم بالذبح ولم يبين لهم انه لأي معنى فقالوا : أي اتصال لذبح البقرة بما ترافعنا فيه اليك فهذا استهزاء بنا « قال أعوذ بالله ان اكون من الجاهلين » أي من المستهزئين ، وإنما عدل عن النفي بقوله لا إلى الاستعاذة ليدل على ان الاستهزاء لايصدر إلا عن جاهل ، لأن الاستهزاء إن كان لأجل الخلقة فلا معنى له ، لأن الله خالقه وإن كان لأجل الفعل ، فان كان

الفعل حسناً فلا وجه للاستهزاء ايضاً ، وإن كان قبيحاً فالواجب أن ينبه فاعله لينزجر عنه لا انه يستهزئ به فيشتد ويتوسع الخرق ، فالاستهزاء كبيرة لا تقع إلا عن جاهل فلذا استعاذ بالله منها .

سؤال وجواب

(السؤال) ما الحكمة في امرهم بذبح بقرة دون غيرها من سائر الحيوانات مع ان الغرض بقدرة الله واحد وهو الاحياء والاخبار عن القاتل وهذا يتأتى في كل حيوان ؟

(الجواب) ان الحكمة في ذلك ان البقرة من جنس ما عبدوه من العجل فاذا ذبحوها يهون عندهم ما كانوا يرونه من تعظيم هذا النوع ومنه العجل فيزول ما كان في نفوسهم من عبادته .

(سؤال) إنما أحيي الله القتيل بقتل حي ، مع انه قادر على إحيائه ، ولو من حي .

(الجواب) ليكون أظهر لقدرته في اختراع الأشياء من أضدادها .

وأخيراً لما علموا ان ذبح البقرة قد فرض عليهم من الله تعالى سألوا عنها فبدأوا أولاً بسنها (فقالوا : ادع لنا ربك) أي سل من اجلنا ربك (يبين لنا ما هي) ولم يظهر في السؤال ان المسؤول عنه هو السن ، وإنما ظهر ذلك في الجواب (قال) موسى (انه يقول) أي الله عز وجل : « انها بقرة لا فارض ولا بكر » أي ليست بكبيرة هرمة ولا صغيرة « عوان بين ذلك » أي وسط بين الكبيرة والصغيرة وهي في هذا السن اقوى ما يكون من سائر احوالها .

وقيل : أي وسط قد ولدت بطناً او بطنين « فافعلوا ما تؤمرون » أي

اذبحوا ما امرتم بذبحه ، فلما بين سبحانه سن البقرة سألوا عن لونها « قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها » اي ما هو لون البقرة التي امرنا بذبحها ؟ « قال : انه يقول انها صفراء » وحتى قرنها وظلفها كانا اصفرين « فاقع لونها » شديد صفرة لونها ، وقيل : خالص الصفرة ، وقيل : حسن الصفرة « تسر الناظرين » أي تعجب الناظرين وتفرحهم بحسنها .

وروي عن الصادق (ع) انه قال : من لبس نعلا صفراء لم يزل مسروراً حتى يبليها كما قال تعالى : صفراء فاقع لونها تسر الناظرين .

ولما بين سبحانه لونها سألوا عن صفتها فقالوا : يا موسى « ادع لنا ربك يبين لنا ما هي » اي من العوامل ام من السوائم « ان البقر تشابه علينا » اي اشتبه علينا صفة البقرة التي امرنا الله بذبحها « وإنا إن شاء الله لمهتدون » إلى صفة البقرة بتعريف الله إيانا وبما يشاؤه من الاطف لنا والزيادة في البيان .

وروي عن ابن عباس انهم امروا بأدنى بقرة ، ولكنهم لما شددوا على انفسهم شدد الله عليهم وايم الله لولم يستثنوا « اي بقولهم إن شاء الله » مابينت لهم إلى آخر الأبد « قال انه يقول انها بقرة لا ذلول تثير الأرض » اي لم يذللها العمل باثارة الأرض وحرثها بأظلافها « ولا تسقي الحرث » اي لا يستسق عليها الماء فتسقي الزرع .

والمعنى انها ليست من العوامل ، بل هي من السوائم « مسلمة » اي بريئة من العيوب .

وقيل : مسلمة من الشية ليس لها لون يخالف لونها .

وقيل : سليمة من آثار العمل ، حيث لا يخلو العامل من الأثر في قوائمه وبدنه « لا شية فيها » اي لا لون فيها يخالف لونها .

وقيل : معناه لا وضح فيها ، اي نقط مغايرة للون جلدها « قالوا الآن

جئت بالحق » اي ظهر الحق لنا الآن وهي بقرة فلان « فذبحوها » اي البقرة على ما امروا به « وما كادوا يفعلون » اي قرب ان لا يفعلوا مخافة اشتهار فضيحة القاتل .

وقيل : كادوا ان لايفعلوا لغلاء ثمنها كما تقدم عن ابن عباس انه كان ملء مسكها ذهباً .

وقيل : بوزنها عشر مرات ذهباً ، والحالة قد كان ثمنها الاعتيادي ثلاثة دنانير « وإذ قتلتم نفساً فادرأتم فيها » اي اختلفتم وكل قد دفع عن نفسه ، لأن الدرء هو الدفع ، ومنه الحديث ادرأوا الحدود بالشبهات ، وقوله تعالى : ويدرأ عنها العذاب . . . الخ ، والضمير في فيها يعود إلى النفس المقتولة « والله مخرج ما كنتم تكتمون » اي مظهر ما كنتم تسرون من القتل .

وقيل : إن الخطاب عام لليهود وشامل حتى لمن كان حاضراً منهم زمن النبي ﷺ باعتبار أسلافهم .

ومعناه ان الله مخرج من غامض أخباركم ، ومطلع على معايبكم ومعايب أسلافكم على ما تكتمونه في زمن النبي ﷺ .

عملية الاحياء بأغرب صورة تحقيقاً للاعجاز

« فقلنا اضربوه ببعضها » اي اضربوا القتيل ببعض البقرة ، واختلف في البعض فقيل : إنه الفخذ فضربوه به فقام حياً وقال : قتلني فلان ، وقيل : ذنبها وقيل : لسانها ، وقيل : عظم من عظامها ، وقيل : البضعة التي بين كتفيها ، وكلها محتملة والقدر المتيقن ان الله عز اسمه أمر أن يضرب القتيل ببعض البقرة ليحيي القتيل ويخبر بقاتله ليزول الخلاف والتدارء بين القوم والصانع عز اسمه وإن كان

قادراً على إحيائه من دون ذلك ، فإنما امرهم بهذا لأنهم سألوا موسى ﷺ أن يبين لهم حال القتيل وهم يعدون القربان من اعظم القربات ، وكانوا قد جعلوا لها بيتاً على حدة لا يدخله إلا خيارهم ، فأمرهم تعالى بتقديم هذه القربة تعليما منه لكل من ضاق واعتاص عليه امر من الأمور ان يقدم نوعاً من القرب قبل أن يسأل الله كشف ذلك ليكون اقرب إلى الاجابة ، وإنما أمرهم بضرب القتيل ببعضها جاعلا تعيين الوقت إلى اختيارهم ، حيث لم يعينه عليهم ليعلموا ان الله سبحانه قادر على إحياء الأموات في كل وقت من الأوقات ، وان أي وقت اختاروه فهو قادر على إحيائه فيه ، وليس إلا ان يعين هو سبحانه بنفسه الوقت

عودة على بر الولد بأبيه

فقد روي ان صاحب البقرة بلغ بره بأبيه ان رجلا أتاه بلؤلؤة فابتاعها بخمسين الفاً وكان فيها فضل وربح ، فقال للبائع : إن ابي نائم ومفتاح الصندوق تحت رأسه فامهلني حتى يستيقظ فأعطيك الثمن ، فقال : ايقظ اباك واعطني المال قال : ما كنت أفعل ولكن ازيدك عشرة آلاف وانتظرني حتى ينتبه ابي ، قال الرجل : فأنا احطعنك عشرة آلاف من ثمنها إن ايقظت اباك وعجلت النقد قال : وأنا ازيدك عشرين الفاً إن انتظرت انتباه ابي ، ففعل ولم يوقظ اباه فلما استيقظ ابوه اخبره بذلك فدعا له وقال : هذه البقرة لك بما صنعت « فقال رسول الله انظر ما صنع البر » .

وعن ابن عباس كان في بني إسرائيل رجل صالح له طفل وكانت له عجلة فأتى بها إلى غيظة وقال : اللهم إني أستودعك هذه العجلة لابني حتى يكبر ومات الرجل فشبت العجلة في الغيظة وصارت عواناً وكانت تهرب من كل من رامها ،

فلما كبر الصبي كان باراً بوالدته ، وكان يقسم الليل اثلاثاً يصلي ثلثاً وينام ثلثاً ويجلس عند رأس امه ثلثاً ، فاذا اصبح احتطب على ظهره وباعه في السوق وتصدق بثلثه ويأكل ثلثه ويعطي والدته ثلثه فقالت له والدته يوماً : إن اباك ورثك عجلة واستودعها في غيظة كذا فانطلق اليها وادع إله ابراهيم واسحاق ويعقوب ان يردها عليك ، وان من علامتها إذا نظرت اليها يخيل اليك ان شعاع الشمس يخرج من جلدها ، وكانت تسمى المذهبة ، فأتى يعقوب الغيظة فرآها ترعى فصاح بها وقال : أعزم عليك باله ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب ، فأقبلت تسعى حتى قامت بين يديه فقبض على عنقها وقادها ، فتكلمت البقرة باذن الله تعالى وقالت : ايها الفتى البار بوالدته اركبني فان ذلك اهون عليك ، فقال الفتى : إن امي لم تأمرني بذلك ولكن قالت : خذ بعنقها ، فقالت البقرة : باله بني اسرائيل لو ركبتني ما كنت تقدر علي ابداً ، فانطلق فانك لو أمرت الجبل ان يتقلع من اصله وينطلق معك لفعل لبرك بوالدتك ، فسار الفتى بها فاستقبله عدو الله إبليس لعنه الله في صورة راع وقال : إني رجل من رعاة البقر اشتقت إلى اهلي فأخذت ثوراً من ثيراني فحملت عليه زادي ومتاعي حتى إذا بلغت شطر الطريق ذهبت لأقضي حاجتي وقد قطع الحبل وما قدرت عليه ، واني اخشى على نفسي الهلكة فان رأيت ان تحملني على بقرتك وتنجيني من الموت وأعطيك اجرها بقرتين مثل بقرتك ، فلم يفعل الفتى وقال له : اذهب فتوكل على الله ولو علم الله منك اليقين لبلغك بلا زاد ولا راحلة ، فقال إبليس : إن شئت فبعنيها بحكمك ، وإن شئت فاحملني عليها وأعطيك عشرة مثلها ، فقال : إن امي لم تأمرني بذلك ، فبينا الفتى كذلك إذ طار طائر بين يدي البقرة فهربت في الفلاة وغاب الراعي فدعا الفتى باسم إله ابراهيم فرجعت البقرة اليه فقالت : ايها الفتى البار بوالدته لا تمر إلى الطائر الذي طار فانه إبليس قد اختلسني ، أما انه لو ركبني لما قدرت عليه ابداً ، فلما دعوت

إله ابراهيم جاء ملك فانتزعني من يد إبليس وردني اليك لبرك بأمك وطاعتك لها فجاء بها الفتى إلى امه فقالت له : إنك فقير لا مال لك ويشق عليك الاحتطاب بالنهار والقيام بالليل ، فانطلق فبع هذه البقرة وخذ ثمنها ، قال لأمه : بكم أبيعها ؟ قالت : بثلاثة دنانير ولا تبعها بغير رضاي ومشورتي ، وكان ثمن البقرة في ذلك الوقت ثلاثة دنانير ، فانطلق الفتى إلى السوق فعقبه الله تعالى ملكا ليري خلقه عظيم قدرته وليختبر الفتى كيف بره بوالدته ، وكان الله به خبيراً ، فقال له الملك بكم تبيع هذه البقرة ؟ قال : بثلاثة دنانير ، وأشترط عليك رضاء امي فقال له الملك بستة دنانير ولا تستأمر أمك ، فقال له الفتى : لو اعطيتني وزنها ذهباً لم آخذها إلا برضاء امي فردها إلى امه واخبرها بالثمن فقالت : ارجع فبعها بستة دنانير على رضى مني ، فانطلق بالبقرة إلى السوق ، فأتى الملك فقال : استأمرت أمك ، فقال : نعم انها امرتني ان لا انقصها من ستة دنانير على أن استأمرها ، قال الملك : فاني أعطيك اثني عشر على ان لا تستأمرها ، فأبى الفتى ورجع إلى امه وأخبرها بذلك فقالت : إن ذلك الرجل الذي يأتيك هو ملك من الملائكة يأتيك في صورة آدمي ليجربك فاذا اتاك فقل له : أتأمرنا ان نبيع هذه البقرة أم لا ، ففعل ذلك فقال الملك : اذهب إلى امك وقل لها : امسكي هذه البقرة فان موسى ﷺ يشتريها منك لقتيل يقتل في بني اسرائيل فلا تبيعوها إلا بملء جلدها دنانير فامسكوا تلك البقرة وقد اراد الله تعالى من بني اسرائيل ذبح البقرة بعينها مكافأة على بره بوالدته فضلا منه ورحمة فطلبوها فوجدوها عند الفتى فاشتروها بملء مسكها ذهباً .

وقال السدي : اشتروها بوزنها عشر مرات ذهباً كما اسلفنا .

ثم قال الله تعالى في نهاية القصة : « كذلك يحيي الله الموتى » يحتمل ان يكون حكاية عن قول موسى ﷺ لقومه : اي اعلموا بما شاهدتموه بأن الله قادر

على إحياء الموتى يوم النشور للجزاء ، ويحتمل ان يكون خطاباً منه تعالى لمشركي قريش ، والاشارة بقوله : « كذلك » وقعت إلى قيام المقتول عند ضربه ببعض البقرة ، لأنه روي انه قام حياً وأوداجه تشخب دماً فقال : قتلني ابن عمي « ويريكم آياته » يعني المعجزات الباهرات الخارقة للعادات ، من كيفية إحياء ذلك الميت .

وقيل : أراد الأعلام الظاهرة الدالة على صدق محمد ﷺ « لعلكم تعقلون » اي لكي تستعملوا عقولكم ، فان من لم يستخدم عقله ، ولم يبصر رشده فهو كمن لا عقل له .

وقيل : معناه لكي تعقلوا ما يجب عليكم من امور دينكم ، وقد احتج سبحانه بهذه الآيات على مشركي العرب ، فيما استبعدوه من البعث وقيام الأموات بقولهم : « إئذا متنا وكنا تراباً ... الخ » فأخبرهم تعالى بأن الذي استبعدتموه لا يتعذر في اتساع قدرته ونبههم على ذلك بقصة المقتول وكيفية إحيائه ، وفيه دلالة أيضاً على صدق نبوة نبينا ، حيث أخبر اليهود بغوامض أخبارهم وغوامض أسرار كتبهم التي لا يجوز ان يعلمها إلا من قرأ كتب الأولين او اوحى اليه رب العالمين وحيث انه امي ﷺ فثبت انه الوحي من ربه ، وقد صدقه مخالفوه من اليهود فيما اخبر به من هذه الأقاصيص ، وقد علموا انه امي لم يقرأ كتاباً وهذه آية ساطعة ، وحجة قاطعة في تثبيت نبوته ﷺ وصدق احاديثه .

الفصل الثاني
في حالة الانسان في القبر

وهو المعبر عنه بعالم البرزخ ، اي وسط بين عالم الدنيا ، وبين عالم الآخرة وهو المصداق الحقيقي لقولنا في صلب الموضوع « الانسان فيما بين الدارين » واما حالته في الاحتضار ، فهي من مبادىء البرزخ واولياته ، والكلام في هذا الفصل يكون من وجهين :

(الأول) فيما يلاقي الانسان فيه .

(الثاني) في مصير الروح واين قرارها بعد تلاشي الجسد .

فأما الوجه الأول فنقول فيه قد ذكرنا في الفصل الأول عن كتاب الكافي عن سويد بن غفلة عن امير المؤمنين عليه السلام حالة الانسان عند الاحتضار مفصلا ، وفي ذيل الخبر قال : فاذا كان مؤمناً وادخل قبره اتاه ملكا القبر يجران شعرهما ويخدان الأرض بأنيابهما اصواتهما كالرعد القاصف ابصارهما كالبرق الخاطف فيقولان له : من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ فيقول : الله ربي ، وديني الاسلام ، ونبيي محمد صلى الله عليه وآله ، فيقولان له : ثبتك الله فيما تحب وترضى وهو قوله سبحانه : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة » ثم يفسحان له في قبره مد بصره ، ثم يفتحان له باباً إلى الجنة ، ثم يقولان له : نم قرير العين نوم الشاب الناعم ، فان الله يقول : « اصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً واحسن مقيلا » .

وقال ايضاً في ذيل الخبر : وإذا كان عدواً لله تعالى ، وادخل القبر اتاه ملكا القبر فألقيا اكفانه ، ثم يقولان له : من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ فيقول : لا ادري ، فيقولان له : لا دريت ولا هديت ، فيضربان يافوخه بمرزبة ضربة ما خلق الله من دابة إلا تذعر لها ، ما خلا الثقلين ، ثم يفتحان له باباً إلى النار ، ثم يقولان له : نم بشر حال ، ويكون في قبره من الضيق مثل ما في الزج من القناة ، حتى ان دماغه ليخرج من بين ظفره ولحمه ، ويسلط الله عليه حيات الأرض وعقاربها وهوامها فتنهشه حتى يبعثه الله من قبره ، وانه ليتمنى قيام الساعة مما هو فيه من الشر ، فنعوذ بالله من عذاب القبر .

ذيل الرواية الاخرى

وفي ذيل رواية الجعفي عن الباقر عليه السلام في الكافر ، فاذا وضع في لحده قالت له الأرض : لا مرحباً بك يا عدو الله لقد كنت ابغضك ، وانت على متني وأنا لك اليوم اشد بغضاً وانت في بطني ، اما وعزة ربي لأسيأن جوارك ، ولأضيقن مدخلك ، ولأوحشن مضجعك ، ولأبدلن مطعمك ، إنما انا روضة من رياض الجنان ، او حفرة من حفر النيران ، ثم ينزل عليه منكر ونكير ، وهما اسودان ازرقان في اهول منظر ، فينتهرانه فتتقلص نفسه حتى تبلغ حنجرته فيقولان له : من ربك ؟ ومن نبيك ؟ ومن إمامك ؟ فيقول : لا ادري ، فيقولان له : شاك في الدنيا وشاك في اليوم لا دريت ولا هديت ، فيضربانه ضربة لا يبقى شيء في المشرق والمغرب إلا سمع صيحته منها ، إلا الجن والانس ، فمن شدة صيحته تلوذ الحيتان بالطين ، وتنفر الوحوش في الخياس (الشجر الملتف) ولكن لا تعلمون ، ثم يسلط عليه حيتان سوداوتان يعذبانه خمس ساعات بالنهار وست

ساعات بالليل ، لأنه كان يستخفي من الناس ولا يستخفي من الله ، فبعداً لقوم لا يؤمنون ، فاذا صارت صيحة القيامة ، اشتعل قبره ناراً فيقول لي : الويل إذا اشتعل قبري ناراً ، فينادى ان الويل قد دنا منك والهوان ، ثم من نيران القبر إلى نيران لا تطفى . الخبر له بقية تأتي في الفصل الثالث .

في شعور أهل القبور

في الكافي ان فتية من اولاد ملوك بني إسرائيل كانوا متعبدين ، وكانت العبادة في اولاد ملوك بني إسرائيل معروفة ، وانهم خرجوا يسيرون في البلاد ليعتبروا فمروا بقبر على ظهر الطريق قد سفى عليه السافي ليس منه إلا رسمه فقالوا لو دعونا الله الساعة فينشر لنا صاحب هذا القبر فساءلناه كيف وجد طعم الموت فدعوا الله تعالى قال : فخرج من ذلك القبر رجل ابيض الرأس واللحية ينفض رأسه من التراب فزعاً شاخصاً بصره إلى السماء فقال لهم : ما يوقفكم على قبري ؟ فقالوا دعوناك لنسألك كيف وجدت طعم الموت ، فقال لهم : لقد سكنت في قبري تسعاً وتسعين سنة ما ذهب عني ألم الموت وكربه ، ولا خرجت مرارة طعم الموت من حلقي ، قال (لواظ له) : مت يوم مت وانت على ما نرى ابيض الرأس واللحية ، قال : لا ولكن لما سمعت الصيحة (اخرج) اجتمعت تربة عظامي إلى روحي فبقيت فيه فخرجت فزعاً شاخصاً بصري مهطعاً إلى صوت الداعي فابيض لذلك رأسي ولحيتي .

جبرئيل يكلم ميتين باذن الله تعالى

عن ابي عبدالله عليه السلام قال : وأتى جبرئيل رسول الله صلى الله عليه وآله واخذ بيده وأخرجه إلى البقيع فانتهى به إلى قبر فصوّت بصاحبه فقال : قم باذن الله تعالى فخرج منه رجل ابيض الرأس واللحية يمسح التراب عن وجهه وهو يقول : الحمد لله والله اكبر فقال جبرئيل : عد باذن الله تعالى ، ثم انتهى به إلى قبر آخر فقال قم باذن الله فخرج منه رجل مسود الوجه وهو يقول : يا حسرتاه يا ثبوراه ، ثم قال له جبرئيل : عد إلى ما كنت فيه باذن الله تعالى فقال : يا محمد هكذا يحشرون يوم القيامة فالمؤمنون يقولون هذا القول وهؤلاء يقولون ما ترى .

وروي في الوسائل عن سهل بن سعد قال : جاء جبرئيل إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال : يا محمد عش ما شئت فانك ميت ، واحبب ما شئت فانك مفارقه ، واعمل ما شئت فانك تجزى به ، واعلم ان شرف الرجل قيامه بالليل ، وعزه استغناؤه عن الناس .

واما الوجه الثاني

في مصير الروح في القبر

لقد تحقق ان السؤال في القبر والضغطة وبعض انواع عذاب القبر إنما هو على هذا البدن ، لأن الروح تدخل فيه إلى حد حقويه بعد أن فارقته وكانت ترفرف عليه عند تجهيزه وعند حمله وحتى إدخاله في قبره ، فاذا فرغت الروح من

هذا العذاب او الثواب ، لأنه كما قال ﷺ : القبر إما روضة من رياض الجنان او حفرة من حفر النيران ، انتقلت الروح إلى سعادة اخرى اوشقاوة اخرى فدخلت في قوالب مثالية تشابه هذه القوالب والهياكل ، إلا انها ألطف وأرق فهي عالم بين المجردات والماديات ، ولذا سمي عالم البرزخ ، وقد اقدرها الله تعالى بهذا القالب على الطيران في الهواء وقطع المسافات البعيدة بالزمان القليل ، فاذا دخلت الروح في ذلك القالب طارت به إلى عالم الأرواح ، فان كانت مؤمنة مضت إلى وادي السلام وهي جنة الدنيا خلقها الله تعالى في ظهر الكوفة وغيبها عن أبصار الناظرين ، وفيها أرواح المؤمنين في قوالبهم المثالية وهم يتنعمون بكل ما في جنة الآخرة ويجلسون حلقاً يتحاكون ويتكلمون ، فاذا قدمت الروح على تلك الأرواح يقولون : دعوها فانها أقبلت من هول عظيم ، ثم يسألونها ما فعل فلان وما فعل فلان ؟ فان قالت لهم : تركته حياً ارتجوه ، وإن قالت لهم : قد هلك قالوا : هوى هوى .

وفي حديث آخر ان ارواح المؤمنين في حجرات في الجنة يأكلون من طعامها ويشربون من شرابها ويقولون : ربنا أقم لنا الساعة وانجز لنا ما وعدتنا والحق آخرنا بأولنا .

وهذا لا ينافي ما تقدم ، لأن المراد منه جنة الدنيا كما فصلناه .

وفي خبر يونس بن ظبيان في جواب الامام الصادق (ع) له المؤمن اكرم على الله من ان يجعل روحه في حوصلة طائر اخضر ، بل إذا قبضه تعالى صير روحه في قالب مثل قالبه في الدنيا يأكلون ويشربون ، فاذا قدم عليهم القادم عرفوه بتلك الصورة التي كان عليها في الدنيا .

والأخبار في ذلك مستفيضة ، وان اختلفت ألفاظها فمآلها واحد .

ومنها ما رواه الكليني عن حبة العرني قال : خرجت مع امير المؤمنين (ع)

إلى ظهر الكوفة فوقف بوادي السلام كأنه مخاطب لأقوام فقمت بقيامه حتى اعييت ثم جلست حتى مللت فجمعت ردائي وقلت : يا امير المؤمنين إني اشفقت عليك من طول القيام فراحة ساعة ، ثم طرحت الرداء على الأرض ليجلس عليه فقال لي : يا حبة إن هو إلا محادثة مؤمن او مؤانسته ، قلت : يا امير المؤمنين وانهم لكذلك ، قال : نعم ولو كشف لك لرأيتهم حلقاً حلقاً يتحادثون فقلت : اجساد أم ارواح ؟ فقال : ارواح ، وما مؤمن يموت في بقاع الأرض إلا قيل لروحه : الحقي بوادي السلام وانها لبقعة من جنة عدن .

وروى الكليني ايضاً عن ضريس الكناسي قال : سألت ابا جعفر (ع) ان الناس يذكرون ان فراتنا يخرج من الجنة فكيف وهو يخرج من المغرب وتصب فيه الأودية والعيون ؟ قال (ع) : إن لله جنة خلقها في المغرب وماء فراتكم هذا يخرج منها واليها تخرج ارواح المؤمنين من حفرهم عند كل مساء فتسقط على ثمارها وتأكل منها وتتنعم فيها وتتلاق وتتعارف ، فاذا طلع الفجر هاجت من الجنة فكانت في الهواء فيما بين السماء والأرض تطير ذاهبة وجائية ، وتعهد حفرها إذا طلعت الشمس وتتلاق في الهواء وتتعارف ، هذا حال ارواح المؤمنين .

(واما) ارواح الكافرين والمصرين على الفسق ، فأرواحهم بعد الفراغ من عذاب القبر وأنى لهم الفراغ منه تدخل ارواحهم في قوالب مثل هذه القوالب التي كانت في دار الدنيا ، فيطيرون بها إلى برهوت وهو واد في حضرموت في ارض اليمن وهو واد مملوء من النار وعقاربها وحياتها ومن جميع ماأعده الله سبحانه في نار جهنم من انواع العذاب ، قال تعالى حكاية عن آل فرعون : « النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة ادخلوا آل فرعون أشد العذاب » (١) .

---

(١) سورة المؤمن الآية ٥٠

فالعرض على النار غدواً وعشياً غير العذاب بعد قيام الساعة فيكون إذاً في القبر.

وعن الصادق (ع) ان هذا في نار البرزخ قبل القيامة، إذ لا غدو ولا عشي في القيامة، ثم قال (ع): الم تسمع قوله تعالى: «ويوم تقوم الساعة ادخلوا آل فرعون اشد العذاب».

وقال تعالى في حق قوم نوح: «مما خطيئاتهم اغرقوا فأدخلوا ناراً»(١) والفاء للتعقيب بلامهلة ودخول نار جهنم يكون بعد مدة، فالمراد إذاً نار البرزخ هذا مقرهم في النهار.

(واما) في الليل فقد خلق الله تعالى لهم ناراً في المشرق إذا جاء الليل طاروا اليها وعذبوا فيها إلى ان يجيء النهار.

وفي صحيحة ضريس عن الصادق(ع) وان لله في المشرق ناراً خلقها ليسكنها ارواح الكفار، ويأكلون من زقومها ويشربون من حميمها ليلهم، فاذا طلع الفجر هاجت إلى واد باليمن يقال له برهوت اشد حراً من نار الدنيا فكانوا فيها يتلاقون ويتعارفون، فاذا كان المساء عادوا إلى النار (أي نار برهوت) فهم كذلك إلى يوم القيامة قلت: أصلحك الله فما حال الموحدين المقرين بنبوة محمد ﷺ من المسلمين المذنبين الذين يموتون وليس لهم إمام ولا يعرفون ولايتكم فقال: اما هؤلاء فهم في حفرهم لا يخرجون منها، فمن كان منهم عمل صالحاً ولم تظهر منهم عداوة، فانه يخد له خداً إلى الجنة التي خلقها الله في المغرب فيدخل عليه منها الروح في حفرته إلى يوم القيامة، فيلقى الله فيحاسبه بحسناته وسيئاته فاما إلى جنة وإما إلى نار، فهؤلاء موقوفون لأمر الله، وكذلك يفعل الله بالمستضعفين والبله والأطفال وأولاد المسلمين الذين لم يبلغوا الحلم.

(فاما) النصب من اهل القبلة فانهم يخد لهم خداً إلى النار التي خلقها الله

(١) سورة نوح الآية ٢٥.

في المشرق فيدخل عليهم منها اللهب والشرر والدخان وفورة الجحيم إلى يوم القيامة ثم مصيرهم إلى الجحيم ، ثم في النار يسجرون ، ثم قيل لهم : اين ما كنتم تدعون من دون الله ؟ اين إمامكم الذي اتخذتموه دون الامام الذي جعله الله للناس إماماً

الخلاصة لأقوال أساطين الحكماء

فقد قال افلاطون وأتباعه من الحكماء : إن الأدلة على وجود البرزخ متوفرة وهو عالم مقداري غير العالم الحسي ، وهو كما ذكرنا واسطة بين عالم المجردات وعالم الماديات ليس في تلك اللطافة ولا في هذه الكثافة فيه الأجسام والأعراض والحركات والسكنات والأصوات والطعوم والروائح وغيرها وهي مثل قائمة بذاتها معلقة لا في مادة ، وهو عالم عظيم الفسحة وسكانه على طبقات متفاوتة في مقدار اللطافة والكثافة وقبح الصورة وحسنها وسرعة طيرانها وبطئها ولأبدانهم المثالية جميع الحواس الظاهرة والباطنة ، فيتنعمون ويتألمون باللذات والآلام النفسانية والجسمانية .

العلامة قدس سره في رأيه

قد نسب العلامة في كتاب شرح الارشاد القول بوجود هذا العالم إلى الأنبياء والأولياء والمتألهين .

فهذه الجنة التي هي دار السلام ، هي مأوى المؤمنين في نهارهم ، وأما ليلهم فلهم جنة أخرى في المغرب يأوون اليها ويسكنون فيها ، فهي محل نومهم ، فاذا أضاء الصبح طاروا منها إلى واد السلام .

(واما) الكافرون فليلهم في نار في المشرق ونهارهم في برهوت .

دليل على وجود هذه الجنة

ومعجزة لأمير المؤمنين عليه السلام

هو ما ذكره في البحار بأسانيده من ان سلمان الفارسي قال يوماً لأمير المؤمنين عليه السلام في ايام خلافة عثمان : اني حزين من فوت رسول الله ﷺ إلى هذا اليوم ، وأريد أن تروحني هذا اليوم وتريني من كراماتك ما يزيل عني هذا الغم (١) ، فقال عليه السلام علي بالبغلتين اللتين هما من رسول الله ﷺ فلما اتي بهما ركب واحدة وأركب سلمان الأخرى ، قال سلمان : فلما خرجنا من المدينة فاذا لكل بغلة جناحان فطارا في الهواء وارتفعا فتعجبت غاية العجب فقال لي : يا سلمان انظر هل ترى المدينة ؟ فقلت : إما المدينة فلا ، ولكني أرى آثار الأرض ، فأشار إلى البغلتين فارتفعا في الجو لحظة فنظرت فلم أر شيئاً من الأرض وإذا أنا أسمع اصوات التسبيح والتهليل ، فقلت : الله اكبر يا أمير المؤمنين إن ههنا لبلاداً قد وصلنا اليها ، فقال عليه السلام : يا سلمان هذه اصوات الملائكة بالتسبيح والتهليل ، وهذه هي السماء الدنيا فقد وصلنا اليها ، فأشار إلى البغلتين وحرك شفتيه فانحطتا طائرتين نحو الأرض فكان وقوعهما على بحر عريض كثير الأمواج كان امواجه الجبال فنظر عليه السلام إلى ذلك البحر فسكنت امواجه فنزل عليه السلام ومشى على وجه الماء ونزلت أنا والبغلتان تمشيان خلفنا ، فلما خرجنا من ذلك البحر وإذا هو تتلاطم امواجه كهيئته الأولى فقلت : يا أمير المؤمنين ما هذا البحر ؟ فقال عليه السلام : الذي أغرق الله فيه فرعون وقومه ، فهو يضطرب خوفاً من الله تعالى

(١) بعد ملاحظة مقتضيات المقام من عظمة مقام سلمان وما طلبه من الإمام من كثرة ما رأى من كراماته (ع) لا يستبعد صدور مثل هذا منه (ع) لأنه أراد خارق العادة .

فلما خرجنا منه ومشينا فرأيت جداراً ابيضاً مرتفعاً في الهواء ليس يدرك أوله ولا آخره ، فلما قربنا اليه فاذا هو من ياقوت او نحوه ، وإذا باب عظيم فلما دنا منه امير المؤمنين عليه السلام انفتح الباب فدخلنا فرأيت اشجاراً وانهاراً وبيوتاً ومنازل عالية فوقها غرف ، وفي ذلك البستان انهار من خمر ولبن وعسل ، وإذا فيها اولاد وبنات وكل ما وصف الله في الجنة ، وقد أقبلوا إلى امير المؤمنين يقبلون يديه وقدميه وقد جلس على كرسي هناك فقالوا : يا امير المؤمنين ما هذا الهجران الذي هجرتنا ، فهذه سبعة ايام ما رأيناك ؟ فقلت : يا امير المؤمنين ما هذه المنازل ؟ فقال : هذه منازل شيعتنا بعد الموت ، أتريد يا سلمان ان تنظر إلى منزلك ؟ فقلت : نعم ، فأمر واحداً وأخذني إلى منزل عال من الياقوت والزبرجد واللؤلؤ وفيه كلما تشتهي الأنفس ، فأخذت رمانة من ثماره وأتيت اليه فقلت : يا امير المؤمنين هذا منزلي ولا اخرج منه ، فقال عليه السلام : هذا منزلك بعد الموت وهذه منازل شيعتنا بعد الموت وهذه جنة الدنيا يتنعمون فيها شيعتنا إلى يوم القيامة ، ثم ينتقلون عنها إلى جنة الآخرة ، ثم قال تعال : يا سلمان حتى نخرج وقد ودعه اهل تلك الجنة فخرجنا فانغلق الباب فمشينا ، ثم قال : يا سلمان أتحب ان اريك صاحبك ؟ فقلت : نعم ، فحرك شفتيه فرأيت ملائكة غلاظاً شداداً يأتون برجل قد جعلوا في عنقه سلاسل الحديد والنار تخرج من منخريه وحلقه إلى عنان السماء ، والدخان قد احاط بتلك البرية وملائكة خلفه تضربه حتى يمشي ولسانه خارج من حلقه من شدة العطش فلما قرب الينا قال لي : تعرفه ، فنظرته فاذا هو صاحبنا فقال : يا امير المؤمنين أغثني فأنا عطشان معذب فقال (ع) : ضاعفوا عليه العذاب فرأيت السلاسل تضاعفت والملائكة والنيران تضاعفت فأخذوه ذليلا حقيراً صاغراً فقال (ع) : يا سلمان هذا حاله فانه ما من يوم يمضي من يوم مماته إلى هذا اليوم إلا وتأتي به الملائكة وتعرضه علي فأقول لهم : ضاعفوا

عذابه فيتضاعف عليه العذاب إلى يوم القيامة (١) .

قال سلمان : فركبنا فقال لي : غمض عينيك فغمضت فقال لي : افتح ففتحت وإذا أنا بباب المدينة فقال (ع) : ياسلمان مضى من النهار سبع ساعات وطفنا فيها البراري والقفار والبحار وكل الدنيا وما فيها ، ولا استبعاد في ذلك بعد قوله تعالى في الحديث القدسي : عبدي أطعني تكن مثلي تقول للشيء كن فيكون ، وما علمنا طاعة بعد طاعة رسول الله ﷺ اعظم من طاعة علي أمير المؤمنين (ع) لله تعالى .

الدليل من القرآن على الحياة بعد الممات

قبل البعث

ومما يدل على ان الأرواح بعد الموت تشعر باللذة والألم حسب اختلاف احوال ذويها من الطاعة اوالمعصية قوله تعالى : « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (٢) .

وهذا من الله ليس للمقتول فقط ، إذ لا قائل من المفسرين بالفرق فاذا ثبت في المقتول ثبت في غيره ، لأنه إذا كان ذلك منه تعالى إكراماً له وإنعاماً عليه لطاعته ففي عباد الله من الأولياء والأتقياء والصلحاء والعلماء من هو أفضل واعظم درجة عنده تعالى من الشهيد المقتول في سبيل الله ، وإنما ذكر سبحانه المقتول

(١) لا يستبعد ذلك لأن من سن سنة سيئة كان عليها وزرها ومثل وزر من عمل بها الى يوم القيامة ولولاه لما ظلم أحد ولا فسق أحد ولجرت الأمور على محكمات اصولها .

(٢) سورة آل عمران الآية ١٦٣ .

بالخصوص ، لأنه كان مورد الانكار والاستهزاء من الكفار بقولهم : ما بال هؤلاء يقتلون انفسهم ويذهبون سدى فأنزل الله تعالى رداً عليهم قوله : ولا تحسبن ... الخ ، والقرآن الكريم بملاكه عام ، وقد سبق منا في هذا الكتاب شرح وافي لهذه الآية .

اشكال ودفع

الاشكال هو انه إذا كانت الأرواح في قوالب مثالية ، وهي في وادي السلام فما فائدة استحباب زيارة القبور وكيف تعلم الأموات بزائريها وهي ليست فيها ، وقد وردت بذلك عدة أخبار نذكر منها نموذجاً لتشجيع المؤمنين على زيارة قبور موتاهم واخوانهم المؤمنين .

الكيفية في زيارة القبور

فقد ورد انك تضع يدك على القبر مستقبل القبلة وانت على وضوء وتقرأ القدر سبعاً فاذا فعلت ذلك أمن الميت من الفزع الأكبر .

وفي رواية بعث الله ملكا يعبد الله عند قبره ويكتب ثوابه للميت ، وإذا بعثه الله من قبره لم يمر على هول إلا صرفه ذلك الملك عنه بذلك حتى يدخل الجنة ويستحب ايضاً بعدقراءة القدر ان يقرأ الحمد والتوحيد والمعوذتين وآية الكرسي كل واحدة ثلاثاً .

كيفية اخرى

ورد ايضاً أن تضع يدك على القبر وتقول : اللهم ارحم غربته ، وصل وحدته ، وآنس وحشته ، وآمن روعته ، واسكن اليه من رحمتك ما يستغني به عن رحمة من سواك ؛ والحقه بمن كان يتولاه ، ثم تقرأ القدر سبع مرات .

كيفية اخرى

تقول : اللهم جاف الأرض عن جنوبهم ، وصاعد اليك ارواحهم ، ولقهم منك رضواناً ، واسكن اليهم من رحمتك ما تصل به وحـدتهم ، وتؤنس به وحشتهم انك على كل شيء قدير .

واما دفع الاشكال

فقد روي عن الصادق (ع) ان الأرواح وإن كانت في وادي السلام ، إلا أن لها أشعة علمية متصلة بالقبر فهي بتلك الأشعة تعلم بالزائرين وقد مثلها ﷺ بالشمس فانها في السماء ، وأشعتها في أقطار الأرض ، وقال (ع) ايضاً : إنها في بعض الأوقات تأتي بتلك القوالب إلى القبر وتطلع عليه وتزور اهلها في بيوتهم ايضاً .

وروى الكليني عن اسحاق بن عمار قال : سألت ابا الحسن الأول (ع) عن الميت يزور أهله قال (ع) : نعم ، قلت : في كم يزور ؟ قال : في الجمعة والشهر

والسنة على قدر منزلته ، فقلت : في أي صورة يأتونهم ، فقال : في صورة طائر لطيف يسقط على جدرانهم ، ويشرف عليهم فان رآهم بخير فرح وإن رآهم بشر وحاجة حزن واغتم .

وعن الصادق (ع) انه قال : إن المؤمن ليزور أهله فيرى ما يحب ويستر عنه ما يكره ، وان الكافر ليزور اهله فيرى ما يكره ويستر عنه ما يحب ، ثم قال فيهم من يزور كل جمعة ، ومنهم كل شهر ، ومنهم في السنة على قدر عمله .

وفي خبر آخر ما من مؤمن ولا كافر إلا ويأتي اهله عند زوال الشمس فاذا رأى المؤمن اهله يعملون بالصالحات حمد الله على ذلك وإذا رأى الكافر اهله يعملون بالصالحات كانت عليه حسرة « لأنه لم يوفق لمثل عملهم لما كان معهم » .

الفصل الثالث

في البعث والنشور

قال تعالى : « زعم الذين كفروا ان لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا والله بما تعملون خبير يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن » (١) .

كلمة زعم كناية عن الكذب فقد بين سبحانه العلة في اختيارهم الكفر على الايمان وهي انهم كانوا لا يقرون بالبعث والنشور فأمر النبي ﷺ بأن يكذبهم فقال : قل يا محمد : بلى وربي أي وحق ربي على وجه القسم (لتبعثن) أي لتحشرن اكد سبحانه تكذيبهم بقوله : بلى وباليمين ، ثم اكد اليمين باللام

(١) سورة التغابن الآية ٧ .

والنون ، ثم بين الفلسفة في البعث بقوله : « ثم لتنبؤن بما عملتم » أي لتخبرن وتحاسبن بأعمالكم وتجازون عليها وان ذلك البعث والحساب مع الجمع لكل المخلوقين والجزاء على الله يسير وسهل هين لا يلحقه بذلك مشقة ولا معاناة فيه ، كما قال تعالى في موضع آخر : « كما بدأنا أول خلق نعيده » ثم امرهم بما هو خير لهم وهو الايمان بالله ورسوله والقرآن ، وسماه نوراً لما فيه من الأدلة والبراهين الموصلة إلى الحق فشبه بالنور الذي يهتدى به في الطريق « والله بما تعملون خبير » وعليم لا يفوته شيء مما تعملون من خير ومن شر « يوم يجمعكم ليوم الجمع » وهو يوم القيامة أي ان ذلك البعث والجزاء يكون في يوم يجمع فيه الخلق الأولون منهم والآخرون « ذلك يوم التغابن » وهو أخذ شر وترك خير فيكون مغبوناً صاحبه أو أخذ خير وترك شر فيكون غابناً صاحبه فالمؤمن ترك حظه من الدنيا وأخذ حظه من الآخرة والكافر ترك حظه من الآخرة وأخذ حظه من الدنيا .

وقد روي عن النبي ﷺ في تفسيره انه قال : ما من عبد مؤمن يدخل الجنة إلا أري مقعده من النار لو كان مسيئاً ليزداد بذلك شكراً (ولذة) ومامن عبد يدخل النار ، إلا أري مقعده من الجنة لو كان محسناً ليزداد حسرة وندامة

وقال تعالى : « وقلنا من بعده لبني اسرائيل اسكنوا الأرض فاذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً » (١) .

معناه جئنا بكم من القبور إلى الموقف للحساب والجزاء مختلطين التف بعضكم ببعض لا تتعارفون ولا ينحاز احد منكم إلى قبيلته .

وقيل : إن معنى قوله لفيفاً أي جميعاً اولكم وآخركم .

وقال تعالى ايضاً : « وقالوا أئذا كنا عظاماً ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً او لم يروا ان الله الذي خلق السموات والأرض قادر على ان يخلق مثلهم

(١) سورة الاسراء الآية ١٠٧ .

وجعل لهم اجلا لاريب فيه » (١) .

ومعناه شدة الانكار منه سبحانه على منكري البعث ومستبعدي الأحياء وان ذلك يكون في وقت معين واجل محدد لا يتداخله الريب والشك .

وقال تعالى ايضاً : « ائذا متنا و كنا تراباً وعظاماً ائنا لمبعوثون او آباؤنا الأولون قل نعم وانتم داخرون فانما هي زجرة واحدة فاذا هم ينظرون » (٢) .

فأمر سبحانه نبيه ﷺ ان يقول لهم رداً على ما استبعدوه (قل نعم) بعثون (وانتم داخرون) اي صاغرون اشد الصغار ، ثم بين كيفية ذلك البعث ومنتهى سهولته ، فقد جعله سبحانه بزجرة واحدة ، اي صيحة واحدة من إسرافيل ، يعني نفخة البعث كما سيأتي تفصيلها في بعض الأخبار .

وقال تعالى : « ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون وقال الذين اوتوا العلم والايمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون » (٣) .

ومعناه انهم يحلفون ما لبثوا وما مكثوا في الدنيا غير ساعة واحدة لاستقلالهم مدة الدنيا .

وقيل : إن معناه ما لبثوا بعد انقطاع عذاب القبر عنهم غير ساعة واحدة حتى جاءهم عذاب يوم القيامة ، لأنه اعظم من عذاب القبر ، وان قلت : إنهم كيف يحلفون كذباً وهم في الآخرة مع ان المعارف فيها ضرورية فنقول : إنهم قد استقلوا الدنيا لما عاينوا من امر الآخرة فكأنهم قالوا : ما الدنيا في الآخرة إلا ساعة حيث انهم اشتغلوا في المدة اليسيرة بما اوردهم وزجهم في تلك الأهوال الكثيرة وقال تعالى : « أئذا كنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون

---

(١) سورة الاسراء الآية ١٠١ .　　(٢) سورة الصافات الآية ١٧ .

(٣) سورة الروم الآية ٥٥ .

قل ان الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم » (١) ، وهو يوم القيامة ، ومعناه قريب من معاني سابقاتها .

وقال تعالى : « إذا السماء انفطرت وإذا الكواكب انتثرت وإذا البحار فجرت وإذا القبور بعثرت علمت نفس ما قدمت وأخرت » (٢) .

ومعناه ان السماء تنشقق وتنقطع والكواكب تتساقط وتتهافت .

قال ابن عباس : سقطت سوداء لا ضوء لها .

كان القدماء يرون ان السماوات لن تزول ولن تنشق ، ولكن الحق ان الكرات السماوية كالكرة الأرضية في معرض التفرق والزوال والشمس والقمر يذهب نورهما ويموتان كسائر الأجسام .

كما أخبر تعالى عن ذاته في شؤونها واعمالها فقال : « كل يوم هو في شان » (٣) ، يخرب عالماً ويحدث عالماً بل عوالم « وإذا البحار فجرت » أي فتح بعضها في بعض عذبها في مالحها ومالحها في عذبها ، فصارت بحراً واحداً .

وقيل : إن معناه ذهب ماؤها « وإذا القبور بعثرت » قلب ترابها وبعث الموتى الذين هم فيها .

وقيل : إن معناه بحثت عن الموتى ، وكله كناية عن إحياء الموتى طبقاً لما هو المعهود في الأذهان من ان الأموات يكونون في القبور ، فالمفهوم منه باللازم الاحياء ، وإن لم يكن الميت في القبر ، فلا ينافي ما تقدم في الفصل الثاني من كونهم في غير قبورهم « علمت نفس ما قدمت » واضح المعنى « وأخرت » من سنة حسنة قد سنها لما كان في الدنيا ، فله أجر من عمل بها من غير ان ينقص من اجورهم فهي تدر عليه بالحسنات او سنة سيئة فعليه وزر من عمل بها من غير ان ينقص من اوزارهم شيء ، فهي تتابعه وهو في الآخرة فتزداد عليه العقوبات

(١) سورة الواقعة الآية ٤٨ . (٢) سورة الانفطار الآية ٦ .
(٣) سورة الرحمن الآية ٣٠ .

وقال تعالى: « إذا السماء انشقت وأذنت لربها وحقت وإذا الأرض مدت وألقت ما فيها وتخلت ... الخ » .

المعنى أي تصدعت وانفرجت ، وانشقاقها من علامات القيامة ، وقد ذكر الانشقاق في مواضع من القرآن ، ومعنى أذنت لربها أي سمعت وأطاعت في الانشقاق « وحقت » أي وحق لها ان تنقاد لأمر ربها الذي خلقها وتطيعه « وإذا الأرض مدت » أي بسطت باندكاك جبالها وآكامها حتى تصير كالصحيفة الملساء « وألقت ما فيها » من الموتى والكنوز ، نظير قوله تعالى : وأخرجت الأرض أثقالها « وتخلت » أي خلت فلم يبق في بطنها شيء « وأذنت لربها وحقت» وليس هذا بتكرار ، لأن الأول في صفة السماء ، والثاني في صفة الأرض وهذا كله من اشراط الساعة وجلائل الأمور التي تكون فيها ، والجواب لهذا كله محذوف ، أي إذا كانت هذه الأشياء ، رأى الانسان ما قدم من خير او شر ويدل عليه قوله تعالى : « يا ايها الانسان انك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه »

ومعناه خطاب عام لجميع المكلفين ، لأنه بلفظ الانسان ، فكأنه يقول : إن كل واحد منكم كادح ، أي ساع في عمله وعامل عملا في مشقة وجهد ، سواء عمل الدنيا والسيئات ، او عمل الآخرة والحسنات ، فكل جاهد في عمله الذي لابد وان يوصله إلى ربه ، لأن الأعمال كلها صغيرها وكبيرها في سجل ينتهي به اليه تعالى فملاقيه ، أي ملاق جزاء عمله .

وقيل : أي ملاق لربه وصائر إلى حكمه حيث لا حكم إلا حكمه ، ثم قسم احوال الخلق عند الملاقاة ، وفي يوم القيامة فقال : «فأما من أوتي كتابه بيمينه» أي من اعطي كتابه الذي ثبتت فيه اعماله من طاعة او معصية بيده اليمنى ، لأن إعطاء الكتاب باليمنى علامة الرضا منه تعالى وشعار له عند الملائكة واهل المحشر بذلك « فسوف يحاسب حساباً يسيراً » أي لا يناقش في الحساب .

وقيل : معناه التجاوز عن السيئات والانابة على الحسنات ، ومن نوقش عذب .

وفي رواية اخرى انه يعرف بعمله ؛ ثم يتجاوز عنه .

وفي حديث آخر ثلاث من كن فيه حاسبه الله حساباً يسيراً ، وأدخله الجنة برحمته ، قالوا : وما هي يا رسول‌الله ؟ قال : تعطي من حرمك ، وتصل من قطعك وتعفو عمن ظلمك « وينقلب إلى اهله مسروراً » أي بعد الفراغ من الحساب ينقلب إلى اهله مسروراً بما اوتي من الخير والكرامة ، والمراد بالأهل هنا ما اعده الله له من الحور العين .

وقيل : أزواجه وأولاده وعشائره ، وقد سبقوه إلى الجنة إكراماً له وإتماماً لسروره ، ومعنى السرور هو الاعتقاد بوصول نفع اليه ، او دفع ضرر عنه وكلاهما حاصل له ، حيث دفع عنه عذاب جهنم ، وقد رأى المسحوبين على وجوههم من اقرانه إلى النار ، حيث اغواهم الشيطان بعدما سولت لهم نفوسهم وأعطي الحور في القصور مع تيسير الحساب ، فهو مسرور بهما جميعاً « واما من اوتي كتابه وراء ظهره » وإنما كان وراء ظهره ، لأن يمينه قد غلت إلى عنقه ، وتكون يده اليسرى خلف ظهره ، وذلك امارة للملائكة والمؤمنين بأنه قد سخط الله عليه ، وانه علامة الحساب والمناقشة وسوء المآب .

ثم حكى سبحانه ما يحل به على عكس الأول فقال : « فسوف يدعو ثبوراً » أي هلاكا إذا قرأ كتابه فيقول : وا ثبوراه وا هلاكاه « ويصلى سعيراً » أي يدخل النار على أثر ذلك ويعذب بها .

وقيل : إن معناه انه يصير صلاه النار المسعرة .

وقيل : يلزم النار معذباً على وجه التأبيد « انه كان في اهله مسروراً » أي ناعماً في الدنيا لا يهمه امر الآخرة ، ولا يتحمل مشقة العبادة والطاعة إلى

الله تعالى فأبدله الله بسروره الموقت القصير الأمد غماً باقياً لا ينقطع .

واما المؤمن فقد كان مهتما بأمور الآخرة ، ومعذبة نفسه من قبله كما قال امير المؤمنين عليه السلام : المؤمن نفسه منه في تعب والناس منه في راحة فأبدله الله تعالى بهمه سروراً لا يزول ولا يبيد .

وقيل : إن معناه انه كان مسروراً بمعاصي الله لا يندم عليها ، ولهذا قيل إن من عصى وسر بمعصية الله ، فقد ظن انه لا يرجع إلى البعث حيث لو كان موقناً بالبعث والجزاء لكان بعيداً عن السرور بالمعاصي « انه ظن ان لن يحور » أي ظن في دار التكليف انه لن يرجع إلى حال الحياة في الآخرة إلى الجزاء وقال كما قال الأولون : « أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون » فارتكب المآثم وانتهك المحارم دون تورع او توقف ، بل عمل بما تشتهيه نفسه وتتطلبه شهوته « بلى » ليحورن وليبعثن ، وليس الأمر على ما ظن « ان ربه كان به بصيراً » من يوم خلقه إلى يوم بعثه ، بل من قبل أن يخلقه ويوجده ، وإنما كان منه تعالى هذا الأجل الموقت لاقامة الحجة لديه وإحكام البرهان عليه لينقطع عن الجواب ، ويستحق بذلك سوء المآب ، وأليم العقاب .

ورود الأخبار في البعث وكيفيته

اما وقته فقد اختص الله سبحانه بعلمه فقال : « إن الله عنده علم الساعة » اي لا يكون عند غيره ، وان كتمانه لمصالح يعلمها جل شأنه فتبقى الناس بعضهم أحياء وبعضهم أموات حتى يأذن الله تعالى بفناء الدنيا وأهلها فيأمر إسرافيل فينفخ نفخة يهلك فيها كل ذي روح ، ثم ينفخ النفخة الثانية التي يحييهم بها للحشر ، اما مقدار ما بين النفختين فقد روى علي بن ابراهيم في تفسيره عن الامام

زين العابدين عليه السلام انه سئل عن النفختين كم بينهما ؟ قال : ما شاء الله ، وفي رواية اربعين سنة ، فقيل له : اخبرنا يابن رسول الله كيف هو ؟ فقال عليه السلام : اما النفخة الاولى ، فان الله يأمر إسرافيل فيهبط إلى الدنيا ، ومعه الصور وله رأس واحد وطرفان ، فاذا رأت الملائكة إسرافيل وقد هبط إلى الدنيا ومعه الصور قالوا : قد أذن الله تعالى في موت اهل الارض وفي موت اهل السماء ، فيأتي إلى بيت المقدس ويستقبل القبلة فينفخ فيه نفخة فيخرج الصوت من الطرف الذي يلي الارض ، فلا يبقى في الارض ذو روح إلا صعق ومات ، ثم ينفخ فيه اخرى فيخرج الصوت من الطرف الذي يلي السماء فلا يبقى في السماء ذو روح إلا صعق ومات إلا إسرافيل فيقول الله له : يا إسرافيل مت فيموت فيمكثون في ذلك ما شاء الله ، ثم يأمر الله السماوات فتمور ويأمر الجبال فتسير وهو قوله تعالى : « يوم تمور السماء موراً وتسير الجبال سيراً » وتبدل الارض غير الارض يعني بأرض لم يكتسب عليها الذنوب بارزة ليس عليها جبال ولا نبات كما دحاها الله تعالى اول مرة ويعيد عرشه على الماء كما كان اول مرة ، فعند ذلك ينادي الجبار جل جلاله لمن الملك اليوم ، فلا يجيبه مجيب ، فعند ذلك يقول هو سبحانه مجيباً لنفسه لله الواحد القهار : أنا قهرت الخلائق كلهم وامتهم ، إني انا الله لا إله إلا أنا وحدي لا شريك لي ولا وزير ، وانا خلقت خلقي وامتهم بمشيئتي وانا احييهم بقدرتي فينفخ الجبار نفخة في الصور يخرج الصوت من الطرف الذي يلي السماوات فلا يبقى احد في السماوات إلا حيي وقام وتعود حملة العرش وتحضر الجنة والنار ويحشر الخلائق للحساب .

قال الراوي : فرأيت علي بن الحسين (ع) يبكي بكاءً شديداً .

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : كيف انعم وصاحب الصور قد التقمه واصغى سمعه واحنى جبهته ينتظر حتى يؤمر بالنفخ ، قالوا : يا رسول الله ؟ وما تأمرنا ؟

قال : قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل .

وروى الكليني في الصحيح عن يعقوب الأحمر قال : دخلنا على ابي عبدالله عليه السلام نعزيه باسماعيل فترحم عليه ثم قال : إن الله عز وجل نعى إلى نبيه نفسه فقال : إنك ميت وانهم ميتون ، وكل نفس ذائقة الموت ، ثم انشأ يحدث فقال : إنه يموت اهل الأرض حتى لا يبقى احد ، ثم يموت اهل السماء حتى لا يبقى احد وذكر تفصيلات تشابه التفصيلات في الخبر السابق ، ثم قال : وهاتان النفختان قد حكاهما سبحانه حيث قال : « وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا ما شاء الله ثم نفخ فيه اخرى فاذا هم قيام ينظرون وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون ووفيت كل نفس ما عملت وهو اعلم بما يفعلون » (١) .

مفاجأة النفخة الاولى

ان الصور على ما قاله المفسرون قرن ينفخ فيه إسرافيل بشكل عظيم ، وان النفخة الأولى التي هي للاهلاك تأتي الناس بغتة وهم في اسواقهم وطلب معايشهم وهم في غفلتهم ، فاذا سمعوا صوت الصور تقطعت قلوبهم واكبادهم من شدته فيموتوا دفعة واحدة فيبقى الجبار جل جلاله فيأمر ريحاً عاصفة فتقلع الجبال من اماكنها وتلقيها في البحار وتغور مياه البحار وكل ما في الأرض وتسطح الأرض كلها للحساب ، فلا يبقى جبل ولا شجر ولا بحر ولا وهدة ولا تلمة فتكون ارضاً

(١) سورة الزمر الآية ٦٨

بيضاء حتى روي انه لو وضعت بيضة في المشرق ، رؤيت من المغرب ، فيبقى سبحانه على هذا الحال اربعين سنة (١) .

كيفية بعثة الاموات واحيائها

فاذا اراد الله تعالى ان يبعث الخلق قال الصادق ﷺ : امطر السماء على الأرض اربعين صباحاً فاجتمعت الأوصال ونبتت اللحوم ، ويأمر الله ريحاً حتى تجمع التراب الذي كان لحماً وقد اختلط بعضه ببعض وتفرق في البراري والبحار وفي بطون السباع فتجمعه (٢) تلك الريح في القبر ، فعند ذلك يجيء إسرافيل وصوره ويأمره الله عز اسمه بالنفخة الثانية ، فاذا نفخ تركبت اللحوم والأعضاء وأعيدت الأرواح إلى ابدانها وانشقت القبور فخرجوا خائفين من تلك الصيحة ينفضون التراب عن رؤوسهم فيجيء إلى كل واحد ملكان عند خروجه من القبر يقبض كل واحد منها عضداً منه فيقولان : اجب رب العزة فيتحير من لقائها ويأخذه الخوف والفزع ، حتى انه في تلك الساعة يبيض شعر رأسه وعند ذلك يكثر في الأرض الزلزال ، فتخرج ما فيها من الأثقال ، وتشيب الأطفال ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولـكن عذاب الله شديد ، وذلك قوله تعالى: « إذا زلزلت الارض زلزالها وأخرجت الارض اثقالها وقال الانسان مالها ... الخ » .

وقد ورد عن النبي ﷺ في فضل قراءة سورة الزلزال انه من قرأها فكأنما قرأ البقرة ، وأعطي من الاجر كمن قرأ ربع القرآن .

(١) هذا محصل روايات في ذلك مطولة .
(٢) أي تجمع أجزاء بدن كل فرد في قبره .

وعن أنس بن مالك قال : سأل النبي ﷺ رجلا من اصحابه فقال : يا فلان هل تزوجت ؟ قال : لا وليس عندي ما اتزوج به ، قال ﷺ : أليس معك قل هو الله احد ؟ قال : بلى ، قال ﷺ : ربع القرآن ، قال : أليس معك قل يا ايها الكافرون ؟ قال : بلى ، قال : ربع القرآن ، قال : أليس معك إذا زلزلت ؟ قال : بلى ، قال : ربع القرآن . ثم قال ﷺ : تزوج تزوج تزوج .

وعن ابي عبدالله عليه السلام قال : لا تملوا من قراءة إذا زلزلت ، فان من كانت قراءته في نوافله لم يصبه الله بزلزلة ابداً ولم يمت بها ولا بصاعقة ولا بآفة من آفات الدنيا ، وإذا مات أمر به إلى الجنة فيقول الله عز وجل : عبدي أبحتك جنتي فاسكن منها حيث شئت وهويت لا ممنوع ولا مدفوع عنه .

معنى السورة فلسفة الثواب

اراد سبحانه لعباده ان يستعرضوا دائماً اهوال يوم القيامة ليرتدعوا عن فعل ما يوجب طويل قيامهم فيها فرتب عظيم الثواب على قراءتها ، ورغب في حسن المآب بتلاوتها ، حيث انه سبحانه قد ضمنها عظيم اهوالها وشديد احوالها ومفصلات حوادثها ، بالرغم من إيجاز ألفاظها ، وإحكام تراكيبها ، تذكيراً لهم وتنبيهاً عن الغفلة ، وإيقاظاً من الرقدة .

المعنى

« إذا زلزلت » أي حركت الارض تحريكا شديداً لقيام الساعة وقال : « زلزالها » أي الزلزال المكتوب عليها لافادة التعميم لجميع الارض ، وانه بخلاف

الزلازل المعهودة التي تختص ببعض الأرض ، فيكون في قوله : زلزالها تنبيه على شدتها ، ثم قال : « وأخرجت الأرض اثقالها » اي اخرجت موتاها المدفونة فيها إحياءً للجزاء .

وقيل : إن معناه لفظت ما فيها من كنوزها ومعادنها فتلقيها على ظهرها ليراها اهل الموقف ، وتكون الفائدة في ذلك ان يتحسر العصاة إذا نظروا اليها حيث انهم عصوا الله سبحانه من اجلها ، ثم تركوها لا تغني عنهم شيئاً ولاتدفع عنهم عذاباً ، وايضاً ليحمى عليها كي تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم على حد تعبير القرآن الكريم عن ذلك « وقال الانسان مالها » اي ويقول الانسان متعجباً : ما للأرض تتزلزل يعني مالها فقد حدث فيها مالم يعرف منها « يومئذ تحدث أخبارها » اي انها تخبر بما عمل عليها .

وجاء في الحديث ان النبي ﷺ قال : أتدرون ما اخبارها : قالوا : الله ورسوله اعلم ، قال : اخبارها ان تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها تقول : عمل كذا وكذا يوم كذا وكذا ، هذا اخبارها .

وقد ذكروا في كيفية تكلمها وجوهاً لا حاجة إلى ذكرها بعدما علمنا انه تعالى على كل شيء قدير « بأن ربك اوحى لها » .

معناه ان الأرض تحدث بها وتقول : إن ربك يا محمد اوحى لها وألهمها وعرفها ، وإذا كانت بوحي منه تعالى فلا مجال حينئذ للرد عليها في كل ما تشهد به على الانسان .

وروى الواحدي باسناده قال : قال رسول الله ﷺ : حافظوا على الوضوء وخير اعمالكم الصلاة وتحفظوا من الأرض فانها امكم وليس فيها احد يعمل خيراً او شراً إلا وهي مخبرة به .

وقال ابو سعيد الخدري : إذا كنت بالبوادي فارفع صوتك بالأذان فاني

سمعت رسول الله ﷺ يقول : لا يسمعه جن ولا إنس ولا حجر إلا ويشهد له « يومئذ يصدر الناس اشتاتاً » اي يرجع الناس عن موقف الحساب بعد العرض متفرقين اهل الايمان على حدة واهل كل دين على حدة ، وهذا مثل قوله تعالى : ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون « ليروا اعمالهم » اي ليروا جزاء اعمالهم ، او ليروا نفس اعمالهم بناء على تجسم الأعمال .

والمعنى انهم يرجعون عن الموقف فرقاً لينزلوا منازلهم من الجنة والنار « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره » اي وزن ذرة من الخير ير ثوابه وجزاءه ، والذرة هي النملة الحمراء او ما يكون في الهباء ، وما يرى في النافذة عند شروق الشمس منها : « ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » اي ير ما يستحق عليه من العقاب .

وقال مقاتل : كان احدهم يستقل ان يعطي اليسير ويقول : إنما نؤجر على ما نعطي إذا كنا نحبه ، وليس اليسير مما نحب ، ويتهاون بالذنب اليسير ويقول : إنما وعد الله النار على الكبائر فأنزل الله هذه الآية يرغبهم في القليل من الخير ويحذرهم اليسير من الشر .

وعن ابي عثمان المازني عن ابي عبيدة قال : قدم صعصعة بن ناجية (١) على رسول الله ﷺ في وفد بني تميم فقال : بأبي انت يا رسول الله اوصني خيراً قال ﷺ : اوصيك بأمك وابيك وأدانيك قال : زدني يا رسول الله ، قال : احفظ ما بين لحييك ورجليك (٢) ، ثم قال رسول الله ﷺ : ما شيء بلغني عنك فعلته ، فقال : يا رسول الله رأيت الناس يموجون على غير وجه ولم ادر اين الصواب ، غير اني علمت انهم ليسوا عليه فرأيتهم يئدون بناتهم فعرفت ان الله

(١) جد الفرزدق الشاعر المشهور .
(٢) أي لسانك وفرجك .

عز وجل لم يأمرهم بذلك فلم اتركهم يئدون وفديت ما قدرت عليه (١) .

وفي رواية انه سمع « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » فقال : حسبي ما ابالي ان لا اسمع من القرآن غير هذا ، ويحق ذلك له ولكل ذي لب ، لأنها لم تبق اي عذر لانسان .

ولهذا قال عبدالله بن مسعود : احكم آية في القرآن « فمن يعمل مثقال ذرة إلى آخر السورة ، وكان رسول الله ﷺ يسميها الجامعة .

وتصدق سعد بن ابي وقاص بتمرتين فقبض السائل يده « لاستقلاله ذلك » فقال سعد : ويحك يقبل الله منا مثقال الذرة والخردلة ، وكان فيها مثاقيل .

من هو الانسان القائل مالها ؟

روي ان الأرض تزلزلت في زمن تخلف عمر بن الخطاب ففزع الناس اليه فقال : اغدوا بنا إلى علي بن ابي طالب عليه السلام فأتوا اليه وقام معهم بيده قضيب رسول الله ﷺ فخرج معهم إلى البقيع والأرض تتزلزل فضربها بالقضيب وقال مالك ايتها الأرض مالك لا تتكلمين ، فلما لم تتكلم قال عليه السلام : ليست هذه تلك فقيل له : كيف هذا ؟ قال : إن الأرض تزلزل عند القيامة فآتي انا اليها وانا ذلك الانسان فأقول لها : مالك ايتها الأرض ، فتحدثني بأخبارها وتقول : إن الله تعالى اوحى إلي ان اخرج ما في بطني من المعادن والأموات والأثقال فيومئذ يصدر الناس من الأرض متفرقين يطلبون ارض القيامة ليرون اعمالهم من خير وشر فيحشرون وهم حفاة عراة عزلا ينظرون إلى ما فوقهم من العذاب وإلى

(١) هذا ما ادركه بنور عقله وهو في الجاهلية ، وإذا قارنت بينه وبين بعض وجوه الصحابة الذي قد وأد بنته بنفسه ، وجدت التناغ بقدر للمرفة

ما تحت ارجلهم .

وقد ذكر في ذيل خبر الجعفي السابق ان الكافر إذا اخرج من قبره وهو مسود الوجه منكس الرأس يأتيه عمله الخبيث فيقول له : والله ما علمتك إلا عن طاعة الله مبطئاً وإلى معصيته مسرعاً قد كنت تركبني في الدنيا وأنا اليوم اركبك وأقودك إلى النار فيستوي على منكبيه ويركله على قفاه حتى ينتهي به إلى عجزة جهنم وإذا بالملائكة قد استعدوا له بالسلاسل والأغلال ... الخ .

الوحوش والبهائم تحشر

وقد روي ان الوحوش والبهائم تحشر يوم القيامة كما يحشر ابن آدم فتسجد لله فتقول لها الملائكة : ليس هذا يوم السجود هذا يوم الثواب والعقاب فتقول البهائم : هذا سجود شكر حيث لم يجعلنا الله سبحانه من بني آدم (١) .

وقيل : إن الملائكة تقول للبهائم : لم يحشركم الله سبحانه لثواب ولاعقاب وإنما حشركم لتشهدوا فضائح بني آدم ، وفي قوله تعالى : وإذا الوحوش حشرت دلالة على حشرها فقط ، اما الغرض من ذلك فلا دلالة فيها عليه .

وقال تعالى : « وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم امثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون » (٢) .

فدلالة هذه الآية على موت الحيوانات وعلى حشرها صريحة وانها على اصناف مصنفة وتعرف بأسمائها ويشتمل كل صنف منها على العدد الكثير كالأمه (وإما) المراد بقوله تعالى : «امثالكم» ، فقد قيل : إنه يريد انها اشباهكم في إبداع الله إياها وخلقه لها ، وفي دلالتها على ان لها صانعاً .

(١) وذلك لما ترى من عظيم حسابه وجميع ما أعد لعقابه (٢) سورة الأنعام الآية ٣٨

وقيل : إن معناه انها امثالكم في حاجتها إلى مدبر يدبرها في اغـذيتها ولباسها (كخلق الصوف والشعر عليها) ونومها ويقضتها وهدايتها إلى مايرشدها وإلى جميع مصالحها ، وقد ظهر ايضاً من الآية عدم جواز تعدي العباد عليها وحرمة ظلمها في غير ما اباحه الله تعالى منها للعباد .

واما قوله تعالى : « ما فرطنا في الـكتاب من شيء » فمعناه ما تركنا أو ما قصرنا .

والمراد من الـكتاب هو القرآن حيث قد ذكر فيه جميع ما يحتاج اليه من امور الدين والدنيا إما مجملا وإما مفصلا ، والمجمل منه قد بينه ايضاً على لسان نبيه ﷺ وامرنا باتباعه في قوله تعالى : « ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » ومثل قوله تعالى : « ونزلنا عليك الـكتاب تبياناً لكل شيء » .

ويروى عن عبدالله بن مسعود انه قال : مالي لا العن من لعنه الله في كتابه يعني بذلك الواشمة والمستوشمة (١) والواصلة والمستوصلة (٢) فقرأت المرأة التي سمعت ذلك منه جميع القرآن ثم اتته فقالت : يابن ام عبد قد تلوت البارحة مابين الدفتين فلم اجد فيه لعن الواشمة ، فقال : لو تلوتيه لوجدتيه (٣) قال الله تعالى : « ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » وإن مما آتانا رسول الله ﷺ ان قال : لعن الله الواشمة والمستوشمة .

وقيل : إن المراد بالـكتاب الذي فيه تبيان كل شيء الـكتاب الذي هو عند الله عز وجل المشتمل على ما كان وما يكون ، وهو اللوح المحفوظ فيه آجال الحيوان وارزاقه وآثاره ، ومن فلسفته ان يعلم ابن آدم ان عمله اولى بالاحصاء

(١) الوشم أثر أخضر تعمله النساء بالابرة لنقش البشرة .
(٢) هو وصل المرأة شعرها بشعر من غيرها .
(٣) ومراده التلاوة مع تدبر المعاني .

والاستقصاء لما اودع الله تعالى فيه من العقل دونها « ثم إلى ربهم يحشرون » أي بعد موتهم يحشرون في يوم القيامة كما يحشر الناس فيعوض الله تعالى مايستحق العوض منها وينتصف لبعضها من بعض .

وروي ان رسول الله ﷺ قال : يحشر الله الخلق يوم القيامة البهائم والدواب والطير وكل شيء .

وفي رواية اخرى بزيادة قوله ﷺ : وكل ذي روح فيبلغ من عدل الله تعالى يومئذ ان يأخذ للجماء من القرناء ، ثم يقول : كوني ترابا ، فلذلك يقول الكافر : يا ليتني كنت ترابا (١) .

وعن ابي ذر قال : بينما انا عند رسول الله ﷺ إذ نطحت عنزان فقال النبي ﷺ : أتدرون فيما انتطحا ؟ فقالوا : لا ندري ، قال : لكن الله يدري وسيقضي بينهما .

وعلى هذا فمعنى جعلها أمثالنا أي في الحشر والاقتصاص من بعضها لبعض وقد استدل فرقة من اهل التناسخ بهذه الآية على ان البهائم والطيور مكلفة بالتكاليف كابن آدم لقوله تعالى : « أمم امثالكم » والتناسخ منسوب إلى فرقة (الحربية) وهم اصحاب فضل الحربي ومذهبهم مذهب (الحابطية) المنسوبين إلى احمد بن حاطب وهو من اصحاب النظام القائلين بأن للعالم إلهين (أحدهما) قديم وهو الله تعالى و (ثانيهما) محدث وهو المسيح ، وإن المسيح هو الذي يحاسب الناس في الآخرة ، وهو المراد بقوله تعالى : « وجاء ربك والملك صفاً صفاً » وهو الذي يأتي في ظلل من الغمام ، وهو المعني بقوله (٢) : « إن الله خلق

(١) لما يرى من عدم عقابها فيتمنى عوده ترابا كما أعيدت هي ليسلم مما رآه معدا له من شديد العقاب

(٢) أحاديث نسبت إلى الله تعالى وإنه هو قائلها وحيث إنها تتنافى فى نظرهم فى حقيقته تعالى حملوها على الإله الثانى وهو المسيح

آدم على صورته وبقوله: يضع الجبار قدمه في النار » وقالوا: إنما سمي المسيح لأنه زرع الأجسام وأحدثها ، وفرقة (الحربية) و (الحابطية) هما من فرق (المعتزلة) التي قد بلغت فرقها العشرين فرقة ، غير أن الحربية قد زادوا على معتقد الحابطية من وجود إلهين بالقول بالتناسخ ايضاً .

ما هو التناسخ ؟

التناسخ هو القول بأن الأرواح عند مفارقتها الأبدان بالموت تنتقل إلى الأبدان الأخرى من الناس من جديد فهي باقية على تكاليفها في الأبدان الجديدة المتولدة ، وهكذا تنتقل إلى أبدان أخر عند موت هذه الأبدان الثانية .

وقالوا ايضاً : إن كل حيوان مكلف ، وإن الله تعالى أبدع الحيوانات عقلاء بالغين في دار سوى هذه الدار وخلق فيهم العلم والمعرفة ، وأسبغ عليهم نعمه ثم ابتلاهم وكلفهم بشكر نعمه فأطاعه بعض فأقرهم في دار النعيم التي ابتدأهم فيها ، وعصاه بعض في الجميع فأخرجهم من تلك الدار إلى دار العذاب وهي النار وأطاعه بعض من البعض في بعض التكاليف دون البعض الآخر ، فأخرجهم إلى دار الدنيا وكساهم هذه الأجساد الكثيفة على صور مختلفة كصورة الانسان وسائر صور الحيوانات وابتلاهم بالبأساء والضراء والآلام واللذات على مقادير ذنوبهم ، فمن كانت معاصيه أقل ، وطاعاته اكثر كانت صورته احسن وآلامه أقل ومن كانت معاصيه اكثر وطاعاته أقل كانت صورته أقبح وآلامه اكثر ولا يزال يكون الحيوان في الدنيا في صورة بعد صورة وبدن بعد بدن ما دامت معه ذنوبه ، وهذا هو عين القول بالتناسخ ، غير أن اهل التناسخ مثلوه بالانسان وهؤلاء مثلوه بالحيوان ، ولكن هذا القول باطل ، حيث قد تبين المعنى المراد

من المماثلة ، وكيف يصح تكليفها وهي غير عاقلة بالفعل والوجدان . ومن اوضح الردود عليهم انهم لا يقولون بتكليف الانسان قبل البلوغ وكمال العقل مع وجود اصل العقل عنده فكيف يقولون بتكليف مالاعقل له أصلا ، وهذا وامثاله كالقول بالتجسيم والتشبيه كله من نتائج الجمود على اللفظ مع وجود الصارف عن ذلك ، وإن شئت فقل : إنه من نتائج وسوسة الخناس في صدور الناس ، فليعلم سعة خلطه الحربية ومنوع أسلحته الذرية في إغواء ابن آدم وصرفه للخلق عن الحق وإيقاعهم في الضلال حسب ما أقسم بحضرة الله ذي الجلال بقوله : « وعزتك لأغوينهم اجمعين إلا عبادك منهم المخلصين » فان كل سبب لحدوث الخلاف بين المسلمين إنما هو شبهة ، ولايجاد فرقة فهو كله متفرع على شبهة إبليس وهي استقلاله بالرأي في مقابلة النص واختياره الهوى في معارضة الأمر والتكليف واستكباره بالمادة التي خلق منها وهي النار على مادة آدم ﷺ وهي الطين ، وقد تفرعت هذه إلى سبع شبه حتى ارتكزت في أذهان الناس وسارت فيهم وانتشرت فيما بينهم وزينها في أعينهم حتى صارت مذاهب مبتدعة ، ويرون انهم اهتدوا اليها بفضل إدراكهم ووافر علمهم ، والحال انهم قد دفعهم اليها شيطانهم وسولتها لهم نفوسهم .

وقد سطرت تلك الشبهات السبع في الأناجيل الأربعة ، وفي التوراة في مواضع متعددة وذكروها على شكل مناظرة بين إبليس وبين الملائكة بعد امره بالسجود وامتناعه عنه .

فقال في احتجاجه في شبهته : إني سلمت واعترفت أن الباري تعالى إلهي وإله الخلق عالم قادر لا يُسأل عن قدرته ومشيته ، فانه مهما اراد شيئاً قال له كن فيكون وهو عليم حكيم ، إلا انه يتوجه على علمه وحكمته أسئلة سبعة قالت الملائكة وما هن ؟ قال : (أولها) انه علم قبل خلقي اي شيء يصدر مني فلِمَ خلقني أولاً

وما الحكمة في خلقه إياي ؟ .

(ثانيها) إذ خلقني على مقتضى إرادته ومشيته فِلمَ كلفني بمعرفته وطاعته وما الحكمة في التكليف بعد ان كان هو لا ينتفع بطاعة ولا يتضرر بمعصية ؟ .

(ثالثها) إذ خلقني وكلفني فالتزمت تكليفه بالطاعة والمعرفة ، فعرفت وأطعت فِلمَ كلفني بطاعة آدم والسجود له ، وما الحكمة في هـــذا التكليف بخصوصه بعد ان كان لا يزيد ذلك في معرفتي وطاعتي ؟ .

(رابعها) إذ خلقني وكلفني على الاطلاق أولا ، ثم كلفني بهذا التكليف على الخصوص ثانياً ، فحيث لم أسجد فِلمَ لعنني وأخرجني من الجنة ، وما الحكمة في ذلك بعد ان لم أرتكب قبيحاً إلا قولي لا أسجد إلا لك ؟ .

(خامسها) إذ خلقني وكلفني مطلقاً وخصوصاً فلم أطع فلعنني وطردني وقد سلمت ذلك كله فِلمَ أدخلني إلى الجنة ثانياً حتى غررت آدم بوسوستي فأكل من الشجرة المنهي عنها وأخرجه من الجنة معي ، وما الحكمة في ذلك ولو كان منعني من دخول الجنة استراح مني آدم وبقي خالداً فيها ؟ .

(سادسها) سلمت له إذ خلقني وكلفني عموماً وخصوصاً ولعنني ثم ادخلني الجنة واخرجني للخصومة التي كانت بيني وبين آدم فِلمَ سلطني على اولاده تسليطاً بحيث اراهم ولا يروني وتؤثر فيهم وسوستي ولا يؤثر فيّ حولهم وقوتهم وقدرتهم واستطاعتهم ، وما الحكمة في ذلك بعد ان كان قد خلقهم على الفطرة فكانوا سامعين مطيعين وكان ذلك احرى بهم وأليق بالحكمة ؟ .

(سابعها) سلمت هذا كله حيث خلقني وكلفني مطلقاً ومقيداً وإذ لم اطع لعنني وطردني وإذ أردت دخول الجنة مكنني وإذ عملت عملي أخرجني ثم سلطني على بني آدم حتى إذا استمهلته فِلمَ أمهلني « فقلت انظرني إلى يوم يبعثون قال إنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم » وما الحكمة في ذلك بعد ان

لو اهلكني في الحال استراح الخلق مني ومابقي شر في العالم ، أليس بقاء العالم على نظام الخير خيراً من امتزاجه بالشر ، وما الحكمة في ذلك ؟ ثم قال لعنه الله : فهذه حجتي على دعواي في كل سؤال .

قال شارح الانجيل : فأوحى الله تعالى إلى الملائكة قولوا له : إنك في اعترافك وتسليمك الأول باني إلهك وإله الخلق ، غير صادق ولا مخلص إذ لو صدقت باني إله العالمين لما احتكمت عليّ بلم فأنا الله الذي لا إله إلا أنا لا اسأل عما افعل والخلق مسؤولون .

فأصل هذه الشبه له لعنه الله هو الاستكبار أولاً ، والعمل منه على القياس الباطل ثانياً ، ثم كانت هذه الشبه السبع اصولا لشبهات الخلق وتعدد الفرق ، فقد جادل بعضهم الأنبياء بقولهم : « أبشر يهدوننا » وهذا كما تراه مأخوذ من قول إبليس : « أأسجد لمن خلقت طيناً » ومنشأهما معاً هو التكبر وعدم الانصياع إلى الأفضل والانقياد إلى الواقع ، او كما يعبر عنه في الوقت الحاضر (بحب الذات) وربما كانت الفرقة الواحدة المتابعة لرأي رئيسها الواحد والمتفقة على فتوى مدرسها الفارد قد حدث بين أفرادها نزاع في أصل من الأصول او في فرع من الفروع ، وأقام كل طرف منها ما يسميه دليلا على ما ذهب اليه ، ثم يبلغ به الوهم او الكبر إلى التعصب لرأيه ، والثبات على خطئه فتصل به الحالة إلى مرحلة الانفصال عن درس استاذه ، والافتراق عن مجموعة أقرانه فتضم اليه جماعة ممن قد اخذت الشبهة مقرها من مريض ادمغتهم ، واستحكامها في ناقص عقولهم ، فتصبح فرقة ثانية قد تسمت باسم محدثها ، ونسبت إلى عنوان مغويها وهكذا يتسلسل الأمر ، فتصل الفرق في الدين إلى ثلاث وسبعين ، وتكون معجزة لسيد المرسلين وخاتم النبيين .

حيث انه صلى الله عليه وآله قد اخبر بذلك من قبل وقوعه بعشرات السنين ، تارة

بقوله ﷺ : « لتسلكن سبل الأمم قبلكم حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة حتى لو دخلوا حجر ضب لدخلتموه » ، وتارة بأصرح من هذا كقوله ﷺ : « افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة ، وقد صدّر المطلوب بما يعطي الاستنكار والطعن على هؤلاء لافتراقهم الكثير ، ثم يعقبه بما هو المراد له ﷺ من قوله : وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة ، ليكون إنكارهم على انفسهم اشد ، وردعه ﷺ لهم اقوى ، حيث قد دعم تكليفه لهم وأمره الضمني بعدم تفرقهم بالحجة والبرهان والبليغ من كلامه وحسن البيان ، وقد كنى لهم عن كراهته لفرقتهم ، حيث ان الكناية أبلغ من التصريح (لأنها كدعوى مع الدليل كما ذكر ذلك علماء المعاني والبيان)

زيادة الايضاح منه ﷺ

وحيث قد علم ﷺ عن ربه جل جلاله وقوع ذلك في أمته من بعده بالرغم من شدة نكيره وبأبلغ تعبيره فيرشدهم إلى ما يجب عليهم ويعين لهم ما به خلاصهم من الموقف بين يدي ربهم ، وقيام الحجة عليهم بعدما قال : « وستفترق امتي على ثلاث وسبعين فرقة » بقوله ﷺ : كلها هالكة ، او كلها في النار (١) إلا فرقة واحدة ، او هي الناجية ، فربما يقف العقل كما هي عادته في بادىء امره ويشكك السامع بغلبة وهمه ، ويجد إبليس لعنه الله نافذة قد فتحت أمامه فيلج منها داخلا في مجالات تفكيره موسعاً عليه الشبهة بفنون تحويره .

بل ربما وضع الحواجز للحواس دون ان تستمد من القلب مما اودع فيه

(١) مصادر هذه الأحاديث غنية عن الذكر ، لأنها محل لإجماع من المسلمين ، ولأي كتاب لهم رجع القاري يجدها .

من تنويره ، بالتقامه لقلبه كما قد ورد (للخناس) في تفسيره ، وعندها يركز الشبهة في سقيم عقله ومغلوط إدراكه ، فيقول : إن هذا غير معقول وكيف تكون عامة المسلمين والأكثرية منهم هالكة او في النار ، وهذا لا يتناسب مع عدل الجبار ، ولم يلتفت إلى انه قد نبذ بذلك قول الرسول المختار الذي قد شهد بصدقه (العدل الجبار) بقوله تعالى : « وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى » بالاضافة إلى مخالفته لنفس حسه وما تحققه بسمعه من قوله تعالى : « وقليل من عبادي الشكور » .

وأمثالها وإلى ما جرت عليه السيرة مع سالف الأمم كمثل نوح عليه السلام حيث هالك من امته جميع من في الأرض بالطوفان وبعده يكون مصيرهم إلى لهب النيران عدا من ركب معه في السفينة ولم يبلغوا المائة عدداً على ارق الروايات .

وكذلك ما عرفه من نص القرآن عن قوم موسى عليه السلام حيث لم ينج منهم إلا القليل ، وهكذا نجد كل نبي ان الهالك من امته اضعاف الناجين منهم وما الناجون ، إلا النزر القليل ، فلِمَ لا نستنكر ذلك كما نستنكر قول نبينا صلى الله عليه وآله وسلم وهو الصادق الأمين : « كلهم في النار إلا فرقة ناجية » ، نعم لوقوف إبليس لعنه الله في هذا دون ذلك .

من هي الفرقة الناجية ؟

فيتساءل هنا بعدما رفع عنا استبعاد هلاك الأكثر ، وان ذلك وفق طبيعة البشر كما قد أثبته صحيح الأثر ، ويقال ما ترى وما هي الفرقة الناجية ، وهل ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو الحريص على إرشاد أمته وإحكام شريعته ؟ ابقى ذلك مبهما وتركه ملبساً وحاشاه لمنافاة ذلك لعصمته ومعارضته لرسالته .

بل انه ﷺ قد بينه بأوضح بيان ودعمه بالحجة والبرهان بما قد أجمعت عليه كلمة المسلمين وأطبقت عليه أقلام الكاتبين من قوله الصادع وبيانه الناصع « إني مخلف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي اهل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا وانهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض » .

ومثل قوله ﷺ : مثل اهل بيتي كمثل سفينة نوح من ركبها نجى ومن تخلف عنها غرق وهوى ، إلى كثير مما هو بمعناه ، فماذا ترى ايها المنصف لو تأملت بأدنى تأمل في ذلك هل انه ﷺ قد عين الفرقة الناجية أم لا بعدما حصرها بواحدة ، ثم رتب عدم الضلال المؤبد على التمسك بالقرآن واهل البيت عليهم السلام مرتبطين ومجموعين غير مفترقين من حين استخلافه ﷺ لهما إلى حين ورودهما عليه عند الحوض الذي هو كناية عن اقترانهما وتماسكهما في الدنيا والآخرة معاً ، فهل بقي لبس بعد هذا البيان لمن أراد الخلود في الجنان وضرب عرض الجدار بوساوس الشيطان وعدو الانسان ، فقد شتت أمر الأمة بعد اجتماعها بمكره ، وأضعفها بعد متانتها وقوتها بخدعه ، وزرع العداء فيمابين فرقها بعد إخائها بحيلة .

الرجوع الى الوجدان والاخذ بالعيان

فهل ان المتتبع لسيرة اهل بيت نبيه ﷺ ، والمستقرىء لأحوال من جعلهم معادن علمه ، والمتفحص لصفات من هم مثال اخلاقه ، ونموذج كماله ، ونبراس سيرته ، ومرآة جماله وجلاله ، قد وجد في علمهم سقطة في جواب سؤال او عجز عن تفنيد شبهة ضال ، كي يرجع إلى الأفضل ، ويلتزم الأعلم ، ويستمسك بالعروة الوثق ، لا أحتمل ان احداً من امة محمد ﷺ يمكنه ان يبت بينت شفه

من ذلك بعدما ملأ مسامعه صوت نبيه ومن هو مقيد بأقواله وافعاله ﷺ مدوياً في الأجواء سائراً سير الهواء قائلا : « أنا مدينة العلم وعلي بابها » وقد تلقى منه ﷺ ابناؤه كل علومه كما قد ورثها هو من ابن عمه على حد تعبيره ﷺ لقد علمني رسول الله ﷺ الف باب من العلم ينفتح لي من كل باب الف باب ، او قوله زقني رسول الله ﷺ العلم زقاً ، إلى غير ذلك من امثالها وقد دعم قوله بفعله ، وأسند دعواه بمحسوس برهانه ، فأبرز سفره الجميل للعيان ؛ وخلف تراثه الجليل بالوجدان ، وأودع فيه فنون العلم ببليغ من البيان ، ليكون الحجة على كل انسان .

ذاك هو (نهج البلاغة) ومنتهى البراعة ، او أن المتتبع لطيلة حياتهم ومختلف اوقاتهم قد عثر على زلة منهم تتدافع مع صفة عدلهم ، او اتباع شهوة قد جذبتهم إلى الدنيا ، تتنافى مع زهدهم او حب إمرة ورئاسة فيها تستوجب ظلم غيرهم ، او صدور طيش وخفة عقل تضعف ورعهم والثقة بهم ، فاضطر في العدول عنهم ، إلى الأمثل في ذلك منهم ، كي يكون ذلك عذراً له عند عتاب محمد ﷺ جدهم ، ووقاية لنفسه من عقاب بارئهم ومستخلفهم ، (لا) و (كلا) فليس بوسع أحد وان اجهد نفسه ، ولا بامكان فرد ولو نسي رمسه (١) ان يثبت عليهم من ذلك شقصاً (٢) وإلى غير ذلك من صفات الكمال ومحاسن الجمال ، التي تؤهلهم لامامة المسلمين ، وخلافة رسول رب العالمين ، بالاضافة إلى ما ذكرنا من بيانات سيد النبيين ﷺ .

---

(١) محل دفنه بعد موته .

(٢) الجزء والبعض من الذنب .

نموذج من معتقدات الفرق ليتضح الفرق

منهم (القدرية) وهم فرقة من المعتزلة ، ولقبوا بذلك لاسنادهم افعال العباد إلى قدرتهم ، وانفصلوا عن اخوانهم القائلين بأن لا قدرة للعبد على أي فعل من الأفعال ، وان القدرة لله تعالى فقط ، لا يشركه احد بها سواه ، وهذا على ظاهره وتفاهة ألفاظه ، ربما يقبله السامع ، لأنه تعظيم لشأن الخالق جل شأنه وتوحيد له في القدرة ، لكنهم أسسوا ذلك ليشيدوا عليه البنيان ، وما سول لهم به الشيطان وهو أن (الخير والشر كله من الله) .

هذا الأصل الباطل من اصله ، وقد اوضحنا بطلانه في الأجزاء السابقة من كتابنا هذا فلا نعيده ، وإن عظم ما نسبوه اليه تعالى عن ذلك علواً كبيراً وهو العادل على الاطلاق .

وقد قال رسول الله ﷺ : القدرية مجوس هذه الأمة (١) .

ومن فروع القدرية (النظامية) أصحاب ابراهيم بن سيار النظام أخذ من كتب الفلاسفة وخلط كلامهم بكلام المعتزلة ، وقد انفرد بثلاثة عشر مسألة :

(منها) قوله : إن الله لا يقدر أن يفعل بعباده في الدنيا ما لا صلاح لهم فيه ، ولايقدر أن يزيد في الآخرة او ينقص من ثواب وعقاب لأهل الجنة والنار وغايتهم من ذلك بلوغ الغاية من تنزيهه تعالى عن الشرور والقبائح وهي إنما تكون منه تعالى بسبب قدرته عليها ، فاذا سلبوا القدرة عنه فقد نزهوه ، وقد خلطوا الغث بالسمين ، وهم في ذلك كمن هرب من رش المطر إلى الوقوف تحت الميزاب ، وان القرآن الكريم فضلا عن السنة الشريفة مملوء من انه تعالى يزيدهم من فضله

(١) لعل منشأ التشبيه هو قولهم بوجود خالقين كما أسلفناه .

وانه يمحو ويثبت فلا حاجة إلى ذكر الآيات في ذلك .

(ومنها) قوله : إن الجوهر مؤلف من الأعراض المجتمعة والعلم مثل الجهل المركب ، والايمان مثل الكفر في تمام الماهية ، وقد أخذ ذلك من قول الفلاسفة الغير إسلاميين بأن حقيقتها (١) حصول الصورة في القوة العاقلة والامتياز بينهما بأمر خارج هو مطابقة تلك الصورة لمتعلقها وعدم مطابقتها له (٢) .

(ومنها) ان الله خلق المخلوقات دفعة واحدة على ما هي عليه الآن سواء كانت معادن او نباتاً او حيواناً او انساناً او غير ذلك ، فلم يكن خلق آدم متقدماً على خلق أولاده ، إلا انه تعالى كمّن بعض المخلوقات في بعض ، وان التقدم والتأخر في الكمون والظهور .

وهذا ايضاً مأخوذ من كلام الفلاسفة القائلين : « بالخليط والكمون والبروز » وكأنهم لم يسمعوا قول النبي ﷺ : كنت نوراً في ساق العرش أسبح الله وأقدسه قبل خلق الخلق باثني عشر الف عام ، او أنه غلب على عقولهم المعيبة او على إيمانهم السقيم قول الفلاسفة الملحدين على قول سيد المرسلين واعتبروه منه مبالغة في نفسه ولم يعوا قول الله عز اسمه في حقه : « وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى » .

(ومنها) قوله : إن نظم القرآن ليس بمعجز انما المعجز إخباره بالغيب من الأمور السالفة والغابرة ، وكأنه لم يسمع رب العزة كيف تحدى البلغاء خاصة والخلق عامة في الاتيان ببعض من مثله ، وأخبر أخيراً بأنهم لا يأتون بشيء من مثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ، الى غير ذلك من سخيف اقوالهم ، وباطل معتقداتهم .

ومنهم (الاسكافية) أصحاب ابي جعفر الاسكاف ، ومن أقوالهم : إن

(١) أي الجواهر . (٢) أي انها ان طابقت فهي جواهر وإلا فهي اعراض

الله لا يقدر على ظلم العقلاء ، ويقدر على ظلم الصبيان والمجانين ، وهل ترى ان هناك مجنوناً غيرهم .

ومنهم (البشرية) نسبة إلى بشر بن المعتبر ، كان من افضل علماء المعتزلة وهو الذي احدث القول بالتوليد ، فقالوا : إن الاعراض من الألوان والطعوم والروائح ، وان الادراكات من السمع والرؤية تقع متولدة في الجسم من فعل الغير ، ونظروه بما لو كان أسباب حدوثها من فعله نفسه فكما هي متولدة في ذلك من فعله فكذلك تتولد من فعل غيره فيه ، وقالوا ايضاً : إن الله تعالى قادر على تعذيب الطفل ولو عذبه لكان ظالماً .

وزاد عليهم (المزدارية) المنسوبين إلى عيسى بن صبيح المزدار وهو تلميذ بشر المتقدم ذكره قولهم : إن الله قادر على ان يظلم ويكذب ، ولو فعل كان إلهاً ظالماً كاذباً ، وقالوا : إن الناس قادرون على مثل القرآن وأحسن منه نظما وبلاغة ، وقالوا : إن من لابس السلطان كافر لا يوارث ، أي لا يرث ولا يورث منهم .

ومنهم (الصالحية) ومن مذهبهم جواز قيام العلم والقدرة والارادة والسمع والبصر بالميت ، وجواز خلو الجوهر من الاعراض كلها .

ومنهم (المعمرية) وهم أصحاب معمر بن عباد السلمي ، ومن أقوالهم ان الله لم يخلق شيئاً غير الأجسام ، اما الاعراض فتخترعها الأجسام ، اما طبعاً كالنار للاحراق والشمس للحرارة ، واما اختياراً كالحيوان للالوان .

ومنهم (الثمامية) نسبة إلى ثمامة بن اشرش النميري وقد قالوا : إن الأفعال المتولدة (١) لا فاعل لها ، إذ لا يمكن إسنادها إلى فاعل السبب ، لاستلزامه استناد الفعل إلى الميت فيما إذا رمى سهما إلى شخص ومات قبل وصوله اليه ، ولا إلى الله

(١) الأفعال التوليدية مثل بذر الفلاح البذر فهو فعله ، لكن المتولد من البذر كالزرع مثلا ليس فعله وهكذا وليس فعل الله ايضاً على قولهم .

تعالى لاستلزامه صدور القبيح عنه تعالى ، وقالوا ايضاً : إن اليهود والنصارى والمجوس والزنادقة يصيرون في الآخرة تراباً لا يدخلون جنة ولا ناراً ، وكذا البهائم والأطفال ، وقالوا ايضاً : إن من لا يعلم خالقه من الكفار معذور ، وان المعارف كلها ضرورية ، وقالوا : أن لا فعل للانسان غير الارادة وما عداها حادث بلا محدث ، وكان رئيسهم يقول : إن العالَم فعل الله بطبعه ، فعلى هذا يكون في نظره كفعل النار للاحراق ، أي دون إرادة وقصد فانظر واحكم .

ومنهم (الجاحظية) نسبة إلى عمرو بن بحر الجاحظ ، وكان من البلغاء في ايام المعتصم والمتوكل وقد ادخل من مقالات الفلاسفة في الدين بعباراته البليغة اللطيفة (ومن اقواله) امتناع الانعدام على الجوهر ، وإنما تتبدل الاعراض والجواهر باقية على حالها كما قيل في الهيولى ، أي المادة بالنسبة إلى الصورة والهيئة (ومن اقواله) ان النار تجذب اليها اهلها ، لا ان الله يدخلهم فيها .

ومنهم (الجبائية) نسبة إلى ابي علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي وهو من معتزلة البصرة ، قالوا : إن إرادة الرب حادثة لا في محل والله تعالى مريد بتلك الارادة موصوف بها ، وقالوا : إن الله متكلم بكلام مركب من حروف وأصوات يخلقه في جسم وان المتكلم بذلك الكلام هو من فَعل الكلام وخلقه ، لا من قام به الكلام وحل فيه ، وقالوا : إن مرتكب الكبيرة لامؤمن ولا كافر ، وإذا مات بلا توبة يخلد في النار ، وقالوا ايضاً : « ولا كرامات للأولياء » .

فِرَق أخرى

وهناك فرق اخرى نسبت أنفسها إلى الشيعة ، وربما قيل ببلوغها اثنين وعشرين فرقة ، وأصولها ثلاثة (غلاة) و (زيدية) و (إمامية) .

(اما) الغلاة بأقسامهم فهم في رأي الامامية نجسون ، وفي حكم الكفار فهم منهم بريؤون .

منهم (الخطابية) رئيسهم ابو خطاب الأسدي عزى نفسه إلى ابي عبدالله الصادق ﷺ ، فلما علم منه غلوه في حقه تبرأ منه ، فلما اعتزل عنه ادعى الأمر لنفسه ، ومن اقوالهم : الجنة نعيم الدنيا والنار آلامها والدنيا لا تفنى ، وقال بعضهم : إن كل مؤمن يوحى اليه استدلالا بقوله تعالى : « وما كان لنفس ان تموت إلا باذن الله » أي بوحي من الله اليهم ، ثم تجاوزوا إلى ان قالوا : إن فيهم من هو خير من جبرئيل وميكائيل وانهم لا يموتون ابداً ، بل إذا بلغوا النهاية يرفعون إلى الملكوت ، وقال بعضهم : بل يموتون .

ومنهم (المفوضة) قالوا : إن الله فوض خلق الخلائق إلى علي ، (وبهذه المناسبة) فقد ذكر انه وقع نزاع بين شيعي وسني في أن من هو الأفضل علي أم ابو بكر فتراضيا على ان يحكما اول طالع عليهما فطلع عليهما رجل فتحاكما اليه فقال الشيعي : أنا اقول علي افضل من ابي بكر ، وقال السني : أنا اقول ابوبكر افضل من علي ، فقال ذلك الرجل : إن علياً لو لم يخلق ابا بكر وعمر لما قيل فيه مثل هذا ، وكان ذلك الرجل من المفوضة او الغلاة ، قبحهم الله تعالى وأخزاهم وقد فعل ، وان إطلاق اسم الشيعة على امثال هؤلاء ان كان له وجه صحة فبلحاظ الأصل ، أي قبل ذهابهم إلى الغلو والتفويض ، وإلا فهم ليسوا باسلام فضلا عن كونهم شيعة ، كما يقول المنطقي : « سالبة بانتفاء الموضوع » .

(واما) الزيدية فنسبوا انفسهم إلى زيد بن علي بن الحسين (ع) ومحصل اقوالهم ان الامامة لا تكون إلا لمن خرج بالسيف وهو عالم شجاع وقد برئت منهم ايضاً الامامية .

واما الامامية وهم القائلون بامامة علي ﷺ بعد النبي ﷺ ثم اولاده إلى

الثاني عشر وهو الامام المنتظر محمد بن الحسن العسكري عليه السلام عجل الله تعالى فرجه الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلا بعدما ملئت ظلماً وجوراً ، وعلى ذلك من الدلائل ما لا يحصى كثرة من الأحاديث الصحيحة .

(ومنها) ان لو بقي من الدنيا يوم واحد لطول الله سبحانه ذلك اليوم حتى يخرج الامام العادل ، ومن إجماع المسلمين على ذلك غير ان الخلاف بينهم ان الشيعة يقولون بوجوده وغيبته والسنة يقولون بعد لم يولد ويعترفون بأنه قرشي او علوي ، ولابد منه عند حلول وقته .

النقد على وجود المنتظر

فقد وجه الناقدون على الشيعة نقدهم اللاذع ووصفوهم بكل نقيصة شاؤوها وألصقوا بهم كل قبيحة راموها وعلى الأخص فيما يخص امر الامام الثاني عشر (محمد المهدي) عجل الله تعالى فرجه بن الامام الحادي عشر (الحسن العسكري عليه السلام) وهم وان اطالوا في نقدهم وتوسعوا في تعليقاتهم وان صارحت فقل في افتراءاتهم ، فان محصل ما ذكروه وخلاصة ما أسسوه وشيدوا عليه ما ارادوه هو أمران :

(اولها) سخافة الشيعة في اعتقادهم ببقاء انسان حي طيلة هذه المدة وانه كيف يكون عمر آدمي بما يزيد على الف عام .

(ثانيها) ما هي فائدة وجوده إذا كان مستتراً ، وهل ان وجوده مستتراً كعدمه فما هي المصلحة في خلق الله تعالى له ثم يأمره بالاختفاء عن اعين الناس وقد خلق للارشاد ؟ .

الجواب

اما عن الأول انه استبعاد محض مجرد عن الدليل ، بل ان الدليل على عكسه ولا يحتمل بأحد انه لم يسمعه إن لم يكن قد قرأه فما هو إلا عن التغافل عن الحق والتعامي عن الواقع « وحب الشيء يعمي ويصم » فهذا التاريخ مملوء وصفحاته طافحة حتى من الناقدين انفسهم بوجود المعمرين (كلقمان بن عاد) واقل ما قاله المؤرخون عن عمره انه قد بلغ خمسمائة وستين سنة ، وقيل : اضعاف ذلك ، (وكقس بن ساعدة الأيادي) وانه عاش سبعمائة سنة ، ومنهم (دويد بن زيد بن نهد) الذي يقول :

ألقى عليّ الدهر رجلا ويدا والدهر ما أصلح يوماً افسدا
يصلح ما افسده اليوم غدا

ومنهم عبد المسيح بن بقيلة الغساني الذي يقول :

حلبت الدهر أشطره حياتي ونلت من المنى فوق المزيد
وكافحت الأمور وكافحتني ولم أحفل بمعضلة كؤد
وكدت انال في الشرف الثريا ولكن لا سبيل إلى الخلود

ومنهم عمرو بن حممة الدوسي وقد عاش اربعمائة سنة الذي يقول :

ثلاث مئين قد مررن كواملا وها أنا هذا أرتجي مر أربع
فأصبحت مثل النسر(١) طارت فراخه إذا رام تطياراً يقال له قع
اخبر أخبار القرون التي مضت ولابد يوماً ان يطار بمصرعي

ومنهم المستوغر عمرو بن ربيعة بن كعب الذي يقول :

(١) النسر معروف بطول العمر .

ولقد سئمت من الحياة وطولها وعمرت من عدد السنين مئينا
مائة اتت من بعدها مائتان لي وازددت من عدد الشهور سنينا
هل قد بقي إلا كما قد فاتنا يوم يكر وليلة تحـــدونا

وما اكثر المعمرين في التاريخ ، وإنما ذكرنا هؤلاء لما لهم من الشعر الذي هو حكمة واختصاصه بموضوع كتابنا من اخذ العبرة من اعتراف هؤلاء بالهلاك رغم تعميرهم على خلاف المعتاد « وهل الدنيا مع اهلها إلا نفاد » .

عودة لإكمال الجواب

ومن وراء هذا البيان ما هو قاطع اللسان ، ومسكن سليم الجنان ، صوت القرآن ، فانظره او اسمعه ماذا يخبرنا عن مقدار دعوة نوح لقومه بقوله : « فلبث فيهم الف سنة إلا خمسين عاماً » .

واما عمره فحدث ولا حرج وحتى بلغت في تحديده بعض الأخبار اربعة آلاف سنة ، ثم ما يخبرنا به ايضاً القرآن الكريم عن عمر المسيح عليه السلام وقوله فيه رداً على اليهود حيث ادعوا قتله « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » ثم قال تعالى : « بل رفعه الله اليه » (١) ، وقوله تعالى في قصة يونس : « فلولا انه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون » مما يعطي إمكان بقائه حياً إلى يوم البعث وهو في بطن الحيوان وفي قعر البحر فكيف لا يعيش إنسان محافظ على شروط الصحة ، وهو عالم بها وهو يعيش في الفضاء ويستنشق الهواء الصافي اللطيف ويتجنب عن الهواء الراكد الكثيف ، ومن وراء هذا كله (إبليس) الذي اخبره الله تعالى بعد طلبه من ربه ان يكون من المنظرين بقوله : « إنك من

(١) سورة النساء الآية ١٥٦

المنظرين إلى يوم يبعثون » فماذا ترى بعد هذا قيمة هذا الاستبعاد والاستنكار، وهل هو إلا قريب مما قيل « انه تشكيك في المحسوس » .

واما إذا رجعنا إلى ما قرره العلم الحديث وانه قد أثبت إمكان تعمير الانسان ألوفاً من السنين إذا لم تعرضه عوارض تصرم بحبل حياته كما تعمر الأشجار ، وقد اجرى العلماء تجارب كثيرة لتحقيق هذه النتيجة وقد اثبتت التجارب صحتها (١) .

الجواب عن الثاني

واما الجواب عن الاشكال الثاني وهو قوله : أي فائدة في وجوده مع اختفائه جاعلا هذا دليلا على عدم وجوده ، حيث لو كان موجوداً لظهر لأجل الفائدة ، فنقول : إن الظهور لا يلازم الوجود بل جائز ان يكون موجوداً ومختفياً ولا مانع منه ، لأن منصب الامامة ليس بأعظم من منصب النبوة في المسؤولية ولزوم الفائدة ، وقد اختفى كثير من الأنبياء كموسى بن عمران ويونس بن متى بعد خروجه من بطن الحوت ، وحتى نبينا محمد صلى الله عليه وآله قد اختفى في الغار ثلاثة أيام ، وإن قصر المدة وطولها لا يفرق في إثبات أصل جواز الاختفاء ، لأن الاختفاء يتسبب عن وجود المصلحة ، إما حفظه وإما لامتحان أهل زمانه ، وإما تمهيداً لنهضته واستعداداً لثورته ، حيث يتوفر الشعور بحاجته من جراء انتشار التلاعب بشريعته والاهمال لأحكامه ، كما ينبيء عن ذلك الحديث بتركيبه ونظمه « فيملأها قسطاً وعدلا كما ملئت ظلماً وجوراً » .

(١) في مجلة المقتطف العدد الثالث من سنتها التاسعة والخمسين تفصيل عن ذلك .

دفع شبهة اخرى

واما شبهة عدم جواز اختفائه لانعدام نفعه وتعطيل مسؤوليته (فجوابها) (أولا) انها بأمر الله تعالى وهو العالم بمقادير المصلحة وحدود تأثيرها .

(وثانياً) ان المسؤولية في اختفائه تكون علينا لا عليه ، لأننا السبب فيه ولو أزلنا السبب لظهر .

(وثالثاً) ان حاله في ذلك حال من سبقه من آبائه الأئمة المعصومين في انعزالهم عن الناس وتخلية الأمر اليهم وإلى الجائرين من سلاطينهم حفظاً لأنفسهم وحقناً لدمائهم ، حيث علموا ان اهراقها لا يجدي بوقته شيئاً لمقاصدهم ، غاية الأمر انه عجل الله تعالى فرجه زاد على تخلية الأمر لهم باخفاء شخصه عنهم حيث علم عدم قناعة جائري زمانه بذلك ، وانه لا يشبع نهمتهم ولا يروي غلتهم إلا قتله ، وعندها يجب عليه الاحتفاظ بنفسه ريثما تكمل معـــدات النهضة وتتم متهيئات الاصلاح .

الجواب الأخير

لا نسلم عدم النفع والفائدة حال اختفائه ، بل ان انوار فيوضاته تشع علينا ، وأشعتها غير محجوبة عنا ، وحاله حال الشمس في استفادة الأرض وما فيها ومن عليها ولو سترها السحاب عنها ، حيث ان قوة تأثيرها تخرق الحواجب وذراتها تتجاوز الموانع .

كما قد ورد في مكاتبته ﷺ لمحمد بن عثمان العمري في جواب سؤال كان

لاسحاق بن يعقوب ، واما وجه الانتفاع بي في غيبتي فكالانتفاع بالشمس إذا غيبها عن الأبصار السحاب ، واني أمان لأهل الأرض ، كما ان النجوم أمان لأهل السماء فأغلقوا ابواب السؤال عما لا يعنيكم ، ولا تتكلفوا علم ما قد كفيتم ، واكثروا الدعاء بتعجيل الفرج فان في ذلك فرجكم .

ومن فوائده عليه السلام في غيبته ان في انتظار خروجه كل يوم وساعة اجراً جزيلا وثواباً جليلا .

فعن ابي عبدالله عليه السلام قال : من مات منكم على هذا الأمر منتظراً له كان كمن في فسطاط القائم عليه السلام .

وروى عبدالحميد الواسطي عن الباقر عليه السلام قال : قلت له : أصلحك الله لقد تركنا أسواقنا انتظاراً لهذا الأمر فقال : يا عبدالحميد أترى من حبس نفسه على الله عز وجل لا يجعل الله عز وجل له مخرجاً رحم الله عبداً حبس نفسه علينا رحم الله عبداً أحيى أمرنا . قال : قلت : فان مت قبل ان ادرك القائم ، قال القائل منكم : إن أدركت قائم آل محمد صلوات الله عليهم نصرته كالمقارع معه بسيفه ، لا بل كالشهيد معه .

وقال الصادق عليه السلام لعمار : أما والله يا عمار لا يموت منكم ميت على الحال التي انتم عليها إلا كان افضل عند الله عز وجل من كثير ممن شهد بدراً وأحداً فأبشروا ، وكان عليه السلام إذا ذكر اصحابه القائم عليه السلام وتمنوا لقاءه يقول الذي عليكم هو العزم والانتظار وتنالون به ثواب الشهادة ، وإن متم على فرشكم مع انهم لو بقوا إلى وقت خروجه لم يعاونه منهم إلا الأقل كما وقع للحسين عليه السلام وشيعة ابيه فأنهم كاتبوه ولما قدم عليهم أسلموه إلى القتل ويا ليتهم كفوا عن قتاله ومعاونة الظالمين عليه وان الحال في صاحب الزمان عليه السلام هي ذلك الحال بعينه فيكون ثواب الانتظار لهم أفضل من ثواب حضورهم معه ، وهذا احد معاني قوله صلى الله عليه وآله :

« نية المؤمن خير من عمله » وذلك انهم بهذه النية بلغوا درجات الشهداء ولو ادركوه فلربما كان عملهم على عكس ذلك .

ومن فوائده ﷺ في حال غيبته ما قاله السيد المرتضى رضي‌الله عنه من ان شيعته وأولياءه إذا جوزوا ان يكون الامام بحيث يراهم ويعرفهم ولا يعرفونه كان اردع لهم عن فعل المعاصي لأنهم لايعلمون انه في اي مكان فكل واحد منهم يجوز ان يكون حاضراً عنده بخلاف ما إذا كان ظاهراً وهو في ناحية يعلمونها وهم في ناحية اخرى وان اطلع ايضاً عليهم اطلاعاً روحياً ، لكن العادة جرت بقوة الاطلاع الحسي ، وإلا فاطلاع الله عزوجل على العباد حاصل في كل احوالهم وكذلك المعصومين (ع) كما ورد في تفسير قوله تعالى : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » من ان المراد بالمؤمنين الأئمة (ع) .

كما قد ورد ايضاً في إيضاحه ان الملائكة الذين يكتبون اعمال الناس وهم رقيب وعتيد إذا كتبوا اعمال اليوم وأرادوا في آخر النهار العروج به إلى عالم الملكوت يأتون أولاً بصحائف الأعمال إلى إمام العصر فيعرضونها عليه ويطلع عليها ثم يعرجون بها وانه ﷺ يصلح من اعمال شيعته ما يكون قابلا للاصلاح اما بالاستغفار له او بالشفاعة له عند ربه .

ومن هنا انهم (ع) كانوا يطلبون من شيعتهم اعمالا قابلة للاصلاح وان لا يتوغلوا في المعاصي ، وذلك كالكتاب الذي يكون فيه غلط فان منه ما يكون قابلا للمقابلة والتصحيح ومنه ما يكثر غلطه حتى يسقط عن الانتفاع به .

أقوال المتكلمين فيه عليه السلام

قال صدر المتألهين في شرحه على اصول الكافي عند شرح الخبر(١) المروي عن ابي جعفر عليه السلام : « إذا قام قائمنا وضع الله يده على رؤوس العباد فجمع بها عقولهم و كملت أحلامهم » ما هذا نصه : قال قوله عليه السلام : إذا قام قائمنا هو المهدي صاحب الزمان صلوات الله وسلامه عليه وهو اليوم موجود حي ، إلا انه غائب عن أبصار الناس ، مستور عن الحواس ، وإنما سمي بالقائم لأنه موجود بنحو من الوجود لا يزيل ولا يمرض ولا يهرم ولا يدثر بتغيرات الأمور ، ولا يحلله صروف الدهر ، ولا يعتريه الموت والهلاك ، بتأثير حركات الكواكب والأفلاك بل إنما يحيي ويموت حسب إرادة الله تعالى ومشيته من غير تسبب أسباب وتوسط علل واستمدادات مواد ، ومع ذلك ليس ان جوهر روحه عليه السلام مفارق عن الجسد بل يأكل ويشرب ويتكلم ويتحرك ويسكن ويمشي ويجلس ويكتب .

كما دل عليه (٢) ما في كلام أمير المؤمنين عليه السلام في الحديث المشهور الذي نقلته الثقاة من رواية كميل بن زياد النخعي من قوله عليه السلام : صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالملأ الأعلى ، اولئك خلفاء الله في أرضه والدعاة إلى دينه وذلك

---

(١) حيث يعطي بظاهره ان لله تعالى يداً فيصرحه لدفع هذا الوهم ، وان المراد به القدرة والإرادة بوضع نور للعارف من كراماته (ع) ومعجزاته في عقولهم فتجتمع عند ذلك على كلمة الحق بعد تنزيه الأرض ممن تعصب وتصلب ومن كان على قلوبهم غشاوة فهم لايفقهون على حد تعبير القرآن الكريم من أسلافهم ؛ وما نقلناه عن الصدر مقدار ما يدل على اعترافه بوجود المنتظر (ع) وهو من رؤساء أهل الكلام .

(٢) ليس مراده ان كلام أمير المؤمنين (ع) يدل على وجوده بالخصوص ، بل يدل على الأعم منه ومن غيره تعميا للابدال والصلحاء الذين هو رئيسهم .

بعد أن قال ﷺ بأسطر قبل هذا بلى لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة إما ظاهر مشهور او مستتر مغمور لئلا يبطل حجج الله .

وان وجوده ﷺ وكيفية حياته في الأرض ككيفية حياة عيسى ﷺ في السماء .

ثم نقل الصدر كلام محي الدين العربي في الفتوحات المكية ، وقال بعد نقله إن الثابت بالشرع والعرفان والشهود (١) والايمان وجود مولانا المهدي صاحب الزمان عليه صلوات الرحمن وبقائه من حين ولادته إلى الآن .

حجج الله تعالى على عباده متنوعة

إن من حججه جل شأنه على عباده في يوم القيامة لانقطاع أعذارهم لديه ما هو من علل غيبة صاحب الزمان (ع) وذلك انه سبحانه أخر ظهوره لأجل انقضاء الدول الباطلة حتى لا يقول أحد منهم لوملكت وتمكنت لعدلت ولفعلت الاحسان فمكنهم الله سبحانه أولاً لتملأ الدنيا ظلماً كي تكون دولة المهدي وآل محمد ﷺ هي آخر الدول ويملأها عدلا وتتصل دولته (ع) بالقيامة كما في متواتر الأخبار .

علة أخرى

وهي ما رواه محمد بن عمير بسنده عن ابي عبدالله (ع) قال : قلت له : ما بال أمير المؤمنين (ع) لم يقاتل مخالفيه في الأول ؟ قال (ع) : لآية في كتاب

(١) المراد من الشهود معنى المشاهدة العقلية لا معنى شهادة الشهود والبينة ، وإنما عبر عن المشاهدة بلفظ الشهود للمبالغة وانها واضحة .

الله عز وجل « لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً » قال : قلت : ما يعني بتزايلهم ، قال : ودائع مؤمنون في أصلاب قوم كافرين (١) ، وكذلك القائم (ع) لن يظهر ابداً حتى يخرج ودائع الله عزوجل ، فاذا خرجوا ظهر على من ظهر من اعداء الله فقتلهم .

أمر آخر اقتضى غيبته

انه قد استفاض في أخبار العامة والخاصة عن النبي ﷺ انه يجري في هذه الأمة ما جرى في الأمم السابقة حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة فتكون هذه الغيبة من مصاديق ذلك بدلالة ما رواه حنان بن سدير عن ابي عبدالله (ع) قال : إن للقائم منا غيبة يطول أمدها ، فقلت له : ولِمَ ذاك يابن رسول الله ؟ قال : لأن الله عز وجل أبى إلا أن يجري فيه سنن الأنبياء في غيباتهم وانه لابد يا سدير من استيفاء مدد غيباتهم ، قال الله تبارك وتعالى : « لتركبن طبقاً عن طبق » أي سنن من كان قبلكم ، أي يجري عليكم حالات الأمم السابقة حالة بعد حالة وفي وقت بعد وقت .

فائدة من فوائد غيبته ﷺ

إن من جملة القائلين بامامته (ع) من لايرجع عن الحق وعن اعتقاد إمامته في حال من الأحوال ، ومهما كلفته الصروف فأمره الله سبحانه بالاستتار ليكون مقامهم على الاقرار بامامته مع وجود الشبهة في ذلك وشدة المشقة ومقاساة آلام

(١) أي إلى ان يولدوا .

الجراح من كلام أبناء السفاح أعظم ثواباً وأعلى درجة منه على الاقرار بامامته مع المشاهدة له والحضور معه ، فبهذا تكون غيبته عن أوليائه لطف لهم من الله تعالى . ويؤيده قوله تعالى : « الم ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون » .

فقد ورد في بعض الأخبار أن المراد بالغيب هو الامام الغائب عن انظارهم فقد مدحهم سبحانه على هذه الخصلة ، وما ترى درجة الممدوح من الله تعالى اين تكون .

وفي الحديث أن أحد الصحابة قال للنبي ﷺ : أفضل الناس أصحابك يا رسول الله ، فقال ﷺ : لا بل أفضل الناس قوم يؤمنون بسواد على بياض لأن الحجة تغيب عنهم ، وقال : إذا غاب الحجة فالقابض على دينه كالقابض على جمر الغضا .

وكما قال الصادق (ع) : والله لتبلبلن بلبلة ، ولتغربلن غربلة ، ولتساطن سوط القدر فيجعل اعلاكم اسفلكم واسفلكم اعلاكم .

لمحة من أحوال ظهوره عليه السلام

إن الأخبار في ذلك لكثيرة وفيها تفاصيل عديدة سواء كان مما يخص علامات ظهوره او كيفيتها ومن اين يظهر وإلى اين ينتهي او من جهة انصاره واصحابه او من جهة ظهور السفياني وامثاله في زمانه وغير ذلك من التفصيلات وحيث ان اسانيدها ليست بتمام القوة رجحنا تركها مقتصرين على الشيء الموجز من ذلك وهو المثبت منها لئلا يخلو الموضوع من ذكره (ع) رأساً :

روى الحسن بن محبوب عن علي بن ابي حمزة عن ابي بصير عن ابي عبدالله

عليه السلام قال : لا يخرج القائم إلا في وتر من السنين سنة إحدى او ثلاث او خمس او سبع او تسع ، وقال عليه السلام : ينادى باسم القائم في ليلة ثلاث وعشرين من شهر رمضان ويقوم يوم عاشوراء وهو الذي قتل فيه الحسين بن علي عليهما السلام لكأني به في يوم السبت العاشر من المحرم قائماً بين الركن والمقام وجبرئيل بين يديه ينادي بالبيعة له فتصير اليه شيعته من اطراف الأرض تطوى لهم طياً حتى يبايعوه فيملأ الله به الأرض عدلا كما ملئت جوراً وظلماً .

وروى صاحب منتخب البصائر بسنده إلى المفضل بن عمر قال : سألت سيدي الصادق (ع) هل للمهدي (ع) من وقت موقت يعلمه الناس ؟ قال (ع) حاش لله ان يوقت ظهوره بوقت يعلمه شيعتنا .

قلت : يا سيدي ولمَ ؟ قال : لأنه هو الساعة التي قال الله عز وجل : « يسألونك عن الساعة قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو » وهي الساعة التي قال الله عز وجل : « يسألونك عن الساعة ايان مرسيها » وقال : « وعنده علم الساعة » ولم يقل عند احد ، وقال : « قد اقتربت الساعة وانشق القمر » قلت : فما معنى ما يروون (١) ؟ قال : يقولون : متى ولد متى يظهر شكاً في قضاء الله ، اولئك الذين خسروا الدنيا والآخرة .

قلت : أفلا نوقت ؟ فقال : يا مفضل إن من وقت لمهدينا وقتاً فقد شارك الله في علمه وادعى انه اظهر سره .

قال المفضل : يا مولاي وكيف بدو ظهور المهدي ؟ فقال : يا مفضل يظهر بغتة وينادي باسمه وكنيته ونسبه ويكثر ذلك على المحقين والمبطلين لتسكن فيوم الحجة على أنا قد قصصنا ودللنا عليه وسميناه وقلنا هو سمي جده رسول الله

(١) يشير السائل بقوله ما معنى ما يروون إلى شبه المخالفين وانكارهم لوجوده (ع) على الاجمال فيوضح الامام مقصده فيقول يقولون : متى ولد ؟ متى يظهر ... الخ

ﷺ لئلا يقول الناس ما عرفنا له اسماً ولا كنية .

قال المفضل : يا مولاي فما تأويل قول الله عز وجل ليظهره على الدين كله ؟ وقال : وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين لله ، قال : فوالله ليرفع الاختلاف بين أهل الملل والأديان ويكون الدين كله واحداً ، كما قال تعالى : « ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » .

قال المفضل : فقلت : يا مولاي لِمَ سمى الصابئون ؟ قال : لأنهم صبوا إلى تعطيل الأديان والرسل والملل والشريعة .

قال المفضل : ففي أي بقعة يظهر المهدي (ع) ؟ قال : لا تراه عين وقت ظهوره إلا رأته كل عين وذلك انه يغيب آخر يوم من سنة ست وستين ومائتين ولا تراه عين أحد حتى يراه كل أحد ، ثم يظهر بمكة ووالله يا مفضل كأني أنظر اليه داخل مكة وعليه بردة رسول الله ﷺ وعلى رأسه عمامته وفي رجليه نعل رسول الله المخصوفة ، وفي يده عصا النبي ﷺ وبين يديه عنز عجاف حتى يصل بها نحو البيت حتى لا يعرفه أحد .

قال المفضل : يا سيدي كيف يظهر ؟ قال : يظهر وحده ويأتي البيت وحده إلى الكعبة ويجن عليه الليل ، وإذا نامت العيون وغسق الليل نزل اليه جبرئيل وميكائيل والملائكة صفوفاً ، فيقول له جبرئيل : يا سيدي قولك مقبول وأمرك جار ، فيمسح يده على وجهه ويقول : الحمد لله الذي صدقنا وعـــده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين ، ويقف بين الركن والمقام ويصرخ صرخة يا معشر نقبائي واهل خاصتي ومن خلقهم الله لظهوري على وجه الأرض إئتوني طائعين ، فترد صيحته عليهم وهم على محاريبهم وعلى فرشهم في شرق الأرض وغربها ، فيسمعونه في صيحة واحدة في أذن كل رجل فيجيئون نحوه ولا يمضي لهم إلا كلمحة بصر حتى يكونوا كلهم بين يديه بين الركن والمقام ،

فيأمر الله عز وجل بنور فيصير عموداً من الأرض إلى السماء يستضيء به كل مؤمن على وجه الأرض ، ويدخل عليه نور في جوف بيته فتفرح نفوس المؤمنين بذلك النور وهم لايعلمون بظهور قائمنا ، ثم يصبحون وقوفاً بين يديه وهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا بعدة اصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بدر .

قال المفضل : فالاثنان وسبعون رجلا الذين قتلوا مع الحسين عليه السلام يظهرون معه ، قال : نعم يظهرون معه وفيهم الحسين (ع) في اثني عشر الفاً من المؤمنين من شيعة علي (ع) عليه عمامة سوداء ، يا مفضل سيدنا القائم يسند ظهره إلى الحرم ويمد يده فترى بيضاء من غير سوء ويقول : هذه يد الله ثم يتلو هذه الآية « ان الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق ايديهم » فيكون اول من يقبل يده جبرئيل (ع) ثم يبايعه الملائكة ونجباء الجن ثم نقباء المؤمنين ، ويصبح الناس بمكة فيقولون : قد رأينا الليلة عجباً لم نر مثله ويقول بعضهم لبعض : انظروا هل تعرفون احداً ممن معه ؟ فيقولون : لا نعرف احداً منهم إلا اربعة من اهل مكة واربعة من اهل المدينة ، ويكون هذا اول طلوع الشمس من ذلك اليوم ، فاذا طلعت الشمس وأضاءت صاح صائح بالخلائق من عين الشمس بلسان عربي مبين يسمع من في السماوات والأرضين ، يا معشر الخلائق هذا مهدي آل محمد ويسميه باسم جده رسول الله صلى الله عليه وآله بايعوه تهتدوا ، ولا تخالفوا امره تضلوا فأول من يقبل يده الملائكة ثم الجن ثم النقباء فيقولون : سمعنا وأطعنا ، ولا يبقى ذو أذن إلا يسمع ذلك النداء ، ويقبل الخلائق من البدو والحضر والبر والبحر يحدث بعضهم بعضاً ما سمعوه بآذانهم ، فاذا دنت الشمس من المغرب صرخ صارخ من مغربها يا معشر الخلائق ظهر بكم مولي الناس من ارض فلسطين وهو عثمان بن عنبسة أموي من ولد يزيد بن معاوية فبايعوه تهتدوا ولا تخالفوا عليه تضلوا ، فيرد عليه الملائكة والجن والنقباء قوله ويكذبونه ويقولون : سمعنا وعصينا ، ولا

يبق ذو شك ولا مرتاب إلا ضل بالنداء الثاني والمنادي هو الشيطان . وسيدنا القائم مسند ظهره إلى الكعبة ويقول : يا معشر الخلائق ألا ومن اراد أن ينظر إلى آدم وشيث فها أنا ذا آدم وشيث (١) .

ألا ومن اراد أن ينظر إلى نوح وابنه سام فها أناذا نوح وابنه سام .

ألا ومن اراد أن ينظر إلى ابراهيم وولده اسماعيل فها أنا ذا ابراهيم واسماعيل .

ألا ومن اراد ان ينظر إلى عيسى وشمعون فها أناذا عيسى وشمعون .

ألا ومن اراد ان ينظر إلى محمد واميرالمؤمنين فها أناذا محمد واميرالمؤمنين

ألا ومن اراد ان ينظر إلى الحسن والحسين فها أناذا الحسن والحسين .

ألا ومن اراد ان ينظر إلى الأئمة من ولد الحسين فها أناذا الأئمة اجيبوا مسألتي فاني انبئكم بما نبئتم به او لم تنبأوا به .

ومن كان يقرأ الكتب والصحف فليسمع مني ، ثم يبتدئ بالصحف التي انزلها الله لآدم وشيث فتقول امة آدم وشيث : هذه والله هي الصحف حقاً ولقد رأينا ما لم نعلمه فيها وما كان اسقط منها وبدل وحرف ، ثم يقرأ صحف نوح وصحف ابراهيم والتوراة والانجيل والزبور ، فيقول اهل التوراة والانجيل والزبور : هذه والله صحف نوح وابراهيم حقاً ، وما اسقط وبدل وحرف منها

---

(١) المراد من هذا ومابعده كله انه (ع) ممثل لهم ومحقق لإرادتهم من نصرة الحق وإعلاء كلمته ودحض الباطل ومحو أباطيله ، لأن أهداف من ذكرهم هي هذه ، وكذلك معنى قوله (ع) فيما سبق (هذه يد الله) أي محل إظهار إرادته وتحقيق أحكامه وتبديد أعدائه ونصرة أوليائه .

(واما) النداء باسم عثمان بن عنبسة فهو امتحان واختبار العباد ليظهر الايمان الثابت من ذويه وينكشف الزيف من أهله ومن دينهم لعق على ألسنتهم ينعقون مع كل ناعق كما وصفهم أمير المؤمنين (ع) .

هذه والله التوراة الجامعة والانجيل الكامل ، وانها اضعاف ما ترى فيها ، ثم يتلو القرآن فيقول المسلمون : هذا والله القرآن وما حرف وما بدل .

ثم تظهر الدابة بين الركن والمقام فيكتب في وجه المؤمن مؤمن وفي وجه الكافر كافر ، ثم يظهر السفياني ويسير جيشه إلى العراق فيخربه ويخرب الزوراء ويتركها ويخرب الكوفة والمدينة وتروث بغالها (١) في مسجد رسول الله ﷺ وجيش السفياني يومئذ ثلاثمائة الف رجل بعد ان خرب الدنيا ، ثم يخرج إلى البيداء يريد مكة وخراب البيت ، فلما صاروا بالبيداء عن يسارها صاح بهم صائح يا بيداء ابيديهم ، فتبلعهم الأرض بخيلهم فيبقى اثنان ، فينزل ملك فيحول وجوههما إلى ورائهما ويقول لمبشر : امضِ إلى المهدي وبشره بهلاك جيش السفياني وقال للذي اسمه نذير : امض إلى السفياني فعرفه بظهور المهدي مهدي آل محمد ، فيمضي مبشر إلى المهدي فيعرفه بهلاك جيش السفياني وان الأرض التي انفجرت لم تبق من الجيش عقال ناقة ، فيمسح المهدي (ع) على وجهه فيستوي ويبايع المهدي وتظهر الملائكة والجن ويخالطون الناس ويسيرون معه وينزلون ما بين الكوفة والنجف ، ويكون عدة اصحابه ستة وار بعين الفاً من الملائكة ومثلها من الجن ، ثم ينصره الله ويفتح على يديه .

قال المفضل : الجن والملائكة تظهر للناس في ذلك الزمان ، قال : نعم كما يظهر الناس بعضهم لبعض .

فقال له المفضل : ما يصنع بأهل مكة ؟ فقال : يدعوهم بالحكمة والموعظة ، ثم ينصب عليهم خليفة من اهل بيته ويتوجه إلى المدينة .

فقال المفضل : ما يصنع بالكعبة ؟ فقال : إنه يهدم هذا البيت ويبنيه على

---

(١) هكذا في النسخ بلفظ التثنية وإن كان المحل يناسب الافراد أو الجمع ولكن احتفظنا بنص الرواية .

بناء ابراهيم واسماعيل (ع) ، و كذلك يهدم جميع ما بناه الظالمون في كل الأقاليم و كذلك يهدم مسجد الكوفة ويصنعه على الأول .

فقال المفضل : أيقيم في مكة ؟ قال : لا ولكن ينصب عليهم خليفة من اهل بيته ، فاذا خرج من مكة قصد اهل مكة إلى خليفته فقتلوه ، فيرجع المهدي ﷺ اليهم ويخوفهم العقوبات فيتوبون فينصب عليهم خليفة منهم ، فاذا خرج من مكة عمدوا اليه ايضاً فقتلوه ، ثم إن المهدي (ع) يرسل اليهم عساكر من الجن والنقباء فمن آمن تركوه ومن ابى قتلوه وما يؤمن به من مائة واحد .

فقال له المفضل : يا سيدي اين يكون منزل المهدي ومحل اجتماع المؤمنين معه ؟ فقال : إن سرير ملكه يكون بلد الكوفة ومجلسه وموضع حكمه مسجدها ومكان بيت المال وقسمة الغنائم مسجد السهلة ، وموضع انفراده وتزاهته النجف الأشرف .

فقال له المفضل : يكون جميع المؤمنين في الكوفة ، فقال : بلى والله مامن مؤمن إلا وهو إما فيها او في قربها او يكون قلبه مائلا اليها ، ويكون قيمة الأرض منها قيمة موضع كل شاة الفا درهم ، ويكون سعة بلدها ثمانية عشر فرسخاً وتتصل قصورها بأرض كربلا وتكون كربلا ملجأ للمؤمنين .

قال المفضل : ثم ماذا يفعل يا سيدي ؟ قال (ع) : ثم تثور سراياه إلى السفياني إلى دمشق فيأخذونه ويذبحونه على الصخرة .

قال المفضل : أما قرأ النبي ﷺ قوله تعالى : « ليظهره على الدين كله » ـ أي نزلت عليه وكان الظهور في زمانه ـ وكان في زمانه قال ﷺ : يا مفضل لو غلب دينه على الأديان لما بقي في الدنيا دين اليهود والنصارى والمجوس والصابئين وغيرهم فلا يكون هذا الأمر إلا في زمن المهدي ﷺ ، وكذا يكون تأويل الآية وهي قوله تعالى : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله » ثم قال

ﷺ : إن المهدي إذا رجع إلى الكوفة يمطر الله عليهم جراداً من ذهب كما امطره على ايوب فيقسمه بين اصحابه ويقسم بينهم كنوز الأرض من ذهبها وفضتها .

قال المفضل : يا سيدي إذا مات المؤمن وعليه دين من اصحابه ما يفعل معه فقال (ع) : يا مفضل اول ما يظهر المهدي ينادي مناديه من له على مؤمن دين فليتكلم حتى اعطيه دينه فيعطي ديون مواليه ومحبيه حتى رأس الثوم وحبة الخردل

مدى قوته وسيطرته ؑ

ففي بعض الروايات ان الله سبحانه خير ذا القرنين بين السحاب الذلول (١) وبين السحاب الصعب (٢) فاختار الأول وبقي الثاني للمهدي (ع) فيركب عليها ويطوف ويسخر الله له الرياح كلها وله من القوة ما لو قبض بيده الشجرة العظيمة لقلعها من أصلها ، وإذا صاح بين الجبلين صار صخره رماداً ولا يبقى مكان في الدنيا إلا وصل اليه وتظهر له المعادن كلها ، وإذا توجه إلى جهاد بلاد من البلدان وقع الرعب في قلوبهم من مسيرة شهر ويعرف كل من رآه انه مؤمن اوكافر صالح او فاسق ، ويحكم بحكم داود وسليمان بعلمه الذي علمه الله تعالى لا يسأل البينة ولا الشهود ، وأينما توجه ظلله السحاب ، وينطق السحاب بلسان فصيح هذا مهدي آل محمد ؑ يملأ الأرض قسطاً وعــدلا كما ملئت ظلماً وجوراً ، وتطوى الأرض له ولأصحابه .

(ومن علاماته) انه ليس له ظل على الأرض ، فاذا خرج من مكة نادى مناديه بأن لا يحمل أحد من العسكر طعاماً ولا ماءً ويكون معه حجر موسى ؑ فاذا وصل إلى المنزل نصبه وسكن فيها انفجر من تلك الصخرة ماء وابن

---

(١) الخالي من الرعد والصوت . (٢) ما فيه رعد وبرق .

فيكون هو الغذاء عوض الطعام والشراب ، ولم يبق كافر على وجه الأرض ، ولو أن كافراً لجأ إلى صخرة او شجرة لنادت هذا الكافر عندي فاقتلوه ، ويمسح يده (ع) على رؤوس المؤمنين فتتضاعف عقولهم وأحلامهم ، ويكون للمؤمن من القوة مالوأراد قلع جبل الحديد لقلعه ، ويطيعهم كل شيء حتى سباع الهوى وتفتخر بقاع الأرض بعضها على بعض بأن واحداً من اصحاب القائم (ع) مشى عليها ، ويدفع الله عنهم الضعف والكسل والأمراض وجميع البلايا وتنزل أمطار السماء بالبركات ، ويرتفع الحقد والبغضاء من بين المخلوقات حتى يرعى الذئب والشاة والسبع والبقر وحتى أن المرأة تخرج وحدها من العراق إلى الشام ، ولا تضع رجلها إلافوق الورود والأزهار ، مع انها لابسة حليها ولايضرها سارق ولاسبع

وقال الباقر (ع) : كأني انظر إلى العجوز وعلى رأسها زنبيل فيه حنطة تمضي لتطحنه من غير كراء .

حكمة عدله

فانه (ع) يحكم على الباطن وبما اطلعه الله تعالى على القلوب والسرائر فقد يكون الرجل قائماً على رأسه (ع) متمثلا لأوامره ونواهيه فينظر اليه فيأمر (ع) بضرب عنقه بسبب انه أضمر في قلبه شيئاً قبيحاً وانه لا يقبل من اهل الكتاب جزية ولا يقبل من أحد إلا الاسلام .

وورد انه يهدم كثيراً من المساجد لأنها بنيت على ضلال ، ويوسع الجادة حتى يجعلها ستين ذراعاً ، ويهدم كل مسجد في الطريق ، ويستغني المؤمنون ببركة وجوده وفيض عدله ، حتى لو ان الانسان وضع زكاة ماله على عاتقه يحملها لطلب الفقير لم يجده .

وقد تقدم انه (ع) لايسأل البينة ولا الشهود ، وقد ورد ايضاً انه (ع) إذا بعث والياً إلى بلاد يقول له : إن كتابك في كفك ، فاذا ورد عليك حكم لم تعرف حكم الله فيه ، انظر إلى كفك ، فان الله يكتب لك حكم تلك القضية فيه حتى تعلمه .

مدة خلافته وحكمه عليه السلام

في رواية الخثعمي قال : قلت لأبي عبدالله (ع) : كم يملك القائم (ع) ؟ قال (ع) : سبع سنين يطول له الأيام والليالي حتى تكون السنة من سنينه مكان عشر سنين من سنينكم .

وفي رواية ابي بصير قال : قلت : جعلت فداك كيف تطول السنون ؟ قال : يأمر الله الفلك بالثبوت وقلة الحركة فتطول الأيام لذلك والسنون ، قال : قلت : إنهم يقولون : إن الفلك إذا تغير فسد ، قال : ذلك قول الزنادقة ، فأما المسلمون فلا سبيل لهم إلى ذلك (١) ، وقد شق القمر لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم ورد الشمس من قبله ليوشع بن نون وأخبر بطول يوم القيامة وانه كألف سنة مما تعدون(٢)

خاتمة المطاف

إن كل ما تقدم مما ذكرناه من أحوال المهدي (ع) وما لم نذكره راجع إلى قدرة الله تعالى وإشاءته ، وليس لأي مسلم التشكيك فيه بعدما ثبت انه تعالى

(١) أي لأنهم آمنوا بالله وتحققوا انه قادر على كل شيء .
(٢) فاذاً الاستبعاد مع هذا كله ليس طبيعياً .

يخرج في آخر الزمان من يملأ الأرض قسطاً وعدلا بعدما ملئت ظلماً وجوراً ، وكيف إذاً نشكك في ذلك ونعترف باجرائه سبحانه أضعاف ذلك على ايدي أنبيائه وأوليائه كموسى بن عمران وسليمان بن داود وذي القرنين والنبي محمد ﷺ ، فهل أن التشكيك كائن في قدرته تعالى ، وان ذلك لهو الكفر العظيم ، اوفي الاجراء على أيدي الصلحاء من عباده ، وذلك تشكيك فيما ثبت بنص القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة ، حيث قد أجرى لهم ذلك ، او أن التشكيك مسبب لا عن هذا ولا ذاك ، بل لأن الأمر المذكور يكون على يدي رجل من آل محمد ﷺ ، وان الذين يصدقونه هم شيعة آل محمد ﷺ ، ولو أن أضعاف ما ذكرناه له (ع) كان يقال في حق غيره (ع) ، وانه يجري على يدي رجل من أي قبيلة كان ومن أي ناحية جاء بشرط ان لا تكون له صلة بمحمد ﷺ وآل محمد لكان بمحل من القبول ويعد من كرامته على الله تعالى بحيث لا يسأل عند ذاك عن صحة الخبر ورجال سنده بتاتاً ، وان الركيزة لذلك كله هو متابعة الشيطان للانسان بتبعيده عن الحق والواقع ، وتقريبه إلى الشبه والباطل .

ومن وراء هذا كله ، فان المدرك اللامع ، والبرهان القاطع لجميع ما تقدم من بعض احوال صاحب الزمان عجل الله تعالى فرجه هو قوله تعالى : « ولو أن اهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » (١) .

وقد ورد في بعض تفسيرها ، لكان الشجر يحمل من الثمار حتى تنكسر أغصانه ، ويؤكل منه ثمار الشتاء في الصيف وثمار الصيف في الشتاء ، فقدرة الله تعالى غير محدودة ؛ وكرامته لأوليائه ومطيعي عباده غير مردودة ، وهوسبحانه القائل : « عبدي أطعني تكن مثلي تقول للشيء كن فيكون » .

وبالأخير فقد وردت الأخبار، بأن قيام القيامة متصل بآخر أيام حياته ؑ فعند موته تقوم القيامة ويكون البعث والنشور .

---

(١) سورة الأعراف الآية ٩٥ .

مواقف القيامة وأهوالها

جاء في الحديث عن البراء بن عازب قال : كان معاذ بن جبل جالساً قريباً من رسول الله ﷺ في منزل ابي ايوب الأنصاري فقال معاذ : يا رسول الله أرأيت قول الله تعالى : يوم ينفخ في الصور فتأتون افواجاً ، الآيات ، فقال ﷺ : يا معاذ سألت عن عظيم من الأمر ، ثم ارسل عينيه بالدموع ثم قال : يحشر عشرة اصناف من أمتي اشتاتاً قد ميزهم الله من المسلمين ، وبدل صور بعضهم على صورة القردة ، وبعضهم على صورة الخنازير ، وبعضهم منكسون ارجلهم من فوق ووجوههم من تحت ، ثم يسحبون عليها ، وبعضهم عمي يترددون ، وبعضهم صم بكم لا يعقلون ، وبعضهم يمضغون ألسنتهم فيسيل القيح من افواههم لعاباً يتقذرهم اهل الجمع ، وبعضهم مقطعة ايديهم وارجلهم ، وبعضهم مصلبون على جذوع من نار ، وبعضهم اشد نتناً من الجيف ، وبعضهم يلبسون جباباً سابغة من قطران لازقة بجلودهم .

التفصيل

فأما الذين على صورة القردة فالقتات من الناس وهم النمامون ، واما الذين على صورة الخنازير فأهل السحت ، واما المنكسون على رؤوسهم فأكلة الربا ، والعمي هم الجائرون في الحكم ، والصم المعجبون بأعمالهم ، والذين يمضغون بألسنتهم فالعلماء والقضاة الذين خالف اعمالهم اقوالهم ، والمقطعة ايديهم وارجلهم الذين يؤذون الجيران ، والمصلبون على جذوع من نار فالسعاة بالناس إلى السلطان والذين هم أشد نتناً من الجيف فالذين يتمتعون بالشهوات واللذات ويمنعون حق الله في أموالهم ، واما الذين يلبسون الجبات فأهل الفخر والخيلاء .

خبر آخر يوصف نوعاً آخر

قال رسول الله ﷺ : يحشر صاحب الطنبور يوم القيامة وهو أسود الوجه وبيده طنبور من نار وفوق رأسه سبعون الف ملك بيد كل ملك مقمعة يضربون رأسه ووجهه ، ويحشر صاحب الغناء من قبره اعمى واخرس وابكم ، ويحشر الزاني مثل ذلك وصاحب المزمار وصاحب الدف مثل ذلك .

وروي عنه ﷺ انه قال : ما رفع أحد صوته بغناء إلا بعث الله شيطانين على منكبيه يضربانه بأعقابهما على صدره حتى يسكت ، ومنهم من يحشر تحت أظلاف الأنعام ، فيموت ويحيي وهو تحت أظلافها وهو مانع زكاتها ، واما مانع زكاة الغلاة فيكلفه الله نقل تراب تلك الأرض إلى المحشر فلا يقدر عليه فتضربه الملائكة ، واما مانع زكاة النقدين ، فيحمى عليها وتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم .

موقف المؤمنين من القيامة

ففي الخبر إذا توجه الناس إلى عرصات القيامة فمنهم من يبعث الله اليه ملائكة مع ناقة من نوق الجنة ـ أي من نور ـ فيركبها فتطير به إلى الجنة ولا يرى عرصات واهوال القيامة إلا ماراً عليها لأنها تطير بهم من قبورهم ، ومنهم من يقف لكنه تحت ظل العرش سالماً من حرارة الشمس ، وقد مرت صفاتهم في البحوث السابقة .

وقال العسكري عليه السلام : يأتي علماء شيعتنا القوامون بضعفاء محبينا يوم القيامة

والأنوار تسطع من تيجانهم فلايبق أحد قد علموه ، ومن حيرة الضلالة اخرجوه إلا تعلق بشعبة من انوارهم فترفعهم إلى العلو حتى تحاذي بهم فوق الجنان ثم تنزلهم على منازلهم المعدة لهم في جوار أساتذتهم ومعلميهم .

من أوصاف القيامة

إن الناس إذا مشوا من قبورهم مشوا في ظلمات كقطع الليل والملائكة تسوقهم بسرادقات من نار حتى لا يقفون . كما وصفهم امير المؤمنين عليه السلام في بعض خطبه تسوقهم النار وتجمعهم الظلمة ، وسبب الظلمة ان الشمس والقمر يكوران فيذهب نورهما ولا تبقى فيهما إلا الحرارة ، وتنحط الشمس على رؤوس الخلائق حتى تغلي بحرارتها الهام والدماغ ، ولـكن الله سبحانه يرسل إلى المؤمنين غماماً يظلهم من حرها ولعل المقصود منه ظل العرش كما تقدم .

فقد جعل سبحانه بعدله لكل شدة من شدائد يوم القيامة مخرجاً ، ومن كل موقف مخلصاً لو اهتدى اليه الانسان في دار الامتحان كما قال صلى الله عليه وآله : بشر الداهبين في الظلمات إلى المساجد بالنور الساطع يوم القيامة ، لأن الله تعالى يعطي المؤمنين نوراً يمشون به في ظلمات القيامة على قدر اعمالهم ، فنهم من يكون نوره مقدار خمسة فراسخ ، ومنهم الأقل حتى ان منهم من يكون نوره على قدر مايرى به مواضع أقدامه ، فهؤلاء الذين يقولون : « ربنا أتمم لنا نورنا » .

وفي بعض الأخبار ان مطالع هذه الأنوار هي أعضاء الوضوء .

الأعمال تدفع الأهوال

فقد ورد أن كل عمل من اعمال الخير يقوم بوظيفة خاصة يدفع بها عن عامله هولا معيناً من اهوال يوم القيامة كما قد تقدم بعضها .

فقد روى الصدوق باسناده إلى عبدالرحمن بن سمرة قال : كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ يوماً فقال ﷺ : إني رأيت البارحـــة عجائب فقلنا : يا رسول‌الله وما رأيت حدثنا به فداك انفسنا وأهلونا وأولادنا ؟ فقال ﷺ : رأيت رجلا من امتي قد اتاه ملك الموت لقبض روحه ، فجاءه بره بوالديه فمنعه بره منه ، ورأيت رجلا من امتي قد بسط عليه عذاب القبر فجاءه وضوءه فمنعه منه ، ورأيت رجلا من امتي قد احتوشته الشياطين فجاءه ذكرالله عز وجل فنجاه من بينهم ، ورأيت رجلا من امتي قد احتوشته ملائكة العذاب فجاءته صلاته فمنعتهم منه ، ورأيت رجلا من امتي يلهث عطشاناً كلما ورد حوضاً منع منه فجاءه صيام شهر رمضان فسقاه وأرواه ، ورأيت رجلا من امتي والنبيون حلقاً حلقاً كلما اتى حلقة طرد فجاءه اغتساله من الجنابة واخذ بيده فأجلسه إلى جنبي ، ورأيت رجلا من امتي ومن بين يديه ظلمة ومن خلفه ظلمة وعن يمينه ظلمة وعن شماله ظلمة ومن تحته ظلمة مستنقعاً في الظلمة فجاءه حجه وعمرته فأخرجاه من الظلمة وادخلاه النور ، ورأيت رجلا من امتي يكلم المؤمنين فلا يكلمونه فجاءته صلة الرحم فقالت : يا معشر المؤمنين كلموه فانه كان واصلا لرحمه فكلمه المؤمنون وصافحوه وكان معهم ، ورأيت رجلا من امتي يتقي وهج النار وشررها بيده ووجهه فجاءته صدقته فكانت ظلا على رأسه وستراً عن وجهه ، ورأيت رجلا من امتي قداخذته الزبانية من كل مكان فجاءه امره بالمعروف ونهيه عن المنكر فخلصاه

من بينهم وجعلاه مع ملائكة الرحمة ، ورأيت رجلا من امتي جاثياً على ركبتيه بينه وبين رحمة الله حجاب فجاءه حسن خلقه فأخذ بيده فأدخله في رحمة الله ، ورأيت رجلا من امتي قد هوت صحيفته قبل شماله فجاءه خوفه من الله فأخذ صحيفته فجعلها في يمينه ، ورأيت رجلا من امتي قد خفت موازينه فجاءه إفراطه ـ اي اولاده الذين توفوا امامه ـ فثقلوا موازينه ، ورأيت رجلا من امتي قائماً على شفير جهنم فجاءه رجاؤه من الله عز وجل فاستنقذه من ذلك ، ورأيت رجلا من امتي قد هوى في النار فجاءت دموعه التي بكاها من خشية الله فاستخرجته من ذلك ، ورأيت رجلا من امتي على الصراط يرتعد كما ترتعد السعفة في يوم ريح عاصف فجاءه حسن ظنه بالله فسكن رعدته ومضى على الصراط ، ورأيت رجلا من امتي على الصراط يزحف احياناً ويحبو احياناً ويتعلق احياناً فجاءته صلاته علي وإقامته على قدميه ومضى على الصراط ، ورأيت رجلا من امتي انتهى إلى ابواب الجنة كلما انتهى إلى باب غلق دونه فجاءته شهادة ان لا إله إلا الله صادقاً ففتحت له الأبواب ودخل الجنة .

ومن الاهوال الميزان

وعنده تكون الحسرات

فعن النبي ﷺ انه قال : إن من اشد الحسرات يوم القيامة ان يرى الانسان عمله بميزان غيره ، وذلك ان الرجل يكسب مالا ويتعب في تحصيله ولا يخرج منه الواجب ولا ينفعه في سبيل الله ، ويموت ويتركه لوارثه فيعمل فيه ذلك الوارث الصالحات والخيرات فتجعل يوم القيامة في ميزان عمله ويجيء صاحب المال الأول فيرى ثواب ماله لغيره فيالها من حسرة وندامة في ذلك الوقت .

وروي عنه ﷺ انه قال لأصحابه يوماً : أتدرون من المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا دينار ولا مال ولا متاع ، قال ﷺ : إن المفلس من امتي من اتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي وقد شتم هذا واكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا وهذا من حسناته ، فان فنيت حسناته قبل ان يقضي ما عليه اخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم يطرح في النار .

وفي رواية ان عيسى عليه السلام دعا على قبر فأحيي الله من فيه فسأله عن حاله فقال : كنت حمالا فحملت يوماً حطباً لرجل فكسرت خلالا وخللت به اسناني فأنا مطالب به منذ مت .

وفي الآثار ان رجلا فقيراً مات فلما رفعت جنازته بالغداة لم يفرغوا من دفنه إلى العشاء لكثرة الزحام فرؤي في المنام فقيل له : ما فعل بك ؟ فقال : غفر لي ربي واحسن إلي الكثير ، إلا انه حاسبني وطالبني بيوم كنت صائماً وكنت قاعداً على حانوت صديق لي حناط ، فلما كان وقت الافطار اخذت حبة حنطة من حانوته فكسرتها نصفين فتذكرت انها ليست لي فألقيتها على حنطته فأخذ من حسناتي قيمة ما نقص من تلك الحبة بالكسر .

وقد ورد في الأخبار انه يؤخـــذ بدانق فضة سبعمائة صلاة مقبولة فيعطاها الخصم .

ومن هذا ورد في الحديث عن النبي ﷺ انه قال : درهم يرده العبد إلى الخصماء خير له من عبادة الف سنة ، وخير له من عتق الف رقبة ، وخير له من الف حجة وعمرة ، واعطاه الله لكل دانق ثواب نبي ، وبكل درهم مدينة من درة حمراء (١) .

---

(١) هذا وما بعده من الجزاء الوافر هو نتيجة الخوف من الله تعالى والتخلص من التبعات قبل حلول الموت والسكرات .

وقال ﷺ : من ارضى الخصماء من نفسه وجبت له الجنة بغير حساب ويكون في الجنة رفيق اسماعيل بن ابراهيم ﷺ .

وقال ﷺ : إن في الجنة مدائن من نور وعلى المدائن ابواب من ذهب مكللة بالدر والياقوت ، وفي جوف المدائن قباب من مسك وزعفران من نظر إلى تلك المدائن يتمنى ان يكون له مدينة منها ، قالوا : يا نبي الله لمن هذه المدائن ؟ قال : للتائبين النادمين المرضيين الخصماء من انفسهم ، فان العبد إذا رد درهماً إلى الخصماء اكرمه الله كرامة سبعين شهيداً ، وان درهماً يرده العبد إلى الخصماء خير له من صيام النهار وقيام الليل ، ومن رده ناداه ملك من تحت العرش يا عبدالله استأنف العمل فقد غفر لك ما تقدم من ذنبك .

رحمة الله لا تحد

فقد روي فيما يخص موقف الميزان ان الله تعالى يأمر الملائكة فتزن اعمال رجل فترجح سيئاته على حسناته فيأمر الله به إلى النار فتأخذه الملائكة فيلتفت إلى ورائه فيقول الله سبحانه وتعالى له : لِمَ تلتفت ؟ فيقول : يا رب ما كان ظني بك ان تدخلني النار فيقول الله تبارك وتعالى : ملائكتي وعزتي وجلالي انه ما احسن الظن بي يوماً واحداً ، ولكن لدعواه حسن الظن بي ادخلوه الجنة .

ماهي أرض يوم القيامة ؟

فقد ورد انها تكون من صد كلما وضع العبد قدمه عليها ذابت جلدتها ثم تعود ، وقيل : تكون من نحاس ، وقيل : غير ذلك . والقدر المتيقن انها تبدل

لصريح قوله تعالى : « يوم تبدل الأرض غير الأرض » ، اما تبديلها إلى اي شيء فالأخبار مختلفة فيه .

فروي عن الصادق عليه السلام انها تبدل خبزة بيضاء نقية يأكل منها اهل المحشر حتى يفرغوا من الحساب حتى قال له ابو حنيفة : يابن رسول الله إن الناس في عرصات القيامة في شغل عن الأكل ، فقال عليه السلام في جوابه : إن شغل اهل النار بالعذاب اشد منهم ، وهم يقولون لأهل الجنة : افيضوا علينا مما افاض الله عليكم فيقولون لهم : إن طعام اهل الجنة محرم على اهل النار ، فيسقون حميما وصديداً كما قال تعالى : « وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا » .

وفي بعض الأخبار ان ارض القيامة جمر . ويمكن الجمع بين هذه الأخبار ان الاختلاف على قدر اختلاف مراتب اهل القيامة ، فالمؤمنون مثلا تكون ارض محشرهم خبزة بيضاء ، والكافرون تكون ارض محشرهم الجمر والنار والصد ويمكن ايضاً القول بأن اختلافها منزل على اختلاف الأحوال ، فتكون ارضهم خبزة بيضاء قبل السؤال وظهور الفضائح مثلا ، وتكون ناراً وامثالها بعد ذلك .

ومن أهوال يوم القيامة

الاحتجاج بين الله وعبده

نذكر نموذجاً من ذلك خوف الاطالة عن عبد الأعلى مولى آل سام قال : سمعت ابا عبدالله عليه السلام يقول : يؤتى بالمرأة الحسناء يوم القيامة التي قد افتتنت في حسنها فتقول : يا رب إنك قد حسنت خلقي حتى لقيت مالقيت ، فيجاء بمريم عليها السلام فيقال : انت احسن أم هذه ؟ قد حسنتها فلم تفتتن ، ويجاء بالرجل

الحسن الذي قد افتتن في حسنه فيقول : يا رب إنك قد حسنت خلقي حتى لقيت من الناس ما لقيت فيجاء بيوسف ﷺ فيقال له : انت احسن ام هـذا ؟ قد حسناه فلم يفتتن ، فيجاء بصاحب البلاء الذي قد اصابته الفتنة والجزع في بلائه فيقول : يا رب قد شـددت علي البلاء حتى افتتنت فيؤتى بأيوب فيقال له : أبليتك اشد أم بلية هذا ؟ قد ابتلي فلم يفتتن ولم يجزع وهكذا .

ومن أحوال يوم القيامة الكوثر

فاذا وقف الناس للحساب اخذهم العطش ، ثم ينظرون فيرون حوض الكوثر وهو كما قال ﷺ : إن عرضه ما بين مكة وصنعاء ، وفيه اكواب بعدد كواكب السماء ، وساقيه أمير المؤمنين ﷺ وله خدام من الملائكة والغلمان يتولون السقي بأمره ، فاذا جاء المؤمن نظر إلى وجهه وعرفه . لأنه مكتوب بين عينيه مؤمن وبين عيني الكافر كافر ، فان كان مؤمناً سقاه شربة لن يظمأ بعدها ابداً ، وإن كان مخالفاً امر الملائكة فطردوه عن الحوض حتى ان المخالف ربما دخل في غمار المؤمنين فتخرجه الملائكة من بينهم ، والأخبار في ذلك متواترة ، حتى ورد عن النبي ﷺ انه قال : يأتي اقوام من اصحابي فيردون علي الحوض فيقتطعون (فيختزلون خ ل) دوني فأقول : اصحابي اصحابي فيقال : إنهم ليسوا بأصحابك فانك لا تدري ما أحدثوا بعدك .

مقام رسول الله (ص) وأمير المؤمنين (ع) وفاطمة (ع) في القيامة

عن حذيفة قال : قال رسول الله (ص) : إذا كان يوم القيامة ضرب لي عن يمين العرش قبة من ياقوتة حمراء وضربت لابراهيم (ع) من الجانب الآخر قبة من درة بيضاء وبينهما قبة من زبرجدة خضراء لعلي بن ابي طالب (ع) فما ظنكم بحبيب بين خليلين .

وفي خبر آخر يؤتى بمنبرين من نور طولها مائة ميل فيوضع احـدهما عن يمين العرش والآخر عن يساره ، ثم يؤتى بالحسن والحسين عليهما السلام فيقوم الحسن عن يمين العرش والحسين عن يسار العرش يزين الرب عرشه بهما كما يزين المرأة قرطاها .

وفي رواية ابي سعيد الخدري قال : قال رسول الله (ص) : إذا سألتم الله عز وجل فاسألوه لي الوسيلة ، فسألت النبي (ص) عن الوسيلة فقال : هي درجتي في الجنة وهي الف مرقاة ما بين المرقاة إلى المرقاة حضر الفرس الجواد شهراً وهي ما بين مرقاة جوهر إلى مرقاة زبرجد ومرقاة ياقوت إلى مرقاة ذهب إلى مرقاة فضة فيؤتى بها يوم القيامة حتى تنصب مع درجة النبيين كالقمر بين الكواكب فلا يبقى يومئذ نبي ولا صديق ولا شهيد إلا قال : طوبى لمن كانت هذه الدرجة درجته ، فيأتي النداء من عند الله عز وجل يُسمع النبيين وجميع الخلق هذه درجة محمد (ص) فأقبل أنا يومئذ متزر بريطة من نور علي تاج الملك واكليل الكرامة وعلي بن ابي طالب (ع) أمامي وبيده لوائي وهو لواء الحمد مكتوب عليه لا إله إلا الله المفلحون هم الفائزون بالله ، وإذا مررنا بالنبيين قالوا : هذان ملكان

مقربان لم نعرفهما ولم نرهما ، وإذا مررنا بالملائكة قالوا : هذان مرسلان حتى اعلو الدرجة وعلي يتبعني حتى إذا صرت في أعلى درجة منها وعلي أسفل مني بدرجة فلا يبقى يومئذ نبي ولا صديق ولا شهيد إلا قال : طوبى لهـــذين العبدين ما اكرمهما على الله ، فيأتي النداء من قبل الله عز وجل يسمع النبيين والصديقين والشهداء والمؤمنين هذا حبيبي محمد وهذا وليي علي ، طوبى لمن أحبه وويل لمن أبغضه وكذب عليه ، ثم قال رسول الله ﷺ : فلا يبقى يومئذ أحد أحبك يا علي إلا استروح إلى هذا الكلام وابيض وجهه وفرح قلبه ، ولا يبقى أحد ممن عاداك ونصب لك حرباً او جحد لك حقاً إلا اسود وجهه واضطربت قدماه ، فبينما أنا كذلك إذ أقبل رضوان خازن الجنان ومالك خازن النيران فيدنو رضوان ويقول : السلام عليك يا أحمد فأقول : وعليك السلام من انت ؟ ما احسن وجهك وأطيب ريحك ، فيقول : أنا رضوان وهذه مفاتيح الجنة بعث بها اليك رب العزة فخذها يا أحمد . فأقول : قد قبلت ذلك من ربي فله الحمد على ما فضلني به ادفعها إلى أخي علي بن ابي طالب ، ثم يرجع رضوان فيدنو مالك فيقول : السلام عليك يا أحمد فأقول : وعليك السلام من أنت ؟ فما أقبح وجهك وأنكر رؤيتك ، فيقول : أنا مالك خازن النار وهذه مقاليد النار بعث بها اليك رب العزة فخذها يا احمد ، فأقول : قد قبلت ذلك من ربي فله الحمد على ما فضلني به ادفعها إلى اخي علي بن ابي طالب ، ثم يرجع مالك فيقبل علي ومعه مفاتيح الجنة ومقاليد النار حتى نقف على عجزة جهنم وقد تطاير شررها وعلا زفيرها واشتد حرها وعلي آخذ بزمامها فتقول : جزني يا علي فقد أطفأ نورك لهبي ، فيقول لها : قري ياجهنم خذي هذا عدوي واتركي هذا وليي فلجهنم يومئذ اشد مطاوعة لعلي من غلام احدكم لصاحبه ، فان شاء يذهبها يمنة ، وإن شاء يذهبها يسرة وللجنة يومئذ اشد مطاوعة لعلي فيما يأمرها به من جميع الخلائق .

فضيلة فاطمة الزهراء في يوم القيامة

فعن ابي جعفر عليه السلام قال : إن لفاطمة وقفة على باب جهنم ، فاذا كان يوم القيامه كتب بين عيني كل رجل مؤمن او كافر فيؤمر بمحب قد كثرت ذنوبه إلى النار فتقرأ فاطمة بين عينيه محباً فتقول : إلهي وسيدي سميتني فاطمة وفطمت بي من تولاني وتولى ذريتي من النار ، ووعدك الحق وانت لا تخلف الميعاد ، فيقول الله عز وجل : صدقت يا فاطمة إني سميتك فاطمة وفطمت بك من أحبك من النار وأحب ذريتك وعدي الحق وأنا لا اخلف الميعاد ، وإنما امرت بعبدي هذا إلى النار لتشفعي فيه فأشفعك فيتبين لملائكتي وأنبائي ورسلي واهل الموقف موقفك مني ومكانك عندي فمن قرأت بين عينيه مؤمناً او محباً فخذي بيده وادخليه الجنة .

وروى الصدوق باسناده إلى النبي صلى الله عليه وآله ما مختصره ان ابنتي فاطمة تأتي في يوم القيامة على ناقة من نوق الجنة ثم يذكر اوصافها الغريبة العجيبة وعلى رأسها تاج بأوصافه العظيمة تحفها الملائكة ، وجبرئيل آخذ بخطام الناقة ينادي غضوا أبصاركم حتى تجوز فاطمة فلا يبقى نبي ولا رسول ولا صديق ولا شهيد إلا غضوا أبصارهم حتى تجوز فتحاذي عرش الرب جل جلاله فترمي بنفسها عن ناقتها وتقول : إلهي وسيدي احكم بيني وبين من ظلمني ، اللهم احكم بيني وبين من قتل ولدي ، فاذا النداء من قبل الله تعالى يا حبيبتي وابنة حبيبي سلي تعطين واشفعي تشفعي فوعزتي وجلالي لا يتجاوز بي اليوم ظلم ظالم ، فتقول : إلهي وسيدي ذريتي وشيعتي وشيعة ذريتي ومحبي ومحب ذريتي فاذا النداء من قبل الله جل جلاله أين ذرية فاطمة وشيعتها ومحبوها ومحبوا ذريتها ؟ فيقبلون وقد احاط بهم ملائكة الرحمة فتقدمهم فاطمة وتدخلهم الجنة .

ومن أهوال يوم القيامة الصراط

وقد مر شيء من احواله وأوصافه ، وانه ادق من الشعرة وأحد من السيف ، وإن منهم من يمر عليه كالبرق الخاطف ، ومنهم من يعدو عدو الفرس ، ومنهم من يحبوحبواً ، ومنهم من يمر مشياً ، ومنهم من يمر متعلقاً قد تأخذ النار منه شيئاً وتترك شيئاً ، وان عليه عقبات .

قال ﷺ : فاذا ساقوا الخلائق إلى العبور على جسر جهنم وهو الصراط فهناك الويل والثبور .

نعم أن الأمر شديد ولكن الذي يسكن القلوب ، هو أن الأخبار قد استفاضت في ان امير المؤمنين ﷺ وأولاده المعصومين (ع) بل وحتى النبي ﷺ واقفون هناك وعلي يقسم بين الجنة والنار يقول : يانار هذا لي وهذا لك فان كان مؤمناً مضى كالبرق الخاطف ، وإن كان مخالفاً سقط في جهنم ، وان منهم من يسقط من عقبة الصراط ، ومنهم من يسقط من عقبة الزكاة ، ومنهم من يسقط من عقبة الصوم ، ومنهم من يسقط من عقبة الحج ، ومنهم من يسقط من عقبة الولاية ، ومنهم من يسقط من عقبة التوحيد ، ومنهم من يسقط من عقبة الرسالة .

في معنى الصراط

روى المفضل قال : سألت ابا عبدالله ﷺ عن الصراط ، قال : هو الطريق إلى معرفة الله عز وجل وهما صراطان صراط في الدنيا وصراط في الآخرة ؛ فأما

الصراط الذي في الدنيا فهو الامام المفترض الطاعة ، من عرفه في الدنيا واقتدى بهداه مر على الصراط الذي هو جسر جهنم في الآخرة ، ومن لم يعرفه في الدنيا زلت قدمه على الصراط في الآخرة فتردى في جهنم .

نعم هناك قنطرة في المرصاد وهي قنطرة مظالم العباد قال امير المؤمنين عليه السلام : لا يجوزها بمظلمة عبد حتى ينتصف المظلوم من الظالم .

وفي الحديث ان الناس يقفون عليها ثمانين سنة حتى يلجمهم العرق فينادي مناد من قبل الله عز وجل ايها الخلائق قد وهبتكم حقوقي فهبوا حقوق بعضكم بعضاً حتى تدخلوا الجنة ، ويقول لرضوان : افتح لهم عن منازلهم في الجنة حتى يروها ، فيفتح لهم حتى يرى كل انسان مكانه في الجنة فيشتاقون اليها فيعبرون الصراط فمن عبر الصراط لو نام اربعين سنة استراحة مما عاين من نصب المحشر لكان قليلا ، فاذا اتوا رضواناً وهو جالس على باب الجنة ومعه سبعون الف ملك مع كل ملك سبعون الف ملك فينظر اليهم ، وهم في أقبح صورة من سواد البدن وطول الشعر ، فيقول لهم : كيف تدخلون الجنة وتعانقون الحور العين وانتم على هذه الهيئة ، فيأمر جماعة من الملائكة فيذهبون بالمؤمنين إلى عين ماء عند جدار الجنة ، فاذا اغتسلوا فيها صار وجه كل واحد منهم كالبدر في تمامه وتسقط شعورهم وتبيض قلوبهم من النفاق والحسد والكذب والغوايل والأوصاف الذميمة حتى لا يتحاسدوا في الجنة ، وذلك قوله تعالى : « ونزعنا مافي صدورهم من غل وجعلناهم اخواناً على سرر متقابلين » .

وذلك لما أشرنا اليه في أوائل الكتاب من ان الصفات الذميمة تلوث الروح وتكدر النفس وبذلك لا يصلح صاحبها للالتئام مع تبلور مواد الجنة وصفاتها سواء كانت الحور او القصور وتوابعها ، فالتوقيف على اختلاف انواعه وزمانه للتصفية كي يعود ملائماً لمعادن الجنة ، وقابلا للاختلاط بها ومعها .

ختام الفصل

قوله تعالى : « القارعة ما القارعة وما أدراك ما القارعة يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش » .

فنقول : أولاً قد ورد عن النبي ﷺ في فضل قراءة هذه السورة انه من قرأها ثقل الله بها ميزانه يوم القيامة .

وعن ابي جعفر عليه السلام قال : من قرأ القارعة آمنه الله من فتنة الدجال ان يؤمن به ، ومن قيح جهنم يوم القيامة .

وثانياً ان القارعة في اللغة ، البلية التي تقرع القلب بشدة المخافة والقرع الضرب بشدة الاعتماد .

وفي التفسير القارعة اسم من اسماء يوم القيامة ، لأنها تقرع القلوب بشدة الفزع وتقرع أعداء الله بالعذاب ، فسميت بذلك لتحقق المعنى اللغوي فيها .

(ما القارعة) استفهام غير حقيقي ، لأنه طلب الفهم وهو محال عليه تعالى ، فالمقصود منه تعظيم لشأنها وتهويل لأمرها .

ومعناه أي شيء القارعة ؟ ثم عجب نبيه ﷺ فقال : « وما أدراك ما القارعة) يقول سبحانه : يا محمد إنك وان علمت عن احوال يوم القيامة شيئاً لكنه مجمل وبعد لم تعرف حقيقة امرها ، وكنه وصفها ، وتفصيل احوالها ، وما فيها ، ثم بين تعالى انها متى تكون ، بقوله: « يوم يكون الناس كالفراش المبثوث» الفراش في اللغة الجراد الذي ينفرش ويركب بعضه بعضاً ، وهو غوغاء الجراد ، والمبثوث هو المتفرق في الجهات ، والمقصود هنا انه تعالى شبه الناس عند البعث لانذهالهم وعظم موقفهم لما أعد لهم فيه من الأهوال بما يتهافت من الفراش في

النار وعلى ضوء السراج ، لأنهم إذا بعثوا من قبورهم ماج بعضهم إلى بعض ، فالفراش إذا ثار لم يتجه إلى جهة واحدة فهم لفزعهم عند البعث يختلفون في المقاصد إلى جهات مختلفة .

ونظير هذا قوله تعالى في مقام آخر : « كأنهم جراد منتشر » ثم أزاد في تهويل ذلك اليوم فقال تعالى : « وتكون الجبال كالعهن المنفوش » وهو الصوف المصبوغ المندوف .

والمعنى ان الجبال على عظمها وهي الرواسي تزول عن أماكنها وتصير خفيفة السير ، كما ان الصوف المنفوش يكون خفيفاً ، وعلى الأخص إذا كان مصبوغاً ومندوفاً ، وحيث ان هذا الحال والوصف يوجب الخوف ، وربما يصل إلى درجة اليأس من النجاة ، عقب ذلك سبحانه بأن الأمر اختياري لابن آدم ، ويمكنه الخلاص من عظم وشدائد ذلك الموقف ، بأن يكثر من الطاعات وأعمال الخير في دار الدنيا فينجو منها مع المؤمنين الذين سبق ذكرهم ، وانهم يطيرون من قبورهم على نوق من نور إلى الجنة مارين على المحشر مروراً .

كما قد ورد ان الدنيا مزرعة الآخرة ، وتزودوا من ممركم لمقركم ، لهذا قال تعالى على أثر ذلك : « فأما من ثقلت موازينه ... الخ » وتكون هذه الآية هي فاتحة الفصل الرابع لمناسبتها لما هو معقود له .

الفصل الرابع

في المصير الاخير الجنة أو النار

قال تعالى : « وتنذر يوم الجمع فريق في الجنة وفريق في السعير » (١)

نتيجة الحساب والميزان

قال تعالى : « فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأمه هاوية وما أدراك ما هيه نار حامية » (٢) .

أما معنى الميزان فالمعتزلة قالوا : إنه ميزان حقيقي له كفتان يوزن به ما يتبين من حال المكلفين في ذلك اليوم ، بأن يوضع كتاب الطاعات في كفه الخير ، و كتاب المعاصي في كفه الشر ، ويجعل رجحان أحدهما ، دليلا على إحدى الحالتين .

وقال آخرون : المراد من الموازين أين ما ذكرت في القرآن العدل مجازاً لأن الموازين هي آلات لتحقيق العدالة ، وعدم الميل ، ولأجل القسمة بالسوية ، وكأن الخلاف في ذلك مبني على تجسم الأعمال وعدمه ، وعلى كل فنعود إلى صلب الموضوع في الآية ونقول : إن يوم القيامة يوم جعل للتمييز بين ذوي النفوس الزكية النقية المصفاة ، وبذلك تمكنوا من توفير الطاعات ورجحت

(١) سورة الشورى الآية ٦ . (٢) سورة القارعة الآية ٥ .

موازينهم بالحسنات وثقلت بالطاعات فاستحقوا العيشة المرضية في الجنة العلية وبين ذوي النفوس الملوثة الخبيثة الكدرة ، ولذلك اظلمت قلوبهم فلم يعودوا ليبصروا رشدهم فقست وتصلبت وارتكبت الآثام والمعاصي العظام ، بحيث قد اندكت في جنبها حسناتهم لو كانت لهم حسنات ، فلذلك خفت موازينهم من الحسنات فاستحقوا الدرك ودخول جهنم كما قال سبحانه : « وأما من خفت موازينه فأمه هاوية » أي فأواه جهنم ومسكنه النار ، وإنما سماها امه لأنه يأوي اليها وينتهي لها كما يأوي الولد إلى امه ، ولأن الأصل السكون إلى الأمهات ، وكانت العرب تقول : إذا وقع الرجل في أمر شديد هوت امه .

وقيل : إنما قال تعالى : فأمه هاوية ، لأن العاصي يهوي على ام رأسه في النار لا على رجليه ، لأنه اشد عليه .

وقيل : إنه يهوي فيها وهي المهواة لا يدرك قعرها ، حيث ان عمق جهنم وما اعد فيها للعصاة ليعجز اللسان عن بيانه ويذوب القلب من سماعه .

عمق جهنم لا يدرك

فقد روي عن رسول الله ﷺ ليلة المعراج انه قال : لما ركبت البراق وسرت سمعت هدة عظيمة من خلفي تخيلت ان اطباق السماوات وقعت على الأرض فقلت لجبرئيل : ما هذا الصوت الهائل ؟ فقال : كان على شفير جهنم صخرة عظيمة وقد امرت ان ادفعها في جهنم فدفعتها بجناحي قبل هذا اليوم بسبعين عاماً حتى وصلت هذه الساعة إلى قعر جهنم وفيها من الأفاعي والعقارب ما لا يعلمه إلا الله تعالى ثم قال تعالى : « وما أدراك ماهيه » هذا تعظيم لأمرها يريد انك يا محمد لا تعلم تفصيلها وانواع ما فيها من العقاب ، وان كنت تعرفها على سبيل الاجمال

ثم فسرها سبحانه بقوله : « نار حامية » أي حارة شديدة الحرارة أي قد بلغت النهاية في حرارتها بحيث لو خلي الانسان وطبيعته فيها لهلك بلحظة ، لكنه سبحانه حيث اراد عذابه السرمدي فهو يجد ويحس شديد حرارتها ومنتهاها ولا يموت ليستمر عذابه كما قد تمادى بغروره واستمر بعصيانه ، ولم يرعو ولم يندم ولم يتب إلى ربه إلى بلوغ اجله وذلك قوله تعالى : « كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب الأليم » .

وان ذلك باستحقاق ، حيث قد بلغه المرشدون وحذره المنذرون ، وكان يستهزئ بهم فهم اليوم به يستهزئون ، ولكن فرق بعيد بين الاستهزائين ذاك جهل ، وفي أيام معدودة وغير ضائر ، وهذا دائم مستمر مع الأسف والغبن الدائم

فريق الجنة (١)

عن ابي عبدالله عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله انه بعد انهاء حساب الله تعالى لعبده المؤمن يقول سبحانه : يا جبرئيل انطلق بعبدي فأره كرامتي ، فيخرج من عند الله قد اخذ كتابه بيمينه فيدحو به مد البصر فيبسط صحيفته للمؤمنين والمؤمنات وهو ينادي « هاؤم اقرأوا كتابيه اني ظننت اني ملاق حسابيه فهو في عيشة راضية » فاذا انتهى إلى باب الجنة قيل له : هات الجواز ، قال : هذا جوازي مكتوب فيه بسم الله الرحمن الرحيم هذا جواز جائز من الله العزيز الحكيم لفلان ابن فلان من رب العالمين ، فينادي مناد يسمعه اهل الجمع كلهم ألا ان فلان ابن فلان قد سعد سعادة لا يشقى بعدها ابداً فيدخل فاذا هو بشجرة ذات ظل ممدود وماء مسكوب ، وثمار مهدلة تسمى رضوان يخرج من ساقها عينان تجريان

(١) كتاب الاختصاص نقلناه باختصار ص ٣٥٠ وكتاب دار السلام ج ٤ ص ٦٠

فينطلق إلى احديهما كما امر بذلك فيغتسل منها فيخرج وعليه نضرة النعيم ، ثم يشرب من الأخرى فلا يكون في بطنه مغص ولا مرض ولا داء ابداً ، وذلك قوله تعالى : « وسقاهم ربهم شراباً طهوراً » (١) .

ثم تستقبله الملائكة فتقول له : طبت فادخلها مع الداخلين ، فيدخل فاذا هو بسماطين من شجر اغصانها اللؤلؤ ، وفرعها الحلي والحلل ، ثمرها مثل ثدي الجوار الأبكار ، وتستقبله الملائكة معهم النوق والبراذين والحلي والحلل فيقولون يا ولي الله اركب ما شئت ، والبس ما شئت ، وسل ما شئت ، فيلبس ما اشتهى ويركب على ناقة من نور او برذون من نور وثياب من نور وحليته من نور ويسير في دار النور ومعه ملائكة من نور وغلمان من نور ووصايف من نور حتى تهابه الملائكة مما يرون من النور فيقول بعضهم لبعض : تنحوا فقد جاء وفد الحليم الغفور فينظر إلى أول قصر له من فضة مشرفاً بالدر والياقوت فتشرف عليه ازواجه فيقلن : مرحباً مرحباً انزل بنا فيهم ان ينزل بقصره فتقول له الملائكة : سر يا ولي الله ، فان هذا لك وغيره حتى ينتهي إلى قصر من ذهب مكلل بالدر والياقوت فتشرف عليه ازواجه فيقلن : مرحباً مرحباً يا ولي الله انزل بنا فيهم أن ينزل بقصره فتقول له الملائكة : سر يا ولي الله ، ثم يأتي قصراً من ياقوت أحمر مكلل بالدر والياقوت فيهم ان ينزل بقصره فتقول له الملائكة : سر يا ولي الله فان هذا لك وغيره حتى يأتي على تمام الف قصر ويسير في ملكه اسرع من طرفة عين فاذا انتهى إلى أقصاها نكس رأسه فتقول له الملائكة : مالك يا ولي الله ؟ فيقول : والله لقد كاد بصري ان يختطف فتقول له الملائكة : فان الجنة ليس فيها هم ولا غم ، فيأتي قصراً يرى ظاهره من باطنه وباطنه من ظاهره لبنة من فضة ولبنة من ذهب ولبنة من ياقوت ولبنة من در ملاطه المسك قد شرف بشرف من

(١) سورة الانسان الآية ٢١ .

نور يتلألأ ويرى الرجل وجهه في الحائط ، وذلك قوله تعالى: «ختامه مسك»(١)

ثم ذكر النبي ﷺ الحور العين فقالت أم سلمة : بأبي انت وامي يا رسول الله ، أما لنا فضل عليهن ؟ قال : بلى بصلاتكن وصيامكن وعبادتكن لله بمنزلة الظاهرة على الباطنة (٢) .

وحدث ﷺ ان الحور العين خلقهن الله في الجنة مع شجرها وحبسهن على أزواجهن في الدنيا على كل واحدة منهن سبعون حلة يرى بياض سوقهن من وراء الحلل السبعين ، كما ترى الشراب الأحمر في الزجاجة البيضاء ، يجامعها في قوة مائة رجل في شهوة مقدار اربعين سنة وهن أتراب ابكار عذارى كلما نكحت صارت عذرى كما كانت « لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان » أي لم يمسسهن أحد « فيهن خيرات حسان » أي خيرات الأخلاق حسان الوجوه « كأنهن الياقوت والمرجان » يعني مثل صفاء الياقوت وبياض اللؤلؤ ، وان في الجنة لنهراً حافتاه الجواري فيوحي اليهن الرب أسمعن عبادي تمجيدي وتسبيحي وتحميدي فيرفعن اصواتهن بألحان وترجيع لم يسمع الخلائق مثلها قط ، فتطرب اهل الجنة ، وانه لتشرف على ولي الله المرأة ليست من نسائه من السجف (٣) فيملأ قصره ومنزله نور وضوء ، فيظن ولي الله ان ربه اشرف عليه ، اوملك من الملائكة فيرفع رأسه فاذا هو بزوجة قدكاد يذهب نورها نورعينيه ، قال : فتناديه قدآن لنا أن تكون لنا منك دولة فيقول لها : ومن انت ؟ فتقول : انا ممن ذكر الله في القرآن « لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد » (٤) ، فيجامعها في قوة مائة شاب ، ويعانقها سبعين سنة من اعمار الأولين ، وما يدري أينظر إلى وجهها أم إلى خلفها أم إلى ساقها ، فما شيء ينظر اليه منها إلا يرى وجهه من ذلك المكان من شدة نورها

(١) سورة المطففين الآية ٢٦ .
(٢) أي الظهارة والبطانة من الثوب
(٣) الستر .
(٤) سورة ق الآية ٣٥ .

وصفائها ثم تشرف عليه اخرى احسن وجهاً واطيب ريحاً من الأولى فتناديه فتقول : قد آن لنا ان تكون لنا منك دولة فيقول لها : ومن انت ؟ فتقول : انا ممن ذكر الله عز وجل في القرآن « فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة اعين جزاء بما كانوا يعملون » (١) .

قال : وما من أحد يدخل الجنة إلا وكان له من الأزواج خمسمائة حوراء مع كل حوراء سبعون غلاماً وسبعون جارية كأنهن اللؤلؤ المنثور (٢) وكأنهن اللؤلؤ المكنون (٣) ، وله سبعة قصور في كل قصر سبعون بيتاً في كل بيت سبعون سريراً وعلى كل سرير سبعون فراشاً عليها زوجة من الحور العين تجري من تحتهم الأنهار أنهار من ماء غير آسن ـ أي صاف ليس بالكدر ـ وأنهار من لبن لم يتغير طعمه لم يخرج من ضروع المواشي ، وأنهار من عسل مصفى لم يخرج من بطون النحل وأنهار من خمر لذة للشاربين لم يعصره الرجال بأقدامهم ، فاذا اشتهوا الطعام جاءهم به طيور بيض يرفعن اجنحتهن فيأكلون من أي الألوان جلوساً إن شاؤا او متكئين ، وان اشتهوا الفاكهة أمدت اليهم الأغصان فيأكلون من ايها اشتهوا .

اكرام الله تعالى لأوليائه بزيارته

قال : فبيناهم كذلك ، إذ يسمعون صوتاً من تحت العرش يا اهل الجنة كيف ترون منقلبكم ؟ فيقولون : خير المنقلب منقلبنا ، وخير الثواب ثوابنا ، قد سمعنا الصوت واشتهينا النظر إلى انوار جلالك وهو اعظم ثوابنا ، وقد وعدته

(١) سورة السجدة الآية ١٧ . (٢) أي في الكثرة .
(٣) أي بمنزلة اللؤلؤ في الصدف لم تمسه الأيدي ولم تره الأعين .

ولا تخلف الميعاد ، فيأمر الله الحجب فيقوم سبعون الف حاجب فير كبون معهم على النوق والبراذين ، وعليهم الحلي والحلل فيسيرون في ظل الشجر حتى ينتهون إلى دار السلام وهي دار الله دار البهاء والنور والكرامة والسرور ، فيسمعون الصوت فيقولون : يا سيدنا سمعنا لذاذة منطقك ، فأرنا نور وجهك . فيتجلى لهم سبحانه حتى ينظرون إلى نور وجهه المكنون من عين كل ناظر « وحيث انه سبحانه ليس بجسم ولا يرى ، فقد وجه العلماء الامامية الخبر فقال المجلسي : المراد من الرؤية إما مشاهدة نور من أنواره المخلوقة له او النبي ﷺ وأهل بيته الذين جعل رؤيتهم بمنزلة رؤيته ، او غاية المعرفة التي يعبر عنها بالرؤية له » فعند ذلك لا يتمالكون حتى يخروا على وجوههم سجداً ، فيقولون : سبحانك ما عبدناك حق عبادتك ياعظيم فيقول سبحانه : يا عبادي ارفعوا رؤوسكم ليست هذه بدار عمل ، إنما هي دار كرامة ومسألة ونعيم فقد ذهب عنكم النصب والتعب فيرفعون وقد أشرقت وجوههم من نور وجهه تعالى سبعين ضعفاً ثم يقول سبحانه : يا ملائكتي اطعموهم واسقوهم فيأتون بألوان الأطعمة لم يروا مثلها قط في طعم الشهد وبياض الثلج ولين الزبد ، فاذا اكلوا قال بعضهم لبعض : كان طعامنا الذي خلفناه في الجنة عند هذا حلماً ، ثم يقول الجبار : اسقوهم فيأتون بأشربة فيفضها ولي الله فيشرب شربة لم يشرب مثلها قط ، ثم يقول سبحانه : طيبوهم فتأتيهم ريح من تحت العرش بمسك اشد بياضاً من الثلج تغير وجوههم وجباههم وجنوبهم تسمى المثيرة فيستمكنون من النظر إلى نور وجهه فيقولون : يا سيدنا حسبنا لذاذة منطقك ، والنظر إلى نور وجهك لا نريد به بدلا ، ولا نبتغي عنه حولا ، فيقول الرب : إني اعلم انكم إلى ازواجكم مشتاقون ، وان ازواجكم اليكم مشتاقات فيقولون : ياسيدنا ما أعلمك بما في نفوس عبادك فيقول : كيف لا اعلم وأنا خلقتكم وأسكنت أرواحكم في ابدانكم ثم رددتها عليكم بعد الوفاة فقلت :

اسكني في عبادي خير مسكن ارجعوا إلى أزواجكم فيقولون : يا سيدنا اجعل لنا شرطاً ، قال : فان لكم كل جمعة زورة مابين الجمعة إلى الجمعة سبعة آلاف سنة مما تعدون فينصرفون فيعطى كل واحد منهم رمانة خضراء في كل رمانة سبعون حلة لم يرها الناظرون المخلوقون .

رجوع الوفد من ربه الى أهله

فيسيرون فيتقدمهم بعض الولدان ليبشروا أزواجهم وهن قيام على أبواب الجنان ، فلما دنا منها نظرت إلى وجهه فأنكرته من غير سوء فقالت : حبيبي لقد خرجت من عندي وما أنت هكذا ، فيقول : حبيبتي تلوموني أن اكون هكذا وقد نظرت إلى نور وجه ربي فأشرق وجهي من نور وجهه ثم يعرض عنها فينظر اليها نظرة فيقول : حبيبتي لقد خرجت من عندك وما كنت هكذا ، فتقول : حبيبي تلومني أن اكون هكذا وقد نظرت إلى وجه الناظر إلى وجه ربي فأشرق وجهي من وجه الناظر إلى وجه ربي سبعين ضعفاً فتعانقه من باب الخيمة والرب يضحك اليهم (١) ، فينادون بأصواتهم الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور رحيم .

---

(١) المراد انه كناية عن إظهار ما يدل على رضاه عنهم من خلق صوت يشبه الضحك حيث أن الضحك بمعناه الحقيقي محال عليه تعالى والله وحججه أعلم .

الاذن من الله تعالى لأنبيائه

في الوفادة عليه

قال : ثم إن الرب يأذن للنبيين فيخرج رجل في موكب قد صفت به الملائكة فينظر اليه أهل الجنة ، ويعدون اعناقهم اليه فيقولون : من هذا ؟ انه لكريم على الله ، فتقول لهم الملائكة : هذا المخلوق بيده ، والمنفوخ فيه من روحه والمعلم للأسماء ، هذا آدم أذن له على الله تعالى ، ثم يخرج رجل في موكب حوله الملائكة قد صفت بأجنحتها والنور أمامه فيمد له اهل الجنة اعناقهم فيقولون : من هذا ؟ فتقول لهم الملائكة : هذا الخليل ابراهيم قد أذن له على الله ثم يخرج رجل في موكب كذلك فيقال لهم بعد السؤال : هذا موسى بن عمران الذي كلم الله تكليما قد أذن له على الله ، ثم يخرج رجل في موكب كذلك فيقال لهم بعد السؤال : هذا روح الله وكلمته ، هذا عيسى بن مريم .

موكب نبينا محمد ﷺ يفوق المواكب

قال : ثم يخرج رجل في موكب مثله في مثل جميع المواكب من قبله سبعون ضعفاً ، حوله الملائكة قد صفت أجنحتها والنور أمامهم فيمد له اهل الجنة اعناقهم فيقولون : من هذا الذي قد أذن له على الله ؟ فتقول الملائكة : هذا المصطفى بالوحي المؤتمن على الرسالة سيد ولد آدم هذا النبي محمد ﷺ قد أذن له على الله

علي عليه السلام بمنزلة الانبياء في الوفادة

على الله تعالى

قال : ثم يخرج رجل في موكب حوله الملائكة وقد صفت أجنحتها والنور أمامه فيمد له اهل الجنة اعناقهم فيقولون : من هذا ؟ فتقول لهم الملائكة : هذا اخو رسول الله في الدنيا والآخرة (١) .

ثم يؤذن للنبيين والصديقين والشهداء ، فيوضع للنبيين منابر من نور وللصديقين سرر من نور ، وللشهداء كراسي من نور ، ثم يقول الرب : مرحباً بوفدي وزواري وجيراني يا ملائكتي اطعموهم ، فطال ما أكل الناس وجاعوا ، وطال ما روى الناس وعطشوا . وطال ما نام الناس وقاموا ، وطال ما أمن الناس وخافوا ، فيوضع لهم أطعمة لم يروا مثلها قط على طعم الشهد ولين الزبد وبياض الثلج ، ثم يقول سبحانه : فكهوهم فيفكهونهم بألوان من الفواكه ، لم ير مثلها قط ، ورطب عذب دسم على لين الزبد وبياض الثلج .

عظمة فواكه الجنة

ثم قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : إنه لتقع الحبة من الرمان فتستر وجوه الرجال بعضهم عن بعض ، ثم يقول سبحانه : ياملائكتي اكسوهم ، فينطلقون إلى شجر في الجنة فيجتنون منها حللاً مصقولة بنور الرحمان ، ثم يقول : طيبوهم فتأتيهم ريح من

(١) لهذا قال (ص) : ما ذكر اسمي إلا وقرن باسم علي ومنه التزمت الإمامية بذكره عليه السلام معه (ص) في الأذان لحديث الاقتران .

تحت العرش اشد بياضاً من الثلج تغير وجوههم وجباههم وجنوبهم ، ثم يتجلى لهم الرب تبارك وتعالى حتى ينظروا إلى نور وجهه المكنون من عين كل ناظر فيقولون : سبحانك ما عبدناك حق عبادتك يا عظيم ، ثم يقول الرب عز اسمه : لكم كل جمعة زورة ما بين الجمعة إلى الجمعة سبعة آلاف سنة مما تعدون .

ومن اللذات المعنوية في الجنان

إن المؤمن بعد ان يلتقي بحوريته العيناء الحسناء وهي مقبلة عليه فيتعانقان قدر خمسمائة عام من اعوام الدنيا لا تمله ولا يملها فينظر إلى عنقها فاذا عليه قلادة من قصب الياقوت الأحمر مكتوب في وسطها انت يا ولي الله حبيبي وأنا الحوراء حبيبتك اليك تناهت نفسي وإلي تناهت نفسك .

رد الزيارة من الله تعالى على أوليائه

قال : ثم يبعث الله تعالى الف ملك يهنئونه فينتهون إلى اول باب من جنانه فيقولون للموكل ببابه : استأذن لنا على ولي الله ، فقد بعثنا الله مهنئين له فيقول : قفوا حتى أقول للحاجب فيدخل الملك إلى الحاجب وبينه وبين الحاجب ثلاث جنان فيقول له على باب العرصة الف ملك ارسلهم رب العزة للتهنئة فيقول: إني ليعظم عليّ ان أستأذن لهم ولي الله ، وهو مع زوجته (١) وبين الحاجب وبين ولي الله جنتان ، فيدخل الحاجب على القيم فيقول له : إن على باب العرصة

(١) كل ذلك تعليم منه سبحانه للائكته في احترام عبده قبال عبادته وخضوعه له في دار الدنيا فهذا العز منه تعالى له عوض ذلك ، وان الخدم حجاب لا يتجاوزونها .

الف ملك يطلبون الاذن فيعلمونه بعد ذلك الخدام فيأذن لهم وهو في الغرفة لها الف باب فيدخلون كل ملك من باب لئلا يكون تزاحم في الدخول على ولي الله فيبلغونه رسالة الجبار وذلك قوله تعالى : « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » .

وهذا معنى قوله تعالى : « وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيراً » والمراد هو ما فيه ولي الله من الكرامة والعز والعظمة ، وان الملائكة بالرغم من انهم رسل الجبار لا يدخلون عليه إلا بعد إذنه .

لذة معنوية اعدها تعالى لأوليائه

فقد روي ان في كل بيت في الجنة باب مشرفة على النار إذا اراد فتحها فيشرف على اهل النار فيرى حالتهم لكي يستلذ بحالته ، لأن الأشياء تزداد حسناً او قبحاً بأضدادها . وإذا اكل من ثمار الجنة ما شاء ان يأكل سقي شراباً مطهراً فيذهب ما اكله ويصير عرقاً كالمسك يرشح من بدنه وتعود شهوته وهو المراد من الطهور في قوله تعالى : « وسقاهم ربهم شراباً طهوراً » أي مطهراً ومذهباً لما في بطونهم .

عدد الجنان وابوابها
وأصناف الداخلين منها

اما عدد الجنان فثمانية على ما أشير اليه في القرآن ، جنة النعيم ، وجنة الفردوس ، وجنة الخلد ، وجنة المأوى ، وجنة عدن ، ودارالسلام ، ودار القرار

وجنة عرضها السماوات والأرض . وفي بعض الكتب تسمية الأخيرة بالوسيلة .

واما ابوابها ثمانية ايضاً ، الأول اسمه باب التوبة ، الثاني باب الزكاة ، الثالث باب الصلاة ، الرابع باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، الخامس باب الحج ، السادس باب الورع ، السابع باب الجهاد ، الثامن باب الصبر .

وعن الباقر عليه السلام احسنوا الظن بالله واعلموا ان للجنة ثمانية ابواب عرض كل باب منها مسيرة اربعمائة سنة (١) .

أصحاب أبواب الجنان

فعن الصادق عليه السلام انه قال : باب يدخل منه النبيون والصديقون ، وباب يدخل منه الشهداء والصالحون ، وخمسة ابواب يدخل منها شيعتنا ومحبونا ، فلا أزال واقفاً على الصراط أدعو وأقول : رب سلم شيعتي ومن تولاني في الدنيا فاذا النداء من بطنان العرش قد أجيبت دعوتك ، وشفعت في شيعتك ، ويشفع كل رجل من شيعتي في سبعين الف من جيرانه وأقربائه ، وباب يدخل منه سائر المسلمين ممن يشهد أن لا إله إلا الله ، ولم يكن في قلبه مثقال ذرة من بغضنا أهل البيت .

كرامة اخرى لاولياء الله في الجنة

قال تعالى : « طوبى لهم وحسن مآب » (٢) ، وقد سبق شرحها بنحو آخر أي حسن مرجع .

(١) لا يستبعد ذلك ، لأن العادة اقتضت أن تكون سعة باب كل دار على قدر عظمة صاحبها ، ومن أوسع من الله عظمة .

(٢) سورة الرعد الآية ٢٨ .

واما معنى طوبى فقد ذكر في كتاب دار السلام (١) انه حدث ابوهبيرة العماري من ولد عمار بن ياسر عن جعفر بن محمد (ع) عن آبائه عن امير المؤمنين قال : لما نزلت على رسول الله ﷺ طوبى لهم وحسن مآب ، قام المقداد بن الأسود الكندي إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله وما طوبى ؟ قال : يا مقداد شجرة في الجنة لو يسير الراكب للجواد لسار في ظلها مائة عام قبل ان يقطعها ورقها وبسرها برود خضر وزهرها رياض صفر. وافنانها سندس واستبرق وثمرها حلل خضر، وطعمها زنجبيل وعسل ، وبطحائها ياقوت احمر وزمرد اخضر وترابها مسك وعنبر ، وحشيشها ينبع « نبع الثمر حان قطافه واليانع الأحمر من كل شيء » والنجوج يتأجج من غير وقود (النجوج عود البخور) وينفجر من اصلها السلسبيل والرحيق والمعين ، وظلها مجلس من مجالس شيعة امير المؤمنين علي بن ابي طالب ؑ يألفونه ويتحدث بجمعهم ، وبينما هم يوماً في ظلها يتحدثون إذجاءتهم الملائكة يقودون نجباً جبلت من الياقوت ، ثم نفخ فيها الروح مزمومة بسلاسل من ذهب ، كان وجوهها المصابيح نضارة وحسناً ، وبرها خز احمر ومرعزي ابيض (٢) مختلطان لم ينظر الناظرون إلى مثلها حسناً وبهاءً وذلل من غير مهانة نجباء من غير رياضة عليها رحال ألواحها من الدر واليواقيت المنضضة باللؤلؤ والمرجان صفائحها من الذهب الأحمر ملبسة بالعبقري والارجوان فأناخوا تلك النجائب اليهم ثم قالوا لهم : ربكم يقرؤكم السلام فتزونه وينظر اليكم ويحبكم وتحبونه ويزيدكم من فضله وسعته فانه ذو رحمة واسعة وفضل عظيم ، قال : فيتحول كل رجل منهم على راحلته فينطلقون صفاً واحداً معتدلا لايفوت منهم شيء شيئاً ، ولا يفوت اذن ناقة من ناقتها ، ولا بركة ناقة بركها ، ولا يمرون شجرة من اشجار الجنة إلا أتحفتهم بأثمارها ، وارتحلت لهم عن طريقهم مخافة

(١) ج ١ ص ١٧ . (٢) المرعز الزغب يكون تحت الريش والشعر .

ان يثلم صفهم ويفرق بين الرجل ورفيقه ، فلما رفعوا إلى الجبار جل جلاله قالوا : ربنا انت السلام ولك يحق الجلال والاكرام ، فيقول الله : فمرحباً بكم .

وفي خبر آخر قال : فقال تعالى : أنا السلام ومني السلام ولي يحق الجلال والاكرام ، فمرحباً بعبادي الذين حفظوا وصيتي في اهل بيت نبيي ، ورعوا حقي وخافوني بالغيب وكانوا مني على كل حال مشفقين ، قالوا : أما وعزتك وجلالك وما قدرناك حق قدرك ، وما أدينا اليك كل حقك ، فأذن لنا في السجود ، قال ربهم عز وجل : إني قد وضعت عنكم مؤونة العبادة ، وأرحت عليكم ابدانكم وطالما نصبتم لي الأبدان ، وعنتم لي الوجوه ، فالآن أنضيتم إلى روحي ورحمتي فاسألوني ما شئتم ، وتمنوا عليّ أعطكم امانيكم ، فاني لا اجزيكم اليوم بأعمالكم ، ولكن برحمتي وكرامتي وطولي وارتفاع مكاني ، وعظيم شأني ومحبتكم اهل بيت نبيي محمد ﷺ ، فلا يزالون يا مقداد محبوا علي بن ابي طالب ﷺ في العطايا والمواهب ، حتى ان المقصر من شيعته ليتمنى في امنيته مثل جميع الدنيا منذ يوم خلقها الله إلى يوم افناها ، قال لهم ربهم : لقد قصرتم في امانيكم ورضيتم بدون ما يحق لكم ، فانظروا إلى مواهب ربكم ، فاذا بقباب وقصور في اعلى عليين من الياقوت الأحمر والأخضر والأصفر والأبيض ، فلولا انه مسخر لالتمعت منه الأبصار فما كان من تلك القصور من الياقوت الأحمر فهو مفروش بالعبقري الأحمر وما كان منها من الياقوت الأخضر ، فهو مفروش بسندس اخضر ، وما كان منها من الياقوت الأبيض فهو مفروش بالحرير الأبيض (١) ، وما كان منها من الياقوت الأصفر فهو مفروش بالرياض الأصفر مبثوثة بالزمرد الأخضر والفضة البيضاء والذهب الأحمر قواعدها واركانها من الجوهر ينور من ابوابها وعرصاتها نور مثل شعاع الشمس وعندها مثل الكوكب الدري المضيء في النهار ، وإذا على

(١) قصداً للتجانس كما يفعل ملوك الدنيا في قصورهم وأثاثهم .

باب كل قصر من تلك القصور جنتان مدهامتان فيهما عينان نضاختان فيهما من كل فاكهة زوجان ، فلما أرادوا ان ينصرفوا إلى منازلهم حولوا على براذين من نور (١) بأيدي ولدان مخلدين بيد كل واحد منهم حكمة برذون (٢) من تلك البراذين لجمها وأعنتها من الفضة البيضاء وأثفارها من الجوهر (٣) فلما دخلوا منازلهم وجدوا الملائكة يهنونهم بكرامة ربهم حتى إذا استقروا قرارهم قيل لهم: هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ قالوا : نعم ربنا رضينا فارض عنا ، قال جل جلاله برضاي وبحبكم اهل بيت نبيي أحللتم داري ، وصافحتم الملائكة وهنيئاً هنيئاً عطاء غير مجذوذ ليس فيه تنغيص ، فعندها قالوا : الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور .

رواية اخرى في بعض أوصافها

إن ساقها في دار محمد ﷺ ، ولو ان طائراً طار من ساقها لم يبلغ فرعها حتى يقتله الهرم ، على كل ورقة منها ملك يذكر الله تعالى ، وليس في الجنة دار إلا وفيها غصن من اغصانها ، وان اغصانها لترى من وراء سور الجنة تحمل لهم ما يشاؤون من حليها وحللها وثمارها ، لا يؤخذ منها شيء إلا اعاده الله كما كان ذلك بأنهم كسبوا طيباً ، وانفقوا قصداً ، وقدموا فضلا فقد افلحوا ونجحوا .

وفي رواية اخرى ان شجرة طوبى اصلها في بيت امير المؤمنين ﷺ وفي كل منزل من منازل شيعته غصن منها فيه جميع انواع الثمار ، فاذا خطر بباله رمانة منها تدلى الغصن وتكلمت الرمانة وقالت : كلني يا ولي الله ، فاذا اكلها

(١) البرذون هو من الخيل أبواه أعجميان . (٢) الحكمة ما أحاط بحنكي الفرس من لجامها . (٣) الثفر الجلد الذي في مؤخر السرج

ارتفع القشر إلى مكانه وصار رمانة فثمارها لا تنقص ، وقد شبه الامام الصادق ﷺ هذا بالسراج في الدنيا لو اخذ منه الف سراج لم ينقص من نار ضوئه شيء .

لا اختلاف في روايات شجرة طوبى

ما يجده القارئ من الاختلاف في الروايات بخصوص شجرة طوبى سواء كان من بيان كيفيتها ، او من جهة من هم اهلها والمستحقون لاجتناء ثمرتها فهو من قلة التأمل والتفهم لمعاني كلماتهم عليهم الصلاة والسلام كما صدر الاستنكار على النبي ﷺ وهو الصادق الأمين من بعض الأصحاب المعنونين ، وقد مر في اوائل الكتاب عندما قال ﷺ في وصف شجرة طوبى : إن اصلها في دار علي ﷺ ألست قلت يا رسول الله قبل ذلك ان اصلها في داري ؟ فأجابه ﷺ ألست تعلم ان داري ودار علي واحدة ؛ فاندحر السائل ولو كان يعلم ان الجواب بمثل هذه الفضيلة لعلي ﷺ لما سئل .

وكذلك ما يراه القارئ في بعضها ان في كل دار منها غصن ، وفي بعضها في كل دار من دور شيعة علي غصن .

وكذلك الاختلاف في الوفود من تحت ظلها على الله تعالى انهم شيعة علي ﷺ في بعضها ولم يقيد في بعضها الآخر ، فان ذلك كله مدفوع بحمل العام على الخاص وفق القاعدة المقررة عند تعارض الأخبار ، وخصوصاً إذا كان الشاهد على ذلك موجوداً ، كما في المقام وقد ثبت ان قبول الأعمال مشروط بحبه ﷺ وردها مهما بلغت عند بغضه أعاذنا الله من ذلك وأبعدنا عن ان نكون من الفريق الثاني

وقد قال تعالى في وصف اهل الجنة : تعرف في وجوههم نضرة النعيم يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك ، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون .

وقال أمير المؤمنين عليه السلام في وصفهم من بعض خطبه : فأما أهل الطاعة فأثابهم بجواره وخلدهم في داره ، حيث لا يظعن النزال ، ولا يتغير لهم الحال ، ولا تنوبهم الافزاع ، ولا تنالهم الأسقام ، ولا تعرض لهم الأخطار ، ولا تشخصهم الأسفار .

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : ينادي مناد يا أهل الجنة ان لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً ، وان لكم ان تحيوا فلا تموتوا أبداً ، وان لكم ان تشبوا فلا تهرموا أبداً ، وان لكم ان تنعموا فلا تيأسوا أبداً ، فذلك قول الله عز وجل : « ونودوا ان تلكم الجنة اورثتموها بما كنتم تعملون » .

فالعجب كل العجب ممن يؤمن بدار هذه صفتها ، ويوقن بمواعيد ربه في عظيم نعيمها ، وفنون لذاتها ، وتكريم أصحابها ، باستخدام ولدانها بل ملائكتها وبالأخير يحظى برضاه جبارها ، وتحية خالقها ، كيف يعتاض عنها بدار قد أذن الله في خرابها ، ونودي بالرحيل سكانها ، وما من نعمة فيها إلا وقد مزجت بالتنغيص ، ولا راحة إلا وقد اختلطت بأضعافها من الهموم والعناء ، وما من ساعة صفو فيها إلا وتعقبها أضعافها من الأكدار كما قال الشاعر :

طبعت على كدر وانت تريدها   صفواً من الأكدار والأقدار

وقال عليه السلام : دار بالبلاء محفوفة ، وبالغدر معروفة .

وقال امير المؤمنين عليه السلام : عباد الله اوصيكم بالرفض لهذه الدنيا التاركة لكم وإن لم تحبوا تركها ، والمبلية لأجسادكم ، وإن كنتم تحبون تجديدها .

ومعنى كلامه عليه السلام إنا لو أغمضنا عن حبكم لها ، وانها كم بجمعها ، وبيع آخرتكم الثمينة بها ، فما النتيجة من ذلك ؟ فهل انها قبلت بكم ورضيت صفقتكم وقررت نفسها ملكا لكم او انها صممت على ان تكون من ألد أعدائكم وترقبت الفرص لأجل الغدر بكم ، وسلبكم كلما جمعتم ، وأخيراً حتى ارواحكم ، ثم تسليمكم

إلى رمسكم وحفر قبوركم ، لتكونوا رهن اعمالكم ، ومصداق قول ربكم : خسروا الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين .

وعلى حذوه تأتينا نصيحة الامام الصادق عليه السلام قال : يا بني آدم اهربوا من الدنيا إلى الله ، واخرجوا قلوبكم عنها ، فانكم لا تصلحون لها ولا تصلح لكم ، ولا تبقون لها ولا تبقى لكم ، هي الخداعة الفجاعة المغرور من اغتر بها ، والمفتون من اطمأن اليها الهالك من أحبها وأرادها

وقال بعض الحكماء : الأيام سهام ، والناس أغراض ، والدهر يرميك كل يوم بسهامه ، ويخترمك بلياليه وأيامه ، حتى يستغرق جميع اجزائك فكيف يكون بقاء لسلامتك مع وقوع الأيام بك ، وسرعة الليالي في بدنك . لو كشف لك عما أحدثت الأيام فيك من النقص ، لاستوحشت من كل يوم يأتي عليك واستثقلت مر الساعات بك ، ولكن تدبير الله فوق تدبير الاعتبار .

وفي الختام لا ينبغي لك ان تخسر المأدبة التي كونها ودعاك اليها الملك العلام ، وتكون اخيراً من الفريق الذين لم يجيبوا تلك الدعوة ، ولم يرغبوا في ذلك النعيم ، كما افاد ذلك امير المؤمنين عليه السلام في بعض خطبه واشعاره المنسوبة له :

يا راقد الليل مسروراً بأوله ... ان الحوادث قد يطرقن اسحارا
افنى القرون التي كانت منعمة ... كر الجديدين إقبالا وإدبارا
كم قد ابادت صروف الدهر من ملك ... قد كان في الدهر نفاعاً وضرارا
يا من يعانق دنياً لا بقاء لها ... يمسي ويصبح في دنياه سفارا
هلا تركت من الدنيا معانقة ... حتى تعانق في الفردوس ابكارا
إن كنت تبغي جنان الخلد تسكنها ... فينبغي لك أن لا تأمن النارا

وقال ابو العتاهية مشيراً إلى حزن جواري المهدي الخليفة العباسي حين وفاته فجأة :

رحن في الوشي وأقبلن عليهن المسوح كل نطاح من الدهر له يوم نطوح
لست بالباقي ولو عمرت ما عمر نوح فعلى نفسك نح إن كنت لابد تنوح

وقال آخر :

كم اناس في نعيم عمروا في ذرى ملك تعالى فسبق
سكت الدهر زماناً عنهم ثم ابكاهم دماً حين نطق

فريق النار والسعير

قال تعالى : « إن جهنم كانت مرصاداً للطاغين مآباً لابثين فيها احقابا لا يذوقون فيها برداً ولا شرابا إلا حميا وغساقا جزاءً وفاقا انهم كانوا لا يرجون حسابا وكذبوا بآياتنا كذابا وكل شيء احصيناه كتابا فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا » (١) .

المعنى ان جهنم معدة لهم وترصدهم منتظرة انتهاء حسابهم كي تلتقمهم والمقصود خزنتها .

وقيل : إن معنى جعلها مرصاداً ، أي محبساً يحبس فيها العصاة من الناس

وقيل : طريقاً منصوباً للعاصين فهو موردهم ومنهلهم ، ومعنى الكل يشير إلى ان جهنم للعصاة على الرصد لا يفوتونها بمجرد نهاية حسابهم دون تأخير ، وانها مرجع ومآب للذين جاوزوا حدود الله ، وطغوا في معصيته لابثين وماكثين فيها أزماناً كثيرة ، فقيل : إن معنى الأحقاب هي التي لا انقطاع لها كلما مضى حقب جاء بعده حقب آخر ، والحقب ثمانون سنة من سني الآخرة .

وقيل : إن الأحقاب ثلاثة واربعون حقباً ، كل حقب سبعون خريفاً ،

(١) سورة عم الآية ١٧ وما بعدها .

كل خريف سبعمائة سنة ، كل سنة ثلاثمائة وستون يوماً ، وكل يوم الف سنة ، وحيث ان هذا على كثرته ينافي الخلود الذي لا انتهاء له ، فقالوا : إن تأويل الآية ومجازها حسب القيود ، وهي الأحوال المنصوبة ، لأن الحال على قواعد النحو قيد لعاملها ، ومعناه حينئذ انهم يلبثون في جهنم أحقاباً حالة كونهم لا يذوقون إلا الحميم والغساق ، ثم يلبثون فيها مخلدين يذوقون فيها سائر انواع المشروبات ، الآخر من العذاب فهو توقيت لأنواع العذاب وأقسامه ، لا لأصل المكث في النار ، حيث هو خلود .

وقيل : إن هذه الآية لأهل التوحيد لاشتمالها على التحديد ، فقد روى العياشي باسناده عن حمران قال : سألت ابا جعفر ﷺ عن هذه الآية ، فقال : هذه في الذين يخرجون من النار .

واما معنى قوله تعالى : « برداً ولا شراباً » فعن ابن عباس ان البرد هو النوم والشراب الماء ، لأن البرد يأتي بمعنى النوم وأنشد شاهداً قول الشاعر : (فيصدني عنها وعن قبلاتها البرد) أي النوم .

وقيل : إن معناه لا يذوقون في جهنم برداً ينفعهم من حرها ، ولا شراباً ينفعهم من عطشها (والحميم) هو الماء الحار الشديد الحر (والغساق) صديد اهل النار (جزاءاً وفاقاً) اي ان عذاب اهل النار موافق لشركهم وعصيانهم ، لأنهما عظيمان فلا ذنب اعظم من الشرك ، ولا عذاب اعظم من النار .

وقيل : إن معنى الوفاق جزاء على وفق الأعمال في المقدار والاستحقاق « انهم كانوا لا يرجون حسابا » أي إنما فعلنا بهم ذلك ، لأنهم كانوا لا يخافون الحساب ، ولا يؤمنون بالبعث ، وكذبوا بآياتنا من الأنبياء والكتب والدلائل كذاباً ، أي تكذيباً شديداً ، والحالة إنا قد احصينا عليهم كل اعمالهم في الكتاب وهو اللوح المحفوظ ، وإنما بين انه محفوظ بالكتاب لأنه ابلغ في حفظ

الشيء من الاحصاء ويمكن ان يريد به ما يكتبه عليهم رقيب وعتيد ، وأخيراً تقول لهم : فذوقوا ما انتم فيه من العذاب فلن نزيدكم إلا عذاباً ، لأن كل عذاب يأتي من بعد العذاب الأول فهو زائد عليه .

وقال تعالى ايضاً في حق اهل النار : « انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب لا ظليل ولا يغني من اللهب انها ترمي بشرر كالقصر كأنه جمالة صفر ويل يومئذ للمكذبين هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون » (١) .

المعنى تقول لهم خزنة جهنم بعد انتهاء موقفهم في حسابهم : اذهبوا وسيروا إلى النار التي كنتم تجحدونها وتكذبون بها ولا تعملون عمل من يريد الخلاص منها ، وفي التعبير بالانطلاق ما لا يخفى من الحث والزجر في السير ، لأنه هو الانتقال من مكان إلى آخر من غير مكث واستراحة ، ثم ذكر الموضع الذي امرهم بالانطلاق اليه وانه ظل له ثلاث شعب ، والمراد من الظل النار وسماها ظلا لسواد نار جهنم ، وهذه الشعب تكون شعبة فوق رأسه وشعبة عن يمينه وشعبة عن شماله

وقيل : إنما سمى النار ظلا لكثافة الدخان وسواده وغلظه كما قال تعالى : أحاط بهم سرادقها ، أي الدخان الآخذ بالانفاس ، ثم وصف ذلك الظل فقال : لا ظليل ولا مانع من الأذى ، فهو ليس كسائر الظلال التي تقي من الأذى بل هو مقدمة النار ولا يغني من اللهب وهو ما يعلو النار من الاحمرار والاخضرار ، ثم وصف النار بأنها ترمي بشرر كبره مثل القصر يتطاير عليهم من كل جهة كأنه جمالة صفر بيان للون الشرر ، ثم قال : ويل يومئذ للمكذبين بهذه النار وقد ادخلوا فيها « هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون » .

وحيث ان هناك آيات أخر مفادها انهم يسألون ويتكلمون ، وثانياً ان لهم في خصوص النار كلاماً مع بعضهم قالوا : إن المراد بعدم نطقهم النطق النافع

(١) سورة المرسلات الآية ٣٠ .

لا انهم لا ينطقون اصلا . وكذلك المقصود من قوله تعالى في مقام آخر : يختم على أفواههم ونظائره ، أي انهم قد فاتهم محل الاعتذار فنطقهم وعدمه سواء كما ضرب المثل في ذلك « من انذر اعذر » إلى ان قال تعالى : « هذا يوم الفصل » أي بين اهل الجنة والنار ويوم القضاء والانتصاف من الظالم للمظلوم .

وقال تعالى ايضاً : « ولو ترى إذ وُقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين » (١) .

بين سبحانه في هذه الآية ما ينال هؤلاء المكذبين للحشر والنشر من الحسرة وتمني الرجعة ، حيث لايجديهم ذلك شيئاً ، وقد اختلف في معنى وقوفهم على النار على ثلاثة اوجه :

الأول أن يكون على معنى عاينوا النار .

الثاني أن يكونوا عليها وهي تحتهم .

الثالث أن يكونوا أدخلوها فعرفوا مقدار عذابها كما تقول العرب : قد وقفت على ما عند فلان ، ويريدون قد فهمته وتبينته ، وهو وإن كان بلفظ الماضي ، فالمراد به الاستقبال وجاز التعبير به عنه لتحققه وتيقنه ، وعندما عاينوا العذاب ندموا على ما فعلوا وتمنوا الرجعة إلى الدنيا وعدم التكذيب بآيات الله أي بكتبه ورسله وما جاء من عنده وأن يكونوا من المؤمنين .

وقال تعالى ايضاً : « وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار ليجزي الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا إنما هو إله واحد وليذكر اولوا الألباب » (٢) .

أوضح تعالى مصير المنكرين والعتاة الظالمين ، من كونهم مقرنين في الأصفاد

(١) سورة الأنعام الآية ٢٧ . (٢) سورة ابراهيم الآية ٥١ .

أي مجمعين في الأغلال قد قرنت ايديهم بها إلى اعناقهم .

وقيل : يقرن بعضهم إلى بعض .

وقيل : مشدودين في قرن وهو الحبل من الأصفاد والقيود .

وقيل : يقرن كل واحد منهم مع شيطانه الذي كان يضله في غل من حديد كما بينه سبحانه بقوله : احشروا الذين ظلموا وازواجهم ، أي قرنائهم من الشياطين وبقوله : وإذا النفوس زوجت ، أي قرنت بغيرها فصارت زوجاً ، ثم بين حالة لباسهم ، وإن سرابيلهم وقمصهم من قطران ، وهو ما تطلى به الابل شيء اسود لزج منتن يطلون به فيكون كالقميص عليهم ، ثم ترسل النار فيه لتكون أسرع اليهم وأبلغ في الاشتعال ، وأشد في العذاب .

وقيل : معنى القطران هو النحاس او الصفر المذاب ، وقرئت الآية وقطر آنٍ بكلمتين ، أي صفر آنٍ وحضر ، أي ذاب وانتهى امر ذوبانه ، كما في قوله تعالى : « غير ناظرين إناه » أي غير منتظرين حضوره ونضوجه ، بل تدخلون بيت النبي ﷺ عندما يحضر ويتهيأ ، وإنما يفعل الله سبحانه بهم ذلك لتجزى كل نفس بما كسبت فإن كسبت خيراً بأن آمنت واطاعت اثابها الله بالنعيم المقيم وإن كسبت شراً بأن كفرت وجحدت عاقبها بالعذاب الأليم في نار الجحيم وانه سريع الحساب والمجازاة ، ثم قال تعالى : « هذا بلاغ » اي القرآن فانه عظة للناس بالغة وكافية .

وقيل : إن هذا إشارة إلى ما تقدم من الوعيد ، لأنه كاف لمن تدبر

وقوله : ولينذروا به ، اي ليخوفوا بما فيه من الوعيد ، وليعلموا وحدانية الله بالنظر والتفكر في الأدلة التي بينها سبحانه في القرآن .

وقال تعالى ايضا في وصف عذابهم :

« إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون في الحميم ثم في النار يسجرون » (١) .

وقال تعالى : « إنا جعلنا في أعناقهم اغلالا فهي إلى الأذقان فهم مقمحون وجعلنا من بين ايديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون » (٢) ومعنى المقمح الغاض بصره بعد رفع رأسه حيث قد جمعت يده إلى عنقه وذقنه فصعد الرأس بسبب جمع الأغلال تحت ذقنه .

ومعنى قوله سداً كناية عن ضيق المكان في النار بحيث لا يجدون مجالا للتقدم ولا للتأخر ، إذ سدت عليهم جوانبهم وأغشيناهم بالعذاب فهم لا يبصرون .

وقال تعالى : « والذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار » .

وقال تعالى : « كلما أرادوا ان يخرجوا منها من غم اعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق » .

التفصيل في ذيل الخبر السابق

فإذا انتهى من الحساب وموقف يوم القيامة فإذا هو بالملائكة قد استعدوا له بالسلاسل والأغلال قد عضوا على شفاههم من الغيظ والغضب فيقول : يا ويلتي ليتني لم أوت كتابيه ، فيسحب ويزخ في النار ، فأحدقت بعنقه قرين حجر وضجيج شيطان ، وقد طلعت النار من دبره على فؤاده ، والشيطان يجاذبه في

(١) سورة المؤمن الآية ٧٢ . (٢) سورة يس الآية ٨ .

السلسلة فيقول له : ويحك بما أغويتني احمل عني من عذاب الله شيئاً فيقول : يا شقي كيف أحمل عنك من عذاب الله شيئاً وأنا وانت اليوم في العذاب مشتركون ثم يضرب على رأسه ضربة فيهوي سبعين الف عام ، فينتهي إلى عين يقال لها آنية كل اودية النار تنام وتلك العين لا تنام من شدة حرها ، فتقول لهم الملائكة يا معشر الأشقياء ادنوا واشربوا منها ، وإذا أعرضوا ضربتهم الملائكة بالمقامع ، وقيل لهم ذوقوا عذاب الحريق ذلك بما قدمت ايديكم وان الله ليس بظلام للعبيد فاذا شربوا وصار في اجوافهم « يصهر به ما في بطونهم والجلود » هذه مرحلة من مراحل النار .

المرحلة الثانية

ثم يضرب على رأسه فيهوي سبعين الف عام (١) ، حتى يقع في السعير فتسعر وجهه وتغشي بصره من شدة نفخها وينتهي به إلى شجرة الزقوم ، فاذا ارغم على الأكل منها وجدها أمر من الصبر وأنتن من الجيف وأشد من الحديد فاذا وقعت في بطنه غلت كغلي الحميم ، فعند ذلك يذكرون ما كانوا يأكلون في الدنيا من طيب الطعام بدون شكر الملك العلام ، فاذا استقروا في النار سمع لهم صوت كصوت السمك على المقلات .

واما الوادي الذي هم فيه فهو من صفر مذاب ، فتغلي بهم الأودية فترمي بهم في سواحلها فتحمل عليهم هوام النار من حياتها وعقاربها كأمثال البغال وفي ذنبها من السم ما لو وقعت منه قطرة على الأرض لأحرقتها وتنضج الجلود وتذوب الشحوم ويغضب الحي القيوم ويقول : يا مالك قل لهم : ذوقوا فلن نزيد كم إلا

(١) أي مسافة هذا مقدارها .

عذاباً ، يا مالك سعر سعر قد اشتد غضبي على من شتمني على عرشي ، واستخف بحقي وأنا الملك الجبار ، فيناديهم مالك يا اهل الضلال والاستكبار والنعمة في دار الدنيا كيف تجدون مس سقر ؟ فيقولون : قد انضجت قلوبنا واكلت لحومنا وحطمت عظامنا فليس لنا مغيث ولا معين ، فيقول مالك : وعزة ربي لا ازيدكم إلا عذاباً ، فيقولون : إن ربنا لم يظلم شيئاً ، فيقول مالك : « فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير » أي بعداً ، ثم تبعث عليهم سحابة سوداء فتظلهم وتناديهم وكلهم يسمعونها ما تريدون ان امطركم ؟ فيقولون : الماء البارد واعطشاه فتمطرهم حجارة وكلاليب وخطاطيف وغسليناً وديداناً كلها من نار فتنضجهم وتعمي ابصارهم وتحطم عظامهم فينادون وا ثبوراه فيشتد غضب الله عليهم ويقول : يا مالك اسجرها عليهم ثم تضرب امواجها ارواحهم سبعين خريفاً ثم يطبق عليهم ابوابها من الباب إلى الباب مسيرة خمسمائة عام ثم يجعل كل واحد منهم في ثلاث توابيت من حديد من نار بعضها في بعض فلا يسمع لهم كلام إلا ان لهم فيها شهيقاً كشهيق البغال ، ونهيقاً كنهيق الحمير ، وعواءً كعواء الكلاب صم بكم عمي فليس لهم فيها كلام ، ثم يطبق عليهم ابوابها ويشد عليهم عمدها فلا يدخل عليهم روح ابداً ولا يخرج منهم الغم ابداً فهي عليهم موصدة ، أي مطبقة ليس لهم من الملائكة شافعون ، ولا من اهل الجنة صديق حميم وينساهم الرب (١) ويمحو ذكرهم من قلوب العباد فلا يذكرون ابداً .

وذكر في الاختصاص ان اهل النار بعد انتهاء حسابهم ، يسوق كل واحد منهم ملك ويقول له : اقرأ كتابك بعدما يقع كتابه في شماله فيقول : كيف أقرأ وجهنم أمامي ؟ قال : فيقول الله تعالى للملك : دُق عنقه واكسر صلبه وشد ناصيته إلى قدميه ، ثم يقول : خذوه فغلوه ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً

(١) كناية عن عدم التفاته عز اسمه اليهم بالرحمة تحقيقاً للخلود المصرح به في القرآن الكريم

فاسلكوه قال : فيبتدر لتعظيم قول الله تعالى : سبعون الف ملك غلاظ شـداد فنهم من ينتف لحيته ، ومنهم من يحطم عظامه فيقول : أما ترحموني ؟ فيقولون: يا شقي كيف نرحمك ولا يرحمك ارحم الراحمين أفيؤذيك هذا ؟ فيقول : اشد الأذى ، فيقولون : يا شقي وكيف لو طرحناك في النار ؟ قال : فيدفعه الملك في صدره دفعة فيهوي سبعين الف عام فيقول اهل النار : « يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول » قال : فيقرن معه حجر عن يمينه وشيطان عن يساره والحجر من كبريت من نار يشتعل في وجهه ويخلق الله له سبعين جلداً وبين الجلد إلى الجلد فراغ تكون فيه حيات وعقارب وديدان كلها تلسعه وعليه قلنسوة من نار وليس في جسده موضع إلا وفيه حلقة من نار ، وفي رجليه قيود من نار ، وقد غلى دماغه حتى يجري على كتفيه ، وان تلك الهوام ليس لها مأكل ولا مشرب إلا عظامه ودمه ، قال : وعندما يجاذبه شيطانه وقرينه يقول : « يا ليت بيني وبينك بُعد المشرقين فبئس القرين » .

واما شجرة الزقوم فقد قال سبحانه فيها : « شجرة تخرج في اصل الجحيم طلعها كأنه رؤوس الشياطين » وعليها سبعون الف غصن من نار ، في كل غصن سبعون الف ثمرة من نار ، كل ثمرة كأنها رأس الشيطان قبحاً ونتناً وتنبت على صخر املس كأنها مرآة زلقه بين اصل الصخرة إلى الصخرة مسافة بعيدة وكل ذلك من نار فيقال له : يا شقي اصعد على هذه الشجرة وكل منها ، فكلما صعد زلق وكلما زلق كلف الصعود فلا يزال كذلك سبعين الف عام في العذاب وإذا اكل من ثمرها فعندما تصل إلى بطنه غلت فيها كغلي الحميم كما تقدم تفصيل ذلك

صورة اخرى من النار وأهلها

قال تعالى : « وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا ان دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا انفسكم ما أنا بمصرخكم وما انتم بمصرخي اني كفرت بما اشركتموني من قبل » (١) .

قد روي في تفسيرها انه إذا قضي الأمر وهو ان يدخل اهل الجنة جنتهم واهل النار نارهم وضع للشيطان منبر في وسط النار فيرقا وبيده عصاة من نار فتجتمع الكفار عليه بالملامة فيقول لهم : إن الله ارسل اليكم مائة الف نبي واربعة وعشرين الف نبي فدعوكم إلى الجنة ، ووعده الحق فلم تقبلوا ، وأنا دعوتكم إلى هذه النار ومنيتكم بالأباطيل فقبلتم كلامي فلاتلوموني بل الملامة عليكم لأني لم يكن لي عليكم سلطان بالجبر بل قبلتم كلامي بمجرد الدعوة فلستم بمصرخي ، أي لاتقدرون على إغاثتي وإعانتي وأنا لا اقدر على إغاثتكم وإعانتكم .

أثر عن الامام الصادق عليه السلام لشيعته

روي عنه عليه السلام انه قال : إذا استقر اهل النار في النار يفقدونكم فلايرون منكم احداً فيقول بعضهم لبعض : ما لنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار اتخذناهم سخرياً أم زاغت عنهم الأبصار .

قال عليه السلام : وذلك قول الله عز وجل : « إن ذلك لحق تخاصم اهل النار

(١) سورة ابراهيم الآية ٢٧ .

يتخاصمون فيكم فيما كانوا يقولون في الدنيا ، حيث كانوا يغالطون ويقولون : إننا على الحق وانتم المغالون على الباطل ومن هو احى بمن تمسك بولاء اهل بيت نبيه وقبض بحجزتهم على حد تعبير الرسول الأعظم : يا علي إذا كان يوم القيامة تأخذ انت بحجزتي وأولادك يأخذون بحجزتك وشيعتهم يأخذون بحجزتهم فما ترى إلى اين يأمر بنا ، ثم اقسم وقال ﷺ : إلى الجنة .

منافخ النار تقطب وجه جبرئيل

روي عن الصادق ﵇ انه قال له رجل : خوفني يابن رسول الله فان قلبي قد قسا ، فقال ﵇ : استعد للحياة الطويلة فان جبرئيل جاء إلى رسول الله ﷺ وهو قاطب وقد كان قبل ذلك يجيء وهو متبسم فقال رسول‌الله ﷺ : يا جبرئيل جئتني اليوم قاطباً فقال : يا محمد قد وضعت منافخ النار قال : وما منافخ النار يا جبرئيل ؟ قال : يا محمد إن الله عز وجل امر النار فنفخ فيها الف عام حتى ابيضت ، ثم نفخ عليها الف عام حتى احمرت ، ثم نفخ عليها الف عام حتى اسودت فهي سوداء مظلمة لو أن قطرة من الضريع قطرت في شراب اهل‌الدنيا لمات اهلها من نتنها وفي جهنم واد يسمى الفلق ، يوقد عليها الف سنة لم يتنفس ، فاذا تنفس احرق جميع النيران .

اشكال ودفع

قد ذكر في هذا الخبر ، وهو خبر المنافخ ان النار بالأخير صارت سوداء مظلمة . وذكر في سابقه انه إذا استقر اهل النار في النار يفقدونكم فلايرون منكم

احداً . ومفاده ان للنار ضوءاً يميزون بسببه بين الوجوه .

ودفعه انه قد روي ان للنار طبقات متعددة . فلعل لكل طبقة منها حكما خاصاً من النور او الظلمة .

فمن الباقر ﷺ ان الله تعالى جعل للنار سبع درجات اعلاها الجحيم يقوم اهلها على الصفا - أي الصخرة الملساء - منها تغلي ادمغتهم كغلي القدور بما فيها

والثانية لظى « نزاعة للشوى تدعو من أدبر وتولى وجمع فأوعى » .

والثالثة سقر « لا تبقي ولا تذر لواحة للبشر عليها تسعة عشر » .

والرابعة الحطمة ومنها يثور شرر كالقصر كأنه جمالة صفر تدق من صار اليها كالكحل ، ولا تموت فيها الروح كلما صار مثل الكحل عاد .

والخامسة الهاوية يدعون اهلها يا مالك أغثنا ، فاذا أغاثهم جعل لهم آنية من صفر من نار فيها صديد ماء يسيل من جلودهم كأنه مهل ، فاذا أتوه ليشربوا منه تساقط لحم وجوههم من شدة حره وهو قول الله تعالى : « وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا » ومن هوى فيها هوى سبعين عاماً في النار ، كلما احترق جلده بُدل جلداً غيره .

والسادسة هي السعير فيها ثلاثمائة سرادق من نار ، في كل سرادق ثلاثمائة قصر من نار ، في كل قصر ثلاثمائة بيت من نار ، في كل بيت ثلاثمائة لون من العذاب ، من غير عذاب اصل النار ، فيها حيات وعقارب من نار وجوامع وسلاسل وأغلال من نار ، وهذا هو الذي قال فيه سبحانه : « إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا » .

والسابعة جهنم وفيها الفلق ، وهوجب في جهنم إذا فتح اسعرت النار سعراً وهو أشد النار عذاباً ، واما صعود فجبل من صفر من نار وسط جهنم .

والمروي عن الامام زين العابدين ﷺ ان النيران بعضها فوق بعض

فأسفلها جهنم وفوقها لظى وفوقها الحطمة وفوقها سقر وفوقها الجحيم وفوقها السعير وفوقها الهاوية .

جواب آخر ودفع ثان عن الاشكال

وهو انه يجوز أن يكون التفقد باعتبار الأصوات ، ويشهد له ما رواه الصدوق عن الباقر ﷺ ان اهل النار يتعاوون فيها كما تتعاوى الكلاب والذئاب مما يلقون من أليم العذاب ، ما ظنك بقوم لا يقضى عليهم فيموتوا ، ولا يخفف عنهم من عذابها عطاش جياع كليلة ابصارهم بكم عمي مسودة وجوههم خاسئين فيها نادمين مغضوب عليهم لا يرحمون ، وعلى وجوههم يسحبون ، ومع الشياطين يقرنون ، وفي الانكال والأغلال يصفدون ، إن دعوا لم يستجب لهم ، وإن سألوا حاجة لم تقض لهم هذا من دخل النار .

ولعل تفقد أهل النار لشيعة امير المؤمنين ﷺ يكون في اوائل إدخالهم إلى النار .

الفلسفة في وضع الأغلال

وقبل الهوي في الدرك والطبقات ، فقد روي في فلسفة وضع الأغلال في أعناقهم ، لا لأنهم اعجزوا الرب بل لترسب بهم في النار ، وذلك لأن لهب النار لشدته يرفعهم إلى فوق ، فاحتاجوا إلى أغلال الحديد لتثقلهم ، حتى لا يطير بهم اللهب ، كما روي في تفسير معنى السد في قوله تعالى : « وجعلنا من بين ايديهم سداً ومن خلفهم سداً » ، هو أن يجعل من بين ايديهم سداً من حديد النار ،

وكذلك من سائر جوانبهم ليضيق عليهم المكان ، حتى لا يسع احدهم الجلوس إلا محتبياً وهم عميان والنار معهم في ذلك المكان الضيق ، وهذا كله يؤيد ان يكون التفقد في اول الادخال إلى النار .

فلسفة اختلاف طبقات النار

هي اختلاف اعمال اهلها شدة وضعفاً فكلما عظمت معاصي العبد وكثرت ذنوبه أدخل ناراً اشد وعذب عذاباً اعظم ، فقد قال الصادق عليه السلام : إن النواويس وهي طبقة من طبقات النيران ، اشتكت إلى الله عز وجل شدة حرها فقال لها عز وجل : اسكتي فان مواضع القضاة اشد حراً منك ، كما ان اوساخ الثياب والبدن كلما كثرت وتكلست استعمل لها الغسيل الأكثر والأقوى إزالة

التشديد لا ينافي الرحمة والعدالة

أولا فانه تعالى قد جعل في قبال العذاب للعاصين بتفاصيله الشديدة وانواعه العنيفة النعيم العظيم للمطيعين بمفصلاته اللطيفة ، ومراتبه الشريفة حرفاً بحرف والقذة بالقذة فكما لا يستعظم هذا لا يستنكر ذاك ، حيث انه سبحانه قد جمع الأضداد من الأوصاف ، من كونه غفور رحيم ، ومن كونه شديد العقاب وفق مقتضيات المقامات .

وثانياً انه عز اسمه قد جعل لتلك الشدة من العذاب ، وهاتيك القوة من النار ضداً ومؤثراً سهل التناول لكل العباد ، وسلاحاً ليوم المعاد .

فقد روي ان العبد إذا ذكر ذنبه وبكى من خشية الله تعالى تبادرت

الملائكة تختطف تلك الدمعات منه وتجعلها في قدح من نور ويختم بخاتم من مسك ، فاذا كان يوم القيامة وحوسب صاحبها وزادت سيئاته على حسناته فيذهب به إلى النار ، فاذا ارادوا ان يلقوه فيها قال الله تعالى : لا تعجلوا على عبدي فان له عندي وديعة فيأمر فيؤتى بتلك الدمعات فتنصب على النار فتطفي بحوراً من النيران .

وقال ﷺ : كل شيء له كيل او وزن يوم القيامة إلا البكاء من خشية الله تعالى ، فان القطرة منه تطفي بحاراً من النار ، وبعض الناس قد يهوي في جهنم ويخرج منها .

ولعل هذا إشارة إلى خروج المختار وأمثاله من النار بعد إدخاله فيها ، كما ورد ذلك في بعض الأخبار .

وعلل بعضهم الادخال بأنه لو شق عن قلبه لوجد حبهما ـ أي الظالمين ـ في قلبه .

وعلل الاخراج باستنجاده بالحسين (ع) لأخذه بثاره فينقض (ع) عليه في النار كأنه العقاب فيخرجه منها .

وعلل بعضهم ذلك بأنه كيساني العقيدة ورجوعه إلى محمد بن الحنفية فالله تعالى قد جعل للعبد عدة وسائل للخلاص من عذاب النار ، كل ذلك رحمة منه به فاذا ترك العبد كل تلك الوسائل تعنداً وتمرداً ، فشدة عذابه لا تنافي كونه تعالى رحيما .

بقي الكلام في قوله تعالى :

« وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا » (١) ، أي وارد جهنم . لأن الضمير يعود اليها بلاخلاف وإنما الخلاف في معنى الورود ، حيث ان الآية مفادها الصريح ان الكل من المؤمنين والكافرين يردون جهنم ، فهذا حال الكافرين بمحله ، اما المؤمنون فلما ذا يردون جهنم فقد اختلف العلماء في توجيه ذلك على قولين :

(أحدهما) ان المراد من الورود هو الوصول والاشراف عليها لا الدخول فيها ، وهو قول ابن مسعود وجماعة ، واستدلوا على ذلك بالاستعمال كقوله تعالى فلما ورد ماء مدين ، أي وصل وأشرف عليه لا بمعنى دخل فيه ، وفي امثال العرب كثير من ذلك .

(ثانيها) ان الورود بمعنى الدخول بدلالة قوله تعالى : فأوردهم النار . وقوله : وانتم لها واردون . وقوله : لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها ، وكل ذلك معناه الدخول وهو قول ابن عباس وجابر واكثر المفسرين ، ويدل عليه قوله تعالى ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا ، ولم يقل وندخل الظالمين ، وإنما يقال نذر ونترك للشيء الذي حصل في مكانه

دفع الاشكال

وحيث أن على هذا القول يرد إشكال دخول المؤمنين إلى جهنم وهم ليسوا من أهلها ، فأجاب بعض أهل هذا القول إن الخطاب خاص للمشركين ، كما ان

(١) سورة مريم الآية ٧٤ .

الخطاب في قوله تعالى : وسقاهم ربهم شراباً طهوراً ان هـذا كان لكم جزاء ، خاص للمؤمنين وإن كان اللفظ عاماً .

وقال الأكثرون : إنه خطاب عام لجميع المكلفين فلا يبقى بر ولا فاجر إلا ويدخلها فتكون برداً وسلاماً على المؤمنين وعذاباً لازماً للكافرين ، ثم يصدر المؤمنون عنها بأعمالهم فأولهم كلمع البرق ثم كمر الريح ثم كحضر الفرس ثم كالراكب ثم كشد الرجل ثم كمشيه .

وروي عن كثير بن زياد عن أبي سمينة قال : اختلفنا في معنى الورود فقال قوم : لا يدخلها مؤمن . وقال آخرون : يدخلونها جميعاً ثم ينجي الله الذين اتقوا ، قال : فلقيت جابر بن عبدالله فسألته فأومأ باصبعيه إلى أذنيه وقال صمتا إن لم اكن سمعت رسول الله ﷺ يقول : الورود الدخول لا يبقى بر ولا فاجر إلا يدخلها فتكون على المؤمنين برداً وسلاماً كما كانت على ابراهيم حتى ان للنار ضجيجاً من بردها ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا .

وروي عن رسول الله ﷺ انه قال : تقول النار للمؤمن : جز يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي .

وروي ايضاً عنه ﷺ إن الله تعالى يجعل النار كالسمن الجامد ويجمع الخلائق عليها ، ثم ينادي المنادي أن خذي أصحابك وذري أصحابي .

قال ﷺ : فوالذي نفسي بيده لهي أعرف بأصحابها من الوالدة بولدها

وروي عن الحسن (ع) انه رأى رجلا يضحك فقال له : هل علمت انك وارد على النار ؟ قال : نعم ، قال : وهل علمت انك خارج منها ؟ قال : لا ، قال : ففيم هذا الضحك ، وكان الحسن لم ير ضاحكا حتى مات .

فلسفة دخول المؤمنين النار

فقد روي في بعض الأخبار ان الله لا يدخل احداً الجنة حتى يطلعه على النار وما فيها من العذاب ليعلم تمام فضل الله عليه وكمال لطفه وإحسانه اليه فيزداد لذلك فرحاً وسروراً بالجنة ونعيمها « وقد ذكرنا سابقاً ايضاً ان لأهل الجنة ابواباً على النار متى شاءوا فتحها فتحوها ليطلعوا على عذاب اهل النار » ولا يدخل احداً النار حتى يطلعه على الجنة وما فيها من انواع النعيم والثواب ليكون ذلك زيادة عقوبة له وحسرة على ما فاته من الجنة ونعيمها ، وقد ورد ان الحمى من فيح جهنم .

وروي ان رسول الله ﷺ عاد مريضاً فقال : ابشر ان الله عز وجل يقول : الحمى هي ناري أسلطها على عبدي المؤمن في الدنيا لتكون حظه من النار

هذا وقد ورد في أخبار اهل بيت النبي ﷺ انه لما نزلت هذه الآية على النبي ﷺ وهو في المسجد غشي عليه حيث ان الله تعالى لم يستثن احداً في الآية فنظر الصحابة اليه وما علموا كيف الحال ، ثم قالوا لسلمان : امض إلى فاطمة حتى تأتي إلى ابيها (لعلمهم بمزيد حبه لها وتقديره إياها) قال سلمان : فمضيت اليها وأخبرتها فقالت : يا سلمان كيف اخرج من البيت وليس لي ثياب ؟ قال : فنظرت وإذا في البيت بساط فوضعته على رأسها وبدنها وخرجت ، قال سلمان : فنظرت في البساط وإذا فيه اربع عشرة رقعة من الخوص فقلت : وا عجباه بنات كسرى وقيصر يجلسن على الكراسي المذهبة وبنت رسول الله ﷺ ليس لها ازار فقالت : يا سلمان إن الله تعالى ذخر لنا الثياب والكراسي ليوم آخر ، فلما اتت المسجد وضعت رأس النبي ﷺ في حجرها فلما احس بها قالت له : ما الخبر

فقال : يا فاطمة اتاني جبرئيل بهذه الآية ولم يستثن احداً ، فبكيا طويلا فأتى امير المؤمنين ﷺ فأخبراه الخبر فأتى إلى زاوية المسجد وجعل يحثو التراب على رأسه ويقول : ليت أمي لم تلدني حتى لا اسمع هذه الآية ، فصاح سلمان وضج الناس بالبكاء والعويل فنزل جبرئيل وقال : يا محمد وان منكم إلا واردها إلا علي وشيعته ففرحوا ورجعوا إلى منازلهم .

الكلام في عذاب الفاسق من المؤمنين

وللمسلمين في هذا الباب كلام واسع ، بل اختلاف شاسع ، ولعله هو منشأ الاعتزال وإحداث فرقة المعتزلة ، وأصلها الوعيدية ، وهم من فرق الخوارج اصحاب واصل بن عطا ، لأنه اعتزل عن مجلس الحسن البصري ، وذلك انه دخل رجل على الحسن فقال له : يا إمام الدين ظهر في زماننا جماعة يكفرون صاحب الكبيرة ، ويعني بهم الوعيدية وجماعة اخرى يرجئون الكبائر ويقولون : إنه لا يضر مع الايمان معصية ، كما لا ينفع مع الكفر طاعة وهم المرجئة ، فكيف تحكم انت لنا ان نعتقد في ذلك فتفكر الحسن ، وقبل ان يجيب قال واصل : أنا اقول : إن صاحب الكبيرة لامؤمن مطلق ولا كافر مطلق ، ثم قام إلى اسطوانة من اسطوانات المسجد واخذ يقرر على جماعة من اصحاب الحسن ما اجاب هو به من ان مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر ، ويثبت له المنزلة بين المنزلتين قائلا : إن المؤمن استحق المدح من الله تعالى (١) ، والفاسق لا يستحق المدح فلايكون مؤمناً وايضاً لايكون كافراً لاقراره بالشهادتين ولوجود سائر اعمال

(١) يشير إلى قوله تعالى في أول سورة البقرة : « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » انقضية المعصر

الخير فيه . فاذا مات بلا توبة خلد في النار (ولعله لقضية الاصرار) إذ ليس في الآخرة إلا فريقان فريق في الجنة وفريق في السعير ، لكن يخفف عليه وتكون دركته فوق دركات الكفار . فقال الحسن عند ذلك : قد اعتزل عنا واصل ، فلذلك سمي هو واصحابه المعتزلة ، ويلقبون بالقدرية ايضاً لاسنادهم افعال العباد إلى قدرتهم بخلاف الحسن واصحابه الأشاعرة فانهم المجبرة القائلون : إن الخير والشر كله من الله ، وان العبد لا قدرة له على جميع افعاله ، بل هو مجبور عليها والأصح ان العبد مختار في بعض افعاله واحواله كامتثال تكاليفه وقيامه وقعوده وأكله وشربه وعلمه وجهله ، ولا اختيار له في بعض افعاله واحواله كحركة يد المرتعش مثلا ، فانه لا اختيار له فيها بخلاف حركته من مكان إلى آخر ، فانها باختياره ، ومثل كونه طويلا او قصيراً ، ومثل موته وحياته وقدر رزقه ، ولذلك لا يسأل العبد عما ليس باختياره في يوم القيامة .

واما الكلام في المؤمن المرتكب لبعض الذنوب ، فأفضل القول فيه ان نحيله إلى قوله تعالى : « وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم والله عليم حكيم » (١) .

وقوله تعالى: « وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً عسى الله ان يتوب عليهم » (٢) ، ولعلها مبنية على القول بالاحباط استناداً إلى قوله تعالى : « إن الحسنات يذهبن السيئات » او عدمه استناداً إلى قوله تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » هذا بالنسبة إلى اصل الاحصاء ووزن كل منها ، واما بالنسبة إلى ما تبقى عليه من السيئات فمبني على وجود الشفاعات ، والعفو من الله تعالى .

وقد دل عليه المتواتر من الروايات كما تقدم قسم منها في الجزء الأول من

(١) و (٢) سورة التوبة الآية ١٠٨ و ١٠٤ .

كتابنا هذا ، وان الشفاعة ثابتة حتى للمؤمن فانه يشفع لمثل ربيعة ومضر فضلا عن الأنبياء والأوصياء ، ولكن بشرط ان يكون في المشفوع له ملاك الشفاعة وقابلية ذاته للالتحاق بأهل الجنة ، والكل موكول لأمر الله تعالى وسابق علمه فيهم

من أنذر أعذر

وحيث قد علم سبحانه ان المصير الأخير لابن آدم إذا كان هو النار لا تجديه الملامة وتصحبه الحسرة والندامة ، فقال تعالى مخاطباً لنبيه الكريم قاصداً به العبد الأثيم : « وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون إنا نحن نرث الأرض ومن عليها والينا يرجعون » (١) .

المعنى خوفهم يا محمد من يوم يتحسر فيه المسيء ، حيث قد تحقق مصيره السيء ، وعلم استحقاقه للعقاب في وقت قد قضي فيه الأمر ، وفرغ من الحساب وانقطعت الآمال ، وأدخل قوم النار وقوم الجنة .

وقيل : إن معناه انقضى أمر الدنيا فلا يرجع اليها لاستدراك الفائت .

وقيل : إن معنى إذ قضي الأمر ، أي حكم بين الخلائق بالعدل .

وقيل : قضي على اهل الجنة بالخلود ، وعلى اهل النار بالخلود .

فقد روي في الصحيح بالاسناد عن ابي سعيد الخدري انه قال رسول الله صلى الله عليه وآله : إذا دخل اهل الجنة الجنة واهل النار النار قيل : يا اهل الجنة فيشرئبون وينظرون ، وقيل : يا اهل النار فيشرئبون وينظرون فيجاء بالموت كأنه كبش أملح فيقال لهم : تعرفون الموت ، فيقولون : هذا هذا وكل قد عرفه قال : فيقدم فيذبح ، ثم يقال يا اهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلاموت

(١) سورة مريم الآية ٣٩ .

قال : وذلك قوله تعالى : « وأنذرهم يوم الحسرة » الآية .

وروي مثله ايضاً عن ابي جعفر ﷺ وابي عبدالله عليه السلام ثم جاء في آخر الخبر ، فيفرح اهل الجنة فرحاً لو كان احد يومئذ يموت لماتوا من شدة الفرح ويشهق اهل النار شهقة لو كان يومئذ احد يموت لماتوا من شدة الجزع ، ثم ذكر تعالى بعض اسباب ذلك فقال : « وهم في غفلة » اي في الدنيا عن ذلك كله ومشغولون فيها بما لا يعنيهم ، غافلون عن احوال الآخرة وعما يعنيهم « وهم لا يؤمنون » اي لا يصدقون ، وربما يستهزئون ، في حين ينعكس الأمر قريباً فيعود المنذر يستهزئ بهم في يوم القيامة ، وان هذا التكليف من الله سبحانه لنبيه بأن ينذرهم ويوضح لهم ما يكون من نتيجة غفلتهم يعد من ألطافه بعباده ثم لم يكتف بذلك بل يستقري لهم العلل قاطعاً عليهم طريق الاعتذار ، كاشفاً لهم عن أسباب الاغترار وانه الشيطان العدو الألد المبين .

قال تعالى : « كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال اني بريء منك اني أخاف الله رب العالمين فكان عاقبتهما انهما في النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين » (١) .

والمعنى انه مثل ضربه تعالى للمنافقين مع اليهود حين أغروا بني النضير لنقض العهد مع النبي ﷺ وحربهم للمسلمين ، وانهم ينصرونهم وينظموا معهم ثم خذلوهم لما رأوا من انتصار النبي ﷺ عليهم وتبرأوا منهم كمثل الشيطان في إغرائه للانسان ، فانه داعياً يدعو الانسان إلى الكفر ولو بأوليائه ثم يتبرأ منه وقت الحاجة ، مخافة ان يشاركه في العذاب ويقول : إني اخاف الله رب العالمين ولكن لا يجديه ايضاً ذلك كما قال سبحانه : فكان عاقبتهما ، اي الداعي والمدعو وهو الشيطان ومن أغواه من الانسان ان يكونا معذبين في النار .

(١) سورة الحشر الآية ١٢ .

وقال ابن عباس : إن المراد بالانسان في هذه الآية هو عابد بني إسرائيل قال : إنه كان في بني إسرائيل عابد اسمه برصيصا عبدالله زماناً من الدهر حتى كان يؤتى بالمجانين يداويهم ويعوذهم فيبرأون على يده ، وانه اتي بامرأة في شرف قد جنت وكان لها اخوة فأتوه بها فكانت عنده فلم يزل به الشيطان يزينها له حتى وقع عليها فحملت فلما استبان حملها قتلها ودفنها فلما فعل ذلك ذهب الشيطان حتى لقي احد اخوتها فأخبره بما فعل الراهب ، وانه دفنها في مكان كذا ، ثم اتى بقية اخوتها رجلا رجلا فذكر له ذلك فجعل الرجل يلقى اخاه فيقول : والله لقد اتاني آت فذكر لي شيئاً يكبر عليَّ ذكره فذكر بعضهم لبعض حتى بلغ ذلك ملكهم فصار الملك والناس اليه فاستنزلوه فأقر لهم بالذي فعل فأمر به الملك ليصلب فلما دفع على خشبة تمثل له الشيطان فقال : أنا الذي ألقيتك في هذا فهل انت مطيعي فيما اقول اخلصك مما انت فيه ؟ قال : نعم ، قال : اسجد لي سجدة واحدة فقال كيف أسجد لك وأنا على هذه الحالة ؟ فقال : اكتفي منك بالايماء فأومأ له بالسجود فكفر بالله وقتل الرجل فهو قوله تعالى : « كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر ... الخ » .

اللهم إنا نعوذ بك من خدع إبليس ، ومن شرور الأنفس ، ومن سوء الخاتمة فلم يقنع إبليس من إغوائه بفعل الزنا ولا بفعل القتل ، حتى تدرج معه إلى ان كفره بربه .

فهذا اقصى ما يرومه من ابن آدم فالمعاصي إذا لم يتعقبها الندم والاستغفار تكون كسلم لصعود الشيطان إلى اعلا مرحلة من العصيان باستيلائه على قلبه فيلتقمه فلا يستنير به صاحبه .

فقد ورد عن الصادق ﷺ انه سأله سائل عن معنى الخناس قال ﷺ : إن إبليس يلتقم القلب فاذا ذكرالله خنس ـ أي تأخر وتراجع ـ فلذلك سمي الخناس .

وعن النبي ﷺ انه قال : على كل قلب جاثم من الشيطان فاذا ذكر اسم الله خفس وذاب ، وإذا ترك الذكر التقمه الشيطان فجذبه وأغواه واستزله وأطغاه

وعن ابن عباس في قوله تعالى : « من شر الوسواس الخناس » قال : يريد به الشيطان يكون على قلب ابن آدم له خرطوم مثل خرطوم الخنزير يوسوس ابن آدم إذا أقبل على الدنيا وما لا يحبه الله ، فاذا ذكر الله عز وجل انخنس - أي رجع - وإلى ذلك يشير قوله تعالى : « ومن يعش عن ذكر الله نقيض له شيطاناً فهو له قرين » (١) .

أي من يتعامى ويعرض عن ذكر الله لفرط اشتغاله بالمحسوسات وانهماكه في الشهوات نقدر ونسبب له شيطاناً فهو له قرين يوسوسه ويغويه دائماً (٢) . ولعله كناية عن التخلية بينه وبين الشيطان الواقف على أذن قلبه النافث فيه المترقب للوسوسة فى صدره لو غفل عن ذكر الله تعالى .

تحذير آخر عن الشيطان

قال تعالى : « يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما اخرج ابويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوأتهما انه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين اولياء للذين لا يؤمنون » (٣) .

فيوضح سبحانه لنا كل مكائده ، ويقص علينا فنون خدعه لنأخذ الحذر من مكره وغدره ، والتجنب عن انواع مصائده فيقول : « لا يفتننكم » أي لا يضلكم عن الدين ولا يصرفنكم عن الحق بأن يدعوكم إلى المعاصي التي تميل اليها

(١) سورة الزخرف الآية ٣٦ (٢) من كتاب دار السلام ج ٣ ص ٢٨٧ .
(٣) سورة الأعراف الآية ٢٧ .

النفوس ، فيجتاز منكم مرحلته الأولى ، ويغرس في قلوبكم شجرته المسمومة ، ثم يعطينا نموذجاً من فتوحاته بقوله تعالى : « كما أخرج ابويكم من الجنة » بما نتيجته ان نزع عنهما لباسهما من ثياب الجنة ، وأخرجا منها وأهبطا إلى الدنيا ، ثم يوقفنا بلطفه تعالى على خفايا اسلحته بقوله : « انه يراكم هو » أي الشيطان (وقبيله) أي نسله بدلالة قوله تعالى : « أفتتخذونه وذريته اولياء من دوني » وقيل : جنوده واتباعه من الجن والشياطين من حيث لا ترونهم .

قال ابن عباس : إن الله جعلهم يجرون من بني آدم مجرى الدم وصدور بني آدم مساكن لهم ، كما قال تعالى : « يوسوس في صدور الناس » فهم يرون بني آدم وبنو آدم لا يرونهم ، قال قتادة : والله ان عدواً يراك من حيث لا تراه لشديد المؤونة إلا من عصم الله ، وإنما قال ذلك لانا إذا لم نرهم لم نعرف قصدهم واتجاههم لنا بالكيد فيلزم ان نكون على حذر بعلامة ما نجده في انفسنا من الوسواس والميل إلى المحرمات فنعتبر ذلك منه ونتباعد في الهزيمة عنه .

السبب لعدم رؤية الشيطان

هو أن اجسامهم شفافة ولطيفة يحتاج في رؤيتها إلى فضل شعاع زيادة ونور على ما هو عندنا . وقال بعضهم : يجوز ان يمكنهم الله سبحانه فيتكشفوا فيراهم من يحضرهم حينئذ .

ففي كتاب عيون أخبار الرضا عليه السلام (١) عن علي عليه السلام قال : كنت جالساً عند الكعبة ، وإذا شيخ محدودب الظهر قد سقط حاجباه على عينيه من شدة الكبر وفي يده عكازة وعلى رأسه برنس احمر وعليه مدرعة من الشعر فدنا إلى

(١) ج ٢ ص ٧٢ .

النبي ﷺ وهو مسند ظهره إلى الكعبة فقال : يا رسول الله ادع لي بالمغفرة فقال النبي ﷺ : خاب سعيك يا شيخ ، وضل عملك ، فلما تولى قال ﷺ : يا ابا الحسن أتعرفه ؟ قلت : اللهم لا ، قال : ذلك اللعين إبليس ، قال علي ؏ : فعدوت خلفه حتى لحقته وصرعته إلى الأرض وجلست على صدره ووضعت يدي في حلقه لأخنقه فقال لي : لا تفعل يا ابا الحسن ، فاني من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم ، ووالله يا علي اني لأحبك جداً ، وما أبغضك احد إلا اشركت اباه في امه فصاروا ولد الزنا ، فضحكت وخليت سبيله .

من وسائل ابليس الخفية

ومن سمومه المكروبية ، ان إذا انعم الله تعالى على عبده بواسع النعم ، وافضل له بأنواع الكرم ، تدخل إبليس في أوهام تفكيره ، وغرس شجرة الطغيان في قرار ضميره ، وجعله مشغولا في ترفه ، منهمكا في بطره ، لا يرى ان ما لديه هو رزق من ربه يلزمه شكره ، طلباً لاستمرار نعمه ومزيد كرمه . بل يحوله عن هذه الفضيلة إلى الانغماس في الرذيلة ، ويكونه طاغياً بدل ان يكون شاكراً ، وقد اعلمه الله تعالى بذلك قبل صدور فعله منه ، وأخبره عن نتائج تقسيته قبل بروزها عنه لطفاً منه لردعه ، وتعطفاً عليه لأجل صده وعلاجاً لمرض غروره ، وإبعاداً له عن تسويلات شيطانه ، فقال سبحانه مخبراً عن مستقبل حاله « كلا ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى » (١) .

وحتى قص عليه في قرآنه ما يوضح له ذلك من أفعال امثاله كما ذكر تعالى من قصة سبأ فقال : « لقد كان لسبأ في مسكنهم جنتان عن يمين وشمال كلوا

(١) سورة العلق الآية ٧ .

من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين فقالوا ربنا باعد بين اسفارنا وظلموا انفسهم فجعلناهم احاديث ومزقناهم كل ممزق ان في ذلك لآيات لكل صبار شكور » (١) .

أخبر سبحانه عن قصة سبأ بما دل على حسن عاقبة الشكور وسوء عاقبة الكفور (وسبأ) اسم لأبي عرب اليمن كلها وقد تسمى به القبيلة وهي مملكة بلقيس ايضاً وفيها ملوك حمير ، وفي الحديث عن فروة بن مسيك انه قال : سألت رسول الله ﷺ عن سبأ أرجل هو أم امرأة فقال : هو رجل من العرب ولد له عشرة تيامن منهم ستة وتشاءم منهم اربعة ، فأما الذين تيامنوا فالأزد وكندة ومذحج والأشعرون وأنمار وحمير فقال رجل من القوم : ما أنمار ؟ قال : الذين منهم خثعم وبجيلة ، واما الذين تشاءموا فعاملة وجذام ولخم وغسان .

فالمراد بسبأ في الآية القبيلة الذين هم اولاد سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان فقد كانت لهم في مسكنهم « أي في بلدهم آية من الله وحجة دالة على وحدانيته ، وكمال قدرته ، وعلامة على سبوغ نعمته ، وفسر سبحانه الآية بقوله : « جنتان عن يمين وشمال » أي بستانان عن يمين من اتاهما وشماله .

وقيل : عن يمين البلد وشماله .

وقيل : إنه لم يرد جنتين اثنتين ، بل المراد ان ديارهم كانت على وتيرة واحدة ، إذ كانت البساتين عن يمينهم وشمالهم متصلة بعضها ببعض ، وكان من كثرة النعم عليهم ، ان المرأة تمشي والمكتل على رأسها فيمتلىء بالفواكه من غير

(١) سورة سبأ الآية ١٥ وما بعدها

ان تمس يدها شيئاً من الشجر .

وقيل : إن الآية والعلامة المذكورة هي ان الله جعل بلدهم لم يكن فيها بعوضة ولا ذبابة ولا برغوث ولا عقرب ولا حية ، وكان الغريب إذا دخل بلدهم وفي ثيابه قمل ودواب ماتت .

وقيل : إن المراد بالآية هو خروج الأثمار والأزهار من الأشجار على اختلاف ألوانها وطعومها .

وقيل إنها كانت ثلاث عشرة قرية في كل قرية منها نبي يدعوهم إلى الله سبحانه ويقولون لهم : « كلوا من رزق ربكم واشكروا له » أي كلوا مما رزقكم الله في هذه الجنان واشكروا له يزدكم من نعمه واستغفروه يغفر لكم إشارة منهم إلى مركزات العقيدة وأصول الاندفاع إلى الأعمال الصالحة . لأنه إذا اعتقد الانسان بأن رزقه من ربه ، وانه مقدر سماوي طبق صالحه لا يرتطم في المظالم والمحرمات ، ويتخلص بذلك قلبه عن الشبهات الملوثات ، وإذا انظم إلى ذلك الاستغفار من هفوات الخطيئات وسقطات السيئات ، فلا تتراكم على القلب فيبقى مضيئاً ومستنيراً يدفع بصاحبه إلى الصالحات (بلدة طيبة) أي هذه بلدة مخصبة نزهة ارضها عذبة تخرج النبات وليست بسبخة وليس فيها من الهوام المؤذية .

وقيل في تفسيره ايضاً : إنه اراد به صحة هوائها وعذوبة مائها وسلامة تربتها ، وانه ليس فيها حر يؤذي في الصيف ولا برد يؤذي في الشتاء (ورب غفور) أي كثير المغفرة للذنوب ، لأنه الصيغة على وزن المبالغة ، ثم يخبر سبحانه عما صدر منهم قبال هذه النعم بقوله : (فأعرضوا) أي عن الحق ولم يشكروا الله سبحانه ولم يقبلوا ممن دعاهم إلى الله وأرشدهم إلى صالحهم من الأنبياء (فأرسلنا عليهم سيل العرم) جزاءً لطغيانهم واتباع شيطانهم ، وذلك ان الماء كان يأتي ارض سبأ من اودية اليمن ؛ وكان هناك سد طبيعي جبلان يجتمع ماء

المطر والسيول بينهما فسدوا ما بين الجبلين ، فاذا احتاجوا إلى الماء نقبوا السد بقدر الحاجة ، فكانوا يسقون زروعهم وبساتينهم ، فلما كذّبوا رسلهم وتركوا امر الله بما سولت لهم نفوسهم ، بعث الله جرذاً نقبت ذلك الردم ، وفاض الماء عليهم فأغرقهم .

وقال ابن الأعرابي : العرم السيل الذي لا يطاق .

وفي اللغة العرم المسناة التي تحبس الماء أخذ من عرامة الماء ، ثم أظهر لهم عملياً عظيم قدرته ونكاله لعصاة عباده ، بأن حول طبيعة ارضهم وصالح مزارعهم إلى أسوأ ارض وأردأ ثمر فقال : « وبدلناهم بجنتيهم » اللتين كان فيهما انواع الفواكه والخيرات (جنتين) اخراوين وسماها جنتين لازدواج الكلام ومجانسته كما قال تعالى : « ومكروا ومكر الله » مع ان المكر محال على الله تعالى فهما لا يستحقان إطلاق اسم الجنة عليهما ، لأنهما من الرداءة كما قال عنهما تعالى : « ذواتي اكل خمط واثل » أي صاحبتي اكل والأكل اسم لثمر كل شجرة .

قال ابن عباس : الخمط هو الأراك . وقيل : هو شجر الغضا . وقيل : هو كل شجر له شوك ، والأثل هو الطرفاء . وقيل : ضرب من الخشب . وقيل : هو السمر « وشيء من سدر قليل » يعني ان الأثل والخمط كانا اكثر فيهما من السدر وهو النبق ، كان شجرهم خير شجر ، فصيره الله شر شجر بسوء اعمالهم مع ان الأرض واحدة ، وقد بين سبحانه الفلسفة والعلة بقوله : (ذلك) أي ما فعلناه بهم « جزيناهم بما كفروا » أي بكفرهم وجحودهم لله ونعمه « وهل نجازي » بهذا الجزاء « إلا الكفور » وهو المبالغ في الجحود ، لأن الجزاء إذا كان على نحو الاستئصال والاقتضاء بكل السيئات ، واسترجاع النعم لا يكون إلا للمكافر بها .

واما المؤمن فقد يرحم ويُكفر له بعض سيئاته ، وهذا يستفاد من طريق

الحصر ثم قال تعالى : « وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة » أي وكان من قصتهم ووفور النعمة عليهم ، إنا جعلنا بينهم وبين قرى الشام التي باركنا فيها بالماء والشجر قرى متواصلة ، وكان متجرهم من ارض اليمن إلى الشام وكانوا يبيتون بقرية ويقيلون بأخرى حتى يرجعوا ، وكانوا لا يحتاجون إلى زاد من وادي سبأ إلى الشام .

ومعنى قوله ظاهرة ان الثانية كانت ترى من الأولى لقربها منها ، كل ذلك لأنسهم وراحتهم في اسفارهم « وقدرنا فيها السير » أي جعلنا السير فيها من قرية إلى قرية مقداراً واحداً ، وكان نصف يوم وقلنا لهم : « سيروا فيها » أي في تلك القرى « ليالي وأياماً » أي ليلا إن شئتم المسير او نهاراً « آمنين » من الجوع والعطش والتعب ومن السباع ومن كل المخاوف .

وفي هذا بيان وإشارة إلى تكامل نعمه عليهم في السفر والحضر .

البطر يدفع الى الكفر

فأخبر سبحانه عنهم فقال : « فقالوا ربنا باعد بين اسفارنا » أي اجعل بيننا وبين الشام فلوات ومفاوز لنركب اليها الرواحل ، ونقطع المنازل ، وهذا كما قال بنو إسرائيل لما ملوا النعمة : اخرج الينا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها بدلا عن المن والسلوى « وظلموا انفسهم » بارتكاب المعاصي والكفر « فجعلناهم أحاديث » لمن بعدهم يتحدثون بأمرهم وشأنهم ، ويضربون بهم الأمثال فيقولون : « تفرقوا ايادي سبأ » إذا تشتتوا اعظم التشتت « ومزقناهم كل ممزق » أي فرقناهم في كل وجه من البلاد كل تفريق « إن في ذلك لآيات » أي دلالات « لكل صبار » على الشدائد « شكور » على النعماء .

وقيل : لكل صبار عن المعاصي شكور للنعم بالطاعات .

مفصل القصة

عن الكلبي عن ابي صالح قال : ألقت طريفة الكاهنة كلاماً إلى عمرو بن عامر الذي يقال له مزيقاء بن ماء السماء ، وكانت قد رأت في كهانتها ان سد مأرب سيخرب ، وانه سيأتيه العرم فيخرب الجنتين ، فباع عمرو أمواله وسار هو وقومه حتى انتهوا إلى مكة فأقاموا بها وما حولها فأصابتهم الحمى وكانوا ببلد لا يدرون فيه ما الحمى ، فدعوا طريفة فشكوا اليها الذي اصابهم ، فقالت لهم : قد أصابني الذي تشكون ، وهو مفرق بيننا ، قالوا : فماذا تأمرين ؟ قالت : من كان منكم ذا هم بعيد ، وجمل شديد ، ومزاد جديد ، فليلحق بقصر عمان المشيد وكانت ازد عمان .

ثم قالت : ومن كان منكم ذا جلد وقسر وصبر على ازمات الدهر ، فعليه بالأراك من بطن مر وكانت خزاعة .

ثم قالت : ومن كان منكم يريد الراسيات في الوحل المطعمات في المحل فليلحق بيثرب ذات النخل ، وكانت الأوس والخزرج .

ثم قالت : ومن كان منكم يريد الخمر والخمير والملك والتأمير وملابس التاج والحرير فليلحق ببصرى وغوير وهما من ارض الشام ، وكان الذي سكنوها آل جفنة بن غسان .

ثم قالت : ومن كان منكم يريد الثياب الرقاق والخيل العتاق وكنوز الأرزاق والدم المهراق فليلحق بأرض العراق ، وكان الذين سكنوها آل جذيمة الأبرش ومن كان بالحيرة وآل محرق .

وخلاصة هذا الفصل وختامه ان المصير الأخير كما أعلمنا به اللطيف الخبير

من قوله : « فريق في الجنة وفريق في السعير » وان فريق السعير كان من جراء الجهل وطغيان النفس وغرور الشيطان ، كما ان فريق الجنة كان نتيجة العلم وحلبة العقل والتباعد عن ذوي الجهل .

فنسأل المولى بكرمه وبشرف نبيه ﷺ وفضل أهل بيت نبيه ان يمن علينا بنور العلم وإذلال النفس والبعد عن الشيطان فانه الحنان المنان .

الخاتمة في اللطف

والكلام فيه تارة في مفهومه وتعريفه ، وتارة في لوازمه وأحكامه ، وتارة في أنواعه وأقسامه .

اما تعريفه فقد ذكر له المتكلمون عدة تعاريف ، اوجزها وأجلاها هو ما يكون المكلف معه اقرب إلى فعل الطاعة ، وأبعد عن فعل المعصية .

ومعناه ان الله سبحانه يمده بأمور مادية او علمية وروحية تسعفه وتسانده سلباً وإيجاباً ، أي تجذبه عن فعل القبيح وتدفعه إلى فعل الحسن .

واما احكامه ـ فمنها ـ أن لا يصل به اللطف إلى حد الالجاء ، لأن الالجاء ينافي التكليف واللطف لا ينافيه بل يجامعه .

(ومنها) انه يلزم ان يكون بين اللطف والملطوف فيه مناسبة ، ومعنى المناسبة كون اللطف بحالة وصفة يكون داعياً وباعثاً إلى حصول الملطوف ، لأنه لو لم يكن كذلك لم يكن كونه لطفاً اولى من كون غيره لطفاً ، وايضاً لم يكن كونه لطفاً في هذا الفعل اولى من كونه لطفاً في الفعل الآخر فيلزم الترجيح بدون مرجح وهو قبيح .

(ومنها) ان يكون معلوماً للمكلف إما إجمالا او تفصيلا ، لأنه مع عدم

العلم به وبالملطوف فيه وبالمناسبة بينهما لم يكن ذلك داعياً إلى فعل الملطوف فيه وينتقض الغرض .

(ومنها) أن يكون مشتملا على صفة زائدة على الحسن الموجود في المكلف به واجباً او مندوباً ، ولذا قالوا : إن اصل التكليف ليس لطفاً ، بل ما زاد عليه من البيانات والايضاحات ، ترغيباً وترهيباً يكون لطفاً .

(واما اقسامه) فان منه ما يكون من افعال الله تعالى ، ومنه ما يكون من افعال العباد ، وسيأتي بيانها في التحقيقات ـ وان منه ما يكون مقرباً ـ ومنه ما يكون محصلا .

(اما المقرب) فمعناه انه بدونه تحصل الطاعة من المكلف ولكن بمزيد مشقة وتحمل الأذى ، وبسببه يرتفع ذلك عن المكلف .

(واما المحصل) فهو ما تحصل عنده الطاعة من المكلف اختياراً ، لكن لولاه لم يطع مع وجود الاختيار والتمكن له عند اللطف وعند عدمه معاً .

واما الكلام في وجوبه على الله تعالى

فقد ذهب الامامية والمعتزلة إلى وجوب فعل ذلك عليه سبحانه لطفاً منه بعباده خلافاً للأشاعرة ، فقد ذهبوا إلى عدم الوجوب عليه تعالى ؛ والدليل على الوجوب من وجوه :

(أولاً) انه يكون سبباً لحصول غرض المكلف نفسه ، وهو الله تعالى فيكون واجباً عليه لئلا يلزم نقض غرضه المعلوم بطلانه من الحكيم نظير من كان له غرض في دعوة شخص إلى بيته ، وهو يعلم أنه لم يجبه بمجرد الدعوة إلا أن يفعل معه الآداب والاحترامات ، فاذا لم يفعل ذلك معه يكون ناقضاً لغرضه

ومفسداً لمطلبه ، ومعرّضاً نفسه للوم غيره ، فاذا علم سبحانه بتوقف طاعة المكلف وامتثال أمره ، وحصول غرضه على جعل الألطاف له ، يجب ذلك لأجل حصول غرضه تعالى .

(وثانياً) انه سبحانه لا يأمر بشيء ، إلا وأن يكون فيه مصلحة وجهة حسن راجعة إلى المكلف ، ومقتضى ذلك انه يجب عليه فعل كل ما له دخل في حصول المصلحة ، ولولا ذلك لاستند عدم حصول المصلحة اليه تعالى لا إلى غيره

(وثالثاً) ان المضايقة من فعله اللطف بخل والبخل صفة قبيحة يمتنع اتصافه تعالى بها فيجب عليه فعله .

واما الأشاعرة فذهبوا إلى عدم الوجوب لشبهات عرضت لهم .

(منها) ان الشيء إنما يجب إذا تمت فيه علة الوجوب ، وهي عبارة عن وجود المقتضي وعدم المانع ، ولو سلمنا ان في اللطف مصلحة ، وهي المقتضي ، فلعل هناك مفسدة فيه نحن لا نعلمها ، ومعها لا تتم علة وجوبه ، لوجود المانع ، وهي المفسدة .

(والجواب عنها) ان المفسدة هي الشيء القبيح ، وان جهات القبح معلومة لنا ، لأنا مكلفون بتركها بواسطة النهي عنها ، ولم نجد في اللطف شيئاً منها ، فانتفت المفسدة وعدم المانع وتمت العلة لوجوبه .

(ومنها) ان كفر الكافر إما ان يكون مع وجود اللطف منه تعالى له اولا فان كان معه فهو باطل ، لأن معنى اللطف هو ما حصل الملطوف فيه عنـده ، والحال انه لم يحصل لبقائه على الـكفر ، وإن كان كفره مع عدم اللطف فنقول : إن عدم اللطف منه تعالى له ، إن كان لعدم قدرته عليه ، فيلزم تعجيزه تعالى وهو باطل ، او مع وجود القدرة ولايفعله ، فهو إخلال بالواجب وهو ايضاً باطل

(والجواب عنها) ان اللطف ليس معناه لزوم حصول الملطوف فيه عنده

وإلا فيكون إلجاءً ، بل هو لطف في نفسه ، سواء حصل الملطوف فيه أم لم يحصل ، فمعنى كونه لطفاً انه يقرِّب إلى الملطوف فيه ، ويرجح وجوده على عدمه ويكون امتناع ترجحه عند الكافر مثلا لوجود معارض اقوى ، وهو سوء اختياره فيكون اللطف في حقه مرجوحاً ومغلوباً ، وإن كان في نفسه راجحاً .

(ومنها) ان إخباره تعالى لبعض المكلفين ، بأنه من اهل الجنة ، او انه من اهل النار مفسدة ، لأنه إغراء لهم بالمعاصي لأمن الأول ويأس الثاني ، وهذا ينافي اللطف ، وقد وقع منه سبحانه الأخبار لبعض ، بأنه من اهل الجنة كأوليائه وصلحاء عباده ، ولبعض بأنه من اهل النار كأبي لهب وإبليس ، فاذاً اللطف غير واجب عليه تعالى ، لوجود ما ينافيه وهو إخباره .

(والجواب عنها) اما عن الاخبار بالجنة ، فهو ليس باغراء على الاطلاق ، لجواز ان يقرن به من الألطاف مايمنع المخبَرَ من الاقدام على المعصية ، فانتقضت الكلية المزعومة .

واما عن الاخبار بالنار فهو ليس بمفسدة ايضاً ، لأنه إن كان للجاهل المنكر كأبي لهب مثلا ، فلا مفسدة فيه ولا إغراء ، لأنه يكذِّب القرآن ولا يصدق الاخبار منه ، بأنه من اهل النار كي يصر على الكفر بسبب الاخبار ، وإن كان للعارف كابليس ، لم يكن الاصرار منه على المعصية مسبباً عن الاخبار ، لأنه يعلم ان الاصرار منه يزيده عقاباً فلا يصير مغرى عليه .

وخلاصة القول : إن الحق وجوب اللطف منه تعالى عقلا ، بدليل انه حكيم في افعاله ، ونقلا بدليل ظواهر اقواله .

فقد قال تعالى : « الله لطيف بعباده » (١) .

ومعناه انه خفي بار بهم رفيق .

(١) سورة الشورى الآية ١٨ .

وقيل : إن معناه العالم بخفيات الأمور والغيوب ، والمراد به هنا الموصل المنافع إلى العباد من وجه يدق إدراكه .

وقال تعالى : « إن الله لطيف خبير » (١) .

وقال تعالى : « إن الله كان لطيفاً خبيراً » (٢) ، أي لطيفاً في تدبير خلقه وإيصال المنافع اليهم ، وخبيراً بما يكون منهم وبمصالحهم ومفاسدهم ، فيأمرهم بفعل ما فيه صلاحهم ، واجتناب ما فيه فسادهم .

وقال تعالى : « إن الله لطيف خبير » (٣) ، أي المحيط بتدبير دقائق الأمور الذي لا يتعذر عليه شيء يتعذر على غيره .

وقال تعالى : « إن ربي لطيف لما يشاء » (٤) ، حكاية عن يوسف ﷺ مادحاً له ، ومعناه انه لطيف في تدبير عباده يدبرهم على ما يشاء ، ويسهل لهم العسير ، وبلطفه قد حصلت هذه النعم لنا من الاجتماع بعد الافتراق ، وإعطاء الملك وغيره .

وقيل : إن اللطيف من أسماء الله تعالى ، ومعناه الرفيق بعباده ، يقال : فلان لطف بفلان لطفاً إذا رفق به .

وقيل : إن اللطيف الذي يوصل إربك اليك في رفق .

وقال تعالى : « وهو اللطيف الخبير » (٥) .

وقد قيل في معنى اللطيف هنا وجوه :

(الأول) انه اللاطف بعباده بسبوغ الانعام عليهم ، ثم عدل به إلى وزن المبالغة لكثرة ألطافه تعالى .

---

(١) سورة لقمان الآية ١٦ .
(٢) سورة الأحزاب الآية ٣٤ .
(٣) سورة الحج الآية ٦٣ .
(٤) سورة يوسف الآية ١٠١ .
(٥) سورة الأنعام الآية ١٠٣ .

(الثاني) ان معناه لطيف التدابير بهم .

(الثالث) ان معناه هو الذي يستقل الكثير من نعمه ، ويستكثر القليل من طاعة عباده .

(الرابع) ان معناه هو الذي إذا دعوته لباك ، وان قصدته آواك ، وان أحببته أدناك ، وان أطعته كافاك ، وان عصيته عافاك ، وان أعرضت عنه دعاك ، وان أقبلت اليه هداك ، وهذه الفقرة الأخيرة تخص الموضوع ، أي إذا علم منك التصميم على الطاعة ، وإرادة القرب منه تعالى أسعفك ولطف لك بزيادة الأنوار ، وتهيئة اسباب الهداية .

(الخامس) ان معنى اللطيف هو الذي يكافيء الوافي ، ويعفو عن الجافي

(السادس) ان معناه هو من يُعز المفتخر به ، ويُغني المفتقر اليه .

(السابع) ان اللطيف من يكون عطاؤه خيرة ، ومنعه ذخيرة .

واما معنى الخبير ، فهو كما تقدم العليم بكل شيء من مصالح عباده فيدبرهم عليها ، والعليم بأفعالهم فيجازيهم عليها .

من تحقيقات علماء الكلام

في وجوب اللطف

قالوا : إن بداهة العقل حاكمة ، على ان اللطف ، أي تقريب الناس من الطاعة ، وتبعيدهم عن المعصية ، واجب على الله تعالى .

(وإيضاحه) ان اللطف يتم بمجموع أمور ، بعضها من أفعال الله تعالى وبعضها من أفعال العباد التي أوجبها الله تعالى عليهم .

ومعناه ان اللطف يتم بإيجاد بعض الأفعال ، وإيجاب بعض آخر ، فما يرجع

إلى فعل الله يجب ان يوجده ، وما يرجع إلى فعل العبد يجب ان يوجبه حتى يتم اللطف منه تعالى ، وقد فرعوا على ذلك قولهم : إن مما يجب على الله فعله هو إرسال الرسل وإنزال الكتب ، ولا يتم اللطف بذلك فقط ، بل يضاف اليه فعل الرسل وهو إبلاغهم للشاهد وأمرهم بابلاغ الغائبين ونصب وصي بعدهم ، ولا يتم بذلك ايضاً ، بل بابلاغ الغائبين للغائبين في المرتبة الثانية والثالثة وهكذا وبحفظهم لأحكامهم وعدم تكذيبهم لهم ولأوصيائهم .

وهذه هي الأفعال التي لا يجب عليه تعالى إيجادها ، بل يجب عليه إيجابها فقط . واما إيجادها فهو بفعل العباد بعضها من الرسل والحجج ، وبعضها من الرعية ، فما كان على الله إيجاده وإيجابه ، فقد اوجده وأوجبه ، وكذلك الرسل والأوصياء فقد نهضوا بإيجاد ما اوجبه الله عليهم من الابلاغ والارشاد قدر الطاقة ، إلا أن الناس لم ينهضوا بايجاد ما اوجب الله عليهم إيجاده ، فاللطف لا يجب على الله تعالى وعلى حججه بأزيد مما ذكر ، فالواجب منه لا يقتضي إلا وجود الحجة والواسطة بينه وبين الرعية ، لئلا تبطل حججه وبيناته ، ولئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل .

واما فعلية تصرف الحجة في امور الرعية فهو موقوف على تمكين الرعية له ﷺ ، وإذا لم يمكنوه ولم يرفعوا الموانع التي هي من قبلهم ، فيسقط عنه وجوب التصرف ، ولكن لا يلزم من ذلك عدم الحاجة إلى وجوده ، وهذا معنى ما قالوه ان وجوده ﷺ لطف وهو ما يجب على الله إيجاده وتصرفه لطف آخر وهو ما يجب عليه تعالى إيجابه ، وقد اوجبه ويجب على الرعية إيجاده ولم يوجدوه برفع الموانع المقدورة لهم .

تواتر الأخبار في ذلك

وقد تضافرت الأخبار في هذا المعنى بل تواترت :

(منها) الصحيح عن معاوية بن وهب عن الصادق عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : إن لكل بدعة من بعدي يُكاد بها الايمان ولياً من اهل بيتي موكلا به يذب عنه ويبين الحق ويرد كيد الكائدين .

(ومنها) الصحيح الآخر عنه عليه السلام فينا أهل البيت في كل خلف عدول ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين .

(ومنها) الحسن عن اسحاق بن عمار عنه عليه السلام قال : سمعته يقول : إن الأرض لا تخلو إلا وفيها إمام كيما إن زاد المؤمنون شيئاً ردهم ، وإن نقصوا شيئاً أتمه لهم .

(ومنها) ما روي عنه عليه السلام قال : ما زالت الأرض إلا ولله فيها الحجة يعرف الحلال والحرام ، ويدعو الناس إلى سبيل الله .

(ومنها) صحيحة ابي بصير عن أحدهما (ع) قال : إن الله لم يدع الأرض بغير إمام عالم ، ولولا ذلك لم يعرف الحق من الباطل .

(ومنها) صحيحة ابي حمزة عن ابي جعفر عليه السلام قال : والله ما ترك الله ارضاً منذ قبض الله آدم ، إلا وفيها إمام يهتدى به إلى الله تعالى .

(ومنها) ما عن أمير المؤمنين عليه السلام بعدة طرق اللهم إنك لا تخلي الأرض من قائم بحجة إما ظاهر مشهور او خائف مستور ، لئلا تبطل حججك وبيناتك وفي بعض الروايات لابد لأرضك من حجة لك على خلقك يهديهم إلى دينك ، ويعلمهم علمك لئلا تبطل حجتك ولا تضل تبع اوليائك بعد إذ هديتهم إما به ،

ظاهر ليس بالمطاع او متكتم او مترقب ان غاب من الناس شخصه في حال هدايتهم فان علمه وأدبه في قلوب المؤمنين مثبتة فهم بها عاملون .

وفي تفسير قوله تعالى : « إنما انت منذر ولكل قوم هاد » (١) .

في عدة روايات ان المنذر رسول الله ﷺ وفي كل زمان إمام منا يهديهم إلى ما جاء به النبي ﷺ ، وفي بعضها والله ما ذهبت منا وما زالت فينا (٢) إلى الساعة .

وعن ابي عبدالله عليه السلام قال : ولم تخل الأرض منذ خلق الله من حجة له فيها ظاهر مشهور او غائب مستور ، ولم تخل إلى ان تقوم الساعة ، ولولا ذلك لم يعبد الله ، قيل : كيف ينتفع الناس بالغائب المستور ؟ قال عليه السلام : كما ينتفعون بالشمس إذا سترها السحاب .

وعن الحجة عجل الله تعالى فرجه قال : واما وجه الانتفاع بي في غيبتي فكالانتفاع بالشمس إذا غيبتها عن الأبصار السحاب ، واني لأمان لأهل الأرض كما ان النجوم أمان لأهل السماء .

وفي المناقب لأخطب خوارزم عن كميل بن زياد النخعي عن علي عليه السلام في حديث طويل - إلى ان قال فيه - اللهم لم تخل الأرض من قائم لله بحجة .

وفي رواية ابي عبدالله عليه السلام كيلا تبطل حجج الله وبيناته اولئك الأقلون عدداً الأعظمون قدراً بهم يدفع الله عن حججه حتى يؤدوها إلى نظرائهم ويزرعونها في قلوب أشباههم إلى غير ذلك من الأخبار الدالة على وجوب اللطف إجمالا على اختلاف ألفاظها ومصاديقها .

---

(١) سورة الرعد الآية ٨ .

(٢) أي الخلافة والإمامة لأنها ليست إلا الدين ونصره والذب عنه وهو قائم بهم لا بغيرهم بمختلف الأزمان

انقسام اللطف منه تعالى الى ضدين

ولقد حقق سبحانه ألطافه لعباده في اكثر آي القرآن الكريم، تشويقاً وترغيباً تارة، وإنذاراً وترهيباً تارة اخرى (فمن الأول) قوله تعالى: «ألا ان اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم» (١)

فتجده سبحانه وتعالى كيف يشوق عباده على عمل التقوى والاتصاف بها بجمل البشارة لهم آجلا وعاجلا، والتعهد لهم بعدم الخوف والحزن وجعلهم اولياء له تعالى، فهو يتلطف لهم بهذه المرغبات ليندرجوا في مصاديق ألطافه عز اسمه.

وقد قيل في معنى «ولا هم يحزنون» أي لا يخافون فيكون تكراراً لغرض التأكيد، ويمكن القول بأنه لا تكرار هنا، بل ان معنى قوله: «لا خوف عليهم» يخص انفسهم. ومعنى قوله «ولا هم يحزنون» يخص شفاعتهم لمن يحبون، لأن عذاب من يحبونه مما يحزنهم، وقد نفى سبحانه عنهم الحزن فلابد إذاً من قبول شفاعتهم، حيث انهم تولوا القيام بأمره فتولاهم سبحانه بحفظه وحياطته لهم.

واختلف في أولياء الله من هم فقيل: هم قوم ذكرهم الله بما هم عليه من سيماء الخير والاخبات والخشوع.

وقيل: هم المتحابون في الله.

وقيل: هم الذين توالت أفعالهم على موافقة الحق لا يصدهم عنه الحسد أو الحمية او الشهوات وحب المال، ولا تختلف لهم في العمل به حال دون حال.

(١) سورة يونس الآية ٦٢.

وقيل : هم الذين أدوا الفرائض ، وأخذوا بالسنن ، وتورعوا عن محارم الله ، وزهدوا في عاجل هذه الدنيا ، ورغبوا فيما عند الله ، واكتسبوا الطيب من رزق الله لمعايشهم لا يريدون به التفاخر والتكاثر ، ثم أنفقوه فيما يلزمهم من حقوق واجبة ، فأولئك الذين يبارك الله لهم فيما اكتسبوا ، ويثابون على ما قدموا منه لآخرتهم ، وهو المروي عن علي بن الحسين (ع) ، وهذه الأقوال متقاربة ولعل الكل داخل في مفهوم ما بينه سبحانه في توصيفهم بقوله : « الذين آمنوا » أي صدقوا بالله واعترفوا بوحدانيته ، وانه لاشريك له ، وكانوا يتقون معاصيه مع اعترافهم بوحدانيته فهؤلاء هم الأولياء وهم المبشرون .

وقد اختلف فيما يبشرون به فقيل : إن البشارة لهم في الدنيا هي ما بشرهم الله تعالى به في عدة من مواضع الكتاب الكريم من الجزاء على الأعمال الصالحة من انواع النعيم ، وهم يرون أنفسهم قد عملوا الصالحات فيستبشرون بذلك ، ونظيره قوله تعالى : « وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم » وقوله تعالى : « يبشرهم ربهم برحمة منه » .

وقيل : إن البشارة في الدنيا ، هي الرؤيا الصالحة يراها المؤمن لنفسه أو ترى له .

وقيل : إن البشارة في الحياة الدنيا ، هي بشارة الملائكة لهم عند موتهم بالجنة ، وما يرون من حسن الهيئة والاستقبال لأرواحهم ، بل حضور أئمتهم(ع) كما مر مفصلا في العقد السادس .

واما البشارة في الآخرة فهي بالجنة ، وذلك من الملائكة عند خروجهم من القبور ، وعند نشرهم وحشرهم في موقف القيامة يبشرونهم بها حالا بعد حال ، وموقفاً بعد موقف ، وهو المروي عن النبي ﷺ وعن أبي جعفر عليه السلام .

وروى عقبة عن أبي عبدالله عليه السلام انه قال : يا عقبة لا يقبل الله من العباد

يوم القيامة إلا هذا الدين الذي انتم عليه ، وما بين احدكم وبين ان يرى ما تقر به عينه ، إلا ان تبلغ نفسه إلى هذه وأومأ بيده إلى الوريد .

ثم قال ﷺ : إن هذا في كتاب الله وقرأ : « الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى » الآية ، واما معنى قوله تعالى : « لا تبديل لكلمات الله » أي لا خلف لما وعد الله به من الثواب .

ثم قال سبحانه : « ذلك هو الفوز العظيم » أي ما سبق ذكره من البشارة في الدارين هي النجاة العظيمة التي يصغر في جنبها كل شيء ، وهذا الترغيب من اعظم الألطاف منه تعالى لعباده .

(ومن القسم الأول ايضاً) قوله تعالى : « والذين اجتنبوا الطاغوت ان يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه اولئك الذين هداهم الله وأولئك هم اولوا الألباب » (١) .

النزول

قال عبدالرحمن بن زيد : نزل قوله تعالى : « والذين اجتنبوا الطاغوت » الآيتين في ثلاثة نفر كانوا يقولون في الجاهلية : لا إله إلا الله وهم زيد بن عمرو ابن نفيل ، وابو ذر الغفاري ، وسلمان الفارسي .

نعم فانهم قد اخذوا برسالة العقل ، لأنه هو الرسول الباطني لا يذهب بمتبعه إلا إلى الحق فحق لهم ان يوحدوا من قبل بعثة النبي ﷺ حيث استناروا بهدى عقولهم ، واسترشدوا بوحي ضمائرهم .

إما متبعوا الشهوات وما تتطلبه منهم نفوسهم ، ويقتضيه فساد ضمائرهم

(١) سورة الزمر الآية ١٧ و ١٨ .

فانهم لم يؤمنوا حتى بعد بعثة النبي ﷺ وانبثاق أنوار الرسالة الظاهرة ، ودلائل القرآن الباهرة ، فألفوا الكفر والنفاق ، بتسويل من الشيطان ، وغرور من النفس ، ودافع من الحسد ، وهيام في الدنيا ، حتى انطبع على قلوبهم ، و لبس على عقولهم ، فاستحقوا ان يقال في حقهم ليس لهم عقول ، كما هو مفاد الحصر في قوله تعالى : « وأولئك هم أولوا الألباب » أي لا غيرهم وهم الذين اجتنبوا وتباعدوا عن الطاغوت ، وعبدوا الله ، وأنابوا ورجعوا اليه في كل امورهم سواء كانت للدنيا او الآخرة ، حيث قد اخذوا بمدارك عقولهم ، وقد أنهمتهم انوارها انه سبحانه المتفرد في إيجاد خلقه ، والمتوحد في تدبير عباده ، والمتسلط على انفاسهم ولحظات ابصارهم ، والمحاسب لهم على جميع اعمالهم ، والمجازي على خيرها بالثواب وعلى شرها بالعقاب .

- واما المراد من الطاغوت فقيل : الأوثان - وقيل : الشيطان - وقيل : كل من دعا إلى عبادة غير الله تعالى - ويمكن ان يقال بتعميمه ، حتى لمن أطاع الظلمة وسلاطين الجور بشهادة ما رواه ابو بصير عن ابي عبدالله عليه السلام في المقام ومنه انه عليه السلام قال : انتم هم ومن أطاع جباراً فقد عبده ، ويؤيده قوله تعالى في توصيفهم : « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » .

ومعناه انهم يتبعون الأولى بالقبول والأرشد إلى الحق والأرجح بالعمل حيث ان الأخذ به رفيق الصواب ، وصحيب النجاة ، وقرين الأمان .

كما ورد عن النبي ﷺ انه قال لأمير المؤمنين عليه السلام يوماً : يا علي إذا كان يوم القيامة أخذت انت بحجزتي وأخذت فاطمة (ع) بحجزتك وأخذ الحسنان بحجزتها وأخذ شيعتك بحجزتيهما ، فما ترى يا علي ، إلى اين يؤمر بنا إلى الجنة أم إلى النار ؟ .

ولذا فان الأسف على متبع الطريق المستقيم إذا قصر عن عمل الآخرة يكون

اشد من الأسف على غيره ، لو ارتكب المعاصي ، كما يحكم الوجدان بالفرق بين اسفنا على شخص عاص مرتكب للموبقات ، وقد كان آباؤه كذلك ، وبين اسفنا على آخر تولع بالمعاصي كشرب الخمر وارتكاب الفاحشة ولعب القمار والسرقة مثلا وقد كان آباؤه أبراراً أتقياء ، فانه يؤلم القلوب المشفقة ، بأضعاف ما يؤلمها الشخص الأول .

الخلاصة من معنى الآية

إن الله تعالى يستعمل في تركيب هذه الآية فناً من اللطف بعباده محفزاً لهم على عمل الخير والاقبال على الطاعات ، مخبراً بالبشارة لمن وصفهم وان عظم البشارة على نسبة عظمة معطيها ، وآمراً لنبيه ايضاً بتبشيرهم على نحو التوصيف وتضييق الدائرة بقوله : « الذين ... الخ » مادحاً لهم بأنهم المهديون والعقلاء على طريق الحصر ، كل ذلك تشويقاً لبقية العباد للانخراط في صفوف الممدوحين والاتباع لطريقة المبشرين ، والأخذ بمعالم الدين ، من عترة سيد المرسلين ، حيث هم معدن الوحي المبين ، وعيبة علم خاتم النبيين ، والأساتذة لجميع علماء المسلمين ، والمراجع في العويصات لابطال شبه الضالين ، وتفنيد تشبثات المرجفين .

لون آخر من ألطافه تعالى

قال تعالى: « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين »(١) أي جاهدوا الكفار وكل من يصد عن الدين ، ابتغاء مرضاتنا ، وطاعة لنا ،

(١) سورة العنكبوت الآية ٦٩ .

وجاهدوا انفسهم في هواها خوفاً منا ، وجاهدوا الشيطان في مكائده هرباً من عقابنا

وقيل : إن المعنى اجتهدوا في عبادتنا رغبة في ثوابنا ، ورهبة من عقابنا « لنهدينهم سبلنا » أي السبل والطرق الموصلة إلى ثوابنا بعد ان علم سبحانه منهم التوطين لأنفسهم على الطاعة مهما كلفتهم من المشاق فيسعفهم ولا يتركهم في الشقاء ويهيء لهم الوسائل لازالة العناء .

وقيل : إن معناه والذين جاهدوا في إقامة السنة لنهدينهم سبل الجنة .

وقيل : إن معناه والذين يعملون لنهدينهم إلى ما لا يعلمون .

ثم أكد ذلك بقوله : « وإن الله لمع المحسنين » أي بالنصر والمعونة في دنياهم ، والثواب والمغفرة في عقباهم ، وكلما يزداد العبد في طاعة الله ، ومكافحة النفس وصدها عن شهواتها ، وترك ملاذ الدنيا للتفرغ إلى عبادته تعالى تتضاعف ألطافه وإسعافاته الروحية له في سبيل طاعته ، وتسهيل المصاعب العائقة له عن ذلك بالاضافة إلى عظيم الأجر ، ورفيع المنزلة في الآخرة .

لطف بصورة خطاب وتنبيه

قال تعالى : « يا ايها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون» فان من الألطاف تنبيه العباد على موقع نفع هو بين ايديهم قد غفلوا عنه وأهملوه او عملوا به ولم يتعقلوه كتنبيه بائع الجواهر لمن في يديه قسم منها ولم يعرف ثمنها وحيث ان القرآن العظيم من أبرز الألطاف وأجلى المواعظ وأوضح العبر ، فلهذا يلفت سبحانه نظر عباده بالخطاب في قوله : « يا ايها الناس » فيخاطب جميع العباد ويخبرهم بسفر جليل هو عندهم أعني القرآن ويكني عن اسمه بأخص صفاته وأجل

مزاياه تنبيهاً على جلالة موقعه فقال : « قد جاءتكم موعظة » وهـذه هي الصفة الأولى للقرآن ، وهي مايدعو إلى الصلاح ، ويزجر عن الفساد ، وكفى به موعظة وانها من ربكم وأعظم به جل جلاله واعظاً « وشفاء لما في الصدور » وهذه الصفة الثانية له ، فهو كالدواء لازالة الداء ، وداء الجهل أضر من داء البدن ، وعلاجه أعسر وأطباؤه أقل ، والشفاء منه أجل ؛ وعبر بالصدر عن القلب لأنه موضعه وهو أجل موضع في البدن لشرف القلب ، حيث انه سيد الجوارح ، وبصلاحه تصلح سائرها ، وبفساده تفسد كلها ، واليه تنتهي في التقدم والرغبة والتأخر والزهد ، ومنه تستمد في كل افعالها « وهدى » وهذه الصفة الثالثة ، أي دلالة توصل إلى معرفة الحق « ورحمة للمؤمنين » وهذه الصفة الرابعة ، أي نعمة لمن تمسك به وعمل بما فيه وخص المؤمنين ، مع ان القرآن موعظة ورحمة لجميع الخلق لأنهم الذين انتفعوا به .

وحيث ان الانسان عاشق لمال الدنيا محب لجمعه مفتتن بكسبه كما قال ﷺ اهلك الناس الدينار والدرهم ، وكما قال ﷺ : دينكم دنانيركم ، قال سبحانه مرشداً إلى الأجدر بالعشق والأحق بالحب ، قل بفضل الله وبرحمته ، فبذلك فليفرحوا ، أي بالقرآن وبما فيه من المنافع العظيمة .

وقيل : إن المراد بفضل الله هو القرآن وبالرحمة الاسلام .

وروي عن النبي ﷺ انه قال : من هداه الله للاسلام ، وعلمه القرآن ، ثم شكا الفاقة كتب الله عز وجل الفقر بين عينيه إلى يوم القيامة ، ثم تلا قوله تعالى : « قل بفضل الله وبرحمته » الآية .

وقيل : فضل الله الاسلام ، ورحمته القرآن .

وقال ابو جعفر عليه السلام : فضل الله رسول الله ﷺ ورحمته علي بن ابي طالب عليه السلام .

رواه الكلبي عن ابي صالح عن ابن عباس (١) .

ثم قال تعالى : « هو خير مما يجمعون » معرّضاً بالكفار ومن يحذو حذوهم في جمع المال ، أي قل يا محمد لهؤلاء الفرحين بالدنيا المهتمين بها الجامعين لها الكادحين فيها إذا فرحتم بشيء يستحق الفرح فافرحوا بانزال القرآن ، وإرسال محمد ﷺ اليكم فانكم تحصلون بها على نعيم دائم مقيم هو خير لكم من هذه الدنيا الفانية التي ليست لكم ، ومع بقاء وزرها عليكم .

هذه ألطاف الله تعالى لعباده ، فهل آن لنا ان نتوعى ونتدارك ما فات من ثمين اعمارنا بالتزود فيما بقي منها لدار بقائنا ، ونجعله رصيداً مذخوراً لنا عند ربنا ليوم فاقتنا .

لطف بصورة ترغيب على السباق

قال تعالى : « سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » (٢) . ليس المراد من المغفرة التي أمرنا سبحانه بالمسابقة اليها والحصول عليها هي نفس المغفرة ، فانها غير مقدورة لنا ، لأنها فعله تعالى ، وإنما المراد السبق إلى سببها وما يكون موجباً للمغفرة منه تعالى .

واختلف في السبب ما هو ، فقيل : إنه التوبة من الذنوب والاقلاع عما مضى وقيل : إن معناه المسارعة إلى الصف الأول في صلاة الجماعة ، وعلى فرضه فيمكن القول ، بأن المراد من المسابقة اليه حينئذ ، هو أن يحرز كونه من اهل الفضل بأن يجدّ ويجتهد على الحصول على تكميل نفسه وتهذيبها ، ومعرفة شرائط

(١) في مجمع البيان عند تفسير الآية . (٢) سورة الحديد الآية ٢١ .

الصلاة وأجزائها كي يكون من اهل الفضل الذين يستحب تقديمهم إلى الصف الأول ، وبالوصول إلى هذه الدرجة يستوجب المغفرة ويستحق الجنة .

وقيل : إن معناه المسابقة إلى النبي ﷺ والدخول في دينه كما قد سبق إلى ذلك امير المؤمنين علي بن ابي طالب ؏ حيث قد أجمعت الأمة على انه اول من اسلم وصلى مع النبي ﷺ بأمر من ابيه ابي طالب ؏ حينما رأى رسول الله ﷺ يصلي منفرداً فقال لعلي ؏ صل جناح ابن عمك مما يدل على إيمانه بالنبي ودينه وصحة عمله غير انه لم يتظاهر بذلك احتفاظاً بمقامه وحرمته عند قريش وسائر العرب جاعلا لها سلاحه ليتمكن من الذب بها عن النبي ﷺ والمحافظة عليه من شرورهم كيما يصل النبي ﷺ إلى درجة يعصم بها نفسه وينشر بقوتها دينه ، وليت شعري ان ذلك جلي لأقل إنسان ، فضلا عمن يفهم صروف البيان ومقتضيات الأحوال ، فهو سلام الله عليه يزج اولاده وما تسمه يده في معركة النبي الكريم مع قريش ، لاظهار معالم الاسلام ، وشرايع الدين ومن اظهرها الصلاة ، ويجعل نفسه الشريفة وقفاً يدافع بها عن كيان ذلك الدين ، وركيزة المسلمين محمد خاتم النبيين ، ولو لم يكن شاهداً على ذلك إلا قوله :

ولقد علمت بأن دين محمد   من خير أديان البرية دينا

لكنى ولكن الحسد الكامن لولده علي ؏ لفضله الشامل دعاهم إلى الانتقاص منه بوصمة ابيه بالبقاء على الكفر ، حيث لم يتأت لهم ذلك فيه نفسه ولقد خابت ظنونهم ، وفشلت مساعيهم ، حتى في ذلك ، واين هم عن التحقيق في إسلام غيره ممن قد طفحت بضد الاسلام كلماتهم ، وأعربت بالكفر ألسنتهم عما كانت تكنه ضمائرهم امثال قول ابي سفيان : تلقفوها يا بني امية تلقف الكرة والذي يحلف به ابو سفيان لاجنة ولا نار ، وذلك عندما تمت الخلافة لبني امية، ولقد جرى القلم بما لم يكن مقصوداً .

فنعود إلى تحقيق السبب للمغفرة في الآية، ونقول : ويمكن القول بأن المراد منه المسابقة إلى كل مرشد ومصلح وكل ما يقرب إلى الطاعة، ويبعد عن المعصية وحتى الأولياء والعلماء المرشدين الذين قاموا بما قام به النبي ﷺ تمشياً مع أنظمة القرآن الخالدة، وفوائده العامة، وإرشاداته الشاملة، شمولا افراديا وزمانياً .

ثم يعقب سبحانه امره بالمسابقة إلى المغفرة بالتشويق إلى ما يترتب عليه من عظيم الثمرة، وجليل العطية بقوله : « وجنة » موصفاً لعرضها في مقام بيان سعتها بأنه كعرض السماء والأرض، دون بيان طولها، لأنه ابلغ في بيان سعة الجنة، حيث يفهمنا ان عرضها إذا كان بهذه المثابة، فما حال طولها ؟ فلا يعلمه حينئذ إلا الله تعالى ثم قوله : « أعدت » أي هيئت وادخرت، وفيه من بيان الاهتمام لهم والاحترام لمقامهم، ما لم يكن لو لم يوصفها بذلك .

ثم اوضح سبحانه بأنها « للمؤمنين » بالله الموحدين والمعتقدين بأنه تعالى مرجع الأمور كلها كبيرها وصغيرها، وان هناك معاداً وحساباً وثواباً وعقاباً « وبرسله » أي آمنوا بأنهم أتوا من قبله وانهم صادقون فيما يقولون .

وأخيراً فانهم يعملون على طبق ما يعلمون، فتكون تلك الجنة الموصوفة بعظيم السعة لهم وهم لها « ذلك فضل الله » وإنما كان فضلا منه تعالى مع انه في قبال إيمانهم به وبرسله، وعوض اعمالهم في سبيل طاعته، لأن جزاءه دائم باق وكثير في قبال الفاني القليل، ولأنه سبحانه تفضل علينا بالهداية وبيان اسباب الطاعة من التمكن والألطاف وكمال العقل وعرض المكلف للثواب، فلذا جعل تبارك وتعالى الثواب والجنة فضلا منه فقال : « والله ذو الفضل العظيم » ونحن نقول : الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله لنكون بذلك من الشاكرين فنستحق الزيادة من رب العالمين .

لطف آخر بصورة المدح والتكريم

قال تعالى : « ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا يوم ندعو كل اناس بامامهم فمن اوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرأون كتابهم ولا يظلمون فتيلا ومن كان في هذه اعمى فهو في الآخرة اعمى وأضل سبيلا » (١) .

(المعنى) لما تقدم قول إبليس : هذا الذي كرّمت عليّ مستنكراً ، ويعني به آدم ، حيث فضله الله تعالى عليه ، وأمره وسائر الملائكة بالسجود له ، فقال تعالى رداً عليه وتكرمة لبني آدم بأنواع الاكرام وفنون الانعام لطفاً منه بهم « ولقد كرمنا بني آدم » أي فضلناهم وقد اجريت صفة التكريم على جميعهم مع ان فيهم الكافر ، وهو لم يكرم لأجل من فيهم بهذه الصفة ، نظير قوله تعالى : « كنتم خير أمة اخرجت للناس » مع ان فيهم غير الخير .

(وقد اختلف فيما كرموا به) فقيل بالقوة والعقل والنطق والتمييز .

وقيل : بأنهم يأكلون بأيديهم وكل دابة تأكل بفمها .

وقيل : بتعديل القامة وامتدادها .

وقيل : بالاصابع يعملون بها ما يشاؤون .

وقيل : بتسليطهم على غيرهم ، وتسخير سائر الحيوانات لهم .

وقيل : بأن جعل محمداً ﷺ منهم .

وقيل : بأنهم يعرفون الله ، ويأتمرون بأمره .

والأوجه ان يقال انه تعالى قد كرمهم بجميع ذلك وبغيرها من النعم التي

(١) سورة الاسراء الآية ٧٠ .

خُصوا بها ، فهل لابن آدم ان يعرف ذلك ويقدر نفسه بما قدره الله تعالى به ولطف له فيه ، ويترفع عن اعمال البهائم والحيوانات الكاسرة كما قد رفعه الله ويسلك في سبل الكمال ، ويتحلى بصفات الجمال ، ولا ينخرط في صفوف الشياطين وبذلك يكون في عداد الخاسرين ، وقرين الشياطين .

ثم فصل سبحانه بعض النعم فقال : « وحملناهم في البر » على الابل والخيل والبغال والحمير بالتسخير « والبحر » على السفن بالتفكير في احوال البحار ومافيها ورزقناهم من الطيبات ، أي من الثمار والفواكه والأشياء الطيبة وسائر الملاذ التي خص بها بنو آدم ولم يشركهم فيها شيء من الحيوانات « وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » قد استدل بعض بهذه الآية على ان الملائكة افضل من الأنبياء ، لأن قوله تعالى : « على كثير » يدل على ان من الخلق من لم يفضلهم عليه وليس إلا الملائكة ، لأن بني آدم افضل من جميع الخلق بالاتفاق إلا الملائكة . ويرد هذا الاستدلال وجوه :

(الأول) ان التفضيل هنا ليس بالثواب ، لأن الثواب لايجوز التفضيل به ابتداءً ومن اول الخلقة ، لأنه لا يكون إلا بالأعمال ، وهي بعد لم توجد منهم وإنما المراد ما فضلهم به من فنون النعم التي عددنا بعضها ، وهي لايكون اكثرها في الملائكة .

(الثاني) ان المراد بالكثير الجميع ، والمراد إنا فضلناهم على جميع من خلقنا وهم كثير ليس بالقليل مبالغة في التفضيل كما يقال بذلت له العريض من جاهي والمنيع من حريمي ، والعزيز من مالي ، ولايراد بذلك بذلت له العريض من جاهي ومنعته الغير العريض من جاهي ، بل المقصود إني بذلت له جاهي الذي من صفته انه عريض وحريمي الذي من صفته انه منيع ومالي الذي من صفته انه عزيز ، وفي القرآن ومحاورات العرب من ذلك اكثر من ان يحصى .

(الثالث) لو سلم ان التفضيل بالثواب ، وان لفظة من للتبعيض فلا يمتنع ان يكون التفضيل جنسي لا استغراقي ، أي جنس الملائكة افضل من جنس بني آدم ، وحينئذ لا ينافي تفضيل بعض افراد بني آدم كالأنبياء على بعض افراد الملائكة نظير ما يقال : الرجل خير من الامرأة ، ولا ينافي وجود الخيرية من بعض افرادها على بعض افراده ، لأن خروج الفرد لا ينافي إرادة الجنس .

ويؤيده ما ورد - ما من شاب يدع لذة الدنيا ولهوها ، ويستقبل بشبابه طاعة الله إلا اعطاه الله اجر سبعين صديقاً ، يقول الله عز وجل : ايها الشاب المبتذل شبابه لي ، التارك شهواته ، انت عندي كبعض ملائكتي - وقد سبق ذكره في الجزء الثاني .

ومما قيل في الآية : إن التكريم والتفضيل إذا كانا بمعنى واحد ، فما معنى التكرار ؟ فيقال في جوابه : يمكن ان يكون المراد من التفضيل نعم الآخرة ومن التكريم نعم الدنيا فلا تكرار .

واما معنى قوله عز وجل : « يوم ندعو كل اناس بامامهم » ففيه اقوال :

(احدها) ان إمامهم هو نبيهم فينادى يوم القيامة هاتوا متبعي ابراهيم ﷺ ، هاتوا متبعي موسى ﷺ ، هاتوا متبعي محمد ﷺ ، فيقوم اهل الحق الذين اتبعوا الأنبياء فيأخذون كتبهم بأيمانهم ، ثم يقال : هاتوا متبعي الشيطان هاتوا متبعي رؤساء الضلالة .

(ثانيها) انه كتابهم الذي انزل عليهم ، وما فيه من اوامر ونواهي فيقال يا اهل القرآن يا اهل التوراة ... الخ .

(ثالثها) انه من كانوا يأتمون به من علمائهم وأئمتهم .

(رابعها) انه كتابهم الذي فيه اعمالهم .

ويجمع هذه الأقوال ما رواه الخاص والعام عن الرضا (ع) بالأسانيد

الصحيحة انه (ع) روى عن آبائه عن النبي ﷺ انه قال : يدعى كل اناس بامام زمانهم وكتاب ربهم وسنة نبيهم .

وروي عن الصادق (ع) انه قال : ألا تحمدون الله إذا كان يوم القيامة فدعا كل قوم إلى من يتولونه ودعانا إلى رسول الله ﷺ وفزعتم الينا فالى أين ترون يذهب بكم إلى الجنة ورب الكعبة قالها ثلاثاً .

ثم قال تعالى : « فمن اوتي كتابه بيمينه » أي فمن اعطي كتاب اعماله الذي فيه طاعاته وثوابها بيمينه « فأولئك يقرأون كتابهم » فرحين مسرورين لا يحجبون عن قراءته لما يرون من الجزاء والثواب « ولا يظلمون فتيلا » أي لاينقصون من ثواب اعمالهم مقدار فتيل ، وهو الخيط المفتول فى شق النواة والقطمير قشرها والنقير الحفرة الصغيرة في ظهرها ، جعل سبحانه إعطاء الكتاب في اليمين علامة الرضا والخلاص والفوز ، وباليسار علامـة السخط والهلاك ، وكذلك من وراء الظهر .

ثم قال تعالى : « ومن كان في هذه اعمى فهو في الآخرة اعمى » وقد ذكروا له معان :

(أحدها) ان اسم الاشارة راجع إلى النعم السابق ذكرها ، ومعناه ان من كان اعمى بهذه النعم وهذه العبر غير ملتفت اليها ، فهو عما غُيب عنه من امر الآخرة اعمى .

(ثانيها) ان الاشارة إلى الدنيا نفسها ، أي من كان فيها اعمى عن آيات الله ضالا عن الحق وأهله ، ذاهباً عن الدين ومصادره ، فهو في الآخرة اشد تحيراً وذهاباً عن طريق الجنة او عن الحجة والجواب إذا سئل ، فان من ضل عن معرفة الله وأوليائه في الدنيا يكون في الآخرة منقطع الحجة .

(ثالثها) من كان في الدنيا اعمى القلب فهو في الآخرة اعمى العين يحشر

كذلك عقوبة له على ضلالته في الدنيا ، وهذا كقوله تعالى : « ونحشره يوم القيامة اعمى » ليتكبكب فيها .

(رابعها) من كان في الدنيا ضالا فهو في الآخرة اضل ، لأنه لا تقبل توبته ، بخلاف الدنيا ، فان مجال التوبة فيها واسع ، وهذا معنى قوله : « وأضل سبيلا » ويجوز أن يكون اعمى عبارة عما يلحقه من الغم المفرط ، فانه إذا لم ير إلا ما يسوؤه فكأنه اعمى ، وكل ذلك بسبب عبادته لهوى نفسه ، وشركه بربه فان الشرك شركان شرك في العبادة وشرك في الطاعة ، والثاني هو المراد من قوله تعالى : « وما يؤمن اكثرهم بالله إلا وهم مشركون » (١) على قول بعض فقد أطاعوا الشيطان في المعاصي التي يرتكبونها ، مما أوجب الله عليها النار فأشركوا بالله في طاعته ولم يشركوا بالله شرك عبادة .

وعن ابي عبدالله (ع) انه قول الرجل : لولا فلان لهلكت ، ولولا فلان لضاع عيالي ومالي ، فقد جعل لله شريكا في ملكه يرزقه ويدفع عنه ، فقيل له : لو قال : لولا أن منّ الله عليّ بفلان لهلكت ، قال (ع) : لا بأس بهذا .

وفي رواية زرارة ومحمد بن مسلم وحمران عنهما (ع) انه شرك النعم ، وهو بمعنى الأول .

وروى محمد بن الفضيل عن ابي الحسن الرضا (ع) انه قال : شرك لا يبلغ به الكفر .

(١) سورة يوسف الآية ١٠٧ .

لطف بلون التذكير على عظيم النعم

قال تعالى : « وهو الذي أنزل ماءً فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من اعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون » (١) .

فمن لطفه عز وجل بعباده يلفتهم إلى انواع نعمه ، وأقسام كرمه ، وإحكام صنعه ، ليرغبوا فيما عنده ، وينقطعوا اليه عما سواه ، ويخلصوا بأعمالهم له ، وليتحققوا انه الواحد الأحـــد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد .

(المعنى) قوله : من السماء ، أي من السحاب والعرب تقول : لكل ماعلاك وأظلك فهو سماء ، فالمقصود هنا المعنى اللغوي لا الشرعي .

ثم قال : أخرجنا بالماء ، أي بسببه ما ينبت به كل شيء وينمو عليه ، لأنه سبحانه جعله مؤدياً إلى النبات بما اودع فيه من الأوكسجين والهيدروجين وغيرهما من المواد ، جعلاً وتسبيباً بنسب متفاوتة ، ومقادير معينة ، وكل عنصر من أجزائه يختلف عن العنصر الآخر ، وقد جعله عز وجل سبباً لحياة الأجسام النامية ، كما قال : « وجعلنا من الماء كل شيء حي » وهو السبب لحياة الانسان وكل حيوان ، فهو سبحانه قد خص الماء لحياتهم ، وقد كان يمكنه الانبات بغير الماء لواسع قدرته .

ثم بين التفنن في كيفية الاخراج فقال : فأخرجنا منه ، أي من الماء .

(١) سورة الأنعام الآية ٩٩ .

وقيل : من النبات (خضراً) أي زرعاً رطباً لونه اخضر ، وهو ساق السنبلة « ومن النخل » أي ونخرج من النخل من طلعها وهو الغلاف « قنوان » أي اعذاق الرطب « دانية » أي قريبة المتناول ، ولم يقل في قباله وبعيدة المتناول مع انه مراد ، لأن الكلام يدل على المحذوف دلالة الضد على الضد ، نظير قوله : وسرابيل تقيكم الحر في دلالته على المحذوف المقصود وهو وسرابيل تقيكم البرد .

وقيل : إن معنى دانية ، أي دنت من الأرض لكثرة ثمرها وثقل حملها ، وإنما خص سبحانه الطلع من بقية اكمام الثمار ، لما فيه من كثرة المنافع والأغذية الشريفة « وجنات من اعناب » يعني وأخرجنا بالماء ايضاً جنات أي بساتين من اعناب « والزيتون والرمان » أي وأخرجنا بالماء شجر الزيتون والرمان وقرن الزيتون والرمان لأنهما شجرتان تعرف العرب ان ورقهما يشتمل على الغصن كله من اوله إلى آخره ، أي لا يبقى شيء من عودهما ليس عليه ورق بخلاف بقية الأشجار ، فان اصل العود منها لا يكون عليه الورق « مشتبهاً وغير متشابه » أي يشبه بعضه بعضاً ، ومع ذلك فهو غير متشابه في الطعم .

وقيل : معناه مشتبهاً ورقه ، مختلفاً ثمره .

وقيل : مشتبهاً في الخلق ، مختلفاً في الطعم .

وقيل : المشتبه هو ما كان من جنس واحد ، وغير المشتبه إذا اختلف جنسه والأولى ان يقال ان جميع ذلك مشتبه من وجوه ، ومختلف من وجوه فيدخل فيه جميع الأقوال ، فهو مجتمع ومفترق .

ثم قال عزوجل منبهاً عباده على عظيم صنعه : « انظروا إلى ثمره إذا أثمر » أي انظروا إلى خروج الثمار من اكمامها نظر اعتبار لا مجرد إبصار « وينعه » أي نضجه ، والمعنى انظروا وتأملوا فيه من ابتداء خروجه إذا اثمر إلى انتهائه إذا أينع وأدرك ، كيف تتنقل عليه الأحوال في الطعم واللون والرائحة والصغر

والكبر لتستدلوا على ان له صانعاً مدبراً « إن في ذلك لآيات » أي في خلق هذه الأشياء من الثمار والزروع ، مع إتقان جواهرها وعناصرها على حالة اجناس مختلفة لا يشبه بعضها بعضاً ، مع سقيها بماء واحد لدلالات ، على ان لها صانعاً قصد إلى التمييز بينها قبل خلقها وانه على علم بها كيف تكون في مستقبل عمرها وانها تكونت بخلقه وتدبيره .

ثم قال تعالى : « لقوم يؤمنون » وخصهم لأنهم بها يستدلون ، وبمعرفة مدلولها ينتفعون ، لا كالجهلاء الذين عزلوا عقولهم ، واتبعوا محكمات شهواتهم ، ومخيلات نفوسهم ، من انها ترجع إلى الطبيعة والصدفة ، مما لم يقولوا به لأبسط مصنوعات الخلق ، بدون تأمل لهذا الاتقان والاحكام المقرون بالابداع .

اما القسم الثاني من اللطف

فهو ما كان بلسان الوعيد والتهديد ، والانذار والتخويف ، جرياً على العادة المستعملة عند عدم تأثير المرغبات والمشوقات في الاندفاع نحو الخير من اللجوء إلى الانذار بالعقوبات ، وهو ناجم عن الحرص على نفعهم والشفقة عليهم ولذا عد هذا النوع منه تعالى لطفاً ايضاً ، وصار قسماً ثانياً له ، وقد جاء في القرآن الكريم ألوان من ذلك :

(منها) قوله تعالى : « اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم » (١) لفظ الحساب كناية عن يوم القيامة ، وإنما عدل عن لفظة يوم إلى لفظة الحساب لما فيه من التنبيه ، على ان الانسان لم يخلق عبثاً وترك سدىً ، بل هو منوط

(١) سورة الأنبياء الآية ١ .

بأعماله ، وان لديه ملائكة موكلين به ، يضبطون عليه جميع اعماله وأقواله بل وحتى انفاسه ، كما اخبر سبحانه عن ذلك بقوله : « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » وانه محاسب على ذلك بعد موته .

وكما ورد انه محاسب على الفتيل والنقير والقطمير .

وكما اوصانا بذلك إمامنا الشفيق امير المؤمنين ﷺ بقوله : حاسبوا انفسكم قبل ان تحاسبوا ، وزنوها قبل ان توزنوا ، وتأهبوا للعرض الأكبر ، وهو يوم النشر من القبور إلى حيث تعرض الخلائق على بارئها وتعرض عليها اعمالها ، وما أهوله من يوم وما اعظمه من موقف يوم يفر المرء من أبيه وأمه وأخيه وفصيلته التي تؤويه ـ واما معنى اقتراب يوم القيامة ـ المعبر عنه بالحساب ، فهو ما ذكرناه في العقد السادس في بيان (الانسان في ادواره) من ان للانسان حالة في بطن امه وهو بها مقبل على الدنيا واهل الدنيا في انتظاره وعد أيام حمله وحالة في الدنيا وهو بها مقبل على الآخرة وساع نحوها وله فيها مدة معلومة محدودة تعدها عليه الملائكة بأقسامها منتظرين قدومه ، وان مرور الليالي والأيام عليه هي خطواته إلى قبره ، كما اعرب عن ذلك ﷺ بقوله : يابن آدم اعلم انك من يوم ولدتك امك استقبلت الآخرة ، واستدبرت الدنيا ، فدار انت اليها تسير أقرب من دار انت عنها متباعد .

وكذلك قوله ﷺ : وان غائباً يحدوه الجديدان (١) لقريب الأوبة .

---

(١) الليل والنهار .

البيان لعدم الاذعان

ثم ذكر السبب لعدم قبول المواعظ البالغة ، والعبر الشافية ، والألطاف المتوالية فقال عز وجل : « ما يأتيهم من ذكر من ربهم » سواء كان هو القرآن او الأحاديث القدسية « محدث » أي حادث ، وعبر بذلك لرغبة الانسان بطبيعتهم في استماع الأمور الحادثة ، ومع ذلك لا ينتفعون به ، لسبب انهم يستمعونه وهم يلعبون ، أي غير مكترثين وغير متأملين لمضامين الذكر العظيم .

نعم حقهم ان يلعبوا ولا يكترثوا ، لأن استماعه منهم بجارحة الأذن فقط وان المؤثر منه إنما هو إذا استمدت بسماعها من وعي آذان القلب ، لأنه سيد الجوارح كلها ، وهي مأمورة له ومندفعة عنه ، فاذا اتجه اتجهت ، وإذا انصرف انصرفت ، فلو كان القلب لا يحب سماع صوت او رؤية شيء لقبحه ، لا ترى الأذن صاغية اليه ، ولا العين ناظرة له ، فالسبب الوحيد إذاً هو انشغال القلوب كما قال تعالى : « لاهية قلوبهم » لأنها هائمة في طلب الدنيا الفانية ، ومتعشقة لأمتعتها البالية .

وحيث ان أطباء النفوس قد حصلوا على الدروس الوافية من سيدهم وخالقهم ، وفهموا عظيم تأثير مكروب حب الدنيا على صحة القلب ، وان نتيجته الحرمان من لذائذ الآخرة ، تراهم قد اكثروا من وصفات التبعيد منها والتنفير عنها ، بما قد وفينا الكلام فيه فيما مضى ، ونلحقه بقول أمير المؤمنين عليه السلام ومثال عدالة رب العالمين : « والله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على ان أعصي الله في نملة أسلبها لب شعيرة ما فعلت ، وان دنياكم عندي أهون من ورقة في فم جرادة » .

ومن القسم الثاني أيضاً

قوله تعالى : « ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد اليهم طرفهم وأفئدتهم هواء وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى اجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال وسكنتم في مساكن الذين ظلموا انفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال »(١)

(المعنى) لما ذكر سبحانه يوم الحساب قبل هـذه الآية بقوله حكاية عن ابراهيم ﷺ : « ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب » ربط هذه الآيه بما قبلها للنظم ، فوصف ذلك اليوم وبين انه لا يهمل الظالمين عن غفلة منه ، ولـكن لتأكيد الحجة فقال : « ولا تحسبن ... الخ » وفي هذا وعيد للظالم ، وتسلية للمظلوم .

ومعناه لا تظنن الله ساهياً عن مجازاة الظالمين على اعمالهم « إنما يؤخرهم » الآية ، أي إنما يؤخرهم عقابهم ومجازاتهم إلى يوم القيامة الذي هو أشـد من عقاب الدنيا ، ثم أخذ في صفة ذلك اليوم ترهيباً وتخويفاً ، وانه الذي تكون الأبصار فيه شاخصة عن مواضعها ، لا تغمض لهول ما ترى مما أعد فيه ، ولا تطرف لانتظارها الوقوع في مهاويه .

وقيل : إن معناه تشخص أبصارهم إلى إجابة الداعي حين يدعوهم ، أي حاضرين ذليلين منقادين اينما يوجههم الداعي ، حيث لا يملكون شيئاً ، لأنهم يرون مظالمهم ومعاصيهم وسائر ذنوبهم أمامهم في صحائفهم قد سجلت عليهم

(١) سورة ابراهيم الآية ٤٢ .

بشهادة جلودهم وجوارحهم بها عليهم .

وقيل : معناه تبقى ابصارهم مفتوحة لا تنطبق للتحير والرعب « مهطعين » أي مسرعين .

وقيل : يريد دائمي النظر إلى ما يرون لا يطرفون « مقنعي رؤوسهم » أي رافعي رؤوسهم إلى السماء حتى لا يرى الرجل مكان قدمه من شدة رفع الرأس ، وذلك من هول يوم القيامة .

وقيل : معناه ناكسي رؤوسهم بلغة قريش « لا يرتد اليهم طرفهم » أي لا ترجع اليهم اعينهم ولايطبقونها ولايغمضونها ، وإنما هو نظر دائم « وأفئدتهم هواء » أي ان قلوبهم خالية من كل شيء ، فزعاً وخوفاً .

وقيل : خالية من كل سرور وطمع في الخير لشدة ما يرون من الأهوال ، فهي كالهواء الذي بين الأرض والسماء .

وقيل : معناه وأفئدتهم زائلة عن مواضعها قد ارتفعت إلى حلوقهم لا تخرج ولا تعود إلى اماكنها ، بمنزلة الشيء الذاهب في جهات مختلفة ، المتردد في الهواء .

وقيل : معناه خالية عن عقولهم لذهولها « وأنذر الناس » معناه ودم يامحمد على إنذارك الناس ، وإلا فيكون من قبيل الأمر بتحصيل الحاصل ، وهو محال فالمراد الاستمرار وهو عام في كل مكلف .

وقيل : معناه خوّف اهل مكة بالقرآن « يوم يأتيهم العذاب » وهو يوم القيامة ، او عذاب الاستئصال في الدنيا .

وقيل : هو يوم المعاينة عند الموت ، والأول اظهر « فيقول الذين ظلموا » نفوسهم بارتكاب المعاصي « ربنا أخرنا إلى اجل قريب نجب دعوتك » أي ردنا إلى الدنيا ، واجعل ذلك مدة قريبة وقصيرة نجب دعوتك فيها « ونتبع الرسل »

أي فيما يدعونا اليه من التوحيد والعمل بالطاعات واجتناب المحرمات ، فيقول الله تعالى مخاطباً لهم ، او تقول الملائكة بأمره : « أولم تكونوا اقسمتم من قبل » أي حلفتم في دار الدنيا « مالكم من زوال » أي ليس لكم من انتقال من الدنيا إلى الآخرة .

وقيل : من الراحة إلى العذاب ، ومعنى الكل الانكار منهم للبعث « وسكنتم في مساكن الذين ظلموا انفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم » هذا زيادة توبيخ لهم وتعنيف أي والحال انكم قد سكنتم ديار من كذب الرسل قبلكم وقد أهلكهم الله ، وعرفتم ما نزل بهم من البلاء والدمار والعذاب المعجل ومساكنهم هي دورهم وقراهم .

وقيل : إنهم عاد وثمود .

وقيل : هم المقتولون يوم بدر «وضربنا لكم الأمثال» أي بينا لكم الأشياء وأخبرناكم بأحوال الماضين قبلكم لتعتبروا بها فلم تعتبروا ولم تتعظوا .

وقيل : إن الأمثال ما ذكر في القرآن ، مما يدل على انه تعالى قادر على الاعادة كما هو قادر على الانشاء والابتداء .

وقيل : هي الأمثال المنبهة على الطاعة الزاجرة عن المعصية ، وفي هذه الآيات دلالة على ان الايمان من فعل العبد ، إذ لو كان من فعل الله تعالى ، لم يكن لتمني العود إلى الدنيا معنى وهم قد عرفوا تمام الحق في حشرهم في القيامة .

ونظيرها في الدلالة على ان الأفعال قسمان منها راجع إلى الله عز وجل ، ومنها راجع إلى العباد ، وان الايمان من افعال العباد قوله تعالى : « وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليما ان الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه اجراً عظيما » (١) .

(١) سورة النساء الآية ٣٩ .

ومعناه الانكار عليهم وانه اي شيء يضرهم ، ويكون عليهم لو آمنوا بالله واعتقدوا بوحدانيته ، وصدقوا بيوم القيامة ، وما فيه من الثواب والعقاب ، ولا يصح الانكار منه تعالى عليهم لو كان الايمان ليس من افعالهم وغير مقدور لهم ، ألا ترى انه لايحسن ان يقال للطويل لِمَ صرت طويلا ، وللقصير لِمَ صرت قصيراً ، حيث انه من فعل الله تعالى به ، ولم يكن مقدوراً له .

وقيل : إن معناه ماذا عليهم لو جمعوا إلى إنفاقهم وعملهم الخير الايمان بالله ، على ان تكون الواو للمعية لينفعهم ويستحقوا عليه الثواب ، لـكنهم ينفقون رياء وسمعة .

ولذا ورد في الخبر انه يقال لأمثالهم يوم القيامة : اطلبوا اجركم ممن عملتم له « وكان الله بهم عليما » هذه الجملة منه تعالى تطمين للمؤمن ، وان الله عليم بنيته ، وإن لم يتظاهر بأعماله ولم يصرح بنفقاته فأجره ثابت ، لأنه لا يقصد بها إلا وجه الله تعالى ، وتبكيتاً للكافر والمنافق ، لعلمه تعالى بعدم قصده وجهه فلا ثواب له على اعماله ، بل تكون هباء منثوراً ، وإن أظهر الايمان .

ولذا ورد في الخبر إنما الأعمال بالنيات ، ولكل امرىء ما نوى ، وليس ذلك منه تعالى بظلم ، لأنه لا يظلم مثقال ذرة ، وإذا كان العمل حسنة وخالصاً لوجهه لا يقتصر في مقام الجزاء عليه فقط ، بل يضاعفه ويؤتيه من لدنه ، أي من عنده بدون عمل اجراً وجزاءً عظيما ، وهو ثواب الجنة ، لأنه لا شيء اعظم منها حيث انه بقصده وجه الله ، وتركه للنفاق والرياء ، قد ضبط نفسه وجاهدها وخالف إرادتها ، واتبع انوار عقله ، فله الجزاء المضاعف على الله تعالى ، على حد تعبيره عز وجل .

ومن ألطافه على سنخ الآية السابقة

قوله تعالى : « لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب » (١) ، فان من المقاصد من قصص القرآن ، هو الاعتبار بالماضين ، وان العصاة المتمردين كيف اندرست آثارهم رغم ضخامتها ، واستتبعوا الذم واللعن على جبروتهم ، وان المطيعين والصلحاء والأولياء كيف خلدت آثارهم ، واستمرت ذكرياتهم ، واتفقت الألسن على مدحهم والثناء عليهم وتقديس مراقدهم والتبرك بها على ضعف مكانتهم الظاهرية في الدنيا وما لهم في الآخرة اعظم ، وما على العاصين اشد ، وما ذاك إلا لانقطاعهم اليه تعالى ، وحسن طاعتهم له ، وانفصالهم عن الدنيا واهلها ، فهل لنا ان نأخذ دليلا من سيرتهم ، ونفوز بمثل فوزهم ، ونجانب من كان بضدهم ونكون ممن شمله اللطف من الله بنقله تعالى لقصصهم ، ومعاينة آثارهم .

لطف آخر مجانس لما قبله

فقد قال تعالى : « ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزي القوم المجرمين ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون » (٢) ، فهي ظاهرة المعنى على مجرى سابقتها ، وزاد فيها سبحانه لطفاً للايضاح ، وعطفاً منه تعالى لمزيد الافصاح قوله : ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم ، أي من بعد القرون التي اهلكناهم لننظر أي لنرى عملكم اين يقع من عمل اولئك أتقتدون بهم

(١) سورة يوسف الآية ١١١ .　　(٢) سورة يونس الآية ١٣ و ١٤ .

فتستحقون من العقاب ما استحقوه ؟ أم تؤمنون وتجانبونهم فتستحقون الثواب عكس ما كسبوه بعدما اخبر سبحانه بما نزل بالأمم الماضية من الجزاء والمثلات وحذرنا عن مثل مصارعهم ، وبين لنا اسباب استحقاقهم لكي نتجنبها فقال : « لما ظلموا » أي انفسهم بالشرك والعصيان وعدم تصديقهم للرسل ، رغم مجيئهم لهم بالبينات والمعجزات الظاهرة ، والدلالات الواضحة ، وإنما قال تعالى : لننظر لا لعدم علمه بهم ، بل ليدل عباده على انواع ألطافه وبليغ عدله ، من انه يعامل عباده معاملة المختبر الذي لا يعلم الشيء فيجازيه على ما قد عمله وظهر منه دون ما قد علمه الله انه سيفعله ، وان إطلاق النظر عليه عز وجل باطل ، لأنه إما ان يكون بمعنى الابصار بالعين وهي الجارحة المخصوصة ، او بمعنى التفكر ومحله القلب وكلاهما محال عليه تعالى فهو بمعنى ما ذكرناه وإنما قاله مظاهرة في العدل .

ثم قال سبحانه في هذه الآية : « وما كانوا ليؤمنوا » فهو إخبار منه تعالى بأن هذه الأمم إنما استحقوا الهلاك ، حيث كان في سابق علم الله انهم لو بقوا لم يكونوا يؤمنون بالرسل الذين اتوهم ، والكتب التي جاؤوهم بها ، وبمفهومه يدل على انه تعالى لو علم انهم يؤمنون ويصلحون لو أبقاهم لما اهلكهم وهذا من مصاديق ما قررناه سابقاً ، وفي اول الخاتمة من وجوب اللطف عليه تعالى ، وقد استدل الجبائي بهذه الآية على وجوب تبقية الكافر على الله تعالى لو علم من حاله انه يؤمن فيما بعد ، ولا يجوز ان يعاجله بالموت ، لوجوب اللطف عليه جل شأنه .

ومن ألطافه تعالى على شكل التهديد

قوله: « أفأمن الذين مكروا السيئات ان يخسف الله بهم الأرض او يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون او يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين او يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرؤف رحيم » (١) . الاستفهام إنكاري وليس بحقيقي ، فهو وعيد منه سبحانه للمشركين ومن حذا حذوهم واتخذ نهجهم في الانهماك بارتكاب المعاصي وعمل السيئات والكيد للمؤمنين ، وقد لبست عليهم الأوهام عدم الرجوع إلى رب العالمين ، وكأن اعمالهم ليست بسجل وضبط عند الملائكة الكاتبين فهو سبحانه مع هذا كله يلطف بهم وينبههم عن غفلتهم بقوله : أي شيء أمن هؤلاء القوم الذين دبروا التدابير السيئة والمكر والحيل في توهين امر النبي ﷺ وإطفاء نور الدين وإيذاء المؤمنين من ان يخسف الله بهم الأرض من تحتهم عقوبة لهم وانتقاماً منهم كما رأوا من كان قبلهم من قارون وغيره على ممر الأزمان

وبمناسبة مسايرة القرآن الكريم لجميع الأزمان ، وانه المعجزة الخالدة ، فهو وعيد لكل من يصد سير المجتمع نحو الدين ، ويفسد نظام رب العالمين ، ويعطل مساعي المصلحين بالقاء الفتن ، وتفريق كلمة المسلمين .

وإن من دقيق ألطافه عز وجل انه ينوع لهم العقاب ويردد عليهم التهديد لشدة الارهاب كي يتنبهوا من غفلتهم ، ويفيقوا من عميق سكرتهم فيقول : « او يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون » فهي عامة الانذار ، وان ذكر ابن عباس ان نزولها في يوم بدر ، لأنه تعالى اهلكهم في تلك الموقعة بسيف وليه علي عليه السلام ومعونة ملائكته له وما كانوا يقدرون ذلك ولا يتوقعونه ، ولا يخطر

(١) سورة النحل الآية ٤٥ .

لهم ببال ، بل كان ظنهم انهم يأتون على النبي ﷺ ومن معه في ساعة واحدة ويستأصلونهم قتلا وأسراً لما يرون من كثرة عددهم وقوة عدتهم وشجاعة فرسانهم وكثرة أبطالهم مع قلة عدد المسلمين يومئذ وضعف عدتهم وقلة شجعانهم ، وإذا بالأمر معكوس عليهم واُخذوا بأمر الله تعالى من حيث لا يشعرون ، وهكذا امر الله في كل آن وزمان ، وانه بالمرصاد لكل من يسعى في الأرض بالفساد .

ثم اخبر تعالى عن عظم قدرته فيما إذا اراد الانتقام من عصاة عباده بقوله « أو يأخذهم في تقلبهم » أي يأخذهم العذاب فجأة وفي حال تصرفهم في اسفارهم وتجاراتهم ، وفي حال بيعهم وشرائهم .

وقيل : يريد في تقلبهم في الأحوال كلها ليلا ونهاراً ، وحتى في تقلبهم على فرشهم يميناً وشمالا « فماهم بمعجزين » أي فليسوا بفائتين وما يريده الله بهم من الهلاك لا يمتنع عليه « أو يأخذهم على تخوف » قال اكثر المفسرين : إن معناه على تنقص إما بقتل او بموت فينقصهم من اطرافهم ونواحيهم ، فيأخذ الأول منهم فالأول حتى يأتي على جميعهم .

وقيل : إن معناه في حال تخوفهم من العذاب ، أي يعذب اهل قرية ويخوف به اهل قرية اخرى فيتخوفون ان ينزل بهم من العذاب مثل ما نزل بالأولى

وقيل : إن معناه على تنقص من الأموال والأنفس بالبلايا والأسقام إن لم يعذبهم بعذاب الاستئصال ليفيء غيرهم ويزجرهم ، وعلى كل الأقوال فهو نوع من ألطافه تعالى بهم واليه تؤمي الآية بذيلها « فان ربكم لرؤف رحيم » وهي بلسان حالها تقول : ومن رحمته ورأفته انه امهلكم لتتوبوا وترجعوا ولم يعاجلكم بالعقوبة هذا اولا ، وثانياً انه لو عاقبكم لم يعاقبكم دفعة واحدة ، بل مرة بعد اخرى ، وطائفة بعد طائفة كل ذلك لطف منه تعالى ، حيث انه لو عاقب لكان عقابه بالاستحقاق .

لطف بصورة احتجاج

قال تعالى : « ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي اليهم اجلهم فنذر الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون وإذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه او قاعداً او قائماً فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون » (١) .

(المعنى) قيل : أي لو يعجل الله استجابة دعائهم بالشر على انفسهم عند الغضب او الشدائد التي تصيبهم عند الضجر كقوله : اللهم اقبض روحي او اهلكني او دعائه على ولده او غيره من خواصه وأعزائه عندما يؤذيه كما يعجل لهم استجابة دعائهم بالخير لأنفسهم عند اقتضاء المصلحة الاستجابة « لقضي اليهم اجلهم » اي لفرغ من إهلاكهم ، لأنه قلّ من لم يصدر منه ذلك ، ولكن الله لا يعجل لهم الهلاك ، بل يمهلهم حتى يتوبوا ويندموا على دعائهم المحرم ، بل ربما يكونون على العكس من حالتهم الأولى ، ويدعون ربهم ان لايستجيب ذلك منهم وانهم لم يقصدوه من صميم قلوبهم ، وإنما هو من وراء اللسان ، وذلك لطف منه تعالى بهم .

وقيل : إن معناه لو يعجل الله العقاب الذي استحقوه بالمعاصي كمايستعجلون خير الدنيا لفنوا ، لأن بنية الانسان وتكوينه في الدنيا لا تحتمل عقاب الآخرة بل حتى ما هو دونه ، وإنما يوصله الله اليهم في وقته ، ولابد ان يخولهم قوة تقاوم ذلك العذاب .

وقد يستفاد ذلك من قوله تعالى : « كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً

(١) سورة يونس الآية ١١ و ١٢ .

غيرها » وسمى تعالى العقاب بالشر ، لما فيه من المشقة والأذى ، ويكون الحاصل من ذلك انه لو تعجلت العقاب ، لزال التكليف ، ولا يزول التكليف إلا بالموت وإذا عوجلوا بالموت لم يبق أحد ، وهذا معنى قوله : لقضي اليهم اجلهم « فنذر الذين لا يرجون لقاءنا » أي ندع الذين لا يخافون البعث والحساب يتحيرون في كفرهم وعدولهم عن الحق إلى الباطل ، وتخبطهم في معاصيهم « والعمه » هو شدة الحيرة ويقال لعمى القلب ايضاً .

ثم يعود سبحانه إلى إيضاح دقائق ألطافه فيقول : « وإذا مس الانسان الضر » أي المشقة والبلاء والمحنة من محن الدنيا « دعانا » أي التجأ الينا وهـذا هو الرجوع إلى الحقيقة والواقع عند الاصطدام بالواقع « لجنبه » أي مضطجعاً « او قاعداً او قائماً » ومعناه انه يطلب منا كشف ما به على أي حال من أحواله حتى لو كان مضطجعاً ومستلقياً على فراشه فيدعونا على تلك الحالة ، ولا ينتظر تبدل حالته إلى الجلوس .

وقيل : إن معناه إذا أصابه الشر في تلك الأحوال لا ان دعاءه يكون في تلك الأحوال ، والمقصود من ذلك بيان انقطاع العبد إلى ربه في الشدائد ورجوعه اليه بتمام السرعة رغم تمرده وعصيانه وقت الرخاء ، وهذا هو معنى العقيدة الفطرية المعبر عنها في كثير من الأخبار .

ثم يعود سبحانه لبيان خساسة الانسان وسرعة نكثه ونقضه لعهده فيقول « فلما كشفنا عنه ضره » وأزلنا عنه ما به من الأذى وأبدلناه بالعافية والسلامة «مر» أي استمر على طريقته الأولى معرضاً عن شكرنا جاحداً لنعمتنا « كأن لم يدعنا » قط إلى كشف « ضر مسه » وكأن لم يسألنا إزالة الألم عنه « كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون » أي زين لهم الشيطان وقرناؤهم الغواة ترك الدعاء عند الرخاء ، ويحتمل ان يكون المعنى زين بعضهم لبعض اعمالهم إلى ان

صاروا مأنوسين بها ومسرورين كأن لم يكن وراء هذا شيء وينسون حتى الموت المحسوس ، ومع ذلك كله فهو تعالى لا يعاجلهم بالعقوبة ، ويوعدهم المثوبة إن عمدوا إلى التوبة ، ويبين لهم اعمالهم وما هم عليه ، لعلهم يرجعون ، وباللطف منه يرحمون .

لطف بلسان بيان العاقبة

قال تعالى : « قد خسر الذين كذّبوا بلقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون اوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون » (١) .

(المعنى) انهم كذبوا بلقاء ما وعد الله من الثواب والعقاب ، حتى إذا جاءتهم الساعة ، أي القيامة فجأة قالوا عندمعاينة ذلك اليوم وفظيع اهواله والبون الشاسع بين احوال اهل الثواب من الرحمة وعظيم النعم ، وبين احوال اهل العقاب من الضعة وشديد الهم والغم : يا حسرتنا على ما فرطنا في العمل لهذه الساعة والتقدمة لها ، وقيل : إن الهاء تعود إلى الجنة ، أي فرطنا في طلبها والعمل لها .

ويؤيده ما رواه الأعمش عن ابي صالح عن ابي سعيد عن النبي ﷺ في هذه الآية انه قال : « يرى اهل النار منازلهم في الجنة فيقولون يا حسرتنا على ما فرطنا فيها » أي انهم كانوا يستحقونها لو عملوا لها كما عمل اصحابهم ، ولكنهم لم يعملوا وفرطوا بتضييع اوقاتهم وثمين اعمارهم فكانوا في النار تعذيباً لأرواحهم إضافة إلى تعذيب اجسامهم .

(١) سورة الأنعام الآية ٣١ .

وقيل : إن الضمير يعود إلى الصفقة ، حيث ان لفظ الخسران يعطي معنى الصفقة المستعملة في البيع فاما ان يربح صاحبها او يخسر ، والأقوال كلها في ملتق واحد في المعنى المقصود .

ثم قال تعالى : « وهم يحملون اوزارهم » أي اثقال ذنوبهم .

وقال قتادة والسدي : إن المؤمن إذا خرج من قبره استقبله أحسن شيء صورة وأطيبه ريحاً فيقول : أنا عملك الصالح طال ما ركبتك في الدنيا فاركبني انت اليوم ، فذلك قوله تعالى : « يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً » أي ركباناً ، وان الكافر إذا خرج من قبره استقبله أقبح شيء صورة وأخبثه ريحاً فيقول : أنا عملك السيء طال ما ركبتني في الدنيا فأنا أركبك اليوم ، وذلك قوله تعالى : « وهم يحملون اوزارهم على ظهورهم » وقد تقدم ما هو بمعناه في فصل النشر والحشر ، وهو مبني على القول بتجسم الأعمال ، واما على القول بعدمه ، فيجوز ان يكون معناه مثلا لجعل ما ينالهم من العذاب بمنزلة اثقل ما يحمل ، لأن الثقل يستعمل في الأمور المعنوية كما يستعمل في الحسية ، كما يقال كلام فلان اثقل عليّ من جبل ابي قبيس .

وإلى هذا المعنى اشار امير المؤمنين عليه السلام بقوله : تخففوا تلحقوا فانما ينتظر بأولكم آخركم « على ظهورهم » لأن الانسان إذا استثقل شيئاً وأعجزه حمله يستعين عليه بالحمل على ظهره ، فتخصيص الظهر كناية عن ثقل الحمل « ألا ساء ما يزرون » أي بئس الحمل حملهم .

وقيل : معناه ساء ما ينالهم جزاءً لذنوبهم وسيء اعمالهم .

ثم رد سبحانه عليهم قولهم : « ما هي إلا حياتنا الدنيا » وبين في ذيل هذه الآية ان ما يتمتع به من الدنيا يزول ويبيد ولابقاء له ، فقال : « وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو» اي باطل وغرور إذا لم يجعل فيها كسباً ومتاعاً إلى الآخرة

وقيل : إن المراد من اللعب واللهو ان الحياة الدنيا تنقضي وتفنى فتكون لذة فانية عن قريب نظير لعب الصبيان ولهوهم ، لأنه ساعة من زمان .

ثم عرج على بيان الواقع والحقيقة فقال : « وللدار الآخرة » وما فيها من الوان النعيم والجنان خير للذين يتقون معاصي الله وإنما كانت خيراً ، لأنها باقية دائمة لايزول عنهم نعيمها ولا يذهب منهم سرورها .

ثم ختم لطفه عز وجل لعباده بقوله : « أفلا تعقلون » وتتأملون ذلك فتزهدوا في شهوات الدنيا ، وترغبوا في نعيم الآخرة ؛ وتكسبوا من الأعمال الصالحة ما يوصلكم إلى ذلك ، وفي هذا تسلية للفقراء بما حرموا من متاع الدنيا وتقريع للأغنياء ، إذ ركنوا إلى حطامها الموقت ، وأهملوا دار بقائهم المؤبد .

وقد قال الامام الكاظم عليه السلام : إن مثل الدنيا مثل الحية مسها لين وفي جوفها السم القاتل يحذرها الرجال ذوو العقول ، ويهوى اليها الصبيان بأيديهم .

وعلى هذا النسق اللطف الآتي

قال تعالى : « ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى اهلهم يرجعون » (١) .

هذا جواب منه تعالى لقولهم قبل هذه الآية : « ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » لأن النبي صلى الله عليه وآله كان يوعدهم بنزول العذاب عليهم لتكذيبهم فقالوا له : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟ اي انت واصحابك ، وهو استهزاء منهم بخبر النبي صلى الله عليه وآله والمؤمنين فقال تعالى في جوابهم : « ما ينظرون » الآية اي ما ينتظرون إلا صيحة واحدة لايحتاج فيها إلى ثانية وثالثة كناية عن سرعة

(١) سورة يس الآية ٤٩ .

قيامها وعدم احتياجه تعالى إلى كلفة فيها ، ويريد بها النفخة الأولى .

ومعناه ان القيامة تأتيهم بغتة وفجأة تأخـذهم الصيحة وهم يختصمون في امورهم ويتبايعون في اسواقهم .

وقد ورد في الحديث تقوم الساعة والرجلان قد نشرا ثوبهما يتبايعانه فما يطويانه حتى تقوم والرجل يرفع اكلته إلى فيه فما تصل إلى فيه حتى تقوم والرجل يليط حوضه ليسقي ماشيته فما يسقيها حتى تقوم .

وقيل : إن معناه وهم يختصمون ويقولون : هل تقوم كما يقول محمد ﷺ أم لا ؟ فبينما هم كذلك إذ فاجأهم قيامها فلا يستطيعون توصية ، أي لم يقدروا على الايصاء بشيء ولا إلى اهلهم يرجعون ، اي ولا إلى منازلهم يرجعون من الأسواق ، وهذا كله لطف منه عز وجل بعباده كي يأخذوا حذرهم واستعدادهم ولا يأخذهم الغرور والأمل ، فان الساعة تأتي فجأة بحيث لا يتأتى لأحد ان يتلافى نواقصه كما دلتنا حوادث الانتقام منه تعالى من الأمم السالفة كقوم عاد وقوم هود وقوم صالح وغيرهم من اهل زماننا .

ثم قال سبحانه مشيراً إلى النفخة الثانيـة للنشر والحشر والاحياء لملاقاة نتائج اعمالهم : « ونفخ في الصور فاذا هم من الأجداث » اي من القبور إلى ربهم اي إلى الموضع الذي يحكم الله فيه لا حكم لغيره هناك « ينسلون » اي يخرجون سراعاً فانظر إلى قدرة الله عز وجل ، وان افعاله لا تتشابه مع افعال المخلوقين ، فقد انتج الضدين وهما الموت والحياة من سبب واحد وهي الصيحة ولو كان الأمر بمقتضى الطبيعة ، لكانت الصيحة مقتضية إما الممات او الحياة .

ثم يحكي سبحانه لنا من اقوالهم بعد الاحياء والرجوع إلى الحق ، حيث لا يجديهم نفعاً ، لكي نأخـــذ الأهبة بدافع الاعتراف بالأوبة ما دام العمل مجدياً والزمن مواتياً فيقول : « قالوا » عندما رأوا اهوال يوم القيامة

« ياويلتنا من بعثنا من مرقدنا » اي من منامنا الذي كنا نياماً فيه ، ثم يقولون ويردون على انفسهم اعترافاً بالحق : هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون فيما اخبرونا به عن هذا المقام والموقف وأهواله .

وقد قيل : إن اول الآية للكافرين وآخرها للمسلمين ، اي قال الكافرون يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ؟ وقال المسلمون : هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون وإنما وصفوا القبر بالمرقد وهو محل النوم ، مما يدل بظاهره على راحتهم ونومهم ، لأنهم لما رأوا وعاينوا اهوال يوم القيامة ، وما يأخذهم من مبادىء وأوليات عذاب النار ، عدوا احوالهم في القبر على شدتها رقاداً بنسبتها إلى تلك الأحوال التي قد أعدت لهم لهولها وعظمها .

ثم قال تعالى : « إن كانت إلا صيحة واحدة » مبيناً سرعة البعث ، وانه لم تكن المدة في ذلك إلا مدة صيحة واحدة « فاذا هم جميع لدينا محضرون » اي فاذا الأولون والآخرون مجموعون في عرصات القيامة محصلون في موقف الحساب ليلاقي كل منهم جزاءه ، فلذا يقول سبحانه : « فاليوم لا تظلم نفس شيئاً » اي لا يعذر ذو حق حقه « ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون » إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، تحقيقاً لعدالته ، ونتيجة لحكمته ، وإظهاراً لقدرته ، وتثبيتاً لربوبيته وتصديقاً لرسله ، وتصفية لخلقه ، عظمت آلاؤه ، وجل إبداعه ، واتسع لطفه ، وسطعت آياته ، ووضحت دلائله وتتابعت نعماؤه ، وقلّ شكرنا له .

لطف وتسلية لنبيه محمد ﷺ

قال تعالى : « وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار ليجزي الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا إنما هو إله واحد وليذكر اولوا الألباب » (١) .

(المعنى) ان الله تعالى قد ابان عن مكر الكفار ، ودفعه ذلك عن رسله تسلية لنبينا ﷺ لما يقاسيه من قومه فقال : وقد مكروا مكرهم بالأنبياء قبلك قدر إمكانهم وبغاية جهودهم ، فعصمهم الله من مكرهم كما عصمك .

وقيل : عنى به كفار قريش الذين دبروا في أمر النبي ﷺ واحتالوا عليه ومكروا بالمؤمنين وخدعوهم « وعند الله مكرهم » اي هو معلوم لديه وعنده جزاؤه لا يذهب سدى « وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال » .

قيل : إنَّ إن هنا نافية ، اي لم يكن مكرهم ليبطل حجج القرآن وما معك من دلائل النبوات ، فان ذلك ثابت بالدليل والبرهان ، ويكون المعنى لا تزول من مكرهم الجبال ، فكيف يزول منه الدين الذي هو اثبت من الجبال .

وقيل : إن ان مخففة من الثقيلة ، والمعنى على هذا يكون عكس الأول حيث يكون تعظيماً لمكرهم ، وانهم قد بذلوا كل مجهودهم في تدبير المكر لكنه مع هذه القوة وانه يزيل الجبال فلايزيل دين الله تعالى ، ولايضر أنبياءه ولا يزيل

(١) سورة ابراهيم الآية ٤٦ وما بعدها .

أمرهم ، ولاسيما امر محمد ﷺ فانه اثبت من الجبال ، حيث قد وعده ربه بالظهور عليهم بقوله : « فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله » اي ما وعدهم به من النصر والظفر بالكفار والظهور عليهم وبقوله تعالى : « ليظهره على الدين كله ومثل قوله تعالى مخاطباً للكافرين : « ستغلبون » .

وقد قيل : إن المراد به نمرود بن كوش بن كنعان حين اتخذوا التابوت وربط عليه اربعة من النسور بعد أن أجاعها اياماً وعلق فوقها لحماً وطارت بالتابوت وهو مع وزيره فيه إلى ان بلغت ما شاء الله ، وظن انه بلغ السماء ففتح باب التابوت من أعلاه فرأى بُعد السماء منه كبعدها حينما كان في الأرض وفتح باباً من أسفل التابوت فرأى الأرض قد غابت عنه ، فهاله الأمر فصوب النسور وسقط التابوت عن ابن عباس وابن مسعود وجماعة .

ثم قال سبحانه : « إن الله عزيز » أي ممتنع بقدرته من ان يُنال باهتضام وهوان من الكفار « ذو انتقام » أي صاحب انتقام من العصاة عند إصرارهم على المعصية إن اقتضت الحكمة التعجيل عجل لهم في الدنيا ، وإن تطلبت المصلحة التأجيل أخرهم إلى الآخرة .

واما معنى تبديل الأرض فقد تقدم تفصيله والأقوال فيه من انها تُبدل بأرض غيرها او انها هي ، لكنها تُمد مد الأديم ، ولا يبقى فيها عوج ولا أمت او انها تبدل بالساهرة ، وهي ارض الآخرة ، او انها تبدل بالنار لأهل النار وبالجنة لأهل الجنة .

واما تبديل السماوات فباذهاب شمسها وقمرها ونجومها ، روي عن ابن عباس وانه كان ينشد :

فما الناس بالناس الذين عهدتهم ولا الدار بالدار التي كنت اعرف

والمراد من بروزهم لله تعالى ظهورهم من ارض قبورهم للمحاسبة لا يسترهم

شيء ، وجعل ذلك بروزاً لله ، لأن حسابهم معه ، وإن كانت الأشياء كلها بارزة له لا يسترها عنه شيء .

ثم وصف نفسه تعالى بالواحد الذي لا شبه له ولا نظير القهار المالك الذي لا يضام وقهر عباده بالموت الزؤام .

ثم وصف احوال المجرمين في يوم حشرهم من كونهم مقرنين ومجمعين في الأصفاد والأغلال قرنت بها ايديهم إلى اعناقهم ، او قرن بعضهم إلى بعض او قرنوا بشياطينهم .

ثم وصف لباسهم وانه سرابيل وقمص من قطران ، وهو شيء اسود لزج منتن يُطلون به كالقميص لتكون النار فيهم اسرع وأبلغ في الاشتعال .

وقيل : إن القطران نحاس

وقيل : هو صفر مذاب وفي قراءة « وقطرٍ آن » بكلمتين ومعناه صفر آن وحضر ، أي ذاب وانتهى امر ذوبانه وفوق هـذا كله تغشى وجوههم النار « وسبب ذلك » هو الجزاء بمكاسبهم كما ذكر ذلك سبحانه بقوله : « ليجزي الله كل نفس بما كسبت ، ثم دفع استبعاد الاحصاء للأعمال صغيرها وكبيرها لاستلزام الجزاء عليها إحصاءها بقوله : « إن الله سريع الحساب » والمجازاة ، ثم ختم ذلك بما هو معنى اللطف فقال : « هذا بلاغ » أي ان القرآن عظة للناس بالغة كافية ولينذروا به ويخوفوا بما فيه من الوعيد ، وليعلموا إنما هو إله واحد ويعتبروا بأدلة القرآن نظراً وتفكراً لا تعبداً وتقليداً فقط ، وليذكر اولوا الألباب وذوو العقول وأهل النهى .

لطف بلوت انذار مؤلم

قال تعالى : « واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه وانه اليه تحشرون واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا ان الله شديد العقاب »(١)

(المعنى) قيل : إن المراد انه تعالى يحول بين المرء وبين الانتفاع بقلبه بالموت فلا يمكنه استدراك ما فات .

ومعناه بادروا إلى الطاعات قبل الحيلولة ، ودعوا التسويف الناشىء من طول الأمل والغرور بالدنيا فانها الغدارة ، وفيه حث على الطاعة قبل حلول المانع وهو لطف جلي .

وقيل : إن معنى الحيلولة انه تعالى اقرب اليه من قلبه نظير قوله : « ونحن اقرب اليه من حبل الوريد » ، فان الحائل بين الشيء وغيره اقرب إلى ذلك الشيء من ذلك الغير وفيه تحذير شديد والتحذير ايضاً من اللطف .

وقيل : معناه انه سبحانه يملك تقليب القلوب من حال إلى حال كما جاء في الدعاء يا مقلب القلوب والأبصار فكأنهم خافوا من القتال في الجهاد ، فأعلمهم انه يبدل خوفهم امناً بأن يحول بينهم وبين ما يفكرون فيه من اسباب الخوف .

وروى يونس بن عمار عن ابي عبدالله عليه السلام قال : إنه تعالى يحول بين المرء وقلبه .

ومعناه أن لا يستيقن القلب ان الباطل حق أبداً ، ولا يستيقن ان الحق باطل ابداً .

وقريب منه ما رواه هشام عنه عليه السلام وحاصلها انه تعالى يحول بين مشتهيات

---

(١) سورة الأنفال الآية ٤٣ .

المرء الباطلة وبين قلبه ان تسري اليه وتؤثر فيه ، حيث ان القلب يعرف الحق حتى لو كان صاحبه مرتكباً لعكس الحق او مغالطاً فيه ، فان قلبه يعتقده وهو الحجة القاطعة عليه إضافة إلى ما سواها من الحجج .

وقيل : معناه إن القلب لا يستطيع أن يكتم الله شيئاً . ثم قال : إنه اليه تحشرون ، وهي الكلمة الحاسمة ، حيث قد علم ان حكمة الحشر هي الجزاء على الأعمال بالسعادة الأبدية ، او الشقاوة السرمدية ، وما اوضح ذلك في كونه لطفاً بعباده ثم أتبع ذلك بالتهديد في العاجلة وفي دار الدنيا ايضاً فقال : واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة تحذر سبحانه من هذه الفتنة ، فكأنه قال : لا تقربوها فتصيبكم ، وقد اختلف في معنى الفتنة ، فقيل : هي العذاب ومعناه لا تقروا المنكر والجاحد بين اظهركم فيعمكم العذاب من الله والخطاب لأصحاب النبي ﷺ .

وقيل : هي البلية التي يظهر باطن امر الانسان فيها ، وان الآية نزلت في علي عليه السلام وعمار وطلحة والزبير ، وقد قال الزبير : لقد قرأنا هذه الآية زماناً وما أرانا من اهلها فاذا نحن المعنيون بها فخالفنا حتى اصابتنا خاصة .

وقيل : نزلت في اهل بدر خاصة فأصابتهم يوم الجمل فاقتتلوا .

وقيل : هي الضلالة واختلاف الكلمة ومخالفة بعضهم بعضاً .

وقيل : هي الهرج الذي يركب الناس فيه الظلم ويدخل الضرر فيه على كل احد فيهم ، هذه الأقوال في معنى الفتنة ، واما كيفية إصابة هذه الفتنة ، فقد اختلف فيها على قولين :

(أحدهما) انها جارية على العموم بمقتضى ظاهرها فتصيب الظالم وغير الظالم اما الظالمون فلعذابهم والانتقام منهم ، واما المؤمنون فلامتحانهم وتمحيصهم .

(ثانيها) انها تخص الظالم لأن الغرض منع الناس عن الظلم وردعهم عن التجاوز عن حدود الله التي اراد بها نظم عباده وحفظ حقوقهم ، ويكون المعنى

والتقدير واتقوا عذاباً يصيب الظلمة خاصة ، وتكون لا زائدة ، ويقويه قراءة بعضهم « لتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » باللام .

وقد روي عن حذيفة انه قال : أتتكم فتن كقطع الليل المظلم يهلك فيها كل شجاع بطل وكل راكب موضع وكل خطيب مصقع .

وفي حديث ابي ايوب الأنصاري ان النبي ﷺ قال لعمار : يا عمار إنه سيكون بعدي هنات حتى يختلف السيف فيما بينهم ، وحتى يقتل بعضهم بعضاً وحتى يبرأ بعضهم من بعض ، فاذا رأيت ذلك فعليك بهذا الأصلع عن يميني علي ابن ابي طالب ، فان سلك الناس كلهم وادياً ، وسلك علي وادياً فاسلك وادي علي وخل عن الناس ، ثم يبين الفلسفة في لزوم اتباع علي ولو كان وحده لئلا يتهم ﷺ في إيثاره له فيقول : يا عمار إن علياً لا يردك عن هدى ، ولا يدلك على ردى .

وفي رواية لا يخرجك عن هدى ، ولا يدخلك في ردى ، يا عمار طاعة علي طاعتي ، وطاعتي طاعة الله .

وفي رواية طويلة السند تنتهي إلى ابن عباس انه قال : لما نزلت هذه الآية « واتقوا فتنة ... الخ » قال النبي ﷺ : من ظلم علياً بعد وفاتي ، فكأنما جحد نبوتي ونبوة الأنبياء قبلي .

فالله تعالى لازال يتابع الآيات وينزّل البينات والنبي ﷺ يفسر المشكلات ويوضح المبهمات ، مذيلا لها بالفلسفة ، وبليغ الارشاد ، كل ذلك ، لطفاً بالعباد ودفعاً بهم لمنهج السداد ، وإصلاح المعاد ، ولكن البشر لم يكونوا صاغين إلى ذلك بآذان قلوبهم ، ولا متفهمين للباب نصائح نبيهم ، ولا آخذين بجوهريات دينهم ، إيثاراً منهم للهوى ، وانجرافاً مع الضوضاء ، واتباعاً لقيادة السوء ، بل هو في الحقيقة الخيانة لله ولرسوله وللضمير ايضاً حيث قد أدرك بضميره ، الواقع

وصد عنه وخالف حتى الطبيعة المقتضية للرجوع إلى الواقع عند الاصطدام به كما يحدثنا ابو لبابة الأنصاري عن نفسه، وذلك في قصة يهود بني قريظه ونزول قوله تعالى: «يا ايها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وانتم تعلمون واعلموا إنما اموالكم وأولادكم فتنة وان الله عنده اجر عظيم يا ايها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم والله ذو الفضل العظيم» (١)

سبب النزول

عن جابر ان ابا سفيان خرج من مكة بتجارة فأتى جبرئيل النبي ﷺ مخبراً له عن الله تعالى وقال: إن ابا سفيان في مكان كذا وكذا فاخرجوا اليه واكتموا، قال: فكتب اليه رجل من المنافقين ان محمداً ﷺ يريدكم فخذوا حذركم فنزلت الآية.

وقال السدي: كانوا يسمعون الشيء من النبي ﷺ فيفشونه حتى يبلغ المشركين.

وقال الزهري وهو المروي عن الصادق ﵇: إنها نزلت في ابي لبابة بن عبد المنذر الأنصاري لما حاصر رسول الله ﷺ يهود قريضة إحدى وعشرين ليلة فسألوا رسول الله ﷺ الصلح على ما صالح عليه اخوانهم بني النضير ويسيروا إلى اخوانهم في اذرعات من ارض الشام فأبى ﷺ إلا ان ينزلوا على حكم سعد ابن معاذ فقالوا: أرسل الينا ابا لبابة وكان مناصحاً لهم، لأن عياله وماله وولده عندهم فبعثه رسول الله ﷺ اليهم فاستشاروه في النزول على حكم سعد بن معاذ فأشار إلى حلقه بيده وانه الذبح فأخبر النبي ﷺ جبرئيل بذلك قال ابو لبابة:

(١) سورة الأنفال الآية ٢٧

فوالله ما زالت قدماي حتى عرفت اني خنت الله ورسوله ، فلما نزلت الآية شد نفسه على اسطوانة في المسجد حتى الآن تعرف باسمه وقال : لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت او يتوب الله عليّ .

هكذا ينبغي لمن أدرك انه قد أخطأ الطريق ان يتراجع عن غيه وينسلخ عن ضلاله ويتوب إلى ربه ولا يبقى مصراً على ذنبه فمكث سبعة ايام حتى خر مغشياً عليه فتاب الله عليه ، فقيل له : تيب عليك ، فقال : لا والله حتى يحلني رسول الله بيده فلما حله رسول الله ﷺ قال : من تمام توبتي ان أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب وانخلع من مالي ، فقال رسول الله ﷺ له : يجزيك الثلث منه تصدق به على الفقراء فتصدق به .

معنى الآية

إن الله سبحانه نهى عن الخيانة وأمر بتركها وخيانة الله هي ترك فرائضه وخيانة الرسول ترك سننه وشرائعه وما اوصى به أمته عن ابن عباس .

وقيل : إن من ترك شيئاً من الدين وضيعه فقد خان الله ورسوله « وتخونوا أماناتكم » أي الأعمال التي ائتمن الله العباد عليها وهي الفرائض ، أي لا تنقصوها ، ولذا ورد ان السارق كل السارق من سرق من صلاته ، وفي رواية من خففها « وانتم تعلمون » الجملة حالية والواو فيها للحال ، أي والحالة انكم تعلمون ما في الخيانة من الذم والعقاب .

وقيل : معناه والحال انكم تعلمون انها أمانة من غير شبهة « واعلموا » أي وتحققوا وأيقنوا « إنما أموالكم وأولادكم فتنة » أي بلية عليكم ابتلاكم الله بها ليختبركم في صمودكم على دينكم عندما يقع التعارض بينه وبين اموالكم

واولادكم ، فان ابا لبابة حمله على فعله ماله الذي كان في ايديهم وأولاده الذين كانوا في ظهرانيكم « وإن الله عنده اجر عظيم » لمن اطاعه وجاهد في سبيل دينه ولم يخن الله ورسوله ولا يحسب ان تضحياته تذهب عليه سدى ، وذلك خير من الأموال والأولاد ، فقد بين سبحانه بهذه الآية ان العباد في معرض الامتحان ليتبين الراضي بقسمه ، والموقن بربه من غيره ، وإن كان سبحانه اعلم بهم من انفسهم ، ولكن ليظهر الأعمال التي بها يستحق الثواب والعقاب

وإلى هذا اشار امير المؤمنين ﷺ في قوله : لا يقولن احدكم اللهم إني اعوذ بك من الفتنة ، لأنه ليس احد إلا وهو مشتمل على فتنة ، ولكن من استعاذ فليستعذ من مضلات الفتن فان الله تعالى يقول : « واعلموا إنما اموالكم واولادكم فتنة » .

ثم قال سبحانه مطمناً لهم بألطافه : يا ايها الذين آمنوا ، اي ايها المؤمنون « ان تتقوا » عقاب « الله » باتقاء معاصيه واداء فرائضه « يجعل لكم فرقاناً » اي هداية ونوراً في قلوبكم تفرقون به بين الحق والباطل .

وقيل : إن معناه يجعل لكم مخرجاً في الدنيا والآخرة .

وقيل : ويجعل لكم نجاة .

وقيل : يجعل لكم نصراً وفتحاً .

وقيل : يجعل لكم عزاً في الدنيا ، وثواباً في الآخرة ، وعقوبة وخذلاناً لأعدائكم ، وذلاً وعقاباً ، ولا مانع من إرادة جميع ذلك ، وفلسفة كل ذلك ليفرق بينكم وبينهم في الدنيا والآخرة ، ويجعل لكم الميزة عليهم ، ثم يعود سبحانه بكرمه عليهم فيقول : « ويكفر عنكم سيئاتكم » التي عملتموها في غفلاتكم « ويغفر لكم ذنوبكم والله ذو الفضل العظيم » على خلقه بما أنعم عليهم من انواع النعم ، فاذا ابتدأهم بالفضل العظيم من غير استحقاق كرماً منه وجوداً ، فانه إذاً لا يمنعهم

ما استحقوه بطاعاتهم له بالطريق الأولى .

وقيل : إن معناه إذا ابتدأ بنعيم الدنيا من غير استحقاق ، فعليه إتمام ذلك بنعيم الآخرة باستحقاق وغير استحقاق ، فان كرمه عظيم لا حد له ، وفضله واسع لا راد له ، ومن رجاه فقد فاز ، ومن اعتمد عليه فقد نجا .

نعم كل ذلك حق لا معارضة فيه ، لكن فيما إذا كان المحل قابلا لكرمه ملائماً لألطافه لم يكن قد استولى عليه الرين بتلويث النفس بالاصرار والعناد على معصيته عز وجل .

وقال الصادق عليه السلام : حدثني ابي عن جدي عن امير المؤمنين عليه السلام انه قال : كن لما لا ترجو ارجى منك لما ترجو ، فان موسى بن عمران عليه السلام خرج ليقتبس لأهله ناراً فكلمه الله عز وجل فرجع نبياً ، وخرجت ملكة سبأ كافرة فأسلمت مع سليمان ، وخرج سحرة فرعون يطالبون العزة لفرعون فرجعوا مؤمنين .

هكذا ألطاف الله تعالى لعباده الذين علم منهم صفاء السريرة .

النداء الصريح باللطف

قال تعالى : « وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء انه بعباده خبير بصير » (١) .

---

(١) سورة الشورى الآية ٢٥ و ٢٦ و ٢٧ .

النزول

كان نزول هذه الآية بعد نزول قوله تعالى : « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى » وذلك بعد الهجرة إلى المدينة واستقرار الاسلام واستحكام امره ، فتجمع الأنصار وأتوا إلى النبي ﷺ عارضين عليه اموالهم ، وان له التصرف فيها كيفما اقتضت حاجته فنزلت « قل لا أسألكم عليه أجراً ... الخ » فخرجوا من عنده مسلمين لقوله ﷺ ، فقال المنافقون : إن هذا الشيء افتراه في مجلسه اراد بذلك أن يذللنا لقرابته من بعده فنزلت « أم يقولون افترى على الله كذبا » فأرسل اليهم فتلاها عليهم فبكوا واشتد عليهم امرهم ؛ فأنزل تعالى عليهم « وهو الذي يقبل التوبة عن عباده .. الخ » فأرسل ﷺ في أثرهم فبشرهم ، وقال تعالى بعد ذلك مادحاً لهم ومميزاً لفريق منهم : « ويستجيب الذين آمنوا » وهم الذين سلموا لقوله ﷺ ولم يتهموه أي يجيبهم ربهم إلى مايسألونه

وقيل : إن معناه يقبل طاعاتهم وعباداتهم .

وقيل : في دعاء بعضهم لبعض .

ويؤيده ما ورد ادعني بلسان لم تعصني فيه ، أي بلسان غيرك ، ولم يقتصر في تفضيلهم وإكرامهم على ذلك فقط ، بل قال سبحانه : « ويزيدهم من فضله » على ما يستحقونه من الثواب .

وقيل : إن معنى استجابته لهم ، هو أن يشفعهم في اخوانهم ، ومعنى ويزيدهم من فضله ، أي يشفعهم في اخوان اخوانهم .

وروي عن ابي عبدالله ؑ انه قال : قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى « ويزيدهم من فضله » الشفاعة لمن وجبت له النار ممن احسن اليهم في الدنيا .

ويؤيده ما ورد عنهم (ع) لا تطلبوا من اعدائنا حاجة فتمرون عليهم في القيامة فيطالبونكم بالشفاعة لهم فتستحيوا منهم فتشفعوا لهم، ويحق ذلك لهم، لأنه جزاء إيمانهم الصادق وتصديق النبي ﷺ في كل ما يقول، ووثوقهم بأنه لا يأمر ولا ينهى إلا لصالحهم.

وروي بسند طويل ينتهي إلى ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية قالوا: يارسول‌الله من هؤلاء الذين أمرنا الله بمودتهم؟ قال ﷺ: هم علي وفاطمة وولدهما

وفي رواية اخرى قال رسول‌الله ﷺ: إن الله خلق الأنبياء من اشجار شتى، وخلقت أنا وعلي من شجرة واحدة، فأنا اصلها وعلي فرعها وفاطمة لقاحها والحسن والحسين ثمارها وأشياعنا اوراقها، فمن تعلق بغصن من أغصانها نجا ومن زاغ عنها هوى، ولوأن عبداً عبد الله بين الصفا والمروة الف عام ثم الف عام ثم الف حتى صار كالشن البالي، ثم لم يدرك محبتنا كبه الله على منخريه في النار ثم تلا قوله تعالى: «قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى».

وعن علي ؑ قال: فينا في آل حم آية لا يحفظ مودتنا إلا مؤمن.

واما قوله تعالى: «ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض» فمعناها انه سبحانه لما بين قبلها انه يزيد المؤمنين من فضله، اخبر عقيبه بأن المراد من ذلك الفضل الذي يزيدهم منه هو الروحي، واما الرزق المادي في الدنيا فمنوط بالمصالح التي يعلمها، فلذا قال تسلية لفقراء المؤمنين: «ولو بسط» أي لو وسع الرزق على عباده على حسب ما يطلبون ويرغبون لبطروا النعمة وتنافسوا وتغالبوا وظلموا في الأرض، وتغلب بعضهم على بعض، وخرجوا عن الطاعة، بخلاف ما إذا علموا أن الرزق من الله وانه يختلف كثرة وقلة حسب علمه بمصالحهم وانه ليس بالتغلب والتنافس فانه قد تسكن الحالة ويستقيم النظام في الجملة ولولم يكن كلياً

قال ابن عباس: بغيهم في الأرض، هو طلبهم منزلة بعد منزلة ودابة بعد

دابة ، وملبساً بعد ملبس « ولـكن ينزل بقدر ما يشاء » نظراً منه تعالى لهم وعطفاً منه عليهم ، والمعنى يوسع على من تكون مصلحته في التوسعة ، ويضيق على من تكون مصلحته في التضييق .

ويعضده الحديث عن النبي ﷺ عن جبرئيل عن الله عز وجل إن من عبادي من لا يصلحه إلا السقم ولو صححته لأفسده ، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الصحة ولو أسقمته لأفسده ، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده ، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده واني أدبر عبادي لعلمي بقلوبهم .

وهذا ما نحن عليه بدافع طباعنا فيمن نعوله ، ومن يخصنا ويهمنا امره في تقديم بعضهم على بعض في التوسعة والتضييق والتقديم والتأخير لما نرى من صالحهم وما نعلم من نفسياتهم والله تعالى أعلم بنا من أنفسنا فهو أحق بذلك منا

(شبهة وجوابها) إما الشبهة فانا نرى كثيراً ممن وسع الله عليه رزقه وهو يبغي في الأرض فساداً .

وإما الجواب إنا إذا علمنا انه تعالى عادل يدبر أمور عباده حسب علمه بصالحهم ، فلعل هؤلاء كان يستوي حالهم في البغي في حال التوسعة وعدمها ، او لعلهم إذا لم يوسع عليهم كانوا أسوأ حالا في البغي ، فمن لطفه بهم دفع عنهم الأسوأ « انه بعباده خبير بصير » أي عليم بأحوالهم بصير بما يصلحهم ويفسدهم ثم بين سبحانه حسن نظره بعباده ، وبيان خفايا نعمه على خلقه فقال : « وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا » أي ينزل المطر النافع عليهم ، لأن الغيث ما كان نافعاً وفي وقته ، واما المطر فهو أعم فمنه ما يكون نافعاً ومنه ما يكون ضاراً وفي وقته وفي غير وقته فهو ينزل الغيث النافع عليهم رأفة منه عليهم بعدما يئسوا من نزوله والفلسفة في إنزاله بعد القنوط انه يكون أدعى إلى شكر الآتي به

وتعظيمه والمعرفة بمواقع إحسانه « وينشر رحمته » أي يفرقها ويبسطها باخراج النبات والثمار الناتجة عن المطر « وهو الولي » أي الذي يتولى تدبير عباده وتقدير امورهم المالك لهم « الحميد » أي المحمود على جميع افعاله ، لكون جميعها إحساناً ومنافع ، ثم قال تعالى : « ومن آياته » الدالة على وحدانيته وصفاته التي غاير بها خلقه « خلق السموات والأرض » حيث لا يقدر على ذلك غيره لما فيهما من العجائب واختلاف الأجناس مع الابداع والاتقان الغير مقدور لأي قادر غيره « وما بث فيهما من دابة » أي كل ما يدب فيشمل جميع الحيوانات « وهو على جمعهم إذا يشاء قدير » أي على حشرهم في موقف القيامة بعد إماتتهم قادر لا يتعذر عليه ذلك ، حيث هو الذي اوجدهم في بدء الخلقة ولم يكن لهم أي وجود فهو على إعادتهم بعدما كان لهم وجود أقدر ، فتجد في هذه الآية من فنون الألطاف منه تعالى على عباده المادي والروحي والعملي والعلمي ومنه تعليمهم الاستدلال على وحدانيته .

لون آخر من اللطف

من ألطافه تعالى لعباده مدح المتقين منهم وبيان ما اعد لهم من الخير تثبيتاً لهم على هديهم ، وتشويقاً لغيرهم على الالتحاق بركبهم والتحلي بصفاتهم واتخاذ مناهجهم ، والاكتساب من معارفهم ، قال تعالى : « إن المتقين في ظلال وعيون وفواكه مما يشتهون كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون إنا كذلك نجزي المحسنين » (١) ، فالمتقون جزاؤهم من ربهم انهم في ظلال اشجار الجنة والعيون جارية بين ايديهم ليتمتعوا بما يرون من مياهها وصفائها ، لأن الجاري

(١) سورة المرسلات الآية ٤١

أنظر من الراكد .

وقيل : هي الينابيع بين الأشجار « وفواكه مما يشتهون » بلا تحديد لجنسها ولا تشخيص لنوعها بل ما تشتهيه الأنفس « كلوا واشربوا » أي مباح لكم ذلك « هنيئاً » أي خالصاً من الكدر ، حيث ان الجنة لا وصب فيها ولا تعب ، وان الأبدان تكون فيها سليمة من كل عرض ومرض ومغص والهنيء هو النافع الخالص من شوائب الأذى « بما كنتم تعملون » أي ان ذلك هو جزاء اعمالكم كما قال ﷺ : لن يدخل احدكم الجنة إلا بعمله « إنا كذلك نجزي المحسنين » تعميا للملاك وانه لا يخص الموجودين سواء كان إحسانهم لأنفسهم او لغيرهم ، لأنه تعالى يحب الاحسان .

ففي الكافي عن رسول الله ﷺ انه سئل من أحب الناس إلى الله ؟ قال : انفع الناس للناس .

وفيه عنه ﷺ الخلق عيال الله فأحب الخلق إلى الله من نفع عيال الله وأدخل على اهل بيته سروراً ، وقد مضى الكلام فيه مفصلا في فصله .

وقال تعالى ايضاً في تعداد جزاء المتقين مدحاً لهم وترغيباً لغيرهم : « إن للمتقين مفازا حدائق وأعنابا وكواعب أترابا وكأساً دهاقا لا يسمعون فيها لغواً ولا كذابا جزاءً من ربك عطاءً حسابا » (١) .

(المعنى) انه تعالى قد أعد للمتقين الأبرار فوزاً ونجاة إلى حال السلامة والسرور وهو موضع الفوز ثم بينه فقال : « حدائق وأعنابا » يعني اشجار الجنة وثمارها « وكواعب أترابا » اي جواري قد تكعب ثديهن مستويات في السن ومعناه استواء الخلقة والقامة والصورة والسن ، حتى يكنّ متشاكلات .

وقيل في معناه : إنهن « أترابا » على مقدار أزواجهن في الحسن والصورة

(١) سورة عم الآية ٣١ .

والسن « وكأساً دهاقا » أي مترعة مملوءة .

وقيل : متتابعة على شاربيها .

وقيل : على قدر ريهم « لا يسمعون فيها » أي في الجنة « لغواً » أي كلاماً لا فائدة فيه « ولا كذابا » اي تكذيب بعضهم لبعض لما فيه من الأذى « جزاء من ربك » أي ان الذي عُمل لهم هو جزاء لهم من الله على تصديقهم بالله ونبيه علماً وعملا درساً وتطبيقاً بدءاً ونهاية حتى لقاء نبيهم صلى الله عليه وآله والمثول أمام ربهم فهنيئاً لهم وتعساً لمن نكث بعد التعب وخسر بعد النصب « عطاءً حسابا » أي كافياً . وقيل : كثيراً .

وقيل : معناه بحساب وعلى قدر الاستحقاق وبحسب العمل ، وحيث ان الله عز وجل قد جعل المتقين نموذجاً لعباده ، وقدوة لطالبي اجره وثوابه ، فلنشخصهم بوساماتهم ، ولنتعرف عليهم بعلاماتهم من لسان سيدهم ، والعارف بحقيقتهم ، لأنه مصدر طينتهم ، ومنبع السقي في تربيتهم ، واليه تنتهي جذورهم ومنه ارومتهم .

أمير المؤمنين عليه السلام يصف المتقين

فقد روي ان صاحباً لأمير المؤمنين عليه السلام يقال له همام كان رجلا عابداً فقال : يا امير المؤمنين صف لي المتقين حتى كأني أنظر اليهم ، فتثاقل عليه السلام عن جوابه ثم قال : يا همام اتق الله واحسن ، فان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، فلم يقنع همام بهذا القول حتى عزم على امير المؤمنين عليه السلام ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وآله ثم قال : إما بعد فان الله سبحانه وتعالى خلق الخلق حين خلقهم غنياً عن طاعتهم ، آمناً من معصيتهم ، لأنه لا تضره معصية من عصاه ، ولا تنفعه طاعة من أطاعه ، فقسم بينهم معايشهم ، ووضعهم من الدنيا مواضعهم

فالمتقون فيها هم اهل الفضائل ، منطقهم الصواب ، وملبسهم الاقتصاد (١) ومشيهم التواضع ، غضوا ابصارهم عما حرّم الله عليهم ، ووقفوا اسماعهم على العلم النافع لهم ، نُزّلت انفسهم منهم في البلاء ، كالتي نزلت في الرخاء (٢) ، ولولا الأجل الذي كتب عليهم لم تستقر ارواحهم في اجسادهم طرفة عين ، شوقاً إلى الثواب وخوفاً من العقاب ، عظم الخالق في انفسهم ، فصغر ما دونه في اعينهم ، فهم والجنة كمن رآها فهم فيها منعمون ، وهم والنار كمن رآها فهم فيها معذبون ، قلوبهم محزونة ، وشرورهم مأمونة ، وأجسادهم نحيفة ، وحاجاتهم خفيفة ، وانفسهم عفيفة ، صبروا اياماً قصيرة ، اعقبتهم راحة طويلة ، تجارة مربحة يسرها لهم ربهم أرادتهم الدنيا فلم يريدوها وأسرتهم ففدوا انفسهم منها ، اما الليل فصافون اقدامهم ، تالين لأجزاء القرآن يرتلونه ترتيلا ، يحزنون به انفسهم ويستثيرون دواء دائهم ، فاذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا اليها طمعاً ، وتطلعت نفوسهم اليها شوقاً ، وظنوا انها نصب اعينهم ، وإذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا اليها مسامع قلوبهم ، وظنوا ان زفير جهنم وشهيقها في اصول آذانهم ، فهم حانون على اوساطهم ، مفترشون لجباههم واكفهم وركبهم واطراف اقدامهم يطلبون إلى الله في فكاك رقابهم ، واما النهار فحلماء علماء ابرار اتقياء قد براهم الخوف بري القداح ينظر اليهم الناظر فيحسبهم مرضى وما بالقوم من مرض ، ويقول : قد خولطوا ولقد خالطهم امر عظيم ، لا يرضون من اعمالهم القليل ، ولا يستكثرون الكثير ، فهم لأنفسهم متهمون ، ومن اعمالهم مشفقون ، إذا زكي احدهم خاف مما يقال له فيقول : أنا اعلم بنفسي من غيري وربي اعلم بي من نفسي ، اللهم

---

(١) أي على قدر حاجتهم .

(٢) أي انهم إذا كانوا في بلاء كانوا بالأمل بالله كأنهم في رخاء لايجزعون ولا يهنون وإذا كانوا في رخاء كانوا من خوف الله وحذر النقمة كأنهم في بلاء لايبطرون ولا يتجبرون.

لا تؤاخذني بما يقولون ، واجعلني افضل مما يظنون ، واغفر لي ما لا يعلمون ، فمن علامة احدهم انك ترى له قوة في دين ، وحزماً في لين ، وإيماناً في يقين ، وحرصاً في علم . وعلماً في حلم ، وقصداً في غنى ، وخشوعاً في عبادة ، وتجملا في فاقة ، وصبراً في شدة ، وطلباً في حلال ، ونشاطاً في هدى ، وتحرجاً (١) عن طمع ، يعمل الأعمال الصالحة وهو على وجل ؛ يمسي وهمه الشكر ، ويصبح وهمه الذكر ، يبيت حذراً ، ويصبح فرحاً ، حذراً لما حذر من الغفلة ، وفرحاً بما اصاب من الفضل والرحمة ، إن استصعبت عليه نفسه فيما تكره ، لم يعطها سؤلها فيما تحب قرة عينه فيما لا يزول ، وزهادته فيما لا يبقى ، يمزج الحلم بالعلم ، والقول بالعمل . تراه قريباً امله ، قليلا زلله ، خاشعاً قلبه ، قانعة نفسه ، منزوراً اكله ، سهلا امره ، حريزاً دينه ، ميتة شهوته ، مكظوماً غيظه ، الخير منه مأمول والشر منه مأمون ، إن كان في الغافلين كتب في الذاكرين ، وإن كان في الذاكرين لم يكتب من الغافلين ، يعفو عمن ظلمه ، ويعطي من حرمه ، ويصل من قطعه ، بعيداً فحشه ، ليناً قوله ، غائباً منكره ، حاضراً معروفه ، مقبلا خيره ، مدبراً شره ، في الزلازل وقور ، وفي المكاره صبور ، وفي الرخاء شكور ، لا يحيف على من يبغض ، ولا يأثم فيمن يحب ، يعترف بالحق قبل ان يشهد عليه ، لا يضيع ما استحفظ ، ولا ينسى ما ذكر ، ولا ينابز بالألقاب ، ولا يضار بالجار ، ولا يشمت بالمصائب ، ولا يدخل في الباطل ، ولا يخرج من الحق ، إن صمت لم يغمه صمته ، وإن ضحك لم يعل صوته ، وإن بُغي عليه صبر حتى يكون الله هو الذي ينتقم له ، نفسه منه في عناء ، والناس منه في راحة ، أتعب نفسه لآخرته ، وأراح الناس من نفسه ، بعده عمن تباعد عنه زهد ونزاهة ، ودنوه ممن دنا منه لين ورحمة ، ليس تباعده بكبر وعظمة ، ولا دنوه بمكر وخدعة .

---

(١) أي تباعداً .

قال : فصعق همام صعقة كانت نفسه فيها ، فقال امير المؤمنين ﷺ : أما والله لقد كنت اخافها عليه ، ثم قال : هكذا تصنع المواعظ البالغة بأهلها ، فقال له قائل : فما بالك يا امير المؤمنين ، فقال : ويحك ان لكل اجل وقتاً لا يعدوه ، وسبباً لا يتجاوزه فمهلا لا تعد لمثلها ، فانما نفث الشيطان على لسانك .

فتجده ﷺ قد أعطى حقيقة المتقين ، وكشف عن غامض صفاتهم وخفي سرائرهم مما لم يطلع عليه إلا خالقهم ، فما ترى السر في ذلك ، هل انه يعلم المغيبات وما تكنه النفوس ؟ وما ذلك إلا لله علام الغيوب ، او انهم أطلعوه على ما انطوت عليه ضمائرهم وانطبعت عليه ذواتهم وما هو بالمعقول .

نعم ان السر فيه انه ﷺ سيد المتقين ، وركيزة علم الأولين والآخرين وينبوع التقوى وأساس الدين ، فتوصيفه لهم لأنهم فرعه وعلمه بهم لأنهم ثمره وصاحب الدار أدرى بالذي فيها .

لطف غريب الاسلوب

في قصة أصحاب السبت

ومن ألطافه سبحانه ان يقص على عباده ما انتقم به على بعض من تقدم منهم بالمسخ قردة من جراء تمردهم وتجاوزهم الحدود التي حددها لهم وان الانتقام لم يخصهم فقط ، بل يعم حتى المداهنين منهم والغير منكرين عليهم .

قال تعالى : « ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين » (١) .

وقال ايضاً مفصلا حالهم في انقسامهم وسلامة المحافظين منهم على حدوده

(١) سورة البقرة الآية ٦١ .

من الانتقام : « واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون وإذ قالت امة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم او معذبهم عذاباً شديداً قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين » (١) .

عن ابن عباس ان القرية اسمها ايلة ، وقيل : مدين ؛ وقيل : طبرية .

وفي تفسير علي بن ابراهيم انها قرية كانت لبني اسرائيل على البحر ، وقد حرم الله عليهم صيد السمك في يوم السبت ، وكانت العلة في ذلك ان عيد جميع المسلمين وغيرهم كان يوم الجمعة فخالف اليهود وقالوا : عيدنا السبت فحرم الله عليهم الصيد فيه بعدما اختاروه عيداً لهم .

فعن ابن عباس انه قال : امروا باليوم الذي امرتم به يوم الجمعة فتركوه واختاروا السبت فابتلوا به ، وحرم فيه الصيد وامروا بتعظيمه فامتثلوا ماشاء الله لا يصيدون ، ثم أتاهم الشيطان وقال : إنما نهيتم عن اخذها يوم السبت لا عن حبسها ، فاتخذوا الحياض والشبكات فكانوا يسوقونها اليها يوم الجمعة ويأخذونها يوم الأحد .

وقيل : إن رجلا أخذ حوتاً يوم الجمعة وربطه بخيط من ذنبه إلى الساحل فأخذه يوم الأحد وشواه واكله فلاموه ، فلما لم ينزل عليه العذاب أخذوا ذلك واكلوه ايضاً وباعوه ، وكانوا نحواً من اثني عشر الفاً ، وقد أخر سبحانه العذاب عن ذلك الفرد امتحاناً لصبرهم ، واختباراً لحالهم ، وان هذه القصة كانت في زمن داود ﷺ .

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٦٣ .

وفي الكافي عن ابي عبدالله عليه السلام في قول الله تعالى : « لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم » قال : الخنازير على لسان داود والقردة على لسان عيسى ، إلا ان المشهور هو العكس .

وقال البيضاوي : قيل : إن اهل ايلة لما اعتدوا في السبت لعنهم الله على لسان داود فمسخهم قردة وخنازير ، وأصحاب المائدة لما كفروا دعا عليهم عيسى ولعنهم فأصبحوا خنازير وكانوا خمسة آلاف رجل .

وعن علي بن الحسين (ع) في قوله تعالى : « ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت كانوا يسكنون على شاطىء بحر فنهاهم الله وأنبياؤه عن اصطياد السمك في يوم السبت فتوصلوا إلى حيلة يحلوا بها ما حرم الله عليهم تخدوا اخاديد وعملوا طرقاً تؤدي إلى حياض يتهيأ للحيتان الدخول فيها من تلك الطرق ولا يتهيأ لها الخروج إذا همت بالرجوع فجاءت الحيتان يوم السبت جارية على امان الله لها فدخلت في الأخاديد ثم في الحياض والغدران ، فلما كانت عشية اليوم همت بالرجوع إلى الخليج لتأمن صائدها فلم تقدر وبقيت ليلها في مكان يتهيأ اخذها بلا اصطياد لاسترسالها فيه وعجزها عن الامتناع وكانوا يأخذونها يوم الأحد ويقولون : ما اصطدنا يوم السبت حتى كثر من ذلك مالهم وتنعموا بالنساء فكانوا في المدينة نيفاً وثمانين الفاً ، فعل هذا منهم سبعون الفاً وأنكر عليهم الباقون ، وذلك ان طائفة منهم وعظوهم فأبوا فاعتزلوهم إلى قرية اخرى ، فمسخ الله الذين اعتدوا قردة فجاءوا اليهم ليعرفوا معارفهم فيقول الناظر المطلع لبعضهم انت فلان فتدمع عيناه ويؤمي برأسه ان نعم ، فما زالوا كذلك ثلاثة ايام ، ثم بعث الله عليهم مطراً وريحاً فجرفتهم إلى البحر ولم يبق مسخ بعد ثلاثة ايام ، واما الذين ترون من هذه الصور المماثلة لهم ، فإنما هي اشباهها لا هي بأعيانها ولا من نسلها .

ثم قال عليه السلام : إن الله مسخ هؤلاء لاصطياد السمك ، فكيف ترى عندالله

عز وجل من قتل اولاد رسول الله ﷺ وهتك حرمته ، ان الله وان لم يمسخهم في الدنيا فان المعد لهم من عذاب الآخرة أضعاف أضعاف عذاب المسخ .

ثم قال عليه السلام : وإن هؤلاء الذين اعتدوا في السبت لو كانوا حين هموا بقبيح افعالهم سألوا ربهم بجاه محمد ﷺ وآله الطاهرين ان يعصمهم من ذلك لعصمهم وكذلك المداهنون ، ولكن الله لم يلهمهم ذلك ولم يوفقهم له ، فجرت معلومات الله فيهم على ما كان سطر في اللوح المحفوظ .

وفي تفسير علي بن ابراهيم كان الماء يجري من البحر في المد والجزر فيدخل انهارهم وزروعهم ويخرج السمك من البحر حتى يبلغ آخر زروعهم وقد كان الله حرم عليهم الصيد يوم السبت فكانوا ينصبون الشباك في الأنهار ليلة السبت ويصطادون يوم الأحد فنهاهم علماؤهم عن ذلك فلم ينتهوا فمسخوا قردة وخنازير

وقال علي بن طاووس : وجدت في حديث انهم كانوا ثلاث فرق فرقة باشرت المنكر وفرقة انكرت عليهم وفرقة داهنت اهل المعاصي فلم ينكروا ولم يباشروا المعصية فنجى الله الذين أنكروا وجعل الفرقة المداهنة ذراً ومسخ الفرقة المباشرة للمنكر قردة .

ثم قال : ولعل مسخ المداهنة ذراً لتصغيرهم عظمة الله وتوهينهم حرمة الله تعالى فصغرهم الله .

الهلاك

عن ابي جعفر عليه السلام انهم لما افترقوا ثلاث فرق فعتت منهم فرقة وارتكبت المنكر ، وتجاوزت حدالله واصطادت السمك في يوم السبت بما تأولوه من حبسها فيه وأخذها في يوم الأحد وانحازت فرقة منهم ذات اليمين فقالوا : ننهاكم ان

تتعرضوا بمخالفة امره للعقوبة واعتزلت فرقة منهم ذات اليسار فتنكبت فلم تعظهم فقالت للطائفة التي وعظتهم : لِمَ تعظون قوماً الله مهلكهم او معذبهم عذاباً شديداً فقالت الطائفة التي وعظتهم : لا والله لا نجامعكم ولا نبايتكم الليلة في مدينتكم هذه التي عصيتم الله فيها مخافة أن ينزل بكم البلاء فيعمنا معكم قال : فخرجوا عنهم من المدينة ونزلوا قريباً منها فباتوا تحت السماء ، فلما اصبح اولياء الله المطيعون غدوا لينظروا ماحال اهل المعصية ، فأتوا باب المدينة فاذا هو مصمت فدقوه فلم يجابوا ولم يسمعوا منها كلام أحد بل سمعوا أصواتاً كالعواء لا تشبه اصوات الناس فوضعوا سلماً على سور المدينة ، ثم اصعدوا رجلا منهم فأشرف على المدينة فنظر فاذا هو بالقوم قردة يتعاوون ولها اذناب فكسروا الباب فعرفت القردة انسابهم من الانس ، ولم تعرف الانس انسابها من القردة فقال القوم للقردة : ألم ننهكم .

وقال علي عليه السلام : والله الذي فلق الحبة ، وبرأ النسمة ، اني لأعرف انسابها من الأمة لا ينكرون ولا يغيرون ، بل تركوا ما أمروا به فتفرقوا .

وفي كتاب قصص الأنبياء (١) قال : جاء قوم إلى امير المؤمنين بالكوفة وقالوا : يا امير المؤمنين إن هذه الجراري تباع في اسواقنا ، فتبسم امير المؤمنين عليه السلام ضاحكا ثم قال : قوموا لأريكم عجباً ولا تقولوا في إمامكم إلا خيراً فقاموا معه فأتوا شاطىء الفرات فتكلم بكلمات فاذا بجرية رافعة رأسها فاتحة فاها فقال لها عليه السلام : من أنت ؟ الويل لك ولقومك ، فقالت : نحن من اهل القرية التي كانت حاضرة البحر فعرض الله علينا ولايتك فقعدنا عنها فمسخنا الله فبعضنا في البحر وبعضنا في البر ، فأما الذين في البحر فنحن الجراري ، واما الذين في البر فالضب واليربوع ثم قال عليه السلام : والذي بعث محمداً صلى الله عليه وآله بالنبوة انها لتحيض كما تحيض نساؤكم

(١) السيد نعمة الله الجزائري ص ٤٠٦ عن تفسير القمي .

اشكال ودفع

اما الاشكال فقد ذكرت عن علي بن الحسين (ع) ان المسخ لا يبقى اكثر من ثلاثة أيام ، فكيف بقيت إلى زمان امير المؤمنين عليه السلام وكلمته .

واما الدفع فهو كما قلنا إن هذه الموجودات هي أمثالها على القول الأصح وإن قيل ايضاً انها نسلهم .

وعلى كل فالمسوخ أمم عصوا خالقهم فعذبوا ومسخوا في حياتهم او بعد مماتهم وأبقاهم الله نسلا بعد نسل ، او أفناهم عن آخرهم ، وخلق على مثالهم هذه الصور على اختلاف الأقوال في ذلك ، والفلسفة في ذلك ليعتبر بهم من كان له عقل ووعي فيرتدع عن الخصلة التي أوردتهم في هذه البلية ، وألبستهم الصور القبيحة ، وأكسبتهم تلك الفضيحة ، حيث انهم كلفوا بالانقياد والطاعة وخلقوا للمعرفة والعبادة كسائر الفرق المختلفة فعصوا واعتدوا وتجاوزوا حدود الله تعالى فعذبوا ومسخوا وترددوا بين الناس عبرة وموعظة ، وهذا من فوائد مسخها ان يعتبر الناس بهم ، بخلاف ما إذا عذبوا في الآخرة فقط ، وهو من ألطافه سبحانه لعباده .

الامم الممسوخة

عن عمار بن عاصم السجستاني قال : جئت إلى باب ابي عبدالله عليه السلام فدخلت عليه فقلت : اخبرني عن الحية والعقرب والخنفس وما أشبه ذلك ، قال : أما تقرأ كتاب الله ؟ قال : قلت : وما كل كتاب الله اعرف قال : أوما تقرأ « أو لم

يهد لهم كم اهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون » (١) .

وفي العلل عن الصادق ﷺ إن الله مسخ قوماً في صور شتى مثل الخنزير والقرد والدب ، ثم نهى عن اكله او تمائله لكيلا ينتفع بها ولا يستخف بعقوبته تعالى .

وفي الأخبار المستفيضة ان (الفيل) كان رجلا جباراً لوطياً لا يدع رطباً ولا يابساً ، او كان رجلا ينكح البهائم .

(والدب) كان رجلا مؤنثاً يدعو الرجال إلى نفسه او كان يسرق الحاج او كان يقطع الطريق ولا يرحم غريباً ولا فقيراً إلا سلبه .

(والأرنب) كانت امرأة قذرة لا تغتسل من حيض ولا من غيره .

(والعقرب) كان رجلا همازاً لا يسلم منه احد ، او نماماً يسعى بين الناس بالنميمة ويغري بينهم بالعداوة .

(والضب) كان رجلا اعرابياً بدوياً لا يرع عن قتل من مر به من الناس او كان يسرق .

(والوزغ) كان سبطاً من اسباط بني إسرائيل يسبون اولاد الأنبياء ويبغضونهم .

(والغطاية والعنكبوت) امرأة سحرت زوجها او كانت عاصية لزوجها مولية عنه ، او كانت خائنة له تمكن فرجها سواه .

(والدعموص) (٢) كان رجلا نماماً يقطع بين الأحبة ، او كان زاني الفرج لا يردع من شيء ، او كان إذا جامع النساء لم يغتسل من الجنابة ، ويترك الصلاة

(١) سورة السجدة الآية ٢٧ .

(٢) دويبة تغوص في الماء تسميها العامة البلمط .

فصار قراره في الماء إلى يوم القيامة من جزعه من البرد .

(والجري) كان رجلا ديوثاً يجلب الرجال على حلائله ، او نماماً ، او كان من التجار وكان يبخس الناس في المكيال والميزان .

(والخفاش) امرأة سحرت ضرة لها .

(والبعوض) كان رجلا يستهزئ بالعلماء .

(والفار) كان سبطاً من اليهود غضب الله عليهم .

(والوطواط) (١) كان سارقاً يسرق الرطب من رؤوس النخل .

(والقرد) الذين اعتدوا في السبت .

(والخنازير) الذين كفروا بالمائدة .

(والطاووس) كان رجلا جميلا فكابر امرأة رجل مؤمن تحبه فواقعها ، ثم راسلته بعد فمسخا .

(والزنبور) كان لحاماً يسرق في الميزان .

(والقمل) من الجسد ، وكان سفيه من سفهاء بني إسرائيل اقبل إلى نبي قائماً يصلي فجعل يهزأ ويكلح في وجهه (٢) فما برح من مكانه حتى مسخ قملة .

(والقنفذ) كان رجلا من صناديد العرب إذا نزل به الضيف رد الباب في وجهه ويقول لجاريته : اخرجي إلى الضيف وقولي له : إن مولاي غائب عن المنزل فيبيت الضيف بالباب جائعاً ، ويبيت اهل المنزل شباعاً .

فهذه المسوخ وصورها الطاف من الله تعالى لعباده ، وتأديبات لخلقه ، وإنذارات منه لمريدي السوء وعمل القبيح ، وامثال اعمال هؤلاء لأنهم أمامهم ونصب اعينهم ، لو ان العبر تعتبر ، والوقايع تستحضر ، والعقول تتفكر فالنفوس عند ذلك تنزجر .

(١) الخطاف . (٢) أي أفزعه .

وورد ان الحيوانات المؤذيات هي من جنود الله يسلطها على من يشاء وجعلها سوطاً لنقمته كما قال تعالى : « ومن عاد فينتقم الله منه » .

ففي الكافي عن الصادق عليه السلام ان رجلا انطلق وهو محرم فأخذ ثعلباً فجعل يقرّب النار إلى وجهه وجعل الثعلب يصيح ويحدث من أسته وجعل اصحابه ينهونه عما يصنع ، ثم ارسله بعد ذلك فبينما الرجل نائم إذ جاءته حية ودخلت في فيه ولم تدعه حتى جعل يحدث كما احدث الثعلب ثم خلت عنه ، القصاص على قدر الجناية فاسمع واعتبر .

وعن در المنثور عن جويرية بن اسماء عن عمه قال : حججت مع قوم فنزلنا منزلا ومعنا امرأة فنامت وانتبهت وحية منطوقة عليها وقد جمعت رأسها مع ذنبها بين ثدييها فهالنا ذلك وارتحلنا فلم تزل منطوية عليها لا تضرها شيئاً حتى دخلنا انصاب الحرم فانسابت فدخلنا مكة وقضينا نسكنا وانصرفنا حتى إذا كنا بالمكان الذي تطوقت فيه الحية عليها ونزلنا فنامت واستيقظت والحية متطوقة عليها ، ثم صفرت الحية فاذا بالوادي يسيل علينا حيات فنهشتها حتى بقيت عظاماً فقلت للتي كانت هذه الجارية لها : ويحك اخبرينا عن حال هذه المرأة فقالت : إنها بغت ثلاث مرات كل مرة تلد ولداً فاذا وضعته سجرت التنور فألقته فيه ، فالله سبحانه حليم ، لكنه شديد العقاب ، وسريع الانتقام فيما إذا اقتضت الحال ذلك عند تكرر المعصية والاستمرار عليها دون ندم واستغفار « ومن عاد فينتقم الله منه والله شديد العقاب » .

عودة لتفسير الآية وتطبيقها

(المعنى) « حاضرة البحر » اي مجاورة البحر « إذ يعدون في السبت » أي يظلمون في يوم السبت بصيد السمك ، ويتجاوزون الحد من الله تعالى في منعهم عنه في السبت « إذ تأتيهم حيتانهم » أي اسماكهم « يوم سبتهم شرعاً » أي ظاهرة على وجه الماء .

وقيل : متتابعة . وقيل : رافعة رؤوسها كانت تشرع إلى ابوابهم بيضاً سماناً ، لأنها كانت آمنة بأمان الله لها منهم ، حيث قد التزموا بالعهد على انفسهم بعدم صيدها في السبت « ويوم لا يسبتون » أي يوم لا يكون سبتاً كالأحد مثلا او غيره من سائر الأيام « لا تأتيهم » بل تغوص في الماء لخوفها من الاصطياد « كذلك نبلوهم » أي مثل ذلك الاختبار الشديد نختبرهم ونمتحن صبرهم « بما كانوا يفسقون » أي بفسقهم وعصيانهم المعلوم لله عز وجل منهم قبل وقوعه وصدوره منهم ، بل من قبل الخلقة ومن عالم الذر ، غير انه سبحانه ابى ان يعامل عباده بعلمه ، بل انه يعاملهم على مقتضى اعمالهم ، فالاختبارات والامتحانات والابتلاءات منه تعالى لهم ، لأجل ان تظهر افعالهم ويبرز ما تكنه نفوسهم من عمل القبيح ، حيث قد علم ان امتناعهم عنه لم يكن عن الصارف النفسي والايمان القلبي ، بل لعدم التهيؤ لهم وعدم الحصول لديهم ، فيهيء الأسباب لهم لتتحقق في الخارج مساوىء منوياتهم . وهذا معنى قوله تعالى : « ويضل من يشاء » كما اسلفناه مفصلا بما لا ينافي عدله عز وجل ، كما انه تعالى ربما يبتلي المؤمن الصابر ومن هو في علمه انه لا يرتكب القبيح لتظهر للملأ سلامة سريرته وحسن طويته فترتفع لديهم درجته « وإذ قالت امة منهم » أي فرقة من بني إسرائيل ، لأنهم

كما ذكرنا صاروا ثلاث طوائف « لِمَ تعظون قوماً الله مهلكهم » ولم يقولوا ذلك كراهية لوعظهم ، ولكن ليأسهم من قبولهم الموعظة ولو كانوا كارهين لكانوا منهم وما كانوا فرقة ثالثة ، بل قصدهم عدم نفع الوعظ بهم ، وإن الله مهلكهم في الدنيا بمعصيتهم ، ولكن مع هذا فهم غير معذورين ، لأن واجب المسلم ان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وان لا يكون مأيوساً من النفع والتأثير ، ولذا شملهم العقاب « او معذبهم عذاباً شديداً » أي في الآخرة ، لأن عذاب الدنيا حتى لو بلغ درجته الكاملة لا يساوي اوائل درجات عذاب الآخرة « قالوا » أي الواعظون في جوابهم « معذرة إلى ربكم » ومعناه ان موعظتنا إياهم لتكون عذراً لنا إلى الله تعالى وتأدية لفرضه في النهي عن المنكر لئلا يقول سبحانه لنا لِمَ لم تعظوهم فليتخلص الفرد منا عن المسؤولية ببذل إمكانياته في إرشاد عباد الله قدر الوسع والطاقة ، وإلا فالمصير مشترك والعقاب شامل ورحمة الله واسعة « ولعلهم يتقون » بالوعظ ويرجعون ، لأن الانسان معرض لألطاف الرحمن كما هو معرض لوساوس النفس والشيطان ، فلا ينبغي اليأس منهم « فلما نسوا ماذكروا به » أي تركوا ما ذكرهم الواعظون به ، ولم ينتهوا عن ارتكاب المعصية بصيد السمك في السبت ، فالمراد من النسيان الترك لا معناه الحقيقي ، حيث انه لا يستوجب العقاب « أنجينا الذين ينهون عن السوء » اي خلصنا الفرقة الناهية عن الفحشاء « وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس » اي شديد « بما كانوا يفسقون » اي بسبب فسقهم وباستحقاقهم .

وعن الجبائي ان العذاب لحقهم قبل مسخهم قردة « فلما عتوا عما نهوا عنه » اي لم يتركوه وتمردوا في الفساد والجرأة على المعصية وأصروا وأبوا ان يرجعوا عنها « قلنا لهم كونوا قردة خاسئين » اي جعلناهم قردة خاسئين ، اي مبعدين مطرودين وإنما ذكر تعالى « كونوا » ولم يكتف بقوله : جعلناهم وامثاله لجواز

ان يكون قال لهم ذلك بكلام سمعوه فيكون ابلغ في الآية النازلة بهم ولشدة الايقاع والعذاب كما تقول لمن تريد تعذيبه بالنار مثلا : ضع يدك في النار وإلا قتلتك .

الاقامة مع العصاة معرضة الهلاك

على أثر ما انكشف لنا من قصة اصحاب السبت من شمول العقاب للفرقة المداهنة ، حيث لم تفارق العصاة ، وسلامة الفرقة الناهية بانفصالها منهم وتباعدها عنهم وهجرتها لهم بعدما بالغت في وعظهم وردعهم ، فنقول : قد نزلت آيات ووردت عدة روايات في ذم الاقامة مع العصاة ، والتحذير بما يؤول إلى شمول الهلاك لهم ونزول العقاب عليهم قال تعالى : « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي انفسهم فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً » (١) .

وقال تعالى: « يا عبادي الذين آمنوا ان ارضي واسعة فاياي فاعبدون » (٢)

والمقصود في تفسير الآية الأولى انه تقول لهم الملائكة الموكلون بقبض ارواحهم عندما يجدونهم على حال قد ظلموا انفسهم فيها وبخسوها حقها من الثواب في أي شيء كنتم من دينكم استفهام على جهة التقرير او التوبيخ فيجيبونهم بانا كنا يستضعفنا اهل الشرك في ارضنا وبلادنا بكثرة عددهم وزيادة قوتهم ويمنعوننا من الايمان بالله واتباع رسوله يقولون ذلك على وجه الاعتذار فتقول الملائكة في جوابهم : ألم تكن ارض الله واسعة فتخرجوا من ارضكم وتفارقوا من يمنعكم من الطاعة إلى من يعينكم عليها .

(١) سورة النساء الآية ٣٧ . (٢) سورة العنكبوت الآية ٥٦ .

وكذلك المقصود من الآية الثانية ، اى فاهربوا من ارض يمنعكم اهلها من الايمان والاخلاص في عبادتي إذا كنتم لا تتمكنون على وعظهم وإرجاعهم إلى الحق ، واخلصوا لي العبادة في غيرها .

وقال ابو عبدالله ﷺ : معناه إذا عصي الله في ارض انت فيها فاخرج منها إلى غيرها .

وروي عن سعيد بن جبير انه قال في معناها : إذا عمل بالمعاصي في ارض فاخرج منها .

(ومنها) فقرة من كلام امير المؤمنين ﷺ في ذم اهل البصرة وهي قوله ﷺ : « المقيم بين اظهركم مرتهن بذنبه » . نعم لأنه إما ان يشاركهم في عمل الذنوب ، او يراها فلا ينكرها فلا يخلو من الذنب ، بل قد ورد ان مجاورة ذوي المعاصي اختياراً حرام وتعمه عقوبتهم .

ومن ذلك ما تقدم من رؤية عيسى (ع) اهل قرية قد ماتوا سخطة ولم يتدافنوا وطلب من الله ان يجيبه منهم مجيب وقد اجابه ميت بما حاصله انه قد جاءهم الهلاك لكثرة معاصيهم ، وإنما سمح له بالجواب ، لأنه ليس منهم ولكن عمه عذابهم .

وعن ابي حمزة عن الباقر (ع) انه ليس من سنة اقل مطراً من سنة ولكن الله يضعه حيث يشاء إن الله جل جلاله إذا عمل قوم بالمعاصي صرف عنهم ما كان قدره لهم من المطر تلك السنة إلى غيرهم وإلى الفيافي والبحار والجبال ، وإن الله ليعذب الجعل في حجرتها بحبس المطر عن الأرض التي هي بمحلتها لخطايا من بحضرتها ، وقد جعل الله لها السبيل إلى مسلك سوى محلة اهل المعاصي ، ثم قال ابو جعفر (ع) : فاعتبروا يا اولي الأبصار .

وعن ابي حمزة عن علي بن الحسين (ع) في حديث طويل قال : إياكم

وصحبة العاصين ، ومعونة الظالمين ، ومجاورة الفاسقين ، احذروا فتنتهم ، وتباعدوا من ساحتهم ...

وفي الفقيه عن محمد بن مسلم قال : مر بي ابو جعفر (ع) وأنا جالس عند قاض بالمدينة فدخلت عليه (ع) من الغد فقال : ما مجلس رأيتك فيه امس ، قال : قلت : جعلت فداك إن هذا القاضي لي مكرم فربما جلست اليه فقال : ومايؤمنك ان تنزل عليه اللعنة فتعمك معه ، وفي رواية اخرى فتعم من في المجلس

وفي الكافي عن الجعفري قال : سمعت ابا الحسن يقول : مالي رأيتك عند عبدالرحمن بن يعقوب ، فقلت : إنه خالي ، فقال : إنه يقول في الله قولا عظيما يصف الله ولا يوصف ، فاما جلست معه وتركتنا ، واما جلست معنا وتركته ، فقلت : هو يقول ما شاء أي شيء عليّ منه إذا لم أقل ما يقول ، فقال ابو الحسن ﷺ : أما تخاف ان تنزل به نقمة فتصيبكم جميعاً ، أما علمت بالشخص الذي كان من اصحاب موسى (ع) وكان ابوه من اصحاب فرعون ، فلما لحقت خيل فرعون موسى تخلف عنه ليعظ اباه ليلحقه بموسى (ع) فمضى اليه وهو يراغمه حتى بلغ طرفاً من البحر فغرقا جميعاً فأتى موسى الخبر فقال : هو في رحمة الله ، ولكن النقمة إذا نزلت ليس لها عمن قارب المذنب دفاع .

والأخبار في ذلك كثيرة بالاضافة إلى الآيات والحكم وراء هذا كله هو العقل ، لذا تجدنا بالنسبة إلى مخاوف الدنيا التي قد سلبت منا عقولنا نتباعد فيها عن مظان محتملات الخطر وعن الأفراد المتهمين عند ذوي السلطات الحاكمة لئلا يعمنا شرهم وعقابهم وتمسنا شبهتهم ، كل ذلك نفهمه بدافع الطبيعة ، ولكنا بالنسبة إلى اعداء الله والمتجاوزين لحدوده تقف دوافع الطبيعة عن تأثيرها في انصرافنا عنهم ، والتباعد عن ساحتهم ، لأن العقل قد حجبت انواره بحب الدنيا والهيام بزخارفها فتستعبدنا بأوهامها ومخيلاتها .

وقد قال مولانا امير المؤمنين عليه السلام وسيد العارفين على ما نسب اليه في تشخيص من نصاحب ومن نفارق مع بيان الحكمة والدليل في ذلك والتنظير بالمحسوس :

صاحب اخا ثقة تحظى بصحبته ... والطبع مكتسب من كل مصحوب
كالريح آخـــذة مما تمر به ... نتناً من النتن او طيباً من الطيب

وقد حذروا (ع) عن بقاع فيها مظنة المعصية فضلا عن مقطوعها ، ومنها الأسواق . ففي النهج عن امير المؤمنين (ع) في كتابه إلى حارث الهمداني إياك ومقاعد الأسواق ، فانها محاضر الشيطان ، ومعاريض الفتن .

وفي الفقيه عنه (ع) جاء اعرابي من بني عامر إلى النبي صلى الله عليه وآله فسأله عن شر بقاع الأرض وخير بقاع الأرض ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله : شر بقاع الأرض الأسواق ، وهي ميدان إبليس يغدو برايته ويضع كرسيه ويبث ذريته فيها ، فبين مطفف في قفيز او سارق في ذراع او كاذب في سلعته فيقول : عليكم برجل قد مات ابوه وابو كم حي فلا يزال في ذلك اول داخل وآخر خارج ، ثم قال صلى الله عليه وآله : وخير بقاع الأرض المساجد وأحبهم إلى الله اولهم دخولا وآخرهم خروجاً منها .

وفي الكافي عن النبي صلى الله عليه وآله انه قال : والمهاجر من هجر السيئات وغالباً لا يتأتى ذلك إلا بهجر اهلها .

لطف بشكل الاستدعاء الى الدعاء

قال تعالى : « وزكريا إذ نادى ربه لا تذرني فرداً وانت خير الوارثين فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه انهم كانوا يسارعون في الخيرات

ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين » (١) ، فتراه سبحانه في هذه الآية كيف يلطف لعباده ببيان انه يستجيب الدعاء من عباده الصلحاء ، وإن كان مطلوبهم مما تستبعد حصوله الأفكار والآراء مبيناً قدرته الباهرة موضحاً إرادته القاهرة حتى فيما لم يكن معتاداً ، وانه لا يعجزه شيء ، ولا يستكثر في حقه حاجة حتى طلب ولادة العقيم ، ولكن بشرط العقيدة الراسخة ، والايمان العريق والتقرب اليه بوسائل القبول .

كما أفاد في الآية من بيان دعاء زكريا بقوله : « إذ نادى ربه » أي دعاه بقوله يا رب « لا تذرني فرداً » أي بغير وارث ولا ولد يعينني على امر الدين والدنيا في حياتي ويرثني بعد وفاتي « وانت خير الوارثين » هذا ثناء منه على الله تعالى بأنه الباقي بعد فناء خلقه .

ومعناه انه خير من بقي حياً بعد ميت ، وان الخلق كلهم يموتون ويبقى هو سبحانه حتى ورد انه ينادي بعد الفناء ثلاث مرات لمن الملك اليوم ، وحيث لا مجيب فيجيب ذاته تعالى بقوله : لله الواحد القهار « فاستجبنا له ووهبنا له يحيى » وهذا تعريض منه سبحانه لعباده ، بأن يدعوه في مهماتهم ، ويطلبوا منه عظيم حاجاتهم .

فقد روى الحرث بن المغيرة قال : قلت لأبي عبدالله عليه السلام : إني من اهل بيت قد انقرضوا وليس لي ولد ، فقال (ع) : ادع وانت ساجد رب هب لي من لدنك ذرية طيبة انك سميع الدعاء ، رب لا تذرني فرداً وانت خير الوارثين قال : ففعلت فولدلي علي وحسين « وأصلحنا له زوجه » بأن كانت عقيمة فجعلناها ولوداً او كانت هرمة فرددنا عليها شبابها او كانت سيئه الخلق فجعلناها حسنة الخلق على اختلاف الأقوال في ذلك .

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٨٩ .

ثم بين تعالى الفلسفة والعلة في إجابة الطلب فقال «إنهم» يعني زكريا ويحيى وقيل : الأنبياء الذين تقدم ذكرهم « كانوا يسارعون في الخيرات » أي يبادرون إلى الطاعات والعبادات ، ولا يخفى مافي التعبير بالمسارعة من بيان اهتمامهم في اكتساب الخيرات واستعدادهم لاقتناص المبرات لوثوقهم بعظيم الجزاء وحرصهم على تأثيث دار البقاء « ويدعوننا رغباً ورهباً » أي للرغبة في الثواب وللرهبة من العقاب بناء على ان النصب على جهة المفعولية ومفيداً للعلية ، اوراغبين راهبين بناءً على ان النصب على جهة الحالية « وكانوا لنا خاشعين » أي متواضعين عن ابن عباس .

وقيل : الخشوع المخافة الثابتة في القلب .

وقيل : إن معناه انهم قالوا في حال النعمة : اللهم لا تجعلها استدراجاً وحال المصيبة اللهم لا تجعلها عقوبة بذنب سلف منا .

لطف هو ركيزة أغلب الالطاف

إن من أهم ألطاف الله تعالى بعباده بعد لطف الايجاد والابراز من بعد العدم ، هو إرسال الرسل ، وإنزال الكتب بالتكاليف بقسميها اوامرها ونواهيها فالتكليف منه تعالى لعباده حسن أولا ، بل هوا واجب عليه ثانياً .

(اما) كونه حسناً فهو وإن اشتق من الكلفة وهي المشقة لغة غير لما يحمل من المصالح والمنافع للمكلف المتحققة عند امتثاله وعدم حصولها له بدونه يلزمه إذاً الامتثال ، وتتحقق عند ذاك له المصالح ، وتندك حينئذ الكلفة والمشقة إلى جنبها . وقدعرفه المتكلمون وحدوه بأنه إرادة من تجب طاعته على جهة الابتداء لما فيه مشقة بشرط الاعلام ، واشترطوا الاعلام لأجل تحقق الموضوع ، لأن

المكلف إذا لم يعلم إرادة المكلف بالفعل لم يكن مكلفاً عقلا وشرعاً هذا بالاضافة إلى ان الله سبحانه قد فعله وكلف العباد وهو لا يفعل القبيح ولا العبث فيكون حسناً ، وقد نظموا لذلك برهاناً نظرياً على طريق الملازمة الشرطية في اصطلاح المنطقيين لاثبات حسنه باشتماله على مصلحة لا تحصل بدونه ، وهي التعريض لمنافع عظيمة لا تحصل بدون التكليف فهي له عوض المشقة فقالوا : « إن التكليف إن لم يكن لغرض كان عبثاً ، ومحال على الله تعالى أن يفعل العبث وهو ينهى عنه وإن كان لغرض ، فان كان عائداً اليه تعالى لزم المحال ايضاً ، لاستلزامه كونه جل شأنه محتاجاً ، وإن كان الغرض عائداً إلى غيره ، فان كان الغير الذي يعود اليه النفع والعوض هو غير المكلف كان قبيحاً وظلماً ويكون اشبه بما قال الشاعر:

غيري جنى وأنا المعاقب فيكم　　فكأنني سبابة المتندم

وإن كان عائداً إلى المكلف نفسه ، فان كان حصول النفع له ممكناً بدون التكليف لزم العبث ايضاً وهو باطل كما ذكرنا آنفاً ، وإن لم يمكن حصوله ، فان كان هو النفع فهو منقوض بتكليف من علم الله كفره ، لأنه لا ينتفع بذلك التكليف ، حيث ان امتثاله لا يصح ولا يقبله الله منه مع بقائه على الكفر بالرغم من انه مكلف بها ومعاقب على تركها ، ولا يلزم من ذلك تكليف ما لا يطاق ، لأن امتناع قبولها مسبب عن اختياره الكفر المانع ، وان إزالته داخلة تحت اختياره ، وهذا معنى قولهم : « الامتناع بالاختيار لا ينافي الاختيار » نظير من ألقى نفسه من شاهق باختياره ، فعدم تمكنه من حفظ نفسه في أثناء الهوي لا ينافي كونه في إلقاء نفسه واستحقاقه للذم واللوم ، وإن كان الصالح فيها هو العوض فهو المطلوب ، وقد ثبت المدعى أعني حسن التكليف » .

الاشكالات على حسن التكليف

ثم انه قد اعترض على حسن التكليف ونفعه بأمور :

(منها) ان التكليف لأجل النفع حاله مثل حال من جرح غيره ثم داواه وأبرأه ، ومن ان مثل هذا يعد قبيحاً ، فكذا التكليف ، فقد أضره المكلف به ثم عوضه فهو متكافىء ، ومثل هذا قبيح فعله عند العقلاء .

(ويجاب) عنه أولا بالفارق فان الجرح نفسه مضرة ، والتكليف نفسه ليس بمضرة ، وإنما المشقة في الأفعال التي يتناولها التكليف .

(وثانياً) ان الجرح والتداوي إزال مضرة ، لا غرض فيه إلا التخلص من تلك المضرة نفسها بخلاف التكليف ، فانه لغرض حصول النفع العظيم .

(ومنها) ان التكليف طلباً للنفع يتنزل منزلة المعاوضات كالبيوع والاجارات وغيرها ، ولا شك ان المعاوضات تفتقر إلى رضاء المتعاوضين معاً حتى ان من عاوض شيئاً بغير إذن صاحبه فعل قبيحاً ، والتكليف لا يشترط فيه رضاء المكلف فهو قبيح ايضاً .

(ويجاب) عنه ان المراضاة إنما اعتبرت في المعاوضات لاختلاف أغراض الناس في التعامل جنساً ووصفاً وثمناً ، اما إذا لم يكن هناك معارضة وقد بلغ النفع حداً يكون غاية مايطلبه العقلاء لم يختلف العقلاء في اختيار مشقة التكليف بسببه حتى ان العقلاء يسفهون الممتنع منه لظهور خسارته فيه ، وأين هذا من المعاوضات حتى يقاس بها .

(ومنها) انه يقال لمَ لا يجوز أن يكون التكليف لأجل الشكر على النعم السابقة من الايجاد وغيرها ، وحينئذ يخلو من النفع فيعود المحذور .

(ويجاب) عنه أولا ان الشكر لايشترط فيه المشقة كما اشترط في التكليف والله تعالى قادر على إزالة صفة المشقة عن هذه الأفعال ، فلو كان القصد من التكليف هو الشكر لزم العبث في صفة المشقة .

(وثانياً) ان طلب المنعم للفعل الشاق من المنعم عليه يخرج النعمة عن كونها نعمة ، والمفروض انها نعمة ، فالتكليف إذاً ليس شكراً على النعمة وإنما هو تكليف مستقل ، وقد حسن لما يحمل من النفع . هذا إثبات حسن التكليف على طريقة المتكلمين . (واما) إثبات حسنه من طريقة الاسلاميين المتشرعين من الفلاسفة . فيقال إن الله تعالى خلق الانسان مدنياً بالطبع لا كغيره من الحيوانات وإذا كان كذلك ، فلا يمكن ان تبقى أشخاصه وتستمر أفراده ، ولا تحصل لهم كمالاتهم وما يحتاجونه في قوام حياتهم إلا بالتعاضد والتعاون ، لأن الأغذية والملبوسات والمسكونات أمور صناعية وعملية يحتاج كل منهم فيها إلى صاحبه في عمله حتى يتم كمال ما يحتاج اليه فاحتاجوا بذلك إلى الاجتماع ، وان اجتماعهم مع تباين شهواتهم ، وتغاير أمزجتهم ، واختلاف ميولهم ، وتفاوت قواهم المقتضية للأفعال الصادرة عنهم مظنة التنازع والفساد إن لم يكن قطعية ، ومن جراء ذلك تقع الفتن ، فوجب وضع قانون وسنة عادلة ، وشريعة كافلة ، وأحكاماً ضامنة يتعادلون بها فيما بينهم . ثم لو استند وضعها اليهم انفسهم لزم عين المحذور فوجب استنادها إلى ذات متميزة عنهم بكمال قواها ، وعلى الأخص بصفة عدلها وإرغام إرادة نفسها . وتعيين مثل هذه الذات إنما يكون باصدارها لمعجزات تدل على انها من عند الله تبارك وتعالى . ثم إن من المعلوم البديهي تفاوت أشخاص الناس في قبول الخير والشر ، والرذائل والنقائص ، والفضائل بحسب اختلاف أمزجتهم وهيئات نفوسهم . فوجب ان يكون هذا الشارع مؤيداً لا يعجز عن أحكام شريعته في جمهور الناس على اختلافهم ، بعضهم بالبرهان والحجة ، وبعضهم بالوعظ

والارشاد ، وبعضهم بتأليف القلوب والأخلاق ، وبعضهم بالزجر ، وبعضهم بالقتال

ولما كان النبي ﷺ لايتفق في كل زمان لوجود الفترات ، وجب ان تبقى السنن المشروعة إلى وقت اضمحلالها ، واقتضاء الحكمة الالهية تجديد غيرها ، ففرضت عليهم العبادات المذكرة لهم على صاحب الشرع ، حيث هي آثار وبديهي دلالة الأثر على المؤثر . وكررت عليهم حسب الاستعداد فيها (١) حتى يستحكم التذكر منها بالتكرير لها فيحصل لهم من تلك الأوامر والنواهي الالهية منافع جمة

(منها) رياضة النفس باعتبار الامساك والامتناع عن الشهوات ومنعها ايضاً عن القوة الغضبية المكدرة لصفاء القوة العقلية .

(ومنها) تعويد النفس وتطبيعها على النظر والتفكر في الأمور الالهية ، والمطالب الرفيعة العالية ، وأحوال المعاد والتبصر في ملكوت الله تعالى وكيفية صفاته وأسمائه وما تتضمنه من معانيها ، وتختص به من مزاياها ، ومن ذلك يتحقق لها فيضان معرفة الموجودات بأسرها عنه ، تقدست ذاته متسلسلة في الترتيب الذي اقتضته الحكمة الالهية بالبراهين القطعية الخالصة عن شبهات المغالطات

(ومنها) تذكرهم ما وعدهم الشارع به من الخير والشر الأخرويين بحيث ينحفظ النظام المقتضي للتعادل والترافد . ثم زاد الله تعالى لمستعملي الشرائع الأجر والثواب في الآخرة .

فهذه مصالح التكليف عند الأوائل من فلاسفة المسلمين ، وهي التي أيدت إثبات حسنه .

(١) كوصفة الدواء منها ما يكون استعمالها في اليوم مرة ومنها مرتين ومنها ثلاث حسب الاستعداد في تأثيرها واستمرار مفعولها .

اثبات وجوب التكليف

بعد اثبات حسنه

وقد ذهبت المعتزلة وفاقاً لجميع الامامية إلى وجوب إصدار التكاليف منه تعالى إلى عباده بعدما أثبتوا حسنها .

(واما) الأشاعرة فقد ذهبوا إلى عدم وجوبه عليه تعالى ، وقد استدلوا على الوجوب (بزجره عن القبائح) بمعنى انه سبحانه لو لم يكلف من كملت فيه شرائط التكليف لكان مغرياً بالقبيح تعالى عن ذلك علواً كبيراً والتالي باطل لقبحه فالمقدم مثله .

وبيان الملازمة في الشرطية ان الله تعالى إذا اكمل عقل الانسان وجعل فيه ميلا إلى القبيح ، وشهوة له ، ونفوراً عن الحسن ، بايداع القوة الشهوية فيه ، وتركيز النفس لها ، فلو لم يقرر سبحانه في عقله وجوب وقبح القبيح اللذين هما مفاد الأمر والنهي والمؤاخذة ، على الاخلال بالواجب ، وعلى فعل القبيح ، لكان وقوع القبيح من المكلف داعاً ، وعلى الاستمرار هذا مفصل إجمال قولهم في الاستدلال على وجوب التكليف (لزجره عن القبائح) أي يجب عليه تعالى ان يزجر عن القبائح لئلا يكون مغرياً .

شرائط حسن التكليف

فانهم بعدما اتفقوا على حسن التكليف ووجوبه : ذكروا شروطاً لحسنه وبدونها لايكون حسناً ، فضلا عن كونه واجباً (فمنها) مايرجع إلى نفس التكليف

(ومنها) مايرجع إلى متعلق التكليف . اما مايرجع إلى التكليف فأمران

(أحدها) انتفاء المفسدة فيه بأن لا يكون مفسدة لنفس المكلف به في فعل آخر داخل في تكليفه ، او يكون التكليف به موجباً لمفسدة لمكلف آخر .

(ثانيها) أن يكون التكليف متقدماً على الفعل قدراً من الزمان يتمكن المكلف في ذلك الزمان من الاستدلال به والتعرف عليه ، فيفعل الفعل في الوقت الذي يجب إيقاعه فيه ، ويراد منه امتثاله فيه .

(واما ما يرجع إلى متعلق التكليف) فهو على ثلاثة أقسام :

(أحدها) الراجع إلى الفعل اعني المكلف به .

(ثانيها) الراجع إلى المكليف

(ثالثها) الراجع إلى المكلَف ، لأن التكليف أمر نسبي منتزع عن هذه الأمور الثلاثة .

فأما ما يرجع إلى الفعل فأمران :

(أحدها) إمكان وجوده فلا يجوز التكليف بالممتنع ، إذ هو تكليف بالمحال والتكليف بالمحال على الله تعالى محال .

(ثانيها) كون الفعل قد اشتمل على صفة زائدة على حسنه الذاتي بحيث تجعله واجباً إن كانت ملزمة ، او مندوباً إن لم تبلغ به إلى درجة الالزام هذا في الأوامر .

واما في النواهي فشرطه كون الفعل قبيحاً كي يكون محرماً او يكون الاخلال به وتركه أولى من فعله فيكون مكروهاً .

(واما) ما يرجع إلى المكليف فشرطه ان يكون عالماً بصفات الفعل لئلا يكلف بايجاد القبيح وترك الواجب ، وان يكون عالماً بقدر ما يستحق المكلف على الفعل من الثواب لئلا يخل ببعضه ، وأن يكون القبيح ممتنعاً عليه لئلا يخل

بالواجب فلا يوصل الثواب إلى مستحقه .

(واما) ما يرجع إلى المكلّف فان يكون قادراً على الفعل المكلف به ، وأن يكون عالماً به فعلا ، أومتمكناً من تحصيل العلم به ، وإمكان الآلة وحصولها إن كان الفعل ذا آلة ومحتاجاً إلى المقدمات ، وهي ما يسمى بالواجبات الغيرية بلسان الأصوليين والفقهاء .

تقسيم مورد التكليف

ينقسم مورد التكليف ومتعلقه إلى قسمين ، لأنه قد يكون علماً ، وقد يكون عملا .

(١٠١) العلم فقد يكون عقلياً محضاً نحو التكليف بالعلم بوجود الله تعالى وكونه قادراً عالماً إلى غير ذلك من الصفات التي يتوقف عليها الاذعان بالمسموعات فانه يجب أن يعلم ذلك من طريق العقل والاعتقاد ، ولا يكفي فيه الظن والتقليد ، وقد يكون سمعياً نحو التكاليف السميعة التي وردت في الشريعة سواء الكتاب اوالسنة ، وقد يكون ظنياً كمثل كثير من الأمور الشرعية ايضاً كظن القبلة وغيرها

واما العمل فقد يكون عقلياً ، أي أن الحاكم بوجوبه ولزوم امتثاله هو العقل ، حتى لو لم يأت به السمع من الشرع ، لا أن الشرع لم يأت به أصلا ولم يكلف به بتاتاً ، بل بمعنى تأييد حكم أحدهما بحكم الآخر منهما ، وذلك مثل لزوم رد الوديعة ، ومثل لزوم شكر المنعم ، وبر الوالدين ، ومثل قبح الظلم والكذب ، ومثل حسن التفضل والعفو . وقد يكون سمعياً كالصلاة وغيرها من سائر العبادات فان العقل لايحكم بمجرده بلزوم الاتيان بها لولم يأت بها الدليل السمعي من الشارع وهذه الأفعال هي المنقسمة إلى (الواجب) وهو ما كانت المصلحة فيه ملزمة ،

وإلى (المندوب) وهو ما كانت الفائدة فيه راجحة ، ولـكن لم تصل إلى مرحلة الالزام ، وإلى (المحرم) وهو ما كانت المفسدة فيه ملزمة للترك ، وإلى (المكروه) وهو ما كانت المفسدة مرجحة لتركه .

انقطاع التكليف

التكليف لا يكون مستمراً ، بل لابد من انقطاعـه ، ويدل على ذلك (الاجماع) أولا ، إذ الاتفاق بين المسلمين وغيرهم واقع على أن التكليف إنما يكون في مرحلة الدنيا ، وينقطع بمفارقتها ، ولايستمر مع المكلف حتى بعد موته (والعقل) ثانياً بتقريب ان التكليف لو كان دائماً لم يمكن إيصال الثواب إلى المطيع ، لأن التكليف مشروط بالمشقة، كما قد ظهر من تحديده ، والثواب مشروط بخلوصه عن الأكدار والمشاق والجمع بينهما محال ؛ وعدم إمكان إيصال الثواب باطل ، فالملزوم مثله لقاعدة التلازم في الشرطية ، وايضاً لابد من تراخ بين التكليف والثواب وهو المعبر عنه بعالم البرزخ ، وإلا لزم الالجاء وهو باطل .

عموم التكليف للكافر

ربما يتوهم عدم صحة التكليف للكافر ، لعدم حصول شرطه وهو القدرة على الفعل ، حيث ان الفعل لا يصح منه حال كفره . فلا يكون الفعل صحيحاً مقدوراً له فلا يصح تكليفه .

(وجوابه) ان علة حسن التكليف هي تعريض المكلف للثواب لا الالتزام له بالثواب وهي عامة في حق المؤمن والكافر ، فالتكليف لهما معاً حسن . وإن قيل :

إن التكليف للكافر ضرر محض لا مصلحة ، فلا يكون حسناً ، لأنه نوع مشقة في العاجل ، ويحصل العقاب بتركه في الآجل ، وهو ضرر عظيم ، فانتفت المصلحة فيه ، إذ لا ثواب له ، فكان تكليفه قبيحاً قطعاً .

(فجوابه) ان التكليف نفسه ليس ضرراً ولامستلزماً من حيث هو تكليف ضرراً ، وإلا لكان تكليف المؤمن ايضاً كذلك عند عصيانه وعدم امتثاله ، بل الضرر إنما نشأ من سوء اختيار الكفر لنفسه ، بعد تقصيره في الفحص ، أو إصراره على الكفر .

دفع توهم المفسدة

ربما يقال إنكم شرطتم في صحة التكليف أن لا يكون مفسدة للمكلف ولا لغيره ، وهذا التكليف يستلزم الضرر بالمكلف الكافر فيكون قبيحاً ، كما أن تكليف شخص لو استلزم مفسدة راجعة إلى شخص آخر كان قبيحاً ، فاستلزامه لمفسدة راجعة إلى نفس المكلف يكون أولى بالقبح .

(فنقول) : إن الضرر هنا مفسدة ، لكن لا من حيث التكليف نفسه بل من حيث سوء اختيار المكلف على ما ذكرناه آنفاً ، وهذا غير ما شرطناه ، أعني انتفاء المفسدة اللازمة للتكليف نفسه .

اعتراض ودفع

تقرير الاعتراض ، هو إنا سلمنا أن لا مفسدة في تكليف الكافر ، لكن نقول : لا فائدة فيه ، لأن الفائدة من التكليف هي الثواب ولا ثواب له فلافائدة في تكليفه فيكون عبثاً .

(والجواب) إنا لا نسلم أن الفائدة للتكليف هي الثواب الجزمي ، بل هي التعريض له كما ذكرنا وهو حاصل في حق الكافر على حصوله للمؤمن فلا فرق في صحة التكليف لهما معاً .

تعذيب أطفال المشركين

ذهب الحشوية إلى أن الله تعالى يعذب أطفال المشركين ، ويلزم الأشاعرة تجويزه ايضاً ، لنفيهم العدالة عنه سبحانه ، فلامانع إذاً عندهم من ذلك ، وذهب العدلية كافة إلى منعه وعدم جوازه ، ودليلهم عليه انه قبيح عقلا فلا يصدر منه تعالى ، ثم انه لا تكليف في حقهم والعقاب ، إنما يستحق على مخالفة التكليف ، فانتفاء الموضوع يستلزم انتفاء لوازمه ، احتج المجوزون بوجوه :

(الأول) قول نوح ﷺ : « ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً » والكافر يستحق العقاب وقول النبي حجة .

(وجوابه) ان كلامه ﷺ على جهة المجاز ، ومعناه انهم إذا ولدوا وبلغوا مرحلة التكليف يصيرون كفاراً ، لا انهم كفار حال طفوليتهم لعدم إدراكهم حينئذ وهو القرينة على إرادته ﷺ المجاز في كلامه

(الثاني) قالوا : ان الشريعة حكمت بسبي ذراري المشركين وملكهم واستخدامهم وهو ألم عليهم وعقوبة لهم ، وما هو إلا لأجل كفر آبائهم ، وإذا كان ذلك سائغاً في الشريعة فلا يكون قبيحاً .

(وجوابه) ان الخدمة ليست عقوبة للطفل ، وإنما هي عقوبة لأبيه وامتحان له يعوض عليه كما يعوض على سائر ابتلاءاته من أمراضه وغيرها في الدنيا واما قولكم ان الاستخدام ألم على الطفل فردود وليس كل ألم ومشقة عقوبة ،

فان إجراء العملية وإزال الجرح في البدن ألم ومشقة وليسا عقوبة ، فالكلية منقوضة وذلك كاف في ردها .

(الثالث) قالوا : إن حكم الطفل يتبع حكم ابيه في الدفن ومنع التوارث والصلاة عليه ومنع التزويج .

(وجوابه) ان المنكر من قبلنا هو عقابه لأجل جرم ابيه ، ولسنا انكرنا أن يتبع حكم أبيه في بعض الأشياء ، إذا لم يحصل له بها ألم وعقوبة ، ولا ألم له فيما ذكرت في منعه من الدفن في مقابر المسلمين ، والتوارث وترك الصلاة .

هذا خلاصة ما ذكروه في حجة الجواز ، وان الأصل المانع من عقابه هو قبح صدوره من العادل ، وحيث قد ثبتت عدالته جل شأنه بقاطع البرهان فلا إشكال حينئذ في عدم جواز عقاب أطفال المشركين .

التكليف بقسميه لطف

التكليف كما ذكرنا يكون على قسمين (أوامر) و (نواهي) اما الأوامر سواء كانت إلزامية أو ندبية ، فكلها حسنة وألطاف منه تعالى فهي واجبة عليه كما حققنا ذلك في أول مسألة اللطف ، وذلك لعدم خلوها عن المصالح الدفينة فيها وهي التعريض للثواب ؛ وهو منافع عظيمة وخالصة من كل شوب من الأذى ، وواصلة إلى المكلف بدون منة عليه ، بل مع التعظيم والمدح له ، كما هو مفاد الآيات والأحاديث في تبجيل اهل الطاعات وتكريمهم ، بما لا مزيد عليه ، سواء كان في لزوم احترامهم في الدنيا وتفضيلهم ، ووجوب تقديمهم ، وعدم مقايستهم بأضدادهم من الجهلاء ، او في عظيم مراتبهم في الآخرة ، وعند انتقالهم من دار الدنيا بمرتب مراحلها من حالة الاحتضار الى حالة الجنة وحسن القرار .

وإن ما قدمناه من الآيات ، بالاضافة إلى ما فصلناه في الجزء الأول من أسرار العبادات ، كاف لأمثلة القسم الأول من التكليف ، أعني الأوامر غير اني رأيت ان ألحق بها بعض الأوامر الندبية لتعميم البحث لقسمي الأوامر أولا ، ولتكثير الفائدة والتوجيه لاخواني المؤمنين المتوخاة من وضع كتابنا هذا ثانياً .

فنقول : إن من جملة ما ورد عن اللطيف جل جلاله من التكاليف الندبية لتعريض العباد لاكتساب جليل خيرها ، وعظيم ثوابها الأمر بالتهجد المفسر :

بصلاة الليل و نافلته

قال تعالى : « ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى ان يبعثك ربك مقاماً محموداً » (١) .

الخطاب للنبي ﷺ والمقصود هو وأمته ، وإنما اختصه ﷺ بالخطاب لما في ذلك من دعاء الغير إلى الاقتداء به والحث على الاستنان بسنته ، والتهجد هو ما يكون بعد النوم عن اكثر المفسرين .

وقال بعضهم : ما تنفلت به في كل الليل يسمى تهجداً ، والنافلة هي الزيادة كما قال تعالى في سورة الأنبياء في حق ابراهيم ﷺ : « ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة » حيث كان ﷺ قد طلب من ربه ولداً ، وقد اعطاه اسماعيل وزاده سبحانه ولدين آخرين هما اسحاق ويعقوب ، وحيث انها زيادة على مطلوبه ، وكرماً منه تعالى له أطلق عليها نافلة . وعلى هذا فيكون المعنى ان صلاة الليل زيادة لك يا محمد على الفرائض .

وقيل : إنها كانت واجبة عليه ﷺ مكتوبة ، ولم تكتب على غيره ،

(١) سورة الإسراء الآية ٨١

وكانت فضيلة لغيره ، فنسخ وجوبها بهذه الآية .

وقيل : إن معناه فضيلة لك وكفارة لغيرك ، فان كل انسان يخاف أن لا يقبل منه فرضه لاحتمال نقص فيه فيكون نفله كفارة لنقصه ، والنبي ﷺ لا يحتاج الى كفارة .

وعلى كل حال ، فان فضل التهجد بنافلة الليل عظيم ، وما ورد في ذلك من الأخبار جسيم .

فعن المفيد (رض) في كتاب المقنعة قال : روي ان صلاة الليل تدر الرزق وتحسن الوجه ، وترضي الرب ، وتنفي السيئات .

وقد روي ان سائلا سأل وقال : يابن رسول الله ما بال المتهجدين من احسن الناس وجوهاً ، مما يعطي بظاهره التعجب من ذلك ، حيث هو على خلاف مقتضيات العادة والطبيعة من كون السهر في الليل مؤثراً للنحول في البدن وللصفرة في الوجه ، فيجيبه الامام ﷺ بقوله : لأنهم خلوا بالرحمن فغمرهم نوره

وعلى هذا يرد الحديث القدسي يقول الرب : كذب من ادعى محبتي وإذا جنه الليل نام وتركني ، أليس المحب يحب الخلوة بحبيبه .

وقال رسول الله ﷺ : إذا قام العبد من لذيذ مضجعه والنعاس في عينيه ليرضي ربه بصلاة ليله باهى الله به الملائكة ، وقال تعالى : اشهدوا اني قد غفرت له

وقال رسول الله ﷺ : كذب من زعم انه يصلي بالليل ويجوع بالنهار .

وقال رسول الله ﷺ : إن البيوت التي يُصلى فيها بالليل وبتلاوة القرآن تضيء لأهل السماء كما تضيء نجوم السماء لأهل الأرض .

وفيه ايضاً عن جعفر بن محمد (ع) قال : المال والبنون زينة الحياة الدنيا وثمان ركعات في آخر الليل والوتر زينة الآخرة .

وعن ابن طاووس في كتاب محاسبة النفس قال : رأيت في كتاب مسعدة

ابن زياد من اصول الشيعة فيما رواه عن الصادق ﷺ عن أبيه ﷺ ان الليل إذا أقبل نادى مناد يسمعه الخلائق إلا الثقلين ، يابن آدم إني خلق جديد إني على ما فيّ شهيد فخذ مني فأني لو طلعت الشمس لم أرجع إلى الدنيا ولم تزدد فيَّ حسنة ولم تستعتب فيَّ من سيئة الخبر .

وقد ورد أيضاً ان مصليها لا يبقى بينه وبين الله ذنب إلا غفر له .

لطفية التكليف

كما تراه سبحانه كيف عرّض عباده لاكتساب هذا الخير العظيم، وحيازة الأجر الجسيم ، باصدار تكليفه الندبي للنبي ﷺ وأمته بالقيام لصلاة الليل معقباً ذلك بالتعهد منه تعالى لهم بالرصيد لليوم الشديد في قوله: « عسى ربك ان يبعثك مقاماً محموداً » .

وذكرنا مراراً ان كلمة عسى منه تعالى للوجوب ، لأن إطلاق معنى الترجي عليه محال .

(واما) معنى المقام هو البعث ، أي يبعثك يوم القيامة بعثاً انت محمود فيه ويجوز أن يجعل البعث بمعنى الاقامة ، ويكون المعنى يقيمك ربك مقاماً محموداً يحمدك فيه الأولون والآخرون ، وهو مقام الشفاعة تشرف فيه على جميع الخلائق تسأل فتعطى وتشفع فتشفع .

وقد أجمع المفسرون على أن المقام المحمود هو مقام الشفاعة ، وهو المقام الذي يشفع فيه للناس ، وهو المقام الذي يعطى فيه لواء الحمد فيوضع في كفه ، ثم يدفعه إلى علي بن ابي طالب ﷺ ويقول له : انت حامل لوائي في هذا اليوم كما كنت حامل لوائي في الدنيا ، ويجتمع تحته الأنبياء والملائكة ، وقد وصفت

سمته الأخبار بما تستعظمه الأفكار ، لأنها محدودة وضيقة المدار ، ولا عجب من أمر الله وقدرته ، وقد رأينا خلقه للسماوات والأرض ، وعلمنا أيضاً سعة كرمه ، وعظيم منه وعطائه ، فيما يخص المطيعين من عباده ، والمخلصين من اوليائه ، فلا عجب إذاً إذا ورد أن لواء الحمد له عدة ذوائب من نور ، كل واحدة منها تسد ما بين المشرق والمغرب ، يستظل بها المحبون لمحمد ﷺ وأهل بيته الذين خلفهم في أمته ، وجعلهم جوهر وصيته ، بما أجمعت عليه كلمة جميع فرق المسلمين وتصافقت عليه أيدي الكاتبين من قوله ﷺ : إني مخلف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا فيكون ﷺ أول شافع وأول مشفع .

النبي ﷺ وصلاة الليل

وقد ورد في كيفية فعل النبي ﷺ لصلاة الليل ما يعطي شدة الاهتمام ، وتبغيضه في المنام ، ولعله لنكتة تفويت لذة النوم ، على ذاته الشريفة ، والتضحية بها في سبيل اتصاله بالأنوار المنيفة ، والاختلاء بالذات اللطيفة : ليكون صادقاً في دعواه محبة الله على حد تعبير الحديث السابق « كذب من ادعى محبتي ، وإذا جنه الليل نام وتركني ... الحديث » .

ففي صحيحة معاوية بن وهب قال : سمعت ابا عبدالله عليه السلام يقول عندما ذكر صلاة النبي ﷺ : كان يؤتى بطهور فيخمر عند رأسه ، ويوضع سواكه عند فراشه ، ثم ينام ما شاء الله ، فاذا استيقظ جلس ثم قلب بصره في السماء ثم تلا الآيات من آل عمران « إن في خلق السموات والأرض » الآية ، ثم يستن(١)

(١) أي يستاك .

ويتطهر ثم يقوم إلى المسجد فيركع اربع ركعات وركوعه على قدر قراءته وسجوده على قدر ركوعه فيركع حتى يقال متى يرفع رأسه ويسجد حتى يقال متى يرفع رأسه ، ثم يعود إلى فراشه فينام ما شاء الله ثم يستيقظ فيجلس فيتلو الآيات من آل عمران ، ويقلب بصره في السماء ثم يستن ويتطهر ويقوم إلى المسجد فيصلي اربع ركعات كما ركع قبل ذلك ، ثم يعود إلى فراشه فينام ما شاء الله ، ثم يستيقظ فيجلس فيتلو الآيات من آل عمران ويقلب بصره في السماء ثم يستن ويتطهر ويقوم إلى المسجد فيوتر ويصلي الركعتين (١) ثم يخرج إلى الصلاة . ومثلها صحيحة الحلبي المروية عن الكافي .

تتابع الآية في اكرامه ﷺ

ثم قال سبحانه على أثر ذلك : « قل » أي يا محمد متفضلا عليه ببيان رؤوس أقلام الخيرات ، وركائز الثمرات ، ليطلبها من فيوضات رب الأرض والسماوات « رب ادخلني مدخل صدق واخرجني مخرج صدق » المدخل والمخرج هنا مصدر الادخال والاخراج ، فالتقدير ادخلني إدخال صدق واخرجني إخراج صدق ، وقد ذكروا في معناه وجوهاً :

(أحدها) ان المعنى ادخلني في جميع ما أرسلتني به إدخال صدق واخرجني منه سالماً إخراج صدق ، أي أعني على الوحي والرسالة .

(ثانيها) انه ﷺ أمر بهذا الدعاء إذا دخل في أمر او خرج من أمر والمراد ادخلني في كل أمر من الأمور مدخل صدق ، واخرجني من كل أمر من الأمور مخرج صدق .

(١) نافلة الصبح .

(ثالثها) ان معناه ادخلني المدينة مدخل صدق ، واخرجني منها إلى مكة للفتح مخرج صدق .

(رابعها) ان المعنى ادخلني القبر عند الموت مدخل صدق واخرجني منه عند البعث مخرج صدق ، ومدخل الصدق ومخرج الصدق هو ما تحمد عاقبته في الدنيا والدين « واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً » أي اجعل لي عزاً امتنع به ممن يحاول صدي عن إقامة فرائضك وقوة تنصرني بها على من عاداني فيك .

وقيل : إن معناه اجعل لي ملكا عزيزاً أقهر به العصاة ، فنصر ﷺ بالرعب حتى خافه العدو على مسيرة شهر .

وقيل : إن معناه اجعل لي حجة بينة أتقوى بها على سائر الأديان الباطلة .

تمام الآية

« وقل جاء الحق » أي ظهر الحق وهو الاسلام والدين « وزهق الباطل » أي بطل الباطل وهو الشرك .

وقيل : الحق هو التوحيد وعبادة الله ، والباطل الشرك وعبادة الأصنام .

وقيل : الحق القرآن ، والباطل الشيطان ، وإن معنى زهق بطل واضمحل

وروي عن عبدالله بن مسعود انه قال : دخل النبي ﷺ مكة وحول البيت ثلاثمائة وستون صنما فجعل يطعنها ويقول : جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ، فجعل الصنم ينكب لوجهه إذ قال ذلك وأهل مكة يقولون : ما رأينا رجلا أسحر من محمد « إن الباطل كان زهوقا » أي مضمحلا ذاهباً هالكا لاثبات له .

صعود علي عليه السلام على منكب النبي صلى الله عليه وآله

روى الحاكم في المستدرك بسنده عن علي بن ابي طالب عليه السلام قال : انطلق بي رسول الله صلى الله عليه وآله حتى اتى بي الكعبة فقال لي : اجلس فجلست إلى جنب الكعبة فصعد رسول الله صلى الله عليه وآله على منكبي ، ثم قال لي : انهض فنهضت فلما رأى ضعفي تحته .

وفي رواية اخرى فلما جلس على ظهري لم أستطع حمله لثقل الرسالة فقال لي اجلس فنزلت وجلست ، ثم قال لي : يا علي اصعد على منكبي فصعدت على منكبيه ثم نهض بي فلما نهض بي خُيل لي ان لو شئت نلت أفق السماء فصعدت فوق الكعبة وتنحى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال لي : الق صنمهم الأكبر صنم قريش .

وفي رواية الق (هبل) وكان من نحاس موتداً بأوتاد من حديد إلى الأرض فقال لي : عالجه وهو يقول لي : إيه إيه جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ، فلم أزل أعالجه حتى استمكنت منه ، فقال : اقذفه فقذفته فتكسر .

وفي رواية قال لي : دقه فدققته و كسرته .

وفي رواية ثالثة فألقيت هبل عن ظهر الكعبة فأنزل الله تعالى : « وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا » ثم قال عليه السلام : وترديت من فوق الكعبة فانطلقت أنا والنبي صلى الله عليه وآله قال علي عليه السلام : فما صُعد به حتى الساعة .

وفي رواية قاضي الديار بكري المالكي ، ثم إن علياً اراد ان ينزل فألقى نفسه من صوب الميزاب تأدباً وشفقة على النبي صلى الله عليه وآله ولما وقع على الأرض تبسم فسأله النبي صلى الله عليه وآله عن تبسمه قال : لأني ألقيت نفسي من هذا المكان الرفيع وما أصابني ألم ، قال صلى الله عليه وآله : كيف يصيبك ألم وقد رفعك محمد وأنزلك جبرئيل ،

ثم قال الحاكم : هذا حديث صحيح الاسناد .

ومن اراد الاطلاع على رواة هذه المأثرة وأسانيدها وجلهم من الحفاظ وأئمة الحديث من علماء السنة فليراجع كتاب الغدير (١) ، وقد عدَّ من الرواة واحداً واربعين ، ومنهم احمد إمام الحنابلة في مسنده باسناد صحيح (٢) .

صعود علي ﷺ والشعراء

وقد نظم هذا المعنى عدة من الشعراء ، وقد تفننوا في تأديته ، وصوغه بألوان من البلاغة ، وأساليب من البداعة ، ومن جملتهم الشاعر المفلق عبد الباقي افندي العمري ، حيث يقول في قصيدته العينية مشيراً إلى ولادته ﷺ في الكعبة ولم يسبقه في ذلك احد كما لم يلحقه فيه احد :

انت العلي الذي فوق العلى رفعا   ببطن مكة عند البيت إذ وضعا

إلى ان يقول مشيراً إلى صعوده على منكب النبي ﷺ :

وانت انت الذي حُطت له قدم   في موضع يده الرحمن قد وضعا

قاصداً بذلك مفاد الحديث في ليلة الاسراء عن لسان النبي ﷺ عندما كان ﷺ في القرب من عظمة ربه على حد تعبير القرآن عن ذلك « فكان قاب قوسين او ادنى» (٣) ، قال : أحسست بوضع شبه الكف على كتفي فنزل بردها على قلبي ، وكان بذلك ختم النبوة على كتفه يضيء كالكوكب ، وقد تبع العمري في هذا الامام الشافعي في قوله على ما نسب :

قيل لي قل في علي مدحا   ذكره يخمد ناراً موصده

---

(١) ج ٧ ص ٩ إلى ١٣ .   (٢) ١ - ٨٤ .

(٣) سورة النجم الآية ١٠ .

قلت لا أقدم في مدح امرئ ٍ ضل ذو اللب إلى ان عبده
والنبي المصطفى قال لنا ليلة المعراج لما صعده
وضع الله بظهري يده فأحس القلب ان قد برّده
وعلي واضع أقدامــــه في محل وضع الله يده

وقال آخر على ما ذكره ابو عبدالله الزرقاني المالكي في شرح المواهب (١) عن جماعة من علماء السنة لقد أجاد القائل :

يا رب بالقدم التي أوطأتها من قاب قوسين المحل الأعظما
وبحرمة القدم التي جعلت لها كتف المؤيد بالرسالة سلما
ثبّت على متن الصراط تكرماً قدمي وكن لي منقذاً ومسلما
واجعلها ذخري فمن كانا له ذخراً فلا يخشى الغداة جهنما

وقال شهاب الدين السيد محمود الآلوسي في شرح قصيدة العمري العينية آنفة الذكر ، وكأنه ﷺ احب ان يكافئ الكعبة ، حيث ولد في بطنها بوضع الصنم عن ظهرها ، فانها كما ورد في الآثار ، كانت تشتكي إلى الله عز وجل من عبادة الأصنام حولها وتقول : أي رب حتى متى تعبد هذه الأصنام حولي والله تعالى يعدها بتطهيرها من ذلك . وقد اختص لهذه المكرمة وليه وناصر نبيه ومحكم دينه ، سبحان من يضع الأشياء في مواضعها وهو أحكم الحاكمين . وإلى هذا المعنى اشار العلامة السيد رضا الهندي بقوله :

لما دعاك الله قدماً لان تولد في البيت فلبيته
شكرته بين قريش بأن طهرت من أصنامهم بيته

---

(١) ٢ - ٣٣٦ .

تكليف ندبي ضمني

قال تعالى: « إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى اولئك ان يكونوا من المهتدين » (١) .

فنرى ان الله عز اسمه لواسع كرمه وبليغ لطفه كيف يعرض الخير على عباده ويغرس لهم شجرة ثماره ، ويعرضهم لاجتنائه ببليغ كلامه ، وبديع بيانه ، ويكلفهم بأمره الندبي الضمني ، ويبرزه لهم على مصب الأخبار على طريقة الحصر بمن استجمع صفات صحيح الايمان ، وخصال واقع الانسان ، كل ذلك ترغيباً في امتثاله ، وتشويقاً لتحقيق غرضه المودوع فيه عظيم خيره ، وجليل بره ، مبيناً لهم انه سبحانه قد خص هذا الخير بخواص عباده ، وأتحفه لأبرار اوليائه ، وهم من آمن بالله وأقر بوحدانيته كي لا يعبد غيره ، واليوم الآخر والحشر في يوم القيامة كي لا يهمل نفسه فتقبل على الرذائل والموبقات ، وتنصرف عن الفضائل والطاعات ، وليعلم ان من ورائه موقفاً فيه حساب دقيق ، فعندها يحاسب نفسه من قبل ان يحاسب ، وأقام الصلاة بحدودها مستجمعاً لكل ما اعتبر فيها ، منقاداً لعظمة مشرعاً فاهماً انها مثول بين يدي جبار الأرض والسماوات ومن بيده حتى الأنفاس واللحظات ، وآتي الزكاة عن طيب نفس وسماحة كف لمستحقيها شاكراً لله تعالى على رزقه وكرمه ، وعلى وافر فضله ونعمه ، حيث قد أجرى ارزاق فقراء عباده ، وضعفاء عياله على يده ولو شاء أن لا يفعل ويجعله في ربقة الفقراء ومن صفوف الضعفاء ، ومن مدوا بأبصارهم وأيديهم إلى الأغنياء لفعل ، « ولم يخش إلا الله » أي ولم يخف احداً من المخلوقين سوى الله ، حيث قد علم ان

(١) سورة التوبة الآية ١٨ .

الأمر كله بيده ، يعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، بيده الخير وهو على كل شيء قدير ، وكما قال سبحانه : « أتخشونهم فالله أحق ان تخشوه » ، « فعسى اولئك ان يكونوا من المهتدين » اي انهم هم المهتدون إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم في الدارين ، لأن كلمة عسى وإن كانت للترجي لكنها منه تعالى للوجوب كما ذكرنا ذلك سابقاً ، وانه تعالى إذ يدخر اجر تعمير مساجده ، وثواب مزاولة بيوته ، لمثل هؤلاء فقط غير سامح به لغيرهم فلا استنكار في ذلك ، لأن العوض منه فيه عظيم ، والعطاء لفاعليه جسيم ، مما كاد ان لا تحتمله العقول لولا انه جل شأنه اعظم من كل عظيم ، والعطاء العظيم لا يعطيه إلا العظيم ، كما ان الذنب العظيم لا يغفره إلا العظيم .

أجر عمارة المساجد

ففي تفسير الامام ﷺ وكتاب الأعمال للصدوق في خطبة طويلة للنبي ﷺ (١) قال : ومن بنى مسجداً في الدنيا بنى الله له بكل شبر منه او قال بكل ذراع منه مسيرة اربعين الف عام مدينة من ذهب وفضة ودر وياقوت وزمرد وزبرجد في كل مدينة اربعون الف الف قصر في كل دار اربعون الف الف بيت في كل بيت اربعون الف الف سرير على كل سرير زوجة من الحور العين ولكل زوجة الف الف وصيف واربعون الف الف وصيفة ، وفي كل بيت اربعون الف الف مائدة ، على كل مائدة اربعون الف الف قصعة ، في كل قصعة اربعون الف الف لون من الطعام ويعطي الله وليه من القوة ما يأتي بها على تلك الأزواج وعلى ذلك الطعام والشراب في يوم واحد .

(١) في كتاب دار السلام ج ٤ ص ٣٠١ .

تعميم الملاك لعموم رحمة الباري تعالى

فان عمارة المساجد تعم جميع اقسام العمارة ، وتشمل كل انواعها ، كما يظهر من اقوال المفسرين للآية الكريمة ، وإن خص الخبر لفظ البناء ، فانه غير مناف لغيره ، فمن اهم انواع عمارتها هو تعاهدها وإشغالها بالعبادة وإقامة الجماعات وسائر انواع الطاعات بالتبليغ والارشاد وتعلم الأحكام ورفع الأكف إلى المولى جل شأنه فيها والابتهال اليه بالدعوات بخالص النيات في طلب الحاجات لنفسه وللمؤمنين والمؤمنات ، فانه تعالى قد عاتب اناساً في تركهم ذلك ومدح آخرين كانوا على عكس اولئك .

(فمن الأول) ما قاله تعالى في الأحاديث القدسية : يا عبيد الدنيا والدرهم اني ما خلقت لكم الدنيا إلا لتأكلوا فيها رزقي ، وتلبسوا فيها ثيابي(١) وتغرسوا بها علمي ، فأخذتم كتابي(٢) فجعلتموه تحت أقدامكم ، واخذتم الدنيا وجعلتموها فوق رؤوسكم فرفعتم بيوتكم وخفضتم بيوتي ، وآنستم بيوتكم وأوحشتم بيوتي .

وفي الخبر عن ابي عبدالله عليه السلام ثلاثة يشكون إلى الله عز وجل ويتقبل الله شكواهم ، قرآن مهجور قد وقع عليه الغبار لايقرأ فيه ، ومسجد مهجور لايصلي فيه اهله ، وعالم مهجور بين جهال .

كما قد ورد التهديد لتارك الصلاة في المسجد على لسان الشارع ، قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : لا صلاة لجار المسجد إلا في مسجده ، من حيث ان تركه الصلاة فيه مع قربه منه مما يعطي الاستخفاف به وعدم اهميته لديه ، وانه عنده مع بيته سواء

(١) فيه إشعار بأن الرزق مكفول وطلب العلم مطلوب .
(٢) الذي هو مصدر العلم .

(ومن الثاني) قال ابو عبدالله عليه السلام : صلوا من المساجد في بقاع مختلفة فان كل بقعة تشهد لمصليها يوم القيامة .

وقد ورد استحباب كثرة التردد إلى المساجد والترغيب بمختلف ألوانه فعن النبي صلى الله عليه وآله من مشى إلى مسجد من مساجد الله فله بكل خطوة خطاها حتى يرجع إلى منزله عشر حسنات ، ومحا عنه عشر سيئات ؛ ورفع له عشر درجات .

كما قد ورد استحباب ترك مواكلة من لا يحضر المسجد وترك مشاورته ومناكحته ومجاورته .

وقد مضى عنه صلى الله عليه وآله بشر الداهبين في الظلمات إلى المساجد بالنور الساطع يوم القيامة ، لأن الله تعالى يعطي المؤمنين نوراً يمشون به في يوم القيامة على قدر اعمالهم إلى آخر تفصيلات الخبر ، وقد ذكرناه سابقاً .

وفي كتاب الفقيه جاء اعرابي من بني عامر إلى النبي صلى الله عليه وآله فسأله عن شر بقاع الأرض وخير بقاع الأرض ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله : شر بقاع الأرض الأسواق ، وهي ميدان إبليس يغدو برايته ويضع كرسيه ويبث ذريته فبين مطفف في قفيز او سارق في ذراع او كاذب في سلعته فيقول : عليكم برجل قد مات ابوه وأبو كم حي فلا يزال مع ذلك اول داخل وآخر خارج ، ثم قال صلى الله عليه وآله : وخير البقاع المساجد وأحبهم إلى الله اولهم دخولا وآخرهم خروجاً منها

وروى الكليني عن ابي عبيدة الحذاء قال : سمعت ابا عبدالله عليه السلام يقول : من بنى مسجداً كمفحص قطاة بنى الله له بيتاً في الجنة ، وقال ابو عبيدة مر بي ابو عبدالله عليه السلام في طريق مكة ، وقد سويت بأحجار مسجداً فقلت له : جعلت فداك نرجو أن يكون هذا من ذاك ، قال عليه السلام : نعم .

وخبر هاشم المروي عن محاسن البرقي قال : دخلت أنا وابو الصباح على ابي عبدالله عليه السلام فقال له ابو الصباح : ما تقول في هذه المساجد التي بنتها الحاج

في طريق مكة ؟ فقال عليه السلام : بخ بخ تيك افضل المساجد ، من بنى مسجداً كمفحص قطاة (١) بنى الله له بيتاً في الجنة .

لون آخر من مصاديق عمارة المساجد

وفي أمالي الصدوق ومحاسن البرقي عن الصادق عليه السلام عن آبائه (ع) ان رسول الله صلى الله عليه وآله قال : من قمّ (٢) مسجداً كتب الله له عتق رقبة ، ومن اخرج منه ما يقذي عيناً كتب الله عز وجل له كفلين من رحمته .

وعن الكاظم عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : من كنس المسجد يوم الخميس وليلة الجمعة فأخرج من التراب ما يُذر في العين غفر الله له .

وعن انس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : من أسرج في مسجد من مساجد الله سراجاً لم يزل الملائكة وحملة العرش يستغفرون له ما دام في ذلك المسجد ضوء من ذلك السراج .

حرمة المساجد

قال ابو عبدالله عليه السلام : جنبوا مساجدكم البيع والشراء والمجانين والصبيان والأحكام (٣) والضالة والحدود ورفع الصوت .

وعن كتاب المجالس باسناده إلى ابي ذر عن رسول الله صلى الله عليه وآله في وصيته له يا ابا ذر الكلمة الطيبة صدقة ، وكل خطوة تخطوها إلى الصلاة صدقة ، يا ابا ذر

---

(١) المفحص الوضع الذي تكشفه القطاة في الأرض لتبيض فيه ، وهذا التشبيه مبالغة في الصغر .	(٢) هو كنسه من الأوساخ .	(٣) أي القضاء والحكم .

من اجاب داعي الله وأحسن عمارة مساجد الله كان ثوابه من الله الجنة ، قلت : كيف يعمر مساجد الله ؟ قال : لا ترفع فيها الأصوات ، ولا يخاض فيها الباطل ، ولا يشترى فيها ولا يباع ، واترك اللغو ما دمت فيها ، فإن لم تفعل فلا تلومن يوم القيامة إلا نفسك .

وفي الفقيه قال : سمع النبي ﷺ رجلا ينشد ضالة في المسجد فقال : قولوا له : لا ردها الله عليك فإنها لغير هذا بنيت .

وفي حديث المناهي عن جعفر بن محمد ﷺ عن آبائه (ع) قال : نهى رسول الله ﷺ عن التنخع في المساجد ، وقال ﷺ : إن المسجد لينزوي من النخامة كما تنزوي الجلدة من النار إذا انقبضت واجتمعت .

وفي مجمع البحرين النخاعة في المسجد خطيئة .

وعن عبدالله بن سنان قال : سمعت ابا عبدالله ﷺ يقول : من تنخع في المسجد ثم ردها إلى جوفه لم تمر بداء في جوفه إلا أبرأته .

وعن الصدوق مثله ، إلا انه قال : من تنخم .

وخبر اسماعيل بن مسلم الشعيري عن جعفر ﷺ عن ابيه ﷺ عن آبائه (ع) قال : من وقر بنخامته المسجد لقي الله يوم القيامة ضاحكا قد أعطي كتابه بيمينه.

وخبر طلحة بن زيد عن جعفر (ع) عن ابيه (ع) قال : قال رسول الله ﷺ : من رد ريقه تعظيما لحق المسجد جعل الله ذلك قوة في بدنه ، وكتب له بها حسنة ، وحط بها عنه سيئة . وقال ﷺ : لا تمر بداء في جوفه إلا أبرأته.

اكمال الآية

ثم قال تعالى على أثر ذلك : « أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم اعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها أبداً إن الله عنده اجر عظيم » (١) مبيناً ان عمارة المساجد وأمثالها وان عظمت عند الله وبلغ اجرها منه تعالى إلى حد بعيد ، لكنها مع ذلك هي فرع من اصل هناك ، وشرفات قد ركزت على اساس وقاعدة ، ألا وهو الايمان الخالص والعقيدة الراسخة وجهاد النفس لتسمح في الذب عن دين الله والاقتحام في المهالك في سبيل تثبيته وإحكامه وإبادة أعدائه فلا مساواة في عدله سبحانه بين الفرع والأصل ، فان الجهاد بالأموال والأنفس أعظم درجة وأهله هم الفائزون في درجات العلى وهم المبشرون برضائه تعالى عنهم وبالخلود في دار النعيم ولهم عنده أجر عظيم على حد مضامين الآية ، فماذا ترى حد أجره وقدر ثوابه والحالة ان الله العظيم يقول : وله أجر عظيم .

السبب لنزولها وفيمن نزلت

قيل : إنها نزلت في علي بن ابي طالب عليه السلام والعباس بن عبد المطلب وطلحة ابن شيبة ، وذلك انهم افتخروا فقال طلحة : أنا صاحب البيت وبيدي مفتاحه

(١) سورة التوبة الآية ١٩ وما بعدها .

ولو شئت بت فيه ، وقال العباس : أنا صاحب السقاية والقائم عليها ، وقال علي عليه السلام : ما ادري ما تقولان ، لقد صليت إلى القبلة ستة اشهر قبل الناس وأنا صاحب الجهاد .

وقيل : إن علياً عليه السلام قال للعباس : يا عم ألا تهاجر وألا تلحق برسول الله صلى الله عليه وآله ؟ فقال : ألست في افضل من الهجرة أعمر المسجد الحرام وأسقي حاج بيت الله ، فنزلت « أجعلتم سقاية الحاج » الآية .

وروى الحاكم وهو من اعاظم علماء السنة باسناده عن ابن بريدة عن ابيه قال : بينما شيبة والعباس يتفاخران إذ مر بهما علي بن ابي طالب عليه السلام فقال : بماذا تتفاخران ؟ فقال العباس : لقد اوتيت من الفضل ما لم يؤت احد سقاية الحاج ، وقال شيبة : اوتيت عمارة المسجد الحرام ، فقال علي عليه السلام : لقد استحييت لكما فقد اوتيت على صغري مالم تؤتيا ، فقالا : وما اوتيت يا علي ؟ قال : لقد ضربت خراطيمكما بالسيف حتى آمنتما بالله ورسوله ، فقام العباس مغضباً يجر ذيله حتى دخل على رسول الله صلى الله عليه وآله وقال له : أما ترى ما يستقبلني به علي فقال صلى الله عليه وآله : ادعوا لي علياً فدعي له فقال : ما حملك على ما استقبلت به عمك ، فقال : يا رسول الله لقد صدمته بالحق ، فمن شاء فليغضب ، ومن شاء فليرض ، فنزل جبرئيل (١) فقال : يا محمد إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول : اتل عليهم أجعلتم سقاية الحاج ، الآيات ، فقال العباس : إنا قد رضينا ثلاث مرات .

وفي تفسير ابي حمزة ان العباس لما أسر يوم بدر أقبل عليه اناس من المهاجرين والأنصار فعيروه بالكفر وقطيعة الرحم فقال : مالكم تذكرون مساوئنا وتكتمون محاسننا ؟ قالوا : وهل لكم من محاسن ؟ قال : نعم والله لنعمر المسجد

(١) أنزل تعالى في حقه وحياً حيث علم سبحانه سلامة ذاته وصفاء نيته وصحيح قصده في بيان ان الجهاد أفضل لحثهم وغيرهم على ذلك وان لا يغتروا بغيره من سائر الطاعات .

الحرام ، ونحجب الكعبة ، ونسقي الحاج ، ونفك العاني ، فأنزل الله تعالى : « ما كان للمشركين ان يعمروا مساجد الله شاهدين على انفسهم بالكفر اولئك حبطت اعمالهم وفي النار خالدون » (١) ، اي إذا بقوا على كفرهم حتى الممات ، لأن شرط قبول الأعمال مهما كانت وعظمت هو الايمان ، ومن هنا اشترط جميع الفقهاء نية القربة في كل عمل عبادي ، ومن أين للكافر هذه النية ، مع جحوده وكفره بالله تعالى ، او شركه به فان حاله حينئذ كقول المنطقيين : « سالبة بانتفاء الموضوع . اي لا اصل كي يُبنى عليه الفرع .

التكليف الأزلي الغامض

لقد ذكر اهل العدل وغيرهم ان هذه الأرواح قبل دخولها في هذه الأجسام قد حصل لها نوع من التكليف الالهي عندما كانت في عالم الملكوت (٢) وقد اخذ الله سبحانه عليها العهود المكررة ، والمواثيق المغلظة ، بأنه رب واحد لاشريك له فأقروا عموماً . واما الاقرار بالنبوة ثم بالولاية ، فأقروا بهما في احد المواثيق ، ولعله الميثاق الأول ، وهي ارواح خالصة قبل ان تباشر الذرات ، فقد اقرت وأذعنت .

ومن هنا قال (ع) : قد اخذ الله ولاية الأئمة على الناس من يوم العهد والميثاق ، وفي ميثاق آخر انكرت وتلكمت ولم تبادر إلى القبول ، فمن ثَمّ كانت السعادة والشقاوة ، وعلى هذا الأساس وردان السعيد سعيد في بطن امه ، والشقي شقي في بطن امه ، فهو بمعنى بحيث لايتنافى مع عدل الله سبحانه ، كما انه يتركز على هذه القاعدة ايضاً قول امير المؤمنين عليه صلوات رب العالمين : إن الله قد

(١) سورة التوبة الآية ١٧　　(٢) أي في علم الله تعالى الذي لا حد له .

كتب اسامي شيعتنا واسامي آبائهم وامهاتهم من وجد منهم ومن لم يوجد إلى يوم القيامة بصحيفة ، وتلك الصحيفة عندنا ... الخ (١) ، وكان (ع) ربما أتاه آت وقال له : أنا من شيعتك فكذبه وقال : لست ارى لك اسماً في صحيفة الشيعة ، كما انه ربما جاء جاء إلى الصادق (ع) لم يكن قد رآه قبل ذلك فقال (ع) له : مرحباً بشيعتنا ومن اسمه مكتوب في صحيفتنا ، إلى غير ذلك مما يدل على انهم عليهم السلام قد أخذوا ذلك عن جدهم ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى ، بل علمه شديد القوى بما اطلعه عليه من مكنون علمه جل شأنه .

دفع شبهة

ربما يقال كيف يؤخذ الميثاق من الأرواح وهي بعد لم تبلغ مرحلة الادراك (ودفعه) انه ليس من المستبعد من قدرة الله تعالى ان يكون قد أعطاها نوعاً من الشعور والادراك تفهم به معنى التكليف والثواب والعقاب ، وقد صار ذلك التكليف الأزلي الأولي ركيزة لأحكام التكليف الدنيوي .

السند لذلك

فقد روى الصدوق باسناده إلى ابن أذينة عن ابي عبدالله (ع) قال : كنا جلوساً عنده فذكرنا رجلا من اصحابنا فقلنا فيه حدة ، فقال (ع) : من علامة المؤمن ان يكون فيه حدة ، قال : فقلنا : إن عامة اصحابنا فيهم حدة ، فقال (ع) ان الله تبارك وتعالى في ما ذرأهم امر اصحاب اليمين منهم وهم انتم ان يدخلوا

(١) فلعل المراد من الكتابة العلم الراسخ وفي أم الكتاب بحيث لا يعرضها المحو بل الإثبات فقط .

النار فدخلوها فأصابهم وهج فالحدة من ذلك الوهج ، وامر اصحاب الشمال وهم غيركم ان يدخلوا النار فلم يفعلوا فمن ثم كان لهم سمت ووقار (١) .

الدلائل

وقد قامت الأدلة من الآيات والآثار على اخذ الميثاق في العالم الأول .

(اما الآيات) فقد قال عز من قائل : « وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على انفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا ان تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين » (٢) .

فقد قال اكثر المفسرين : معناه ان الله تعالى أخرج ذرية آدم من صلبه كهيئة الذر فعرضهم على آدم فقال : إني آخذ على ذريتك ميثاقهم أن يعبدوني ولايشركوا بي شيئاً وعليّ أرزاقهم ، ثم قال : ألست بربكم قالوا بلى شهدنا انك ربنا فقال للملائكة : اشهدوا فقالوا : شهدنا .

وقيل : إن الله تعالى قد جعلهم فهماء عقلاء يسمعون خطابه ويفهمون كلامه ، ثم ردهم إلى صلب آدم والناس محبوسون بأجمعهم حتى يخرج كل من اخرجه في ذلك الوقت وكل من ثبت على الاسلام فهو على الفطرة الأولى ، ومن كفر وجحد فقد تغير عن الفطرة الأولى ، وهناك مناقشات في الكيفية وأجوبة فضلنا تركها حيث كان الأصل ثابتاً .

---

(١) كما انه (ع) قد ورد أن رجلا من مواليه كان يعاتبه على قعوده عن الأمر مع وجود شيعة له كثيرة يطيعونه في كل ما يأمر به وكان في الدار تنور مسجور فأمر أحد أصحابه عليه السلام بالقاء نفسه في التنور حتى خمدت النار فوجد جاثياً ذاكراً لله تعالى فقال (ع) : فيكم مثله ، قال : لا .

(٢) سورة الأعراف الآية ١٧٢ .

واما المدرك من الأخبار

قال صدر المتألهين في كتابه المشاعر ما هذا نصه : ونقل الشيخ المفيد في كتاب المقالات من كتاب نوادر الحكمة لأصحاب التوحيد مستنداً إلى ليث بن ابي سليم عن ابن عباس قال : سمعت رسول الله ﷺ لما أسري به إلى السماء السابعة ثم اهبط إلى الأرض يقول لعلي بن ابي طالب (ع) : يا علي إن الله تبارك وتعالى كان ولا شيء معه فخلقني وخلق روحي من نور جماله وخلقك من نور جلاله فكنا أمام عرش رب العالمين نسبح الله ونحمده ونهلله وذلك قبل ان يخلق السماوات والأرض ، فلما اراد أن يخلق آدم خلقني وإياك من طينة عليين وعجنت بذلك النور وغمسنا في جميع الأنهار وأنهار الجنة ، ثم خلق آدم واستودع صلبه تلك الطينة والنور ، فلما خلقه واستخرج ذريته من ظهره فاستنطقهم وقررهم بربوبيته فأول ما خلق الله وأقر له بالتوحيد والعدل أنا وانت والنبيون على قدر منازلهم وقربهم من الله تعالى ... الحديث .

ايضاحات لبعض الفقرات

لعل المراد من الأنهار في هذا الحديث العلوم الحقة ، ومعنى الغمس فيها هو ان جعل فيها الاستعداد لتلقيها ليكونوا هم الراسخون فيها ، والمراد من استيداع الطينة في صلبه ايضاً ، هو جعل الاستعداد والنور والقابلية في ظهور تلك الطينة من غسله فيها ، والمراد من قوله : واستخرج ذريته من ظهره هو مشاهدته إياها في العالم العقلي وتمييزها عنده عند اتصاله به ويكون العالم العقلي

هو الظهر له ، وكذلك استنطاقهم وتقريرهم بلسان العقل والجوهر لا لسان المادة والعرض ، بل ما هو لائق بذلك العالم ، وعلى هذا المعنى تنزل جميع الألفاظ الواردة في بقية الأخبار لهذا الباب .

ومن الأخبار ما رواه الكليني بسند صحيح عند حبيب السجستاني قال : سمعت ابا جعفر يقول : إن الله عز وجل لما اخرج ذرية آدم من ظهره ليأخذ عليهم الميثاق بالربوبية له ، وبالنبوة لكل نبي ، فكان اول من اخذ عليهم الميثاق بنبوته محمد بن عبدالله ﷺ ثم قال لآدم : ما ترى ؟ قال : فنظر آدم إلى ذريته وهم ذر قد ملأوا السماء قال آدم : ما اكثر ذريتي ولأمر ما خلقتهم فما تريد منهم بأخذك الميثاق عليهم قال الله عز وجل : يعبدونني لايشركون بي شيئاً ويؤمنون برسلي ويتبعونهم ، قال آدم : يارب فمالي ارى بعض الذر أعظم من بعض وبعضهم له نور وبعضهم ليس له نور ، فقال عز وجل : كذلك خلقتهم لأبلوهم في كل حالاتهم قال آدم : يا رب أفتأذن لي في الكلام فأتكلم ، قال الله عز وجل : تكلم فان روحك من روحي وطبيعتك خلاف كينونتي ، قال آدم : يا رب فلو كنت خلقتهم على مثال واحد وطبيعة واحدة وجبلة واحدة وألوان واحدة واعمار واحدة وأرزاق سواء لم يبغ بعضهم على بعض ولم يكن بينهم تحاسد ولا تباغض ولا اختلاف في شيء من الأشياء ، قال الله عز وجل : يا آدم بروحي نطقت وبضعف قوتك تكلفت مالا علم لك به وأنا الخالق العليم بعلمي خالفت بين خلقهم وبمشيتي يمضي فيهم أمري ، وإلى تدبيري وتقديري صائرون لا تبديل لخلقي ، إنما خلقت الجن والانس ليعبدوني ، وخلقت الجنة لمن عبدني وأطاعني منهم واتبع رسلي ولا أبالي ، وخلقت ذريتك من غير حاجة بي اليك واليهم وإنما خلقتك وخلقتهم لأبلوك وأبلوهم أيما احسن عملاً في دار الدنيا في حياتكم وقبل مماتكم ، فلذلك خلقت الدنيا والآخرة والحياة والموت والطاعة والمعصية والجنة والنار ،

وكذلك أردت في تقديري وتدبيري وبعلمي النافذ فيهم خالفت بين صورهم وأجسامهم وألوانهم واعمارهم وارزاقهم وطاعتهم ومعصيتهم ، فجعلت منهم الشقي والسعيد والبصير والأعمى والقصير والطويل والجميل والذميم والعالم والجاهل والغني والفقير والمطيع والعاصي والصحيح والسقيم ومن لا عاهة به ، فينظر الصحيح إلى الذي به عاهة فيحمدني على عافيته وينظر الذي به عاهة إلى الصحيح فيدعوني ويسألني ان اعافيه ، ويصبر على بلائي فأثيبه جزيل عطائي ، وينظر الغني إلى الفقير فيحمدني ويشكرني ، وينظر الفقير إلى الغني فيدعوني ويسألني ، وينظر المؤمن إلى الكافر فيحمدني على ما هديته ، فلذلك خلقتهم لأبلوهم في السراء والضراء وفيما اعافيهم وفيما ابتليهم وفيما اعطيهم وفيما امنعهم ، وأنا الله الملك القادر ولي ان امضي جميع ما قدّرت على ما دبرت ولي ان اغير من ذلك ما شئت إلى ما شئت وأقدم من ذلك ما اخرت وأؤخر ما قدمت من ذلك وأنا الله الفعال لما اريد لا أسأل عما افعل وأنا اسأل خلقي عما هم فاعلون .

تكليف أهل الشمال بدخول النار

فقد جاء في كثير من الروايات ان الله تعالى قد كلف بعض عباده امتحاناً لهم بدخول النار وهم المعبر عنهم بأهل الشمال .

فعن الصادق (ع) في حديث طويل ان الله لما اراد ان يخلق آدم خلق تينك الطينتين ثم فرقها فرقتين ، فقال لأصحاب اليمين : كونوا خلقاً باذني فكانوا خلقاً بمنزلة الذر يسعى ، وقال لأهل الشمال : كونوا خلقاً فكانوا خلقاً بمنزلة الذر يدرج ، ثم رفع لهم ناراً فقال لهم : ادخلوها باذني فكان اول من دخلها محمد ﷺ ، ثم اتبعه اولوا العزم من الرسل وأوصيائهم وأتباعهم ، ثم قال لأصحاب

الشمال : ادخلوها باذني ، فقالوا : ربنا خلقتنا لتحرقنا فعصوا ، فقال لأصحاب اليمين : اخرجوا باذني من النار نخرجوا لم تكلم النار منهم كلماً ولم تؤثر فيهم اثراً فلما رآهم اصحاب الشمال قالوا : ربنا نرى اصحابنا قد سلموا فأقلنا ومرنا بالدخول ، قال : قد اقلتكم فادخلوها ، فلما دنوا واصابهم الوهج رجعوا فقالوا : يا ربنا لاصبر لنا على الاحتراق ، فعصوا فأمرهم بالدخول ثلاثاً ، كل ذلك يعصون ويرجعون ، وامر اولئك ثلاثاً كل ذلك يطيعون ويدخلون ويخرجون ، فقال لهم : كونوا طيناً باذني نخلق منه آدم ، قال : فمن كان من هؤلاء لا يكون من هؤلاء ، ومن كان من هؤلاء لا يكون من هؤلاء ... الحديث .

وفيه دلالة على ان هذا التكليف للأرواح المتعلقة بالذرات قبل ان يخلق الله آدم ، فلما كلفها وتبين حالها جمعها وخلق منها آدم وطينته .

واما اخذ العهد والميثاق عليهم بقوله : ألست بربكم . فالذي يظهر من الحديث السابق انه قد وقع بعد هذا التكليف وبعد ان خلق آدم وصوره فأخرج تلك الذرات من ظهره وعلق بها الأرواح فأخذ عليها العهد والميثاق .

وفي هذا إشارة لطيفة وعبرة ظريفة إلى ان الذي كان اعظم حالاته ذرة لم يحسن منه التجبر والتكبر وعدم امتثال اوامر خالقه ونواهيه ، فكيف به إذا تأمل حالاته الأخرى من كونه منياً تارة ودماً اخرى ، وإلى ان يصل إلى حالة كونه حاملا للنجاسة في بطنه تدور معه حيثما دار ، وإلى حالته الأخيرة من كونه ميتة وجيفة مستقذرة ، ووجوب الغسل على كل من مسه ولاقاه فليعتبر بنفسه . وحيث انهم قد استسهلوا الاقرار بالربوبية لعدم المشقة فيه عليهم فقبلوا التكليف به ، ولما اراد سبحانه امتحانهم وإظهار ما هم عليه باطناً امرهم بما فيه كلفة واراد منهم دخول النار فصاروا من هناك فرقتين بالاختيار والعلم والعقل والتكليف .

الحجر الأسعد والميثاق

وقد ورد ان هذه العهود التي اخذها سبحانه على الخلائق قد اودعها الحجر الأسعد او (الأسود) .

وفي الخبر ان الله سبحانه لما اخذ الميثاق له بالربوبية ولمحمد ﷺ بالنبوة ولعلي بالوصية اصطكت فرائص الملائكة ، فأول من اسرع إلى الاقرار بذلك هو الحجر ، فلذلك اختاره الله عز وجل وألقمه الميثاق وهو يجيء يوم القيامة وله لسان ناطق وعين ناظرة يشهد لكل من وافاه إلى ذلك المكان وحفظ الميثاق ، وانه إنما اخرج الحجر من الجنة ليذكر آدم ما نسي من العهد والميثاق (١) .

وقد ورد ايضاً ان الحجر إنما يقبل ويستلم ليؤدي إلى الله عز وجل العهد الذي اخذ عليهم في الميثاق .

وقد ذكر ايضاً ان فلسفة وضع الحجر في الركن الذي هو فيه دون غيره من سائر الأركان انه المكان الذي اخذ فيه سبحانه العهد والميثاق على العباد .

وكان عمر إذا قبل الحجر قال : إني لأعلم انك حجر لا تضر ولا تنفع ولكن رسول الله ﷺ قبلك فأقبلك لتقبيله إياك ، فلما بلغ كلامه إلى علي (ع) قال له : إن هذا الحجر ملك عظيم المحل يشهد لمن صافحه في يوم القيامة .

ومن هنا قد ورد انه إذا استلم احد الحجر يقول : أمانتي اديتها وميثاقي تعاهدته لتشهد لي بالموافاة ... الخ .

وورد ايضاً إنما يستلم الحجر ، لأن مواثيق الخلق فيه ، وكان اشد بياضاً

---

(١) أي لعلمه بما أخذ الله عز وجل على الحجر من الميثاق وحفظه له فيتذكر ما وقع هو فيه من عدم الحفظ والنسيان ويندم باستمرار .

من الثلج فأسود من خطايا بني آدم ، وانه لولا ما مسه من ارجاس الجاهلية ما مسه ذو عاهة إلا وبرأ .

فلسفة التنافر والتآلف في هذا العالم

فقد ذكروا ان السبب فيها هو التنافر والتآلف في عالم الذر واخذ الميثاق ولهذا قال الصادق (ع) لشيعته : لم تتواخوا على هـــذا الأمر وإنما تعارفتم عليه (١) ، وقد روي ان رجلا سأل الصادق (ع) فقال : يابن رسول الله اني ارى الرجل في النظرة الأولى ولم اره قبل ذلك فيميل قلبي اليه وأحبه من تلك الساعة واظن اني رأيته قبل ذلك واقول : لا ادري اني رأيت هذا الرجل وان بعض الناس اعاشره واجاوره مدة مديدة من العمر ، وكلما رأيته كأني غريب منه وهو غريب مني . فأجاب (ع) بما ملخصه ان الأرواح قد توافقت وائتلفت في العالم الأول ، وتناكرت واختلفت فيه ايضاً (٢) ، ثم نسيت احوال ذلك العالم بما حصل لها من الاشتغال بعلائق هذه الأبدان ، لـكن إذا نظرت إلى من الفته في العالم القديم تشوقت اليه وعرفته معرفة ما ، ومالت اليه بالألفة ، وإذا رأت من تناكرت معه في ذلك العالم لم تنعطف عليه في هذا العالم ولو خالطته كثيراً وعاشرته طويلا .

---

(١) ويعني به انكم لم تتواخوا على هذا الدين ومحبة أهل البيت (ع) في هذا العالم من باب الصدفة ومن قبل انفسكم ولـكن الله تعالى آخى بينكم في عالم الأرواح وانتم في هذا العالم تجددون تلك الاخوة والمحبة وتتعارفون وتتآلفون .

(٢) ربما عنى (ع) اتفاقها بالاعتراف بالربوبية والنبوة واختلافها في الامامة .

الفرح والحزن لغير سبب ظاهر

فقد ورد عنهم عليهم السلام في بيان ذلك إذا حدث ، ان الانسان يكون له أخ ومحب بعيد عنه ويعرضه اسباب الحزن والفرح على بعده والروح من ههنا يصير لها نوع روحاني من الاطلاع على حزن ذلك الأخ البعيد وفرحه فتفرح وتحزن في مكانها ، مع ان السبب غير ظاهر لها ، بل ربما ان صاحبها يستنكر على نفسه ويقول : إن لي في هذا اليوم فرحاً او حزناً لا اعرف سببه ، وذلك أمر محسوس ، ومصدر ذلك كله قوله ﷺ : الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف .

وقد أجمعت العامة والخاصة على نقل هذا الحديث واستفاضته فيما بينهم وفسروه بما بيناه من معناه .

قال ابن الأثير : مجندة أي مجموعة ، كما يقال ألوف مؤلفة ، ومعناه الاخبار منه ﷺ عن مبدأ تكوين الأرواح وتقدمها على الأجساد ، وانها خلقت من اول خلقها على قسمين من ائتلاف واختلاف كالجنود المجموعة إذا تقابلت وتواجهت ، ومعنى تقابل الأرواح هو ما جعلها الله عليه من السعادة والشقاوة والأخلاق في مبدأ الخلق ، ولهذا ترى الخيّر يحب الأخيار ويميل اليهم ، والشرير يحب الأشرار ويميل اليهم ، وكما قال الشاعر : إن الطيور على أشكالها تقع .

وقال آخر : وكل إلف لالفه يلف .

وروي عن الباقر ؑ انه قال : إن العباد إذا ناموا خرجت ارواحهم إلى السماء فما رأت الأرواح في السماء فهو الحق ، وما رأت في الهواء فهو الأضغاث ، ألا وإن الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف ،

فاذا كانت الروح في السماء تعارفت وتباغضت ، فاذا تعارفت في السماء تعارفت في الأرض ، وإذا تباغضت في السماء تباغضت في الأرض .

أصل الطينة وفرعها

فان الله سبحانه بمقتضى حكمته خلق طينة المؤمن من أعلى عليين وهو أعلى مكان في الجنة ، وخلق طينة الكافر من سجيل وهي أسفل مكان في النار ، لكنه خلط بين الطينتين لمصالح كثيرة (١) .

روى الصدوق (رض) في آخر كتاب علل الشرايع مسنداً إلى ابي اسحاق الليثي قال : قلت لأبي جعفر (ع) : يابن رسول الله أخبرني عن المؤمن المستبصر إذا بلغ في المعرفة و كمل هل يزني ؟ قال : اللهم لا ، قلت : فيلوط ، قال : اللهم لا قلت : فيسرق ، قال : اللهم لا ، قلت : فيشرب الخمر ، قال : لا ، قلت : فيأتي كبيرة من هذه الكبائر ، او فاحشة من هذه الفواحش ، قال : لا ، قلت : فيذنب ذنباً قال : نعم هو مؤمن مذنب ملم ، قلت : ما معنى ملم ؟ قال : الملم بالذنب الذي لا يلزمه ولا يصر عليه ، قال : فقلت : سبحان الله ما أعجب هذا لا يزني ولا يلوط ولا يسرق ولا يشرب الخمر ولا يأتي كبيرة من الكبائر ولا فاحشة ، فقال : لا عجب من امر الله إن الله عز وجل يفعل ما يشاء ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون فمم عجبت يا ابراهيم سل ولا تستحسر (٢) ولا تستنكف ، فان هذا العلم لا يتعلمه مستكبر ولا مستحسر ، قلت : يابن رسول الله أني أجد من

(١) لا يبعد أن يكون كل ذلك سواء كان هذا أوما يأتي من بعده كنايات عن طيب النفس وخبثها ، ومعنى خلق الله تعالى لها من الطينة هو علمه الأزلي بما هي صائرة اليه وما ينتج من اعمالها .

(٢) أي لا تعي استفعال مشتق من حسر إذا أعيا وتعب .

شيعتكم من يشرب ويقطع الطريق ويخيف السبيل ويزني ويلوط ويأكل الربى ويرتكب الفواحش ، ويتهاون بالصلاة والصيام والزكاة ويقطع الرحم ويأتي بالكبائر فكيف هذا ولِمَ ذاك (١) ؟ . فقال : يا ابراهيم وهل يختلج في صدرك شيء غير هذا ؟ قلت : نعم يابن رسول الله أخرى اعظم من ذلك ، فقال : ماهي يا ابا اسحاق ؟ قال : فقلت : يابن رسول الله وأجد من اعدائكم ومن ناصبيكم من يكثر من الصلاة ومن الصيام ويخرج الزكاة ويتابع بين الحج والعمرة ، ويحرص على الجهاد ويصل الأرحام ويقضي حقوق إخوانه ويواسيهم من ماله ، ويتجنب شرب الخمر والزنا واللواط وسائر الفواحش فمم ذاك فسره لي يابن رسول الله ، وبرهنه وبينه فقد والله كثر فكري وأسهر ليلي وضاق ذرعي ، فتبسم الباقر ﷺ ثم قال : خذ اليك يا ابراهيم بياناً شافياً فيما سألت ، وعلماً مكنوناً من خزائن علم الله وسره ، اخبرني يا ابراهيم كيف تجد اعتقادهما ؟ قلت : يابن رسول الله أجد محبيكم وشيعتكم على ما هم فيه مما وصفته من افعالهم لو أعطي احدهم ما بين المشرق والمغرب ذهباً وفضة لأن يزول عن ولايتكم ومحبتكم إلى موالاة غيركم وإلى محبتهم ما زال ولو ضربت خياشيمه بالسيوف فيكم ولو قتل فيكم ، ولا ارتدع ولا رجع عن محبتكم وولايتكم وأرى المبغض لكم على ما هو عليه مما وصفته من افعالهم لو اعطي احدهم ما بين المشرق والمغرب ذهباً وفضة أن يزول عن محبة الطواغيت وموالاتهم إلى موالاتكم ما فعل ولا زال ، ولو ضربت خياشيمه بالسيوف فيهم ، ولو قتل فيهم ما ارتدع ولا رجع ، وإذا سمع احدهم منقبة لكم وفضلا اشمأز من ذلك وتغير لونه ويرى كراهية ذلك في وجهه بغضاً لكم ومحبة لهم ، قال : فتبسم الباقر ﷺ ثم قال : يا ابراهيم من ههنا هلكت العاملة الناصبة(٢)

(١) أي كيف صدرت منه هذه الذنوب ولم نفيتها عنه سابقاً مع وقوعها منه ظاهراً

(٢) الناصبة العاملة والمراد انها عملت في الدنيا ونصبت في اعمال لا تجديها نفعاً —

تصلى ناراً حامية تسق من عين آنية ، ومن أجل ذلك قال الله عز وجل : وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءاً منثوراً ، ويحك يا ابراهيم أتدري ما السبب والقصة في ذلك ؟ وما الذي قد خفي على الناس منه ؟ قلت : يابن رسول الله فبينه لي واشرحه وبرهنه ، قال : يا ابراهيم إن الله تبارك وتعالى لم يزل عالماً قديماً خلق الأشياء لا من شيء ، ومن زعم ان الله عز وجل خلق الأشياء من شيء فقد كفر، لأنه لو كان ذلك الشيء الذي خلق منه الأشياء قديماً معه في أزليته وهويته كان ذلك الشيء أزلياً ، بل خلق عز وجل الأشياء كلها لا من شيء ، ومما خلق الله عز وجل ارضاً طيبة (١) ثم فجر منها ماءاً عذباً زلالا فعرض عليها ولايتنا اهل البيت فقبلتها ، فأجرى ذلك الماء عليها سبعة أيام ثم طبقها وعمها ، ثم نضب ذلك الماء عنها فأخذ من صفوة ذلك الطين طيناً فجعله طين الأئمة عليهم السلام ثم أخذ ثفل ذلك الطين فخلق منه شيعتنا ، ولو ترك طينكم يا ابراهيم على حاله كما ترك طيننا لكنتم انتم ونحن شيئاً واحداً . قلت : يابن رسول الله فما فعل بطيننا ؟ قال : اخبرك يا ابراهيم خلق الله عز وجل بعد ذلك أرضاً سبخة خبيثة منتنة ثم فجر منها ماءاً أجاجاً آسناً مالحاً فعرض عليها ولايتنا اهل البيت فلم تقبلها فأجرى ذلك الماء عليها سبعة أيام حتى طبقها وعمها ، ثم نضب ذلك الماء عنها ، ثم أخذ عصارة ذلك الطين فخلق من الطغاة وأئمتهم ، ثم مزجه بثفل طينتكم ولو ترك طينهم على حاله ولم يمزجه بطينكم لم يشهدوا الشهادتين ولا صلوا ولا صاموا ولا زكوا ولا حجوا ولا أدوا أمانة ولا أشبهوكم في الصور .

وليس على المؤمن اكره من ان يرى صورة عدوه مثل صورته ، قلت :

— وقيل : إن معناها انها عاملة في النار عملا تتعب فيه وهو جرها للسلاسل والأغلال والصعود والهبوط .

(١) فالأشياء كلها من الطينة والطينة لا من شيء فالأشياء إذاً كلها لا من شيء وإنما هي بقوله : كن فيكون .

يابن رسول الله فما صنع بالطينتين ؟ قال : مزج بينهما بالماء الأول والماء الثاني ، ثم عركها عرك الأديم ، ثم اخذ من ذلك قبضة فقال : هذه إلى الجنة ولا أبالي وأخذ قبضة اخرى وقال : هذه إلى النار ولا أبالي ، ثم خلط بينهما فوقع من سنخ المؤمن وطينته على سنخ الكافر وطينته ، ووقع من سنخ الكافر وطينته على سنخ المؤمن وطينته ، فما رأيته من شيعتنا من زنا او لواط او ترك صلاة اوصيام او حج او جهاد او خيانة او كبيرة من هـذه الكبائر فهو من طينة مبغضنا وناصب العداوة لنا ومن عنصره الذي قد مزج فيه ، لأن من عنصره اكتساب المآثم والفواحش والكبائر ، وما رأيت من مبغضنا ومواظبته على الصلاة والصيام والزكاة والحج والجهاد وابواب البر ، فهو من طينة المؤمن وسنخه الذي قد مزج فيه ، لأن سنخ المؤمن وعنصره وطينته اكتساب الحسنات واستعمال الخير واجتناب المآثم ، فاذا عرضت هذه الأعمال كلها على الله عز وجل قال : أنا عدل لا اجور ، ومنصف لا اظلم ، وحكم لا أحيف ولا أميل ولا أشطط ، الحقوا الأعمال السيئة التي اجترحها المؤمن لسنخ المبغض وطينته ، والحقوا الأعمال الحسنة الطيبة التي اكتسبها المبغض بسنخ المؤمن وطينته ، ردوا كلاً إلى أصله ، فاني أنا الله لا إله إلا أنا عالم السر وأخفى ، وأنا المطلع على قلوب عبادي لا أحيف ولا أظلم ولا ألزم أحداً إلا بما عرفته منه قبل ان أخلقه .

التطبيق والايضاح

ثم قال الباقر ﷺ : اقرأ هذه الآية ، قلت : يابن رسول الله أي آية ؟ قال : قوله تعالى : « قال معاذ الله ان نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذاً لظالمون » ؛ هو في الظاهر ما تفهمونه ، وهو في الباطن هذا بعينه ، يا ابراهيم

إن للقرآن ظاهراً وباطناً ومحكماً ومتشابهاً وناسخاً ومنسوخاً . ثم قال ﷺ : اخبرني يا ابراهيم عن الشمس (١) إذا طلعت وبدا شعاعها في البلدان أهو باين من القرص ؟ قلت : في حال طلوعه باين ، قال : أليس إذا غابت الشمس اتصل ذلك الشعاع بالقرص حتى يعود اليه ، قلت : نعم ، قال : كذلك يعود كل شيء إلى سنخه وجوهره وأصله ، فاذا كان يوم القيامة نزع الله سنخ المبغض وطينته مع ثقله وأوزاره من المؤمن ، فيلحقها كلها بالمبغض وينزع سنخ المؤمن وطينته مع حسناته وأبواب بره واجتهاده من المبغض ، فيلحقها كلها بالمؤمن ، أفترى ههنا ظلماً او عدواناً ، قلت : لا يابن رسول الله ، قال : هذا والله القضاء الفاصل ، والحكم القاطع ، والعدل البين ، لا يسأل عما يفعل ، وهم يسألون . هذا يا ابراهيم الحق من ربك فلا تكن من الممترين ، قال الليثي : فقلت يابن رسول الله ما اعجب هذا ، حسنات اعدائكم فترد على شيعتكم ، وتأخذ سيئات محبيكم فترد على مبغضكم قال : أي والله الذي لا إله إلا هو فالق الحبة ، وباريء النسمة ، وفاطر الأرض والسماء ، ما أخبرتك إلا بالحق ، ولا أنبأتك إلا بالصدق ، « وما ظلمهم الله » « وما الله بظلام للعبيد » وإن ما أخبرتك به لموجود في القرآن كله ، قلت : هذا بعينه يوجد في القرآن ، قال : نعم يوجد في اكثر من ثلاثين موضعاً في القرآن ، أتحب ان أقرأ ذلك عليك ؟ قلت : بلى يابن رسول الله ، فقال : قال الله عز وجل : « قال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وماهم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم » الآية .

---

(١) المراد أن شعاع الشمس بعد طلوعها وارتفاعها يبين وينفصل من قرصها ويصل إلى الأقطار والبلدان فاذا غابت يتصل الشعاع بها ويغيب معها ، فكذلك حال طينة المبغض مع سيئاتها وأوزارها تنفصل عن المؤمن بعد الموت والمغيب عن الدنيا ، وتعود إلى المبغض وأعمال طينة المؤمن تنفصل عن المبغض أيضاً وتعود اليه .

ثم قال ﷺ : أزيدك يا ابراهيم ؟ قلت : بلى يابن رسول الله ، قال : « ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون » أتحب ان ازيدك ؟ قلت : بلى يابن رسول الله ، قال : « فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيما » يبدل الله سيئات شيعتنا حسنات ، ويبدل الله حسنات اعدائنا سيئات ، وجلال الله ووجه الله إن هذا لمن عدله وإنصافه ، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه وهو السميع العليم . ألم أبين لك امر المزج والطينين من القرآن ؟ قلت : بلى يابن رسول الله ، قال : اقرأ يا ابراهيم « الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة هو اعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض » يعني من الأرض الطيبة والأرض المنتنة ، فلا تزكوا انفسكم هو اعلم بمن اتقى ؛ يقول : لا يفتخر احدكم بكثرة صلاته وصيامه وزكاته ونسكه ، لأن الله عز وجل اعلم بمن اتقى منكم ، فان ذلك من قبيل اللمم وهو المزج ، ازيدك يا ابراهيم ، قلت : بلى يابن رسول الله قال : « كما بدأكم تعودون فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة إنهم اتخذوا الشياطين اولياء من دون الله » يعني أئمة دون أئمة الحق ، ويحسبون انهم مهتدون خذها اليك يا ابا اسحاق فوالله إنه لمن عزيز احاديثنا ، وباطن سرائرنا ، ومكنون خزائننا ، وانصرف ولا تطلع على سرنا احداً إلا مؤمناً مستبصراً فانك إن اذعت سرنا بليت في نفسك ومالك واهلك وولدك .

(وعن علي بن الحسين ﷺ) قال : إن الله خلق النبيين من طينة عليين قلوبهم وابدانهم ، وخلق قلوب المؤمنين من تلك الطينة ، وجعل ابدان المؤمنين من دون ذلك ، وخلق الكفار من طينة سجين قلوبهم وابدانهم فخلط بين الطينتين فمن هذا يلد المؤمن الكافر ويلد الكافر المؤمن ، ومن هنا يصيب المؤمن السيئة ، ومن هنا يصيب الكافر الحسنة ، فقلوب المؤمنين تحن إلى ما خلقوا منه ، وقلوب

الكافرين نحن إلى ما خلقوا منه .

وقال الصادق ﷺ : الطينات ثلاث : طينة الأنبياء ، والمؤمن من تلك الطينة ، إلا ان الأنبياء هم من صفوتها هم الأصل ولهم فضلهم والمؤمنون الفرع من طين لازب ، كذلك لا يفرق الله عز وجل بينهم وبين شيعتهم .

وقال ﷺ : طينة الناصب من حمأ مسنون ، واما المستضعفون فمن تراب لا يتحول مؤمن عن إيمانه ، ولا ناصب عن نصبه ، ولله فيهم المشية .

وفي خبر آخر عن الصادق ﷺ قال : الله عز وجل لما اراد ان يخلق آدم ﷺ بعث جبرئيل في اول ساعة من يوم الجمعة فقبض قبضة من السماء السابعة إلى السماء الدنيا ، واخذ من كل سماء تربة (١) وقبض قبضة من الأرض السابعة العليا إلى الأرض السابعة القصوى ، فأمر الله عز وجل كلمته (٢) فأمسك القبضة الأولى بيمينه والقبضة الأخرى بشماله ففلق الطين فلقتين فذرأ من الأرض ذرواً (٣) ومن السماوات ذرواً ، فقال للذي بيمينه : منك الرسل والأنبياء والصديقون والمؤمنون والسعداء ومن اريد كرامته (٤) فوجب لهم ما قال كما قال ، وقال للذي بشماله : منك الجبارون والمشركون والكافرون والطواغيت ومن اريد هوانه وشقوته فوجب لهم ما قال كما قال ، ثم إن الطينتين اختلطتا جميعاً ، وذلك قول الله عز وجل « فالق الحب والنوى » فالحب طينة المؤمنين التي القى الله تعالى عليها محبته ، والنوى طينة الكافرين الذين نأوا عن كل خير ، وإنما سمي النوى لأنه كان ناء عن كل خير وتباعد عنه ، وقال الله عز وجل : « يخرج الحي من الميت ويخرج

(١) فترى من كلماتهم عليهم السلام التقارب في المقصود وان اختلفت بعض ألفاظها .

(٢) المراد من كلمته عز وجل (جبرئيل) .

(٣) ذرواً أي خلقاً كما في قوله تعالى : « ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس » أي خلقنا

(٤) أي من سبق علمه تعالى به بأنه يستحق الكرامة وكذلك معنى ما بعده

الميت من الحي » فالحي الذي يخرج من الميت هو المؤمن الذي تخرج من طينة الكافر ، والميت الذي يخرج من الحي هو الكافر الذي يخرج من طينة المؤمن ، فالحي هو المؤمن والميت هو الكافر ؛ وذلك قوله عز وجل : « او من كان ميتاً فأحييناه » فكان موته اختلاط طينته مع طينة الكافر، وكان حياته حين فرّق الله عز وجل بينهما ، كذلك يخرج الله عز وجل المؤمن في الميلاد من الظلمة بعد دخوله فيها إلى النور، ويخرج الكافر من النور إلى الظلمة بعد دخوله إلى النور وذلك قوله عز وجل : « لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين » .

وقال الصادق (ع) : إن الله خلقنا من عليين ، وخلق ارواحنا من فوق ذلك ، وخلق ارواح شيعتنا من عليين وخلق اجسادهم من دون ذلك ، فمن اجل ذلك كانت القرابة بيننا وبينهم ، وقلوبهم تحن الينا .

وعن الصادق ﷺ ايضاً ان الله خلقنا من نور عظمته ، ثم صور خلقنا من طينة مخزونة مكنونة تحت العرش ، فأسكن ذلك النور فيها فكنا نحن خلقاً وبشراً نورانيين ، لم يجعل في مثل الذي خلقنا منه نصيباً ، وخلق ارواح شيعتنا من طينتنا وابدانهم من طينة مخزونة اسفل من تلك الطينة ، ولم يجعل الله لأحد في مثل الذي خلقهم منه إلا للأنبياء : ولذلك صرنا نحن . وهم الناس (١) وسائر الناس همج الناس وإلى النار .

ورود شبهة الجبر

ربما يقال بناء على ما ذكرت من كيفية الخلق واصل الطينة ، وإن بعض الخلق خلق من طينة طيبة ، وبعضهم الآخر خلق من طينة خبيثة ، فاذاً يكون

(١) أي الذين يستحقون إطلاق اسم الناس عليهم .

صاحب الطينة الطيبة مجبوراً على طاعته فلا يستحق الثواب ، وصاحب الطينة الخبيثة يكون مجبوراً على معصيته فلا يستحق الثواب .

الجواب عن ذلك

إنه قد ظهر من مطاوي ما ذكرناه أن خلق الأرواح قد كان قبل خلق عالم الذر ، وان الله تعالى قد أجج ناراً وكلف تلك الأرواح بالدخول فيها ، فمنهم من بادر إلى الامتثال ودخل دون أي توقف ، وما هو إلا للايمان بالله سبحانه حق الايمان ، ومنهم من تأخر عنه ولم يأت به ، وما هو إلا بعكس الأول وللتشكيك او عدم التسليم ، فمن هناك جاء الايمان وجاء الكفر ، ولكنه كان بالاختيار ، ولما أراد الله سبحانه ان يخلق لتلك الأرواح أبداناً تتعلق بها جعل لكل نوع منها نوعاً من الأبدان مناسباً له ، فجعل للأرواح الطيبة ، وقد طابت باختيارها أبداناً طيبة مثلها ، وجعل للأرواح الخبيثة ، وقد خبثت باختيارها أبداناً خبيثة مثلها ، فيكون ما صنع الله سبحانه بها جزاء منه لذلك التكليف السابق فلا جبر حينئذ .

النواهي الشرعية ألطاف

ومن ألطافه تعالى انه قد نهى عباده ، سواء كان في كتابه المعظم او على لسان رسوله الكريم عن كل ما يوجب قساوة القلب ، ويباعد عن قدسية الرب ومن أهمها جمع المال والاكثار منه ، وقد تقدم الكلام فيه مفصلا ، من حيث انه قلما يجتمع من حلال ، كما قال الصادق ﷺ : ما اجتمعت عشرة آلاف من حلال

قط ، وقلما تخرج من الأموال حقوقها المفروضة عليها لو كانت كثيرة كما قال ﷺ ايضاً : لا تتعرضوا لجمع الأموال ، فانه كلما كثرت الأموال كثرت الحقوق فيها وإخراجها عسر جداً .

وقال أبو ذر يوماً لعثمان مؤنباً له ، حيث رأى سوء تصرفاته بأموال المسلمين : أما تذكر اني وانت دخلنا على رسول الله ﷺ عشاء فرأيناه كئيباً حزيناً فسلمنا عليه ، ثم لم يكلمنا ، فلما أصبحنا أتيناه فرأيناه ضاحكا مستبشراً فقلنا له : نفديك بآبائنا وأمهاتنا دخلنا عليك البارحة فرأيناك كئيباً حزيناً ، وعدنا اليك اليوم فرأيناك ضاحكا مستبشراً ، فقال ﷺ : نعم كان قد بقي عندي من فيء المسلمين اربعة دنانير لم اكن قسمتها وخفت ان يدركني الموت وهي عندي وقد قسمتها اليوم فاسترحت .

هذا قول من يملك رقاب المسلمين ، فكيف إذاً بمن قد تغلب عليهم وابتزهم حقوقهم .

(ومنها) اللهو والطرب ، وقد نهى عنه الشارع بأشد تعبير وأقطع لهجة

في حرمة الغناء

ولنذكر منها مواضع من القرآن المجيد تنبيهاً للمغرورين ، بأن الغناء قد رخص فيه رب العالمين . قال تعالى : « وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون » (١) . وقال تعالى : « إنما الدنيا لعب ولهو وان تؤمنوا وتتقوا يؤتكم اجوركم » (٢) . وقال تعالى : « وإذا رأوا

(١) سورة الأنعام الآية ٣٢ . (٢) سورة محمد الآية ٣٨ .

تجارة او لهواً انفضوا اليها وتركوك قائماً » (١) . وقال تعالى : « الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومنا هذا »(٢) وقال تعالى : « لو أردنا ان نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين » (٣) وقال تعالى : « وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرتهم الحياة الدنيا » (٤) وقال تعالى : « اعلموا إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد » (٥) .

وإن الغناء من أظهر مصاديق اللعب واللهو ، وكما تجده سبحانه تارة يقابله بالايمان والتقوى مقابلة الضد للضد ، وتارة يجعله الغرور ويعقبه بنسيانه تعالى لهم يوم القيامة ، وتارة يأمر نبيه بتركهم والاعراض عنهم ، ولم نعلق على هذه الآيات تاركين افهامها لذوي الأذواق السليمة ، ومكتفين بشرح آية واحدة في موضوع اللهو روماً للاختصار ، وقد اخترناها لوضوح ما فيها من المقابلة في بليغ كلامه تعالى بين متخذي اللهو ، وانه الاضلال للعباد ، وبين مقيمي الصلاة ومؤتي الزكاة ... الخ ، تقابل الأضداد قال تعالى : « الم تلك آيات الكتاب الحكيم هدى ورحمة للمحسنين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يؤمنون اولئك على هدى من ربهم واولئك هم المفلحون ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً اولئك لهم عذاب مهين » (٦) .

---

(١) سورة الجمعة الآية ١١ .
(٢) سورة الأعراف الآية ٤٩ .
(٣) سورة الأنبياء الآية ١٧ .
(٤) سورة الأنعام الآية ٦٩ .
(٥) سورة الحديد الآية ١٩ .
(٦) أول سورة لقمان .

النزول

عن ابن عباس والكلبي انها نزلت في رجل اشترى جارية تغنيه ليلا ونهاراً ويؤيده ما رواه ابو امامة عن النبي ﷺ انه قال : لا يحل تعليم المغنيات ولا بيعهن واثمانهن حرام ، وقد نزل تصديق ذلك في كتاب الله تعالى وقرأ « ومن الناس من يشتري لهو » ... الخ .

ثم قال ﷺ : والذي نفسي بيده ، ما رفع رجل عقيرته يتغنى إلا ارتدفه شيطانان يضربان بأرجلها على صدره وظهره حتى يسكت .

وقيل : إنها نزلت في النضر بن الحرث بن علقمة بن كلدة بن عبد الدار ابن قصي بن كلاب كان يتجر فيخرج إلى فارس فيشتري أخبار الأعاجم وقصصهم ويحدث بها قريشاً ويقول : إن محمداً يحدثكم بحديث عاد وثمود ، وأنا أحدثكم بحديث رستم واسفنديار وأخبار الأكاسرة فيستمعون حديثه ويتركون استماع القرآن

المعنى

هدى ً أي بيان ودلالة ونعمة المطيعين . وقيل : للموحدين . وقيل : الذين يحسنون العمل ، ثم وصفهم فقال : الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة إلى قوله : هم المفلحون ، وقد تقدم تفسيره ، ثم وصف سبحانه الذين حالهم تضاد وتخالف حال هؤلاء فقال : « ومن الناس من يشتري لهو الحديث » اي باطل الحديث ، واكثر المفسرين على ان المراد بلهو الحديث هو الغناء ، وهو المروي

عن ابي جعفر عليه السلام وابي عبدالله عليه السلام والرضا عليه السلام قالوا : منه الغناء ، وروي ايضاً عن ابي عبدالله عليه السلام انه قال : هو الطعن في الحق والاستهزاء به وما كان ابوجهل واصحابه يجيئون به إذ قال : يامعشر قريش ألا اطعمكم من الزقوم الذي يخوفكم به صاحبكم ، ثم ارسل على زبد وتمر فقال : هذا هوالزقوم الذي يخوفكم به فكلوه ، ثم قال ابو عبدالله عليه السلام : ومنه الغناء .

فعلى هذا يعلم ان الغناء متيقن الدخول في مفهوم الآية ، ويدخل فيه كل شيء يلهي عن سبيل‌الله وطاعته من الأباطيل والمزامير والملاهي والمعازف ويدخل فيه السخرية بالقرآن واللغو فيه والأحاديث الكاذبة والأساطير الملهية عن القرآن .

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله انه قال في نزول هذه الآية باللعب والباطل كثير النفقة سمح فيه ولا تطيب نفسه بدرهم يتصدق به . وانه صلى الله عليه وآله الصادق في ذلك لما نرى في زماننا من السماحة في بذل الأموال الطائلة في المحرمات او فيما لا يعود بنفع اخروي في سبيل‌الشهوات ، او في سبيل السمعة والرياء وحب الذات بما يزيد عن قدر الامكان ، بل وحتى لو تطلب ذلك القرض او بيع الضروري من حاجاته وبعكسه نرى البخل الشديد والحساب العسير في مقام البذل لأمر أخروي بحيث تقوم قيامته وحتى لو امكنه التغلب على نفسه وبذل فلم يبذل في المقام إلا النزر اليسير وعشر معشار ما يبذله في المقام السابق .

وفي الحقيقة ان ذلك ليس منشأه البخل ، حيث لو كان هو ودافع الطبيعة لأثر ايضاً في المنع حتى في مقام الشهوة والسمعة وامثالها ، فما هو إذاً إلا لقبض إبليس على يده في مقام نفعه وعدمه في مقام ضره وقد اسلفنا ذلك مفصلا .

وقد روي ايضاً عن النبي صلى الله عليه وآله فيما يخص معنى الآية انه قال : من ملأ مسامعه من غناء لم يؤذن له ان يسمع صوت الروحانيين يوم القيامة ، قيل : وما الروحانيون يا رسول الله ؟ قال : قراء اهل الجنة ، ثم قال سبحانه معللا حرمة

اللهو ومبيناً مفاسده : « ليضل عن سبيل الله » اي ليضل غيره او يضل نفسه بحديث الباطل عن حديث الحق ، وإن سبيل الله هو قراءة القرآن وذكر الله تعالى « بغير علم » لأنه جاهل بحقائق الأمور وما ينفعه وما يضره وما يبقى وما يفنى « ويتخذها » اي آيات الله « هزواً اولئك لهم عذاب مهين » اي يهينهم الله به يوم القيامة على رؤوس الأشهاد ، حيث ان معصيتهم كانت إهانة كتابه ودينه والمقارنة بينه وبين الغناء ، وفي كثير من الأخبار الذامة لأهل آخر الزمان فيما يخص القرآن وانهم يتغنون به .

والخلاصة ان النهي من الشارع الحكيم عن الغناء بلسان اللهو الأعم منه ومن غيره لطف منه ليحفظ لعباده جميل الأخلاق ومحاسن الصفات ، كما أن الحس حاكم بأن مستمع الغناء يجد من الخفة وفقد الاتزان من نفسه مالم يكن عنده فيما قبله ، فاذا اعتاده يصل به تدريجاً إلى درجة الأسفلين ، وهذا مالا يرضاه لعباده رب العالمين .

وبمناسبة احوال آخر الزمان والتلاعب في الأديان ، نذكر ما ذكره في كتاب دار السلام (١) قال : جاء جابر بن عبدالله إلى علي بن ابي طالب عليه السلام فقال : بأبي انت وامي رأيت البارحة رؤياً اهالتني وأفزعني امرها فقال له علي عليه السلام : ما الذي رأيت يا جابر ؟ فقال : رأيت البارحة كأن نيراناً سماناً يشربون من لبن عجاجيل هزال ، ورأيت دواباً سماناً لكل دابة رأسان يأكلون بالرأسين ولايروثون ، ورأيت احواضاً يابسة قد نبتت فيها اخشبة خضر ، ورأيت المرضى يعودون الأصحاء ، ورأيت ثوباً ابيضاً معلقاً من السماء إلى الأرض والناس يقطعون منه قطعة قطعة ، ورأيت طائرين في بيت مظلم يتكلمان بكلام فصيح ، ورأيت طاستين إحداهما ذهب والأخرى رصاص ورجل بينهما يغرف من الرصاص ويفرغ في الذهب فلا الرصاص ينقص ولا الذهب يمتلي ، فقال علي عليه السلام : يا جابر

(١) ج ٣ ص ٢٤٠ .

رؤياك هذه تدل على آخر الزمان .

اما الثيران السمان الذين يشربون ألبان المجاجيل الهزال ، فانهم سلاطينهم يأخذون اموال الفقراء والمساكين ليستغنوا فلا يستغنون ابداً .

واما الدواب لكل واحدة رأسان يأكلون بها ولا يروثون فانهم اغنياء آخر الزمان يجمعون المال من حلال وحرام ولا يخرجون الزكاة .

واما الأحواض اليابسة فهم العلماء ، والأخشبة الخضر فهي علومهم التي لا يعملون بها ولا يستعملون بها .

واما المرضى الذين يعودون الأصحاء فهم فقراء آخر الزمان يذهبون إلى الأغنياء يسألونهم فلا يعطونهم شيئاً ولا يقضون حوائجهم وذلك اكبر المرض بل هو قتل بلا سيف .

واما الثوب المعلق من السماء إلى الأرض فهو دين الاسلام طاهر مطهر بين فاذا كان آخر الزمان وقعت الأهواء والبدع بين الناس ، فترى مع كل واحد منهم شيئاً من الاسلام يستتر به .

واما الطائران اللذان رأيتهما في بيت مظلم يتكلمان بكلام فصيح فأحدهما الوفاء والآخر الأمانة ، فاذا كان آخر الزمان قل الوفاء وقلت الأمانة حتى لا تبين وكانت مثل بيت مظلم فلا وفاء حينئذ ولا أمانة .

واما الطاستان اللتان إحداهما ذهب والاخرى رصاص فالرصاص الدنيا والذهب الآخرة ، والرجل الواقف بينهما ملك الموت يحمل من الدنيا إلى الآخرة بقبض الارواح فلا الدنيا تنقص ولا الآخرة تمتلي إلى الوقت المعلوم وهو يوم القيامة ، يا جابر .

قال رسول الله ﷺ : ليأتين على الناس زمان تقصر فيه المروة ، وتذق فيه الاخلاق ، وتستغني الرجال بالرجال ، والنساء بالنساء فاذا كان كذلك

فانتظروا العذاب .

وفي كتاب دار السلام (١) ايضاً ما هوقريب منه بسنده ان نصرانياً رأى رؤياً في النوم فقال له علي ﷺ : رأيت رؤياً سماها له من غير ان يسأله النصراني عنها ، فقال ﷺ : رأيت قصراً أدلي من السماء وفيه كراسي من الذهب وجوار وغلمان وفرش الديباج وحوله قردة وخنازير ، قال : صدقت ، فقال ﷺ : ورأيت كرباساً أدلي من السماء وخرّقه الناس حتى بقي خيط ، ورأيت طيوراً نزلن من السماء ووضعن رؤوسهن في الارض ورجعن بغير رؤوس إلى السماء ، ورأيت أنعاماً ولاتخرج لها للبول والغائط ، ورأيت المرضى يعودون الاصحاء ، ورأيت حوضاً يابساً وعنده روضة ورأيت ثياباً خضراء يرى فيها كل شيء في الدنيا ، وفي كل ذلك يقول النصراني صدقت .

ثم قال ﷺ : اما القصر فسلطان ظالم في آخر الزمان والناس لا يؤدون الزكاة فيأخذ السلطان اموالهم وحوله الظالمون المعينون له .

واما الكرباس فهو المذاهب في آخر الزمان ، والخيط الباقي منه هو الطريق المستقيم .

واما الطيور فلا يبقى من الاسلام إلا الاسم وترجع الشريعة إلى السماء .

واما المرضى فهم الفقراء يحضرون ابواب الاغنياء يأخذون ولا يعطون .

واما الثياب الخضر يأخذها كلهم (٢) ويتكلمون للدنيا .

واما الحوض والروضة فالعلماء لايستعملون العلم ويستعمله من يسمعه منهم .

فقال النصراني : أشهد أن لا إله إلا الله وان محمداً عبده ورسوله .

---

(١) ج ٢ ص ٣٣٥ .

(٢) هكذا في الأصل ، ولعل المراد بها الكتب السماوية والأحاديث القدسية المشوقة على الآخرة وهم يتكلمون فيها للدنيا .

لطف جذري منه تعالى

من ألطافه سبحانه وتعالى ان نهى عباده عن اكل الحرام نهياً باتاً ، ورتب عليه عقاباً صارماً لعلمه وهو الطبيب المتفرد بأن الحرام داء سار، ومكروب مسمم فأراد ان يقلع جذوره من ركيزة هيكل الانسان ، ومنبع مجاري بدنه ، ومخزن التصفية لسقيه وهو قلبه وسيد جوارحه ، وبتلوثه بأكل الحرام ينطمس نوره ويضل حامله ، وينجر به ذلك إلى إبطال اعماله ، كما ورد في تفسير قوله تعالى : « وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً » (١) ، بعد ان قال السامع يا رسول الله أما مصلون ؛ فقال ﷺ : أما انهم كانوا يصلون ويصومون ويأخذون اهبة من الليل ، ولكنهم إذا عرض لهم شيء من الحرام وثبوا اليه .

وفي وصية النبي ﷺ لابن مسعود فانظر أن لا تأكل الحرام ولا تعص الله لانه يقول لابليس : « واستفزز من استطعت منهم بصوتك واجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الاموال والاولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً » .

وفي روضة الواعظين عن رسول الله ﷺ انه قال : إذا وقعت اللقمة من حرام في جوف العبد لعنه كل ملك في السماوات والارض وما دامت اللقمة في جوفه لا ينظر الله اليه ، ومن اكل اللقمة من الحرام فقد باء بغضب من الله ، فان تاب تاب الله عليه ، وان مات فالنار اولى به .

وقال ﷺ : إن لله ملكا ينادي على بيت المقدس كل ليلة من اكل حراماً لم يقبل الله منه صرفاً ولا عدلا ، والصرف النافلة والعدل الفريضة .

(١) سورة الفرقان الآية ٢٦ .

وعنه ﷺ من اكل لقمة حرام لم تقبل له صلاة اربعين ليلة ولم تستجب له دعوة اربعين صباحاً ، وكل لحم ينبته الحرام فالنار اولى به ، وان اللقمة الواحدة تنبت اللحم .

وقال ﷺ : العبادة مع اكل الحرام كالبناء على الرمل .

اكل الحلال ينوّر القلب

وإن حلية الغذاء لها تمام التأثير في الاندفاع نحو الطاعات للاستضاءة بزيادة أنوار القلب ، وقد رغب الشارع الحكيم على طلب الحلال من الرزق ، ورتب عليه ثمين ثمراته وجليل آثاره كترغيب حذاق الاطباء مرضاهم على اخذ الدواء لقصد إزالة الداء .

فقد قال رسول الله ﷺ : من يأكل الحلال اربعين يوماً نوّر الله قلبه .

وقال ﷺ : من اكل من الحلال صفا قلبه ورق ودمعت عيناه ولم يكن لدعوته حجاب .

وقال ﷺ : من اكل الحلال قام على رأسه ملك يستغفر له حتى يفرغ من أكله .

وفي جامع الاخبار عنه ﷺ العبادة سبعون جزءاً وافضلها طلب الحلال .

وقال رسول الله ﷺ : ترك لقمة من حرام ، أحب إلى الله من صلاة الفي ركعة تطوعاً .

وقيل لسلمان : أي الاعمال افضل ؟ قال : الايمان بالله وخبز حلال .

وعن الصادق عليه السلام لا تدع طلب الرزق من حله ، فانه عون لك على دينك .

وفي الكافي عنه عليه السلام تشوقت الدنيا لقوم حلالا محضاً فلم يريدوها فدرجوا

ثم تشوقت لقوم حلالا وشبهة فقالوا : لا حاجة لنا في الشبهة وتوسعوا في الحلال ثم تشوقت لقوم حراماً وشبهة فقالوا : لا حاجة لنا في الحرام وتوسعوا في الشبهة ثم تشوقت لقوم حراماً محضاً فيطلبونها فلم يجدوها ، والمؤمن يأكل في الدنيا بمنزلة المضطر .

قطع اليد للسرقة لطف

وللمحافظة على صحة الارواح ، ونزاهة النفوس من امراض تناول الحرام وانتشار مكروب الفساد في المجموعة البشرية ، يرتب الحكيم العقاب الصارم والجزاء الحاسم لتلك الجرائم ، لو انه استمر في التطبيق ، ولم توقفه مغالطات القوانين في اثناء الطريق ، وهو قطع يد السارق بصريح امره ، ورفيع صوته ، وواضح قصده ، فقال : « والسارق والسارقة فاقطعوا ايديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم » (١) .

والآية غنية عن التفسير فلا يهمنا التعرض للمناقشات الوهمية والاعتراضات الجدلية ، خصوصاً بعد ثبوت حكمة الباري في البرية .

نعم هناك مناظرة جرت بين ابي العلاء المعري الذي كان من النواصب ثم صار من الزنادقة ، وبين السيد المرتضى قدس سره ، والمعروف انه امر بقلع عينيه لاعتراضاته على الشريعة المقدسة ، وحكمة الباري تعالى فيها ، وإن اشتهر انه اعمى من صغره ، وهي اعتراضه فيما يخص موضوع قطع اليد في السرقة ولو كانت ربع دينار ، بينما تكون دية قطعها على الجاني خمسمائة دينار فقال في ذلك :

يد بخمس مئين عسجد فديت ما بالها قطعت في ربع دينار

(١) سورة المائدة الآية ٤٢ .

فأجابه السيد المرتضى ، وقيل : إنه السيد الرضي بقوله :

عز الامانة أغلاها وأرخصها ذل الخيانة فانظر حكمة الباري

فالشارع الحكيم ناظر في اعماق بطون الاحكام ، ومودع فيها كل الخير للأنام ، وما به كفالة النظام ، والعرى الوثيقة للالتئام ، ولكن الناس عنه نيام وعلى الاخص المتمسكين بدين الاسلام ، حيث لم يتعمقوا في قعوره ، ولم يتحققوا الاكثر في جذوره ، ولم يطبقوا حتى ما اخذوه من عبيره ، بينما قد استرق الاجانب جوهرياته ، وتبنوا الخلاصة من حكمياته ، وركزوا قوانينهم على احاديثه وآياته ، وبدلوا ألفاظه وعباراته . فلو فتح للأسماع بابها ، وأزيل عن الآذان حجابها ، لسمعنا صوت دين الاسلام مدوياً ، ومن اهله شاكياً ، وعلى ضياع حقائقه باكياً ، ولموت نواميسه ناعياً ، فهل من يقظة للنيام ، وانتباهه بتجارب الايام ، وكرة بعد الانهزام ، نحيي بها اصول الدين ، وشريعة سيد المرسلين ، ونقيم رايته التي خفقت على رؤوس جميع العالمين ، وبذلك نكون قد اجتنينا ثمار الدارين .

لطف على مسلك التنبيه

ومن ألطافه تعالى تنبيه عباده على الاسباب الجبلية لهم ، التي تصدهم عن مكاسب دار البقاء ، وتشغلهم بما هو اقرب إلى الفناء ، وتعقيبه بنتيجة الاعمال وسوء المآل .

قال تعالى : « كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ووجوه يومئذ باسرة تظن ان يفعل بها فاقرة كلا إذا بلغت التراقي وقيل من راق وظن انه الفراق والتفت الساق بالساق إلى ربك يومئذ

المساق فلا صدق ولا صلي ولكن كذب وتولى » (١) .

(المعنى) كلا ، اي لا تتفهمون القرآن وما يحويه من البيان ، بل يصرفكم عن ذلك حبكم واختياركم للعاجلة ، وهي الدنيا على الآخرة ، وهي المقبى فتذرونها وتتركون العمل لها جهلا منكم وسوء اختيار ، ثم بين سبحانه حال الناس في الآخرة وانهم على قسمين لا ثالث لهما ، تشويقاً وترغيباً لاكتساب صفات القسم الاول منهما ، وتخويفاً وترهيباً عن الالتحاق بالثاني منهما .

فقال في القسم الاول :

« وجوه يومئذ » اي في يوم القيامة « ناضرة » اي ناعمة بهجة حسنة ، وقيل : مسرورة . وقيل : مضيئة بيض يعلوها النور ، وقد جعل سبحانه وجوه المؤمنين المستحقين للثواب بهذه الصفة علامة لهم عند الخلق والملائكة على انهم الفائزون إكراماً لهم وترفيعاً لشأنهم ، وتقديراً لمحاسن اعمالهم « إلى ربها ناظرة » اي نظر العين او بمعنى الانتظار ، وعلى الاول فيكون المعنى انها ناظرة الى ثواب ربها على حذف المضاف ، كما في قوله تعالى : « وجاء ربك » اي امر ربك وحاصله يكون انها ناظرة الى نعيم الجنة حالا بعد حال فيزداد بذلك سرورها ، والمراد من الوجوه اصحاب الوجوه ، وانما ذكرها لانها مظهر السرور والكآبة .

وقيل : إن المراد انها ناظرة إلى الله تعالى بذاته لا إلى ثوابه وهذا القول مبني على تجويز رؤيته تعالى ، فانها مسألة عويصة قد وقع فيها الخلاف الواسع ونسب لها الرأي الشاسع ، وقد ذهب إلى جواز رؤيته تعالى بالعين الباصرة في الآخرة فريق وتجاوز فريق منهم ذلك ، وجوز رؤيته عز وجل حتى في الدنيا ،

(١) سورة القيامة الآية ٢٠ .

وتطاول بعضهم فادعى انه قد رآه مرة او مراراً ، وكل ذلك باطل ، وانما اوهمهم ظواهر بعض الآيات ومنها آيتنا هذه ، وهذا القسم من استدلالهم يسمى (بالادلة السمعية) ويرده انها محمولة على المعاني المجازية بدليل معارضتها بأدلة سمعية وآيات قرآنية اخرى بحيث لو تركت على ظواهرها ، لاستلزم الاختلاف في القرآن المجيد وهو محال ، ومن اوضح الآيات المعارضة قوله تعالى : « لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير » (١) ، فكيف تدركه الابصار ، وهو اللطيف على حد تعبيره تعالى عن ذاته ، وفي كلمة اللطيف في المقام لطائف يفهمها من كان عنده لطف قريحة .

(ومنها) قوله تعالى : « ولا يحيطون به علماً » (٢) ، فاذا رأته الابصار فقد احاط به العلم ، ووقعت عليه المعرفة .

(ومنها) قوله تعالى : « ليس كمثله شيء » فاذا رأوه سبحانه على صورة بشر امرد كما يذكرون في جملة استدلالاتهم ، فقد كان مثله شيء ، وهذا خلاصة ما استدل به الامام الرضا عليه السلام على ابي قرة حين استأذن له بالدخول عليه صفوان ابن يحيى في رواية الكليني عن احمد بن إدريس عن محمد بن عبد الجبار عن صفوان بعد ان ادلى ابو قرة على الامام عليه السلام بحججه من الآيات والاحاديث الدالة بظاهرها على جواز الرؤية عليه تعالى ، وقد قال له الامام في آخر براهينه لابطال تشبثاته ، فمن المبلغ عن الله تعالى إلى الثقلين من الجن والانس قول الله لا تدركه الابصار ولا يحيطون به علماً وليس كمثله شيء ، أليس محمد صلى الله عليه وآله وسلم قال ابو قرة (٣) : بلى ، فقال عليه السلام : كيف يجيء رجل إلى الخلق جميعاً فيخبرهم

(١) سورة الأنعام الآية ١٠٤ . (٢) سورة طه الآية ١٠٩ .

(٣) قيل : إنه صاحب عبدالله البجلي الكوفي الذي كان قاضياً المنصور على سواد الكوفة ، وقد استقصر أخيراً ، وهناك رجل آخر اسمه أبو قرة النصراني اسمه يوحنا صاحب جاثليق والله أعلم .

انه جاء من عند الله ، وانه يدعوهم إلى الله بأمر الله فيقول : لا تدركه الابصار ولا يحيطون به علماً وليس كمثله شيء ، ثم يقول انا رأيته بعيني ، واحطت به علماً وهو على صورة البشر ، أما تستحيون ، فان الزنادقة ما قدرت ان ترميه ﷺ بهذا بأن يكون يأتي من عند الله بشيء ، ثم يأتي بخلافه من وجه آخر ، ومعنى كلامه ﷺ ان ذلك من دسائس من تسمى بالاسلام للطعن بها على محمد ﷺ سيد الانام ، وللحط من منزلة رسول الملك العلام ، وقد تركنا ما تمسكوا به من الاحاديث العظيمة صوناً لكتابنا عن هذه الشنيعة ، فكل ما ورد من الكتاب العزيز او بعض الاخبار الصحيحة ما ظاهره رؤية الله تعالى فالمراد به رؤية القلوب والانكشاف التام لها على وجوده تعالى بواضح آثاره .

بيانات واضحات

فان الأئمة الاطهار قد بينوا ذلك بما لا مزيد عليه ، حيث انهم الحارس الامين لحماية هذا الدين والرصيد من العلم الكافي لابطال شبهات الضالين والمضللين والقوة المتينة للدفاع عن شريعة جدهم سيد المرسلين .

فمن بياناتهم ما رواه في الكافي بسنده عن داود بن القاسم ابي هاشم الجعفري قال : قلت لابي جعفر عليه السلام : لا تدركه الابصار ، وهو يدرك الابصار ، فقال عليه السلام : يا ابا هاشم اوهام القلوب أدق من ابصار العيون ، انت قد تدرك بوهمك السند والهند والبلدان التي لم تدخلها ولا تدركها ببصرك ، وأوهام القلوب لا تدركه ، فكيف ابصار العيون .

ومثلها رواية عن الرضا عليه السلام غير انه عليه السلام قال فيها : إن اوهام القلوب اكبر من ابصار العيون ، وعلى حذوها الكثير من البيانات ، مما يدل على تركز

الشبهة في الاذهان يومئذ ، وكثرة السؤال منهم (ع) . سواء كان من المؤالف او المخالف ، لعلمهم بأن العلم هو تراثهم من ابيهم أمير المؤمنين ، وأصيدهم من جدهم سيد المرسلين ، وقد أفصح عن ذلك باب مدينة العلم بقوله المفصل فيما رواه الكافي في باب التوحيد ، وكتاب الوافي في باب جوامع التوحيد (١) وفي مرآة العقول (٢) باختلاف يسير غير مخل بأصل المقصود .

وقد ذكر الصدوق السند بطوله الى أن أنهاه الى الاصبغ بن نباتة قال : لما جلس علي ﷺ للخلافة وبايعه الناس خرج الى المسجد متعمماً بعمامة رسول الله ﷺ لابساً بردة رسول الله ﷺ منتعلا نعل رسول الله ﷺ متقلداً سيف رسول الله ﷺ فصعد فجلس عليه متمكناً ، ثم شبك أصابعه فوضعها أسفل بطنه ثم قال : يا معاشر الناس سلوني قبل أن تفقدوني ، هذا سفط العلم ، هذا لعاب رسول الله ﷺ ، هذا ما زقني رسول الله ﷺ زقاً زقاً ، سلوني فان عندي علم الاولين والآخرين ، أما والله لو ثنيت لي الوسادة (٣) فجلست عليها لأفتيت أهل التوراة بتوراتهم حتى تنطق التوراة فتقول : صدق علي ما كذب لقد أفتاكم بما أنزل الله فيّ وأفتيت أهل الانجيل بانجيلهم ، حتى ينطق الانجيل فيقول : صدق علي ما كذب ، لقد أفتاكم بما أنزل الله فيّ ، وأفتيت أهل القرآن بقرآنهم حتى ينطق القرآن فيقول : صدق علي ما كذب ، لقد أفتاكم بما أنزل الله فيّ وانتم تتلون القرآن ليلا ونهاراً . فهل فيكم أحد يعلم ما نزل فيه (٤) ولولا آية في كتاب الله لأخبرتكم بما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة وهي

---

(١) ج ١ ص ٩٥ . (٢) ج ١ ص ٩١

(٣) كناية عن السلطة وعدم الاعتراض والتسليم لكل ما يقول كما كانوا لمن قبله .

(٤) أي من الأسرار والغيبات .

هذه « يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » (١) .

ثم قال ﷺ : سلوني قبل أن تفقدوني فوالذي فلق الحبة وبرأ النسمة لو سألتموني عن آية آية في ليل انزلت او في نهار مكيها ومدنيها في سفر او حضر ناسخها ومنسوخها محكمها ومتشابهها تأويلها وتنزيلها لأخبرتكم .

فقام اليه رجل يقال له ذعلب وكان ذرب اللسان ، بليغاً في الخطب شجاع القلب فقال : لقد ارتقى ابن ابي طالب مرقاة صعبة لأخجلنه اليوم لكم في مسألتي إياه ، فقال : يا امير المؤمنين هل رأيت ربك ؟ .

قال (ع) : ويلك يا ذعلب لم اكن بالذي اعبد رباً لم اره .

قال : فكيف رأيته صفه لنا ؟ .

قال : ويلك ياذعلب لم تره العيون بمشاهدة الأبصار ولكن رأته القلوب بحقائق الايمان ، ويلك يا ذعلب إن ربي لطيف اللطافة ، لا يوصف باللطف عظيم العظمة ، لا يوصف بالعظم ، كبير الكبرياء ، لا يوصف بالكبر ، قبل كل شيء لايقال شيء قبله ، وبعد كل شيء لايقال له بعد - إلى ان قال - لطيف لا بتجسم موجود لا بعد عدم فاعل لا باضطرار - إلى ان قال - سميع لا بآلة بصير لا بأداة لا تحويه الأماكن ، ولا تضمنه الأوقات ، ولا تحده الصفات ، ولا تأخذه السناة سبق الأوقات كونه ، والعدم وجوده ، والابتداء أزله ، بتشعيره المشاعر عرف أن لامشعر له ، وبتجهيزه الجواهر عرف ان لاجوهر له ، وبمضادته بين الأشياء عرف أن لا ضد له ، وبمقارنته بين الأشياء عرف أن لا قرين له ، ضاد النور بالظلمة واليبس بالبلل ، والخشن باللين ، والبرد بالحرور ، مؤلف بين متعادياتها ، مفرق بين متدانياتها ، دالة بتفريقها على مفرقها ، وبتأليفها على مؤلفها وذلك قول الله تعالى

(١) يشير بذلك إلى ما اختص الله عزوجل به ولم يعلم به أحداً من خلقه اشبهة ادعاء علمه بالذات وبدون تعليم .

« ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » ففرق بين قبل وبعد ليعلم أن لا قبل له ولا بعد ، شاهدة بغرائزها أن لا غريزة له ، مخبرة بتوقيتها أن لا وقت لموقتها ، حجب بعضها عن بعض ، ليعلم أن لا حجاب بينه وبين خلقه ... الخ .

وقد جاء في ذيل بعض روايات هذه الاثارة انه (ع) بعدما انتهى من توصيفه لربه حيث لا وصف ، أنشأ يقول شعراً ، وقد ذكر في ديوانه المنسوب اليه عليه السلام :

ولم يزل سيدي بالحمد معروفا ولم يزل سيدي بالجود موصوفا
وكنت إذ ليس نور يستضاء به ولا ظلام على الآفاق معكوفا
وربنا بخلاف الخلق كلهم وكلما كان بالأوهام موصوفا

إلى آخر الأبيات ، قال : فخر ذعلب مغشياً عليه ثم افاق وقال : ما سمعت بمثل هذا الكلام ولا اعود إلى شيء من ذلك .

ثم قال عليه السلام : سلوني قبل ان تفقدوني ، فقام اليه الأشعث بن قيس فقال : يا امير المؤمنين كيف يؤخذ من المجوس الجزية ، ولم ينزل عليهم كتاب ، ولم يبعث اليهم نبي ، قال : بلى يا اشعث قد انزل الله عليهم كتاباً ، وارسل اليهم رسولا حتى كان لهم ملك سكر ذات ليلة فدعا بابنته إلى فراشه فارتكبها ، فلما اصبح تسامع به قومه فاجتمعوا إلى بابه فقالوا : ايها الملك دنست علينا ديننا فأهلكته فاخرج نطهرك ونقيم عليك الحد ، فقال لهم : اجتمعوا واسمعوا كلامي فان يكن لي مخرج مما ارتكبت وإلا فشأنكم ، فاجتمعوا فقال لهم : هل علمتم ان الله لم يخلق خلقاً اكرم عليه من أبينا آدم وأمنا حواء ، قالوا : صدقت ايها الملك ، قال : أفليس قد زوج بنيه بناته من بنيه ؟ قالوا : صدقت هذا هو الدين فتعاقدوا على ذلك فمحا الله ما في صدورهم من العلم ، ورفع عنهم الكتاب فهم الكفرة يدخلون النار بلا حساب والمنافقون اشد حالا منهم .

قال الأشعث : والله ما سمعت مثل هذا الجواب والله لا عدت إلى مثلها ابداً (١) . ثم قال (ع) : سلوني قبل ان تفقدوني ، فقام اليه رجل من اقصى المسجد متوكئاً على عصاه فلم يزل يتخطى الناس حتى دنا منه فقال: يا امير المؤمنين دلني على عمل إذا أنا عملته نجاني الله من النار (٢) ، فقال له : اسمع يا هـذا ثم افهم ثم استيقن ، قامت الدنيا بثلاثة : بعالم ناطق مستعمل لعلمه ، وبغني لا يبخل بماله على اهل دين الله ، وبفقير صابر ، فاذا كتم العالم علمه ، وبخل الغني ولم يصبر الفقير فعندها الويل والثبور ، وعندها يعرف العارفون بالله ان الدار قد رجعت إلى بدئها (٣) ايها السائل فلا تغترن بكثرة المساجد ، وجماعة اقوام اجسادهم مجتمعة وقلوبهم شتى ، ايها الناس إنما الناس ثلاثة : زاهد وراغب وصابر

فاما الزاهد فلا يفرح بشيء من الدنيا أتاه ، ولا يحزن على شيء منها فاته

واما الصابر فيتمناها بقلبه ، فان ادرك منها شيئاً صرف عنها نفسه لما يعلم من سوء عاقبتها .

واما الراغب فلا يبالي من حل اصابها أم من حرام .

قال له : يا امير المؤمنين فما علامة المؤمن في ذلك الزمان ؟ قال : ينظر إلى ما اوجب الله عليه من حق فيتولاه ، وينظر إلى ما خالفه فيتبرأ منه وإن كان حميماً قريباً . قال : صدقت يا امير المؤمنين ، ثم غاب الرجل فلم نره فطلبه الناس فلم يجدوه فتبسم علي عليه السلام على المنبر ثم قال : مالكم هذا اخي الخضر عليه السلام ، ثم قال : سلوني قبل ان تفقدوني فلم يقم اليه أحد فحمد الله وأثنى عليه وصلى على

(١) لعل ذلك لا لحياء منه بل لئلا تظهر من الإمام (ع) أمثال هذه الكرامات فيزداد حبه في قلوبهم ، وأحوال الأشعث شواهد على ذلك .

(٢) من متون السؤالات تظهر أهداف السائلين .

(٣) أي الكفر بعد الإيمان .

نبيه ﷺ ثم قال للحسن ؏ : يا حسن قم فاصعد المنبر فتكلم بكلام لا تجهلك قريش من بعدي فيقولون : إن الحسن بن علي لا يحسن شيئاً ، قال الحسن ؏ : يا ابه كيف أصعد وأتكلم وانت في الناس تسمع وترى ؟ قال له : بأبي انت وامي اوراي نفسي عنك وأسمع وأرى وانت لا تراني ، فصعد الحسن ؏ المنبر فحمد الله بمحامد بليغة وصلى على النبي ﷺ صلاة موجزة ، ثم قال : ايها الناس سمعت جدي رسول الله ﷺ يقول : أنا مدينة العلم وعلي بابها وهل تدخل المدينة إلا من بابها ، ثم نزل فوثب اليه علي ؏ فحمله وضمه إلى صدره ثم قال للحسين ؏ : يابني فاصعد المنبر وتكلم بكلام لا تجهلك قريش من بعدي فيقولون إن الحسين بن علي لا يبصر شيئاً ، وليكن كلامك تبعاً لكلام اخيك فصعد الحسين ؏ المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه صلاة موجزة ثم قال : يا معاشر الناس سمعت رسول الله ﷺ وهو يقول : إن علياً هو مدينة هدى فمن دخلها نجى ومن تخلف عنها هلك ، فوثب اليه علي ؏ فضمه إلى صدره وقبله ثم قال : معاشر الناس اشهدوا انهما فرخا رسول الله ووديعته التي استودعنيها وأنا أستودعكموها ، معاشر الناس ورسول الله سائلكم عنهما .

علم أهل البيت لا يختلف

وحيث ان علم كل واحد منهم عليهم السلام مستق من ابيه والجميع من معدن واحد ، وهو النبي ﷺ فلا تجدهم يخالفون الحق في أفعالهم ولا يختلفون في أقوالهم فيأتي اللاحق منهم في جوابه على طبق السابق في خطابه ، والفرع منهم على مجرى أصله في صوابه .

فقد روى لنا علي بن ابراهيم عن ابيه عن علي بن معبد عن عبدالله بن

سنان عن ابيه قال : حضرت ابا جعفر عليه السلام فدخل عليه رجل من الخوارج فقال يا ابا جعفر أي شيء تعبد ؟ قال : الله ، قال : رأيته ، قال عليه السلام : بلى لم تره العيون بمشاهدة الأبصار ولكن رأته القلوب بحقائق الايمان لايعرف بالقياس ولايدرك بالحواس ، ولا يشبه بالناس ، موصوف بالآيات ، معروف بالعلامات ، لا يجور في حكمه ، ذلك الله لا إله إلا هو ، فخرج الرجل وهو يقول : الله أعلم حيث يجعل رسالته . ولا نريد ان نطيل بنقل ما ذكروه عليهم السلام ، وبسرد ما أفادوه وحملوه لأهله وما استودعوه لنا في صدور المدول من تلامذتهم والثقاة من أصحابهم من مطالب عرشية رقيقة ، ونكات عقلية أنيقة مما تضيء إلى العقل سبيله وتنير لذي الالب طريقة ، بل يكفينا في ذلك ما استنبطه المتألهون ، وأخذه الحكماء والمتشرعون من جواهر كلامهم (ع) ودقائق إفاداتهم التي لايدركها إلا الأوحدي الراسخ في العلوم الالهية ، والمعارف العقلية ، بعدما لطفت سرائرهم ، وصفت أفكارهم ، وتجردت أذهانهم ، وأسعفهم المدد السماوي من مبدأ الفيوضات ومن اختارهم على من في الأرض والسماوات ، فلذا تجدهم ملجأ عند المشكلات ، ومرجعاً لدى العويصات ، لكل ذاهب وآت ، سواء كان الخارجي او الناصبي او الملحد والمتزندق او النصراني والجاثليق ، كل ذلك للاصطدام بالواقع ، وقد اوضح الشاعر الواقع فقال :

إذا شئت ان ترضى لنفسك مذهباً ... وتعرف صدق القول من كذب أخبار
فوال اناساً قولهم وحديثهم ... روى جدنا عن جبرئيل عن الباري

ومما نسب إلى الامام السجاد عليه السلام انه قال :

اني لأكتم من علمي جواهره ... كيلا يرى الحق ذوجهل فيفتتنا
وقد تقدم في هذا ابو حسن ... إلى الحسين ووصى قبله الحسنا
ورب جوهر علم لو ابوح به ... لقيل لي انت ممن يعبد الوثنا

ولاستحل رجال مسلمون دمي يرون اقبح ما يأتونه حسنا

واما ما ذكروه من الأدلة العقلية علي جواز الرؤية عليه سبحانه وتعالى فاهمها ، وأقواها عندهم هي ان الله تعالى موجود ، وكل موجود مرئي ، فالله تعالى يكون مرئياً ، والجواب عنه أولا بالنقض ، فان كثيراً من الموجودات لا ترى كالمعاني ، وكثيراً من الأجسام ايضاً كالهواء والفلك وجميع الشفافيات وكالرائحة للمشمومات وكالصوت للمسموعات ، فان ذلك كله موجود ولا يرى ، ومن اوضح الأمثلة لذلك ، الأوجاع المحسوسة ، فانها موجودة ولا ترى ، كما استدل البهلول بذلك على ابي حنيفة .

ابو حنيفة والبهلول في صراع عقلي

فقد ذكروا ان البهلول ايام جنونه او تجننه مر يوماً على باب دار ابي حنيفة فوقف عند الباب ساعة فسمع أبا حنيفة يحدث اصحابه ويقول : إن جعفر بن محمد ﷺ يقول : إن الله لا يمكن رؤيته ومحال عليه الرؤية ، وهذا عندي باطل لأن الله موجود ، وكل موجود يمكن رؤيته ، ويقول : إن الشيطان يعذب بالنار ، وهذا عندي ايضاً باطل ، لأن الشيطان خلق من النار ، فلا يعذب بها إذ النار لا يعذب بعضها بعضاً ، ويقول : إن العبد فاعل مختار في افعاله ، وهذا عندي باطل ، حيث ان العبد لا اختيار له في افعاله ، بل هو مجبور عليها بالجعل من الله تعالى ، فلما سمع البهلول ذلك أخذ مدراً من الأرض ودخل عليه وضربه بالمدر على رأسه فآلمه ومضى يعدو فتلاحقه اصحاب ابي حنيفة وجاءوا به اليه فقال : لا تضربوه وخذوه إلى الخليفة واخبروه بما فعل ، فلما اخبر المنصور بذلك غضب وتشدد عليه وقال له : لِمَ فعلت ؟ فقال البهلول : أحضر ابا حنيفة لنتحاكم

عندك فأحضر فقال : يا ابا حنيفة ما اصابك مني ؟ قال : ضربتني بالمدر فألم رأسي فقال له البهلول : أرني الألم حتى أنظر اليه ، فقال ابو حنيفة : يا مجنون الوجع كيف يُرى وكيف يمكن ان تنظر اليه ، فقال له البهلول : يا ملعون (١) الألم موجود أم لا ؟ قال : بل موجود ، فقال : إنك ادعيت ان الله يُرى لأنه موجود فكيف تنكر رؤية الألم وهو موجود . فأطرق ابو حنيفة برأسه وأفحم ثم قال له البهلول : إنك كاذب في ادعاء الألم في رأسك ، لأنك خلقت من تراب والمدر من تراب فكيف يعذب التراب بالتراب ، فازداد ابو حنيفة خجلا أمام المنصور ثم قال له : إني ما ضربتك بل الله ضربك ، لأني عبد والعبد لا فعل له ولا اختيار حسبما زعمت فلم تؤاخذني بما صدر مني والحاله اني لا قدرة لي عليه ، فلما سمع الخليفة أقواله استحسنها ورخصه في الانصراف بغير عقوبة ولا عتاب .

تحقيق في البصر والابصار

نذكر شيئاً موجزاً عن سبب الابصار وشروطه مما له ربط في إبطال رؤية الله تعالى فنقول : إن الذي يدرك بالقوة الباصرة لابد وأن يكون جسما كثيفاً لأن للرؤية شروطاً :

(منها) ان يكون المرئي مقابلا للرائي ، او في حكم المقابل كرؤية الاعراض مثل رؤية الانسان وجهه في المرآة ، لأن المقابل في الحقيقة هو الجسم وهو الرائي وإعراضه هي المقابلة بالتبع للجسم فهي في حكم المقابل .

(ومنها) عدم البعد المفرط .

(ومنها) عدم القرب المفرط .

---

(١) على حد تعبيره ولعله قصد السجعة والموافقة لقوله له : يا مجنون .

(ومنها) عدم الصغر المفرط .

(ومنها) عدم الحاجب بين الرائي والمرئي .

(ومنها) ان يكون المرئي مضيئاً بذاته او بغيره .

(ومنها) ان يكون كثيفاً ومانعاً للشعاع من النفوذ فيه ، فلو كان لطيفاً لا يمكن رؤيته ، ولذلك نرى ماء البحر مثلا على عمقه وطول مسافته لا يصد الرائي عن نفوذ بصره إلى قعره ، أي إلى حد ملاقاة الكثافة ، بينما نرى القليل من ماء النهر ولو كان بعمق ذراع يصد عن رؤية ما في قعره وذلك لصفاء ماء البحر وكثافة ماء النهر ، وهذا أمر مجمع عليه ، بالرغم من اختلاف الأقوال في سبب الابصار .

الأقوال في سبب الابصار

فقد قيل : إن الابصار بخروج الشعاع من العين على هيئة جسم مخروطي رأسه عند مركز البصر وقاعدته عند سطح المبصر ، وهنا تكون اقوال ايضاً : فاما ان يكون ذلك المخروط مصمتاً ، واما ان يكون مركباً من خطوط شعاعية مستقيمة ، وأطرافه التي تلي البصر تكون مجتمعة عند مركزه ، ثم تمتد متفرقة إلى البصر فما ينطبق عليه من المبصر أطراف تلك الخطوط أدركه البصر وما وقع بين أطراف تلك الخطوط لم يدركه .

واما على القول بأن الشعاع لم يكن مخروطاً اصلا ، بل هو خط مستقيم خارج من العين فلا خطوط إذاً ، فاذا انتهى إلى المرئي تحرك على سطحه في جهتي طوله وعرضه حركة في غاية السرعـة ، ويتخيل بحركته هيئة مخروطة كما يتخيل القطر النازل خطاً مستقيما ، والدائرة بسرعة تتخيل خطاً مستديراً ،

وهذا قول الرياضيين .

(وقيل) : إن الابصار بالانطباع وهومذهب الطبيعيين وهو مختار ارسطو وأتباعه والرئيس ابن سينا في كتابه الشفاء .

(وقيل) : إن المشف الذي بين البصر والمرئي يتكيف بكيفية الشعاع الذي هو في البصر ويصير بذلك آلة للابصار كما ذهب اليه طائفة من الحكماء .

(وقيل) : لا انطباع ولا شعاع ، وإنما الابصار بمقابلة المستنير للباصرة فيقع حينئذ للنفس علم إشراقي حضوري على المبصر ، وقد مال إلى هذا القول الشيخ الاشراقي شهاب الدين السهروردي .

(وقيل) : إن الابصار بانشاء صورة مماثلة له بقدرة الله من عالم الملكوت النفساني مجردة عن المادة الخارجية ، حاضرة عند النفس المدركة ، قائمة بها قيام الفعل بفاعله لا قيام المقبول بقابله ، وقد أقامت كل طائفة دليلا على مدعاها ، مذكورة في محالها ، فلا نطيل المقام بنقلها ، فالمقصود مما ذكرناه من شروط الابصار ، هو لزوم كون المرئي جسما وذا جهة ، فاذا جوزنا الرؤية عليه تعالى فيلزم أن يكون سبحانه مركباً لجسميته ، ومحدوداً لجهته ، وإذا كان كذلك فيكون مفتقراً إلى غير ذلك من اللوازم الفاسدة ، وايضاً فانا لا نرى المرئي إلا إذا انطبعت في أعيننا صورة صغيرة متساوية للمرئي في الشكل ، وهذه كلها ممتنعة بالنسبة إلى ذات الله تعالى عما يقوله الجاهلون .

عودة الى معنى الآية

فثبت القول الحق بأن معنى قوله تعالى: « إلى ربها ناظرة » أي إلى ثواب ربها ، او بمعنى الانكشاف التام للرائي في الدلائل والحقائق في يوم القيامة .

واما من حمل النظر في الآية على الانتظار ولعله الصحيح ، فقد فسره بعضهم بانتظار ثواب ربها ، وبعضهم بأنها مؤملة لتجديد الكرامة منه تعالى ، وبعضهم بأنهم قطعوا آمالهم وأطماعهم عما سوى الله ، فلا ينظرون إلى غيره ولا يأملون العفو والخير إلا منه .

وقال سبحانه في القسم الثاني

من أحوال الناس في الآخرة

« ووجوه يومئذ باسرة » أي كالحة عابسة متغيرة « تظن » أي تعلم وتستيقن انها « يفعل بها » أي يعمل بها « فاقرة » أي داهية تفقر ظهورهم أي تكسرها ، ثم قال سبحانه بعد ذكر القسمين من عباده : « كلا » ونظمها مع ما قبلها هو انه تعالى كررها عليهم لأنها للردع والزجر ليتقرر مفادها في قلوبهم لغفلتهم عن الأدلة ، حيث ألهاهم حب العاجلة فاحتاجوا إلى زيادة تنبيه .

ومعنى قوله : كلا هنا أي ليس يؤمن الكافر بهذا .

وقيل : إن معناه أحقاً « إذا بلغت » النفس او الروح « التراقي » وهي العظام المكتنفة بالحلق وهو كناية عن الاشراف على الموت واليأس من الحياة « وقيل من راق » أي وقال من حضره من الناس : هل من راق اي طبيب شاق يرقيه ويداويه فلا يجدونه ، لأن منيته قد حلت ، وانفاسه سكنت ، وروحه قد اختلست .

شاهد حال

فقد ذكروا ان الحسن بن علي (ع) دخل على معاوية وهو مريض وقد انقل ، فلما رآه معاوية مقبلا امر جلسائه ان يجلسوه ليظهر الصحة والسلامة امام الحسن عليه السلام خوف شماتته به في نظره وقال متمثلا :

بتجلدي للشامتين اريهم اني لريب الدهر لا اتضعضع

فأجابه الحسن عليه السلام على الفور فقال :

وإذا المنية أنشبت اظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

وقيل : إن معنى قوله : « من راق » اي قالت الملائكة من يرقى بروحه أملائكة الرحمة ام ملائكة العذاب ، وقد ذكرنا تفصيل ذلك فيما سبق ، وان كل فريق من الملائكة موكل بفريق من الناس « وظن انه الفراق » اي علم وايقن انه الفراق من الدنيا والأهل والمال والولد . فقد ورد في الحديث ان العبد ليعالج كرب الموت وسكراته ومفاصله يسلم بعضها على بعض وتقول : السلام عليك تفارقني وافارقك إلى يوم القيامة « والتفت الساق بالساق » قيل في معناه وجوه :

(احدها) التفت شدة امر الآخرة بأمر الدنيا .

(ثانيها) التف حال الموت بحال الحياة .

(ثالثها) التف ساقاه عند الموت لعدم الماسكة وانهيار القوى « إلى ربك يومئذ المساق » اي ان مساق الخلائق جميعها إلى المحشر . وإنما عبر عنه بلفظ ربك من حيث لا يملك فيه الأمر والنهي غير الله تعالى .

وقيل : إن معناه ان الملك يسوق بروحه إلى حيث امر الله تعالى به إن كان من اهل الجنة فالى عليين ، وإن كان من اهل النار فالى سجين ، وذلك قوله

تعالى : « فريق في الجنة وفريق في السعير » ثم بين سبحانه سبب الاستحقاق للعذاب فقال : « فلا صدق ولا صلى » اي انه لم يكسب نصيبه لا في مرحلة اليقين والاعتقاد القلبي والتصديق ، ولا في مرحلة العمل والطاعة والعبادة والصلاة « ولكن كذّب وتولى » اي بالله وبالرسول والكتاب ، واعرض عن الايمان والعمل فالعدالة حاكمة بسوقه إلى مستحقه وإيداعه في مقر عذابه .

لطف بحسب التنوير

قال تعالى : « الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكوة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم في بيوت أذن الله ان تُرفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ليجزيهم الله احسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب » (١) .

ذكرنا الآية بطولها لكثير فوائدها وعظيم منافعها سواء كان من جهة تفسيرها وتوضيح معاني الفاظها ، او من جهة تركيبها ومفاد تشبيهها ، او من جهة الطافها والارشاد إلى الأخذ بسيرة المعنيين فيها ، فنقول : ذكر في معنى قوله الله نور السماوات والأرض وجوه :

(احدها) الله هادي اهل السماوات والأرض إلى ما فيه مصالحهم .

(١) سورة النور الآية ٣٥ .

(ثانيها) الله منوّر السماوات والأرض بالشمس والقمر والنجوم .

(ثالثها) مزين السماوات بالملائكة ومزين الأرض بالأنبياء والعلماء ، وإنما ورد النور في الآية صفة لله تعالى لأن كل نفع وإحسان وإنعام منه عزوجل كما يقال فلان رحمة وفلان عذاب ، والحال ان افعاله هي الرحمة والعذاب ، لكنه وصف بهما باعتباره مصدر الأفعال فكذلك الله تعالى ، واما قوله : « مثل نوره » ففيه وجوه ايضاً :

(أحدها) ان المراد من نوره المشبه بالمشكاة هو الايمان في قلوب المؤمنين الذي هداهم اليه وبه .

(الثاني) ان المراد به القرآن .

(الثالث) انه تعالى عنى بالنور محمداً ﷺ وأضافه إلى نفسه تشريفاً له

(الرابع) ان نوره الأدلة الدالة على توحيده وعدله التي هي بظهورها ووضوحها مثل النور .

(الخامس) ان النور هنا الطاعة أي مثل طاعة الله في قلب المؤمن « كمشكوة فيها مصباح » هذا هو المشبه به ، والمشكوة هي الكوة في الحائط يوضع عليها زجاجة ؛ ثم يكون المصباح خلف تلك الزجاجة ، ويكون للكوة باب آخر يوضع المصباح منه .

وقيل : المشكوة عمود القنديل الذي فيه الفتيلة ، وهو مثل الكوة ، والمصباح السراج .

وقيل : المشكوة القنديل نفسه ، والمصباح الفتيلة « المصباح في زجاجة » أي ذلك السراج في زجاجة ، وخص الزجاجة بالذكر للتمثيل ، لأنها أصفى الجواهر فالمصباح فيها يكون اكثرضياءاً « الزجاجة كأنها كوكب دري » أي تلك الزجاجة مثل الكوكب العظيم المضيء الذي يشبه الدر في صفائه ونوره ونقائه « يوقد

من شجرة مباركة » أي يشعل ذلك السراج من دهن شجرة مباركة « زيتونة » أراد بالشجرة المباركة شجرة الزيتون ، لأن فيها انواع المنافع فان الزيت يسرج به وهو أدام ودهان ودباغ وغسيل ولايحتاج في استخراج دهنه إلى كلفة عصار

وقيل : إنما خص الزيتونة . لأن دهنها أصفى وأضوأ .

وقيل : لأنها اول شجرة نبتت في الدنيا بعد الطوفان ، ومنبتها منزل الأنبياء

وقيل : لأنها بارك فيها سبعون نبياً منهم ابراهيم ، لذلك سميت مباركة « لا شرقية ولا غربية » أي لا يفيء عليها ظل شرق ولا غرب ، فهي ضاحية للشمس لا يظلها جبل ولا شجر ولا كهف فزيتها يكون أصفى ، وعلى هذا يكون المعنى انها ليست بشرقية ، أي لا تصيبها الشمس إذا غربت فقط ، ولا هي غربية أي لا تصيبها الشمس إذا طلعت فقط ، بل هي شرقية غربية أخـــذت بحظها من الأمرين .

وقيل : إن معناه انها ليست من شجر الدنيا حتى تكون شرقية او غربية .

وقيل : إن معناه انها ليست في مقنوة ، بحيث لاتصيبها الشمس ، ولا هي بارزة للشمس ، بحيث لا يصيبها الظل ، بل انها يصيبها الشمس والظل معاً .

وقيل : إن معناه انها ليست من شجر الشرق ولا من شجر الغرب ، لأن ما اختص باحدى الجهتين كان أقل زيتاً وأضعف ضوءاً ، لكنها من شجر الشام وهو ما بين الشرق والغرب « يكاد زيتها يضيء » من صفائه وفرط ضيائه « ولولم تمسسه نار » أي من قبل ان تصيبه النار وتشتعل فيه . واما المقصود من هذا التشبيه والمشبه به ففيه أقوال :

(أحدها) انه مثل ضربه الله لنبيه محمد صلى الله عليه وآله فالمشكاة صدره والزجاجة قلبه والمصباح فيه النبوة لا شرقية ولا غربية ، أي لا يهودية ولا نصرانية توقد من شجرة مباركة ، يعني شجرة النبوة وهي ابراهيم عليه السلام يكاد نور محمد صلى الله عليه وآله

يبين للناس ولو لم يتكلم به . كما ان ذلك الزيت يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار .

(ثانيها) ان المشكاة ابراهيم ، والزجاجة اسماعيل ، والمصباح محمد ﷺ من شجرة مباركة ، يعني ابراهيم ، لأن اكثر الأنبياء من صلبه ، لا شرقية ولا غربية لا نصرانية ولا يهودية ، لأن النصارى تصلي إلى المشرق واليهود تصلي إلى إلى المغرب ، يكاد زيتها يضيء ، أي يكاد محاسن محمد ﷺ تظهر قبل ان يوحى اليه نور على نور ، أي نبي من نسل نبي .

(ثالثها) ان المشكاة عبدالمطلب والزجاجة عبدالله والمصباح هو النبي ﷺ لا شرقية ولا غربية بل مكية ، لأن مكة وسط الدنيا .

(رابعها) وهو المروي عن الرضا عليه السلام انه قال : نحن المشكاة فيها (أي في الآية) والمصباح محمد ﷺ يهدي الله لولايتنا من أحب .

وفي كتاب التوحيد لابن بابويه بسنده عن الباقر عليه السلام في قوله : كمشكاة فيها مصباح هو نور العلم في صدر النبي ﷺ والزجاجة صدر علي عليه السلام حيث صار علم النبي ﷺ إلى صدر علي عليه السلام كما قال : علمني رسول الله ﷺ الف باب من العلم ينفتح لي من كل باب الف باب ، يوقد من شجرة مباركة هي نور العلم لا شرقية ولا غربية لا يهودية ولا نصرانية ، يكاد زيتها يضيء ولولم تمسسه نار معناه يكاد العالم من آل محمد ﷺ يتكلم بالعلم قبل أن يسأل نور على نور أي إمام مؤيد بنور العلم والحكمة في أثر إمام آخر من آل محمد ﷺ وذلك من لدن آدم إلى ان تقوم الساعة ، فهؤلاء الأوصياء الذين جعلهم الله خلفائه في أرضه وحججه على خلقه لا تخلو الأرض في كل عصر من واحد منهم .

وليس هـذا ببعيد ، لأن الله سبحانه خلق في افراد الانسان كل شيء يحتاج اليه النوع البشري فخلق الذكر والأنثى ، وخلق من له الرغبة في الصنعة على اختلاف انواعها ومن له الرغبة في العلم ، وخلق الحكماء والمخترعين ورقاق

القلوب وبمكنهم الشجعان ، وغير ذلك مما يتوقف عليه النظام ويحتاجه الأنام ، ومن أهم ذلك ، وجود إمام معصوم مرشد ومصلح عالم بالحق يهدي الناس اليه وينقذهم من الضلالة وإن قصر الناس في اتباعه فلا يمنع الله ألطافه لعباده الآخرين فالأرض لا تخلو منهم انواراً في زمان ، وأجساماً في زمان ، مشاهدين في وقت وغائبين في آخر ، حاكمين او محكومين ، غالبين او مغلوبين ، كل ذلك لطف من رب العالمين .

ويؤيد هذا قول أبي طالب (١)

في رسول الله ﷺ :

أنت الأمين محمـــد قرم أعز مسود
لمسودين أطاهر كرموا وطاب المولد
انت السعيد من السعود تكنفتك الأسعد
من لدن آدم لم يزل فينا وصي مرشد
ولقد عرفتك صادقاً والقول لا يتفنـد
مازلت تنطق بالصواب وانت طفل أمرد

وحاصل هذا القول : إن الشجرة المباركة في الآية هي دوحة التقى وعترة الهدى شجرة أصلها النبوة وفرعها الامامة وأغصانها التنزيل وأوراقها التأويل وخدمها جبرئيل وميكائيل وأتباعها النسل الأصيل .

(خامسها) انه مثل ضربه الله للمؤمنين ، فالمشكاة نفس المؤمن ، والزجاجة

(١) هذا قوله في الرسول (ص) وهم يطعنونه بالكفر فقرأ وأحكم وأدلة إسلامه فوق حد الإحصاء ، ولكنها هنات لحقته من بغضهم لولده علي عليه السلام

صدره ، والمصباح إيمانه ، والقرآن في قلبه ، يوقد من شجرة مباركة هي الاخلاص لله وحده لا شريك له ، فهي خضراء ناعمة كشجرة التف بها الشجر فلا تصيبها الشمس لا إذا طلعت ولا إذا غربت ، وكذلك المؤمن قد احترز من ان يصيبه شيء من الفتن فهو بين اربع : خلال ان اعطي شكر ، وإن ابتلي صبر ، وإن حكم عـدل ، وإن قال صدق فهو في سائر الناس كالرجل الحي يمشي بين القبور لأنهم اموات القلوب . ومعنى قوله : نور على نور إن كلام المؤمن نور وعلمه نور ومدخله نور ومخرجه نور ومصيره في يوم القيامة إلى نور .

(سادسها) انه مثل القرآن في قلب المؤمن ، فكما ان هذا المصباح يستضاء به وهو كما هو لاينقص فكذلك القرآن ، والزجاجة قلب المؤمن ، والمشكاة لسانه وفمه ، والشجرة المباركة الوحي ، يكاد زيتها يضيء ، أي يكاد حجج القرآن تتضح وإن لم تقرأ .

وقيل : إن معناه تكاد حجج الله على خلقه تضيء لمن تفكر فيها وتدبر معانيها ولو لم ينزل القرآن ، نور على نور ، يعني أن القرآن نور مع سائر الأدلة قبله فازدادوا به نوراً على نور ، وبناءً على هذا القول فيمكن أن يراد ترتب الأدلة لأنها يترتب بعضها على بعض ولا يكاد أن يستفيد منها العاقل إلا بمراعاة الترتيب والتوصل من البديهي منها إلى النظري « يهدي الله لنوره من يشاء » أي يهدي الله لدينه والايمان به من يشاء بأن يفعل له لطفاً يختار عنده الايمان إذا علم انه قابل للطف بأن يكون له لطف وصفاء في ذاته .

وقيل : إن معناه إن الله يهدي لنبوته وولايته من يشاء ممن يعلم انه يصلح لذلك « ويضرب الله الأمثال للناس » تقريباً للافهام وتسهيلا لادراك المرام « والله بكل شيء عليم » فيضع الأشياء مواضعها « في بيوت أذن الله أن ترفع » أي ان هذه المشكاة في بيوت هذه صفتها .

قيل : إن المراد من البيوت المساجد ، ويعضده قول النبي ﷺ : المساجد بيوت الله في الأرض وهي تضيء لأهل السماء كما تضيء النجوم لأهل الأرض ، ثم قيل : إنها أربع لم يبنها إلا نبي ، الكعبة بناها ابراهيم واسماعيل وبيت المقدس بناه داود وسليمان ، ومسجد المدينة ومسجد قبا بناهما رسول الله ﷺ ، وقيل : هي بيوت الأنبياء .

وقد روي انه سئل النبي ﷺ لما قرأ هذه الآية أي بيوت هذه ؟ فقال بيوت الأنبياء ، فقام ابو بكر فقال : يا رسول الله هذا البيت منها يعني بيت علي وفاطمة ، قال ﷺ : نعم هو من أفاضلها . ويؤيد هذا القول قوله تعالى : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » وقوله تعالى : « ورحمة الله وبركاته عليكم اهل البيت » والمراد برفعها تعظيمها ورفع قدرها وطهارتها من المعاصي والأدناس ، ومعنى الاذن من الله الأمر والالزام .

وقيل : إن المراد من رفعها رفع الحوائج فيها إلى الله تعالى لتكون اقرب إلى القبول « ويذكر فيها اسمه » أي يتلى فيها كتابه .

وقيل : تذكر فيها أسماؤه الحسنى « يسبح له فيها بالغدو والآصال » أي يصلى له فيها بالبكور والعشايا .

وقال ابن عباس : كل تسبيح في القرآن المراد منه الصلاة .

وقيل : المراد بالتسبيح تنزيه الله عن كل ما لايليق به ، ووصفه بما يستحقه لذاته ولأفعاله التي كلها حكمة وصواب ، ثم بين سبحانه صفات المسبحين فقال : « رجال لا تلهيهم » أي لا تشغلهم ولا تصرفهم « تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة » أي إقامة الصلاة فالهاء عوض الواو في اقوام لأنه اصله ، فلما اضيف إلى الصلاة صار المضاف اليه عوضاً عن الهاء .

وروي عن الباقر والصادق (ع) انهم قوم إذا حضرت الصلاة تركوا

التجارة وانطلقوا إلى الصلاة وهم اعظم اجراً ممن يتجر « وإيتاء الزكاة » أي إخلاص الطاعة بتزكية النفوس .

وقيل : يريد الزكاة المفروضة «يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار» أراد يوم القيامة تتقلب فيه حالات القلوب والأبصار ، وتنتقل من حال إلى حال فتلفحها النار ثم تنضجها ثم تحرقها .

وقيل : تتقلب فيه القلوب بين الطمع في النجاة ، وبين الخوف من الهلاك وتتقلب الأبصار يمنة ويسرة من أين تؤتى كتبهم ؟ وأين يؤخذ بهم أمن قبل اليمين أم من قبل الشمال ؟ .

وقيل : تتقلب القلوب من محالها ببلوغها الحناجر ، والأبصار بالعمى بعد البصر .

وقيل : إن معناه تتقلب القلوب عن الشك إلى اليقين والايمان ، وتتقلب الأبصار عما كانت تراه غياً فتراه رشداً ، فمن كان شاكا في دنياه أبصر في آخرته ومن كان عالماً ازداد بصيرة وعلماً فهو مثل قوله : « فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » « ليجزيهم الله احسن ما عملوا ويزيدهم من فضله » أي يفعلون ذلك طلباً لمجازاة الله إياهم بأحسن ما عملوا ، ولأجل تفضله عليهم بالزيادة على ما استحقوه بأعمالهم من فضله وكرمه « والله يرزق » أي يعطي « من يشاء بغير حساب » والمراد به عطاء التفضل ، لأن عطاء الجزاء والثواب لا يكون إلا بحساب ، والتفضل يكون بغير حساب لأنه من الكريم ، وقد علم بصلاحية المحل فنحن نستمد كرمه ، ونستظل عفوه ، ونسترحم لطفه ، فانه الوهاب ذو الطول .

ومن ألطافه تعالى قصص كتابه

مبيناً فيها متنوع عذابه ، وغرائب انتقامه ، ممن طغى وتمرد من عباده ، وانكر ما جاء منه سبحانه على أيدي رسله وأنبيائه ، من براهينه ودلالاته ، ليتفهم السامعون ، ويتحذر المخاطبون ، من الوقوع بمثل ما صرع به السالفون والغرور بنظائر ما اغتر به الجاهلون ، فيهلكوا بذلك حذو هلاك السابقين ، ويصعقوا فجأة بأشد مما صعق به الأولون ، وانهار به الجبارون ، كما قال عظمت آلائوه : « وما هي من الظالمين ببعيد » وكما قال دقت ألطافه « أفأمن الذين مكروا السيئات ان يخسف الله بهم الارض او يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون او يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين او يأخذهم على تخوف فان ربكم لرؤف رحيم » وقال تعالت كبرياؤه : « أفلم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين امثالها » .

فعندما يقص سبحانه علينا بعض قصص الأمم الماضية ، ويشرح لنا ما اصابهم في هذه الدنيا الفانية ، وما أدى بهم إلى الخلود في الهاوية ، لا يكون غرضه تعالى نقل قصة بما هي قصة وترويح خواطرنا ، وتسكين نفوسنا كما هو شأن القصص العابرة ، بل إنما يكون مرماه إلفات الانظار ، ومغزاه تنوير الافكار ، لتأخذ الاعتبار ، من عظائم الآثار ، واستيلاء الدمار والبوار ، على من عصى الجبار

لطف قصصي

قال تعالى فيما يحكيه عن نبيه صالح وقومه ثمود ، وما فعلوه بالناقة بالرغم مما شاهدوه منها من عظيم المعاجز وخارق العادات ، سواء كان من بدء خلقها من الصخرة اوما كان بعد ذلك من غريب شربها وبديع حلبها « وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في ارض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب اليم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الارض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون من الجبال بيوتاً فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الارض مفسدين قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون ان صالحاً مرسل من ربه قالوا إنا بما ارسل به مؤمنون قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح إئتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين » (١) .

اما معنى الآية فقوله : « واما ثمود أخاهم صالحاً » معناه وأرسلنا إلى ثمود صالحاً لارشادهم وتوجيههم إلى صالحهم ، وثمود هنا القبيلة نسبة إلى ثمود بن عامر ابن ارم بن سام بن نوح وصالح من ولد ثمود ، وكانت ثمود تسكن وادي القرى بين المدينة والشام ، وكانت عاد باليمن ، وكانت اعمار ثمود من الف سنة إلى ثلاثمائة قال : « يا قوم اعبدوا الله » وحده شأنه كشأن اخوانه المرسلين في بدء الدعوة

(١) سورة الأعراف الآية ٧٣ . الخ

بالتوحيد ، حيث قد علم الانبياء كلهم انه القاعدة لاندفاع الموحد نحو كل خير وصلاح ، إذا كان توحيده بمعناه الصحيح « ما لكم من إله غيره » كي تعبدوه لانحصار الخلق والرزق به جل شأنه ، وحيث قد أبى سبحانه الجبر والقسر لعباده دون إقامة الدليل وإيضاح البرهان على ما يدعوهم اليه قال على لسان نبيه : « قد جاءتكم بينة من ربكم » أي دلالة معجزة شاهدة على صدقي ، واني مرسل لكم من ربي وربكم « هذه ناقة الله لكم آية » إشارة إلى ناقة بعينها أضافها إلى الله تعالى تفضيلا وتخصيصاً كما يقال بيت الله .

وقيل : إنما اضافها اليه لأنها خلقها تعالى بلا واسطة ، وجعلها دلالة على توحيده وصدق رسوله ، لانها خرجت من صخرة ملساء تمخضت بها كما تتمخض المرأة ، ثم انفلقت عنها على الصفة التي طلبوها ، كما سيأتي تفصيله في القصة ، وكان لها شرب يوم تشرب فيه ماء الوادي كله لايشركها أحد فيه منهم وتسقيهم اللبن بدله ولهم شرب يوم يخصهم لا تقرب هي فيه ماءهم ، وهذا من اعجازها .

وقيل : إنما اضافها إلى الله سبحانه ، لانه لم يكن لها مالك سواه ، ثم قال « فذروها » أي اتركوها « تأكل في ارض الله ولا تمسوها بسوء » أي بعقر او نحر « فيأخذكم » أي فينا لكم « عذاب اليم » إنذار لهم وتهديد ، وان العذاب ليس اعتيادياً ، بل هو مؤلم ومهلك ، كل ذلك لزيادة البيان لذا نبههم وألفت انظارهم إلى ماصنع بمن قبلهم ، حيث لم يشكروا النعمة فقال : « واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد » أي واذكروا نعم الله عليكم في ان اورثكم الارض ومكنكم فيها من بعد هلاك عاد « وبوأكم في الارض » أي انزلكم فيها وجعل لكم فيها مساكن وبيوتاً تأوون اليها « وتتخذون من سهولها قصوراً » والسهل خلاف الجبل وهو ما ليس فيه مشقة على النفس ، أي تبنون في سهولها الدور والقصور ، وإنما اتخذوها في السهول ليصيفوا فيها « وتنحتون من الجبال بيوتاً »

قال ابن عباس : كانوا يبنون القصور بكل موضع ، وينحتون من الجبال بيوتاً يسكنونها شتاءً لتكون مساكنهم في الشتاء احصن وأدفأ .

ويروى انهم لطول اعمارهم يحتاجون إلى ان ينحتوا بيوتاً في الجبال ، لان السقوف والأبنية كانت تبلى قبل فناء اعمارهم .

ثم نبههم سبحانه على واجب النعم ، وما يحفظ استمرارها لهم ويديمها عليهم فقال : « فاذكروا آلاء الله » أي نعم الله عليكم بما أعطاكم من القوة وطول العمر والتمكن في الارض « ولا تعثوا في الارض مفسدين » أي ولا تضطربوا بالفساد في الارض ولا تبالغوا فيه ، فان الفساد في الارض وفيما يشمل المجموعة ويخل بالنظام ، خصوصاً من اولي الامر والحكام ، ومن لهم السيطرة على ضعفاء الانام ، يستوجب غضب الله وسرعة الانتقام « قال الملأُ الذين استكبروا » أي تعظموا ورفعوا انفسهم فوق مقدارها بجحود الحق للأنفة من اتباع الرسول الداعي اليه « من قومه » أي من قوم صالح « للذين استضعفوا » أي للذين استضعفوهم من المؤمنين « لمن آمن منهم » انما ذكر هذا القيد لئلا يظن بالمستضعفين انهم كانوا غير مؤمنين ، لانه قد يكون المستضعف مستضعفاً في دينه ولايكون مؤمناً فأزال الله سبحانه هذه الشبهة وأثبت ان المقول لهم هم المؤمنون المستضعفون « أتعلمون ان صالحاً مرسل من ربه » أي هل تعلمون وتعتقدون ان الله ارسل صالحاً « قالوا إنا بما ارسل به مؤمنون » أي مصدقون أجابوهم بلازم العلم من التصديق والايمان بالمعلوم تعريضاً بهم ، حيث علموا بواضح البرهان ولم يؤمنوا تعنداً وترفعاً « قال الذين استكبروا » لهم حين سمعوا منهم الايمان والاعتراف بنبوة صالح «إنا بالذي آمنتم به» أي صدقتم به «كافرون» جاحدون ثم أخبر سبحانه عما فعله المستكبرون بقوله : « فعقروا الناقة » أي فنحروا الناقة وانما عبر بلفظ العقر وهو قطع عرقوب البعير ، مع ان المراد هو النحر ، لان ناحر

البعير يعقره أولا ثم ينحره « وعتوا عن امر ربهم » أي تجاوزوا الحد في الفساد والمعصية وبلغوا نهاية الطغيان « وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا » من العذاب على قتل الناقة فقد قتلناها « ان كنت من المرسلين » فلما بلغوا بتمردهم وتحديهم ايضاً هذا المبلغ أخبر سبحانه عما حل بهم من العذاب بقوله: « فأخذتهم الرجفة » أي الصيحة .

وقيل : الصاعقة .

وقيل : الزلزلة أهلكوا بها .

وقيل : كانت صيحة زلزلت بها الارض ، والرجفة في اللغة هي الحركة المزعجة بشدة الزعزعة « فأصبحوا في دارهم » أي في بلدهم .

وقيل : يريد في دورهم ، وانما أفرد لانه أراد الجنس بدلالة انه قد ذكر في موضع آخر - ديارهم - بالجمع « جاثمين » أي صرعى ميتين ساقطين لاحركة بهم

وقيل : معناه كالرماد الجاثم ، لانهم احترقوا بالصاعقة « فتولى عنهم » صالح ، أي اعرض عنهم ، لانه انما كان يقبل عليهم لدعائهم الى الايمان « وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم » أي أديت النصح وتمام الجهد في تبليغ الرسالة « ولكن لا تحبون الناصحين » أي ولكنكم لا تحبون من ينصح لكم لان من أحب انساناً قبل منه .

مفصل قصة صالح

وكان من قصة صالح وقومه على ما ذكره ارباب السير والتواريخ ، ان عاداً لما هلكت وتقضى امرها ، عمرت ثمود بعدها واستخلفوا في الارض على عادة الله في عباده من انه « يهلك ملوكا ويستخلف آخرين » فكثروا وعمروا

وكانوا في سعة من معايشهم ، وقوة من ابدانهم ، فعتوا على الله وافسدوا في الارض ، وعبدوا غير خالقهم ، فبعث الله اليهم صالحاً ، وكان من ارفعهم نسباً ، وكانوا قوماً عربا .

وروي في الخبر انه لما بعث كان ابن ست عشرة سنة ، فلبث فيهم يدعوهم الى الله حتى بلغ عشرين ومائة سنة ، لا يجيبونه الى خير .

هكذا جهاد الانبياء وصمودهم في سبيل اداء الرسالة ، وهذا اخلاصهم للعباد ، وتفانيهم في الرشاد ، بدافع الانسانية ، ولم يكن اصطفاء الله لهم دون غيرهم عبثاً ، وتفضيلهم على من سواهم اعتباطاً ، بل لقديم علمه تعالى بصفاء سريرتهم ، وخلوص نيتهم ، وتحمل اذى قومهم .

الرجوع الى قاطع الحجة

وكان لهم سبعون صنما يعبدونها ، فلما رأى صالح ذلك منهم ، قال لهم : أنا أعرض عليكم امرين ، ان شئتم فاسألوني حتى أسأل إلهي فيجيبكم فيما تسألوه وان شئتم سألت آلهتكم ، فان أجابوني خرجت عنكم ، فقد شنأتكم وشنأتموني(١) قالوا : قد أنصفت ، فاتعدوا ليوم يخرجون فيه ، فخرجوا بأصنامهم الى عيدهم وأكلوا وشربوا ، فلما فرغوا دعوه وقالوا يا صالح سل ، فسألها فلم تجبه قال : لا أرى آلهتكم تجيبني فاسألوني حتى أسأل إلهي فيجيبكم الساعة .

وفي رواية العياشي عن أبيه عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام قال : ان رسول الله صلى الله عليه وآله سأل جبرئيل عليه السلام كيف كان مهلك قوم صالح ؟ فقال : يا محمد ان صالحاً بعث الى قومه وهو ابن ست عشرة سنة ، فلبث فيهم حتى بلغ

(١) خرجت عنكم أي ذهبت إلى وجهي وتركت دعوتكم فقد مللت منكم ومللتم مني

عشرين ومائة سنة لا يجيبونه إلى خير ، وذكر نحواً مما ذكرناه إلى ان عرض عليهم الأمرين فقالوا : يا صالح سل فدعا صالح كبير أصنامهم فقال : ما اسم هذا فأخبروه باسمه فناداه باسمه فلم يجب فقالوا : ادع غيره فدعاها كلها بأسمائها فلم يجبه واحد منهم فقال : يا قوم قد ترون دعوت أصنامكم فلم يجبني واحد منهم فسألوني حتى أدعوا إلهي فيجيبكم الساعة ، فأقبلوا على أصنامهم فقالوا لها : ما لكن لا تجبن صالحاً فلم تجب ، فقالوا : يا صالح تنح عنا ودعنا وأصنامنا قليلا . قال : فرموا بتلك البسط التي بسطوها ، وبتلك الأواني ، وتمرغوا في التراب وقالوا لها لئن لم تجبن صالحاً اليوم لتفضحن ، ثم دعوه فقالوا : ياصالح سلها فسألها فلم تجبه فقال : يا قوم قد ذهب النهار ولا أرى آلهتكم تجيبني فاسألوني حتى أسأل إلهي فيجيبكم الساعة ، فانتدب له سبعون رجلا من كبرائهم فقالوا : يا صالح نحن نسألك فقال : كل هؤلاء يرضون بكم ، قالوا : نعم فان أجابك هؤلاء أجبناك ، فقالوا : يا صالح نحن نسألك ، فان أجابك ربك اتبعناك وتابعك جميع قريتنا ، فقال لهم صالح : سلوني ما شئتم . فقالوا له : انطلق بنا إلى هذا الجبل فانطلق معهم فقالوا : سل ربك ان يخرج لنا الساعة من صخرة هذا الجبل ناقة مخترجة(١) شديدة الحمرة وبراء عشراء - يعني حاملا - بين جنبيها - ميل - (٢) فان فعلت صدقناك وآمنا بك ، فقال : سألتموني شيئاً يعظم عليّ ويهون على ربي فسأل الله ذلك فانصدعت الصخرة صدعاً كادت عقولهم تطير منه لما سمعوا من الصوت واضطرب الجبل والصخرة كاضطراب المرأة عند الطلق ، ثم لم يفجأهم إلا ورأسها قد طلع عليهم من ذلك الصدع فما استتمت رقبتها حتى اجترت ، ثم خرج سائر جسدها فاستوت على الأرض قائمة كما وصفوا لا يعلم ما بين جنبيها إلا الله عظما

(١) المخترجة ما شاكلت البخاتي من الإبل .

(٢) أي مساحة ميل اطولها وعظمها .

وهم ينظرون فقالوا : ياصالح ما أسرع ما أجابك ربك فسله ان يخرج لنا فصيلها فسأل الله ذلك فرمت به فدب حولها وهو مثلها في العظم ، فقال : يا قوم أبقي شيء ، قالوا : لا ، فانطلق بنا إلى قومنا نخبرهم بما رأيناه ليأمنوا بك فرجعوا فلم يصل السبعون رجلا اليهم حتى ارتد منهم اربعة وستون رجلا وقالوا : سحر ، وثبت الستة رجال وقالوا : الحق ما رأيناه ، ثم ارتاب من الستة واحـد فكان فيمن عقرها .

وزاد محمد بن ابي نصر في حديثه قال سعيد بن يزيد : فأخبرني ـ أي الراوي ـ انه رأى الجبل الذي خرجت منه بالشام فرأى جنبها قد حك الجبل فأثر فيه ، وجبلا آخر بينه وبين هذا مسافة ميل ، ولما جاءوا إلى القرية آمن به رهط من قومه ولم يؤمن اكابرهم فقال لهم صالح : هذه ناقة لها شرب يوم ولكم شرب يوم معلوم ، وقد اوضحنا ذلك فيما سبق ، فاذا كان يومها وضعت رأسها في مائهم فما ترفعه حتى تشرب كل ما فيه ، ثم ترفع رأسها فتفحج لهم فيحتلبون ما شاءوا من لبن فيشربون ويدخرون حتى يملأوا اوانيهم كلها ، وكانوا في سعة ودعة منها ، وكانوا يشربون الماء يوم الناقة من الجبال والمغارات ، فشق ذلك عليهم ، وكانت مواشيهم تنفر عنها لعظمها فهموا بقتلها .

ابليس يهيىء أسباب معصيتهم وهلاكهم

وكانت امرأة جميلة ذات مال من إبل وبقر وغنم ، وكانت أشد الناس عداوة لصالح فدعت رجلا من ثمود يقال له ـ مصدع بن مهرج ـ وجعلت له نفسها على ان يعقر الناقة . وامرأة اخرى يقال لها عنيزة دعت قدار بن سالف وكان احمر ازرق قصيراً وكان ولد زنا ولم يكن ـ لسالف ـ الذي يدعى اليه ،

ولكنه ولد على فراشه ، وقالت له : أعطيك أي بناتي شئت على ان تعقر الناقة وكان قدار عزيزاً منيعاً في قومه ، فانطلق قدار بن سالف ومصدع فاستغويا غواة ثمود ، فاتبعهما سبعة نفر ، وأجمعوا على عقر الناقة .

الانذار يقطع الأعذار

قال السدي وغيره : إن الله اوحى إلى صالح ان قومك سيعقرون ناقتك فقال ذلك لقومه ، فقالوا : ما كنا لنفعل ، قال صالح : إنه يولد في شهركم هذا غلام يعقرها ويكون هلاككم على يديه ، فقالوا : لا يولد لنا ابن في هذا الشهر إلا قتلناه فولد لتسعة منهم في ذلك الشهر فذبحوا أبناءهم ، ثم ولد للعاشر فأبى ان يذبح ابنه ، وكان لم يولد له قبل ذلك شيء ، وكان العاشر ازرق احمر ونبت نباتاً سريعاً ، وكان إذا مر بالتسعة فرأوه قالوا : لو كان ابناؤنا أحياءٌ لكانوا مثل هذا ، فغضب التسعة على صالح ، لأنه كان سبب قتلهم لأبنائهم فتقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ، فقالوا : نخرج فيرى الناس إنا خرجنا إلى سفر فنأتي الغار فنكون فيه ، حتى إذا كان الليل وخرج صالح إلى مسجده أتيناه فقتلناه ، ثم رجعنا إلى الغار فكنا فيه ، ثم رجعنا فقلنا : ماشهدنا مهلك أهله وإنا الصادقون فيصدقوننا ويعلمون إنا قد خرجنا إلى سفرنا ، وكان صالح لاينام معهم في القرية ويبيت في مسجد يقال له مسجد صالح ، فاذا أصبح أتاهم فوعظهم ، وإذا أمسى خرج إلى المسجد فبات فيه ، فانطلقوا فلما دخلوا الغار وأرادوا ان يخرجوا من الليل سقط عليهم الغار فقتلهم ، فانطلق رجال ممن اطلع على ذلك منهم اليهم فاذاهم رضخ فرجعوا وجعلوا يصيحون في القرية الله عباد الله أما رضي صالح ان امرهم بقتل اولادهم إذ قتلهم فاجتمع اهل القرية على عقر الناقة .

وقال ابن اسحاق : إنما كان تقاسم التسعة على تبييت صالح بعد عقر الناقة وإنذار صالح إياهم بالعذاب .

وقال السدي : لما ولد قدار وكبر جلس مع أناس يصيبون من الشراب فأرادوا ماءً يمزجون به شرابهم ، وكان ذلك اليوم شرب الناقة ، فوجدوا الماء قد شربته الناقة ، فاشتد ذلك عليهم فقال قدار : هل لكم في ان أعقرها لكم ؟ قالوا : نعم .

سبب آخر لعقر الناقة[1]

قال كعب : كان سبب عقرهم الناقة ان امرأة يقال لها ملكاء كانت قد ملكت ثموداً ، فلما اقبل الناس على صالح وصارت الرئاسة اليه حسدته ، فقالت لامرأة يقال لها قطام ، وكانت معشوقة قدار بن سالف ، وقالت ايضاً لامرأة اخرى يقال لها قبال ، كانت معشوقة مصدع ، وكان قدار ومصدع يجتمعان معها كل ليلة ويشربون الخمر فقالت لها ملكاء : إن اتاكما الليلة قدار ومصدع فلا تطيعاهما وقولا لهما : إن ملكاء حزينة لأجل الناقة ولأجل صالح ، فنحن لا نطيعكما حتى تعقرا الناقة ، فلما اتياهما قالتا هذه المقالة لهما ، فقالا : نحن نكون من وراء عقرها ، فانطلق قدار ومصدع وأصحابهما السبعة ، فرصدوا الناقة حين صدرت عن الماء ، وقد كمن لها قدار في اصل صخرة على طريقها ، وكمن لها مصدع في اصل اخرى فمرت على مصدع فرماها بسهم فانتظمت به عضلة ساقها وخرجت - عنيزة - وأمرت ابنتها وكانت من احسن النساء فأسفرت لقدار ثم زمرته فشد على الناقة بالسيف فكشف عرقوبها فخرت ورغت رغاة واحدة ، ثم

(١) لا منافاة فيما ذكر من اختلاف السبب لجواز تعدد الأسباب .

طعنها في لبتها فنحرها ، وخرج اهل البلدة واقتسموا لحمها وطبخوه ، فلما رأى الفصيل ما فعل بأمه ولى هارباً ثم صعد جبلا ، ثم رغا رغاء تقطع منه قلوب القوم وأقبل صالح فخرجوا يعتذرون اليه ويقولون : إنما عقرها فلان ولا ذنب لنا ، فقال صالح : انظروا هل تدر كون فصيلها ، فإن أدركتموه فعسى ان يرفع عنكم العذاب ، فخرجوا يطلبونه في الجبل فلم يجدوه ، وكانوا عقروا الناقة ليلة الأربعاء فقال لهم صالح : تمتعوا في داركم ـ يعني في محلتكم في الدنيا ـ ثلاثة ايام ، فإن العذاب نازل بكم .

رواية أخرى

في تفسير علي بن ابراهيم ان صالحاً قال لهم : إن لهذه الناقة شراب ـ أي تشرب ماؤكم يوماً ـ وتدر لبنها عليكم يوماً ، فكانت تشرب ماءهم يوماً وإذا كان من الغد وقفت وسط قريتهم فلا يبقى في القرية أحد إلا حلب منها حاجته ، وكان فيهم تسعة من رؤسائهم يفسدون في الأرض فعقروا الناقة وقتلوها وقتلوا فصيلها ، فلما عقروا الناقة قالوا لصالح : إئتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين ، قال صالح : « تمتعوا في داركم ثلاثة ايام » وان علامة هلاككم انكم تصبحون غداً ووجوهكم مصفرة ، وفي اليوم الثاني تصبحون ووجوهكم محمرة ، وفي اليوم الثالث تصبحون ووجوهكم مسودة ، فلما كان اول يوم اصبحت وجوههم مصفرة فقالوا : جاء ما قال لكم صالح ، ولما كان اليوم الثاني احمرت وفي اليوم الثالث اسودت .

حلول العذاب

قال : فلما كان نصف الليل اتاهم جبرئيل فصرخ بهم صرخة خرقت اسماعهم وفلقت قلوبهم ، وصدعت اكبادهم ، وكانوا قد تحنطوا وتكفنوا وعلموا ان العذاب نازل بهم ، فماتوا اجمعين في طرفة عين صغيرهم وكبيرهم ، فلم يبق الله منهم ثاغية ولا راغية ولاشيئاً يتنفس إلا اهلكه ، فأصبحوا في ديارهم موتى ، ثم ارسل الله اليهم مع الصيحة النار من السماء فأحرقتهم اجمعين .

وفي رواية فبعث الله عليهم صيحة وزلزلة فهلكوا .

النبي ﷺ يحذر من دخول قريتهم

روى ابو الزبير عن جابر بن عبدالله قال : لما مر النبي ﷺ - بالحجر - في غزوة تبوك قال لأصحابه : لا يدخلن أحد منكم القرية ، ولا تشربوا من مائهم ، ولا تدخلوا على هؤلاء المعذبين ، إلا ان تكونوا باكين ان يصيبكم الذي اصابهم (١) ، ثم قال : اما بعد فلاتسألوا رسولكم الآيات (٢) هؤلاء قوم صالح سألوا رسولهم الآية ، فبعث الله لهم الناقة ، وكانت ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج لشرب مائهم يوم ورودها ، وأراهم مرتقى الفصيل حين ارتقى في القارة فعتوا عن أمر ربهم فعقروها فأهلك الله من تحت أديم السماء منهم في

---

(١) وفي هذا روايات كثيرة في عدة مقامات مفادها النهي عن التقرب من أرض أهلك الله تعالى اهلها وكذلك عن ارض كثر فسادها لأنها مظنة نزول العذاب وحلول الانتقام

(٢) أي الدلالات على صدق النبوة والمعجزات لأنها تستوجب هلاك من لم يصدق بها

مشارق الأرض ومغاربها ، إلا رجلا واحداً يقال له ابو رغال وهو ابو ثقيف كان في حرم الله فنمه حرم الله من عذاب الله ، فلما خرج أصابه ما أصاب قومه فدفن ودفن معه غصن من ذهب ، وأراهم ﷺ قبر ابي رغال فنزل القوم فابتدروه بأسيافهم وحثوا عنه التراب فاستخرجوا ذلك الغصن - وكان ذلك من كرامات رسول الله ﷺ حيث اخبر بماغاب عنه وبعد امده - ثم قنع رسول الله ﷺ رأسه وأسرع السير حتى جاز الوادي ، كل ذلك تحذير لأمته ، وإبعاد لهم عما وقع للأمم السالفة ، كي لا يقعوا بأمثالها ، ولا يتعرضوا لغضب الله بارتكاب نظائرها .

تشبيه بديع منه ﷺ

روى الثعلبي باسناده عن النبي ﷺ انه قال : يا علي أتدري من أشق الأولين ؟ قال ؑ : الله ورسوله اعلم ، قال ﷺ : عاقر الناقة ، ثم قال ﷺ : أتدري من اشق الآخرين ؟ قال ؑ : الله ورسوله اعلم ، قال ﷺ : قاتلك

وفي رواية اخرى قال : اشق الآخرين من يخضب هذه من هذه واشار الى لحيته ورأسه .

وفي التهذيب عن اميرالمؤمنين ؑ انه قال عند شهادته : ادفنوني في هذا الظهر في قبر أخويّ هود وصالح عليهما السلام .

وعن ابن عباس قال : خرج رسول الله ﷺ ذات يوم وهو آخذ بيد علي ؑ وهو يقول : يا معشر الأنصار أنا محمد رسول الله ، إلا اني خلقت من طينة مرحومة في اربعة من اهل بيتي : أنا وعلي وحمزة وجعفر ، فقال قائل : هؤلاء معك ركبان يوم القيامة ، فقال ﷺ : كذلك انه لن يركب يومئذ

إلا اربعة : أنا وعلي وفاطمة وصالح . فاما أنا فعلى البراق . واما فاطمة فعلى ناقتي العضباء . واما صالح فعلى ناقة الله التي عقرت . واما علي فعلى ناقة من نوق الجنة زمامها من ياقوت عليه حلتان خضراوان فيقف بين الجنة والنار ، وقد ألجم الناس العرق يومئذ ، فتهب ريح من قبل العرش فتنشف عنهم عرقهم فيقول الأنبياء والملائكة والصديقون : ما هذا إلا ملك مقرب او نبي مرسل ، فينادي مناد ما هذا ملك مقرب ولا نبي مرسل ولكنه علي بن ابي طالب اخو رسول الله ﷺ .

فلسفة تواتر أخبار التشبيه

على لسانه ﷺ

فلقد تواترت الأخبار على لسان الرسول الأعظم ﷺ تشبيه قاتل علي عليه السلام بعاقر ناقة صالح ، وقد صح عنه ﷺ انه قال لعلي عليه السلام : اشقى الأولين والآخرين من عقر ناقة صالح ومن ضربك يا علي على قرنك حتى تخضب من دم رأسك لحيتك .

وقد الف بعض تأليفاً ذكر فيه وجوهاً لهذا التشبيه على مجرى عادة الكتاب حين يرون ملوكهم يهتمون في بيانات يختصرونها ويعتنون بكلمات يوجزونها ، وفي مختلف الأوقات يرددونها ، وعلى مسامع الرعية يذيعونها ، فيستشعر من ذلك ان لهم غرضاً بهذا التكرار ، فتأخذ الكتاب حينئذ كلماتهم التي هي كرؤوس اقلام معلقين عليها ، وموضحين للرعيــة مغازيها ، لكي يطبقوها ، وينتفعوا بمضامينها ، وما اودع الملك او الرئيس بحكمته من مصالح رعيته في تراكيبها ، خصوصاً فيما إذا احرزوا عدالة رئيسهم ، وإخلاص ملكهم ، وجرب مساعيه في صالحهم .

وحيث إنا لا نعتقد ان فرداً على وجه البسيطة منذ بدء الدنيا إلى نهايتها هو اعدل من نبينا محمد ﷺ ولا ابلغ منه ، وكذلك لم يكن أحد من جميع ذرية آدم انصح منه لعباد الله ، ولا اشفق منه لأمته ﷺ ، وعلمنا ايضاً انه الحكيم في افعاله ، والدقيق في اقواله ، والراسخ في عدله ، والمجرب في جهوده لصالح أمته ، فحق إذاً لنا ان نأخذ كلماته بنظر الاعتبار ، ووصاياه متمشية مع الدهور والأعصار ، ومعلقين عليها ، شارحين غوامضها ، موضحين مغازيها ومقاصدها ، مبلغين البشرية جمعاء إياها ، مقتطفين من ثمارها ، مطبقين لها ، محققين إرادته ﷺ منها ، مفتخرين بالوصول إلى دقائق معانيها ، وعلى الأقل كما يفعل ابناء الدنيا لأهل الدنيا .

في وجوه التشبيه

فما ذكروا في وجه تشبيه النبي ﷺ لعلي ؑ بناقة صالح ، وتشبيه قاتله بقاتلها ، هو أن الناقة بتولدها الغريب كانت آية من آيات الله تعالى ، ومعجزة لتفهيم عباد الله ان صالحاً هو نبي الله ، وكذلك علي ؑ بولادته في بيت الله الحرام وفي بطن الكعبة المطهرة بتلك الكرامة التي حيرت الأفكار ، والمعجزة التي اذهلت العقول من مجيء امه فاطمة بنت اسد سلام الله عليها عندما احست بمقدمات الطلق إلى الكعبة مستجيرة بركتها ، مستعينة بربها ، طالبة منه تسهيل ولادتها ، وقبل ختام دعائها ينشق لها ظهر الكعبة ، وتدخل بطن الكعبة ثم يلتئم الشق بمحضر جماعة من قريش ، ومنظر من لا ترد شهادته منهم ، وكأنها سلام الله عليها على موعدة في ذلك مع ربها ، ولم يكن منها صدفة ، نعم هو من مقررات أزلي علمه ، وقديم تقديره ، ليكون دلالة منه تعالى لوليه بتطهيره ،

وليكون سلام الله عليه مديناً للكعبة بذلك الكشف عن التطهير فيوفيها حقها بتطهير ظهرها من نجاسة الأصنام ، وعبادة الأوثان . بما اجتمعت عليه مؤرخوا الفريقين ، وانتشر في الخافقين ، من صعوده على منكب سيد المرسلين ، وخاتم النبيين ، وتكسيره الأصنام ، وكسحها عن البيت الحرام . وأخيراً ليكون آية لله تعالى بين يدي رسوله في جميع مواقفه وحروبه ، بل من الدلالات على نبوته .

(واما) تشبيه قاتله بقاتل الناقة ، فحيث ان قاتلها قد حرم الناس من عميم نفعها ، وغمير لبنها ، بالاضافة إلى حرمانهم من الاتعاظ بعظيم خلقها ، والاعتبار بغريب تولدها ، والالتفات إلى مظاهر قدرة الله تعالى في وجودها ، وانه مستحق اللعن من جميع عباد الله ، لتجاوزه حدود الله ، فكذلك قاتل علي عليه السلام فقد حرم العباد من غمير علومه ، وبليغ حكمته ، وهو غذاء الأرواح ، كما ان اللبن غذاء الأبدان بالاضافة إلى حرمانهم من الوعظ والارشاد ، وتوجيههم إلى الحكمة والسداد حيث قد كان هيكله العظيم بكل احواله وعظ وتعريف لأسرار الوجود ، وبرهان على وجود علة كل موجود ، فاستحق قاتله بذلك لعنة الله والملائكة والناس اجمعين إلى قيام يوم الدين ، لتجاوزه على عماد الدين ، والآية المنصوبة من الله تعالى للعالمين .

(ومن وجوه الشبه) ان المحرضين لعاقر الناقة على عقرها اهمهم كان النساء وفي المقدمة كانت الزرقاء وقطام ، وكذلك قتل علي عليه السلام كانت قطام صاحبة اليد الطولى فيه وذات العمل الفعال في دفع عبد الرحمن بن ملجم وهي معشوقته إلى قتل الامام عليه السلام لما تكنه له من البغض الشديد ، والعداء الأكيد ، المسبب عن قتله عليه السلام لذويها من ضمن الخوارج في سبيل الله ، حيث انهم قد خرجوا عن دين الله ، وقطعوا السبيل ، وأخافوا عباد الله ، وقتلوا الصالحين من المؤمنين امثال ـ عبدالله بن خباب ـ فهي قد انتقمت منه لانتقامه لله تعالى ، وإلى غير ذلك

مما ذكروه من وجوه المناسبة ، وعلاقات المشابهة والمقارنة ، بين عاقر الناقة ، وبين قاتله ﷺ .

لطف قصصي آخر

على عكس الأول

فقد ذكر سبحانه قصة أصحاب الكهف في القرآن الكريم بصورة لا تخلو عن تفصيل لاقتضاء المقام للاطناب والتطويل ، حيث كان القصد منه إرجاع الناس عن الضلال والتضليل ، وتوجيههم إلى التدبر والتفكير ، والتأمل في مكونات اللطيف الخبير . غير أن مجرى اللطف منه تعالى في هذا المقام على عكسه في سابقه حيث كان اسلوبه في قصة ـ الناقة وصالح ـ هو الالتفات إلى النفسيات الملوثة التي قد خبثت من عنصرها ، وتكدرت من جذرها ، وانعقدت على ضلالها كما قال سبحانه : « والذي خبث لا يخرج إلا نكدا » كيف تقتحم بعتوها ، وتجترىء بتمردها أقصى حدود الله تعالى ، وكيف تعمد الى هدم اصول الدين ، والاخلال بنظام رب العالمين ، وصد دعوة الأنبياء والمرسلين ، تارة بلهجة الكافرين ، وأخرى بمسلك المنافقين ، فاذا التفت السامع لما يقص عليه خالقه من احوال هؤلاء يتباعد عن طريقتهم ، ويبغض اعمالهم ، وبطبيعة الحال ينحو إلى ضدهم ، ويتقرب إلى ندهم ، وبالتدرج تتم ألطاف الله تعالى له ، وتدر المعارف عليه ، وتشع الأنوار لديه ، فيصبح في صفوف المصلحين ، ومراتب المقربين ، فاللطف في هذا الاسلوب اشبه بأن يقال له ـ سلبي ـ .

واما اللطف الكائن في مقامنا هذا ـ قصة أصحاب الكهف ـ فهو أنسب

بأن يقال له - إيجابي - حيث ان السامع لتفاصيل سيرتهم ، والمفكر في أسباب هدايتهم ، وما كان منهم في التضحية على حساب خروجهم عن ضلالتهم وانسلاخهم من ظلام طريقتهم ينحو نحوهم ويحذو حذوهم ويتباعد حتى عن مبادىء تلك الضلالة ، ويتقلص حتى عن اوليات ذلك الظلام ، ويأخذ الحيطة لسلامة نفسه من تلك الجرائم والآثام ، وبالتدرج في مراحل الهداية والتفكير ، ومنازل المعارف والتنوير ، يصبح تحت عناية اللطيف الخبير ، فيكون ولياً محبباً ، بل ملكاً مقرباً ، ولم يكن له هم إلا رضاه ربه ، وتعبيد طريق وصوله اليه ، وتسهيل مسلك مثوله لديه ، جاعلا نفسه قدوة للعباد ، ونموذجاً للخلاص من شدائد يوم المعاد ، كما كان أصحاب الكهف كذلك .

قال الله تعالى : « أم حسبت ان اصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً إذ آوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشداً فضربنا على آذانهم سنين عدداً ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين احصى لما لبثوا أمداً » (١) .

بيان سبب النزول

عن محمد بن اسحاق (٢) باسناده عن سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس ان النضر بن الحرث بن كلدة وعقبة بن ابي معيط انفذهما قريش إلى أحبار اليهود بالمدينة وقالوا لهما : سلاهم عن محمد ﷺ وصفا لهم صفته وخبراهم بقوله : فانهم اهل الكتاب الأول وعندهم من علم الأنبياء ما ليس عندنا ، فخرجا حتى قدما المدينة فسألا أحبار اليهود عن النبي ﷺ وقالا لهم : ما قالت قريش ؟ فقال لهما

(١) سورة الكهف الآية ٩ . (٢) مجمع البيان .

أحبار اليهود : اسألوه عن ثلاث فان أخبركم بهن فهو نبي مرسل ، وإن لم يفعل فهو رجل متقول ، فانظروا فيه رأيكم ، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان أمرهم ؟ فانه قد كان لهم حديث عجيب ، وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبوأه ؟ وسلوه عن الروح ما هو ؟ .

وفي رواية اخرى فان أخبركم عن الثنتين ولم يخبركم بالروح فهو نبي فانصرفا إلى مكة فقالا : يا معاشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد ﷺ وقصا عليهم القصة فجاءوا إلى النبي ﷺ فسألوه فقال : أخبركم بما سألتم غداً ولم يستثن (١) فانصرفوا عنه فمكث ﷺ خمس عشرة ليلة لا يحدث الله اليه في ذلك وحياً ، ولا يأتيه جبرئيل حتى ارجف اهل مكة ، وتكلموا في ذلك فشق على رسول الله ﷺ ما يتكلم به اهل مكة عليه ، ثم جاءه جبرئيل عن الله سبحانه بسورة الكهف وفيها ما سألوه عنه من امر الفتية والرجل الطواف (٢) وأنزل عليه « ويسألونك عن الروح قل الروح من امر ربي » .

قال ابن اسحاق : فذكر لي ان رسول الله ﷺ قال لجبرئيل حين جاءه : لقد احتبست عني يا جبرئيل ، فقال له جبرئيل : وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا الآية .

بيان المعنى

بل أحسبت يا محمد « ان أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً » فلخلق السماوات والأرض أعجب من هذا ، والمراد بالكهف كهف الجبل الذي آوى اليه القوم الذين قص الله اخبارهم .

(١) أي لم يقل إن شاء الله . (٢) هو ذو القرنين .

واما الرقيم فقيل : إنه اسم الوادي الذي كان فيه الكهف .

وقيل : الكهف غار في الجبل والرقيم الجبل نفسه .

وقيل : الرقيم القرية التي خرج منها اصحاب الكهف .

وقيل : هو لوح من حجارة كتبوا فيه قصة اصحاب الكهف ، ثم وضعوه على باب الكهف .

وقيل : جعل ذلك اللوح في خزائن الملوك ، لأنه من عجائب الأمور .

وقيل : غير ذلك « إذ آوى الفتية إلى الكهف » أي اذكر لقومك إذ التجأ اولئك الشبان إلى الكهف وجعلوه مأواهم هرباً بدينهم إلى الله « فقالوا » حين آووا اليه « ربنا آتنا من لدنك رحمة » أي نعمة ننجو بها من قومنا وفرج عنا ما نزل بنا « وهيئ لنا من أمرنا رشداً » أي هيئ واصلح لنا من أمرنا ما نصيب به الرشد .

وقيل : هيئ لنا مخرجاً من الغار في سلامة .

وقيل : معناه دلنا على أمر فيه نجاتنا .

وقيل : معناه يسر لنا من أمرنا نلتمس به رضاك وهو الرشد ، « فضربنا على آذانهم سنين عدداً » أي فأجبنا دعاءهم ، وسددنا آذانهم بالنوم الغالب على نفوذ الأصوات اليها سنين كثيرة ، لأن النائم إنما ينتبه بسماع الصوت ، ودل سبحانه بذلك على انهم لم يموتوا ، وكانوا نياماً في أمن وراحة ، وهذا من فصيح لغات القرآن « ثم بعثناهم » أي ايقظناهم من نومهم « لنعلم أي الحزبين احصى لما لبثوا أمداً » أي ليظهر معلومنا على ما علمناه أزلا ، والمعنى لننظر أي الحزبين من المؤمنين والكافرين من قوم اصحاب الكهف ، قد عد امد لبثهم وعلم ذلك لوقوع النزاع بينهم في مدة لبثهم في الكهف بعد خروجهم من بينهم فبعثهم الله ليبين ذلك ويظهره .

وقيل: يعني بالحزبين اصحاب الكهف، لأنهم اختلفوا في مدة لبثهم بعدما استيقظوا وذلك قوله: « وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم » الآية.

القصة

قالوا: إن هؤلاء الفتية قوم آمنوا بالله تعالى وكانوا يخفون الاسلام خوفاً من ملكهم، وكان اسم الملك دقيانوس (١) واسم مدينتهم (افسوس) وكان ملكهم يعبد الأصنام ويدعو اليها ويقتل من خالفه.

وقيل: كان مجوسياً يدعو إلى دين المجوس والفتية كانوا من خواص الملك وكان كل واحد منهم يخفي ويسر إيمانه عن صاحبه، ثم اتفق انهم اجتمعوا وأظهروا امرهم فآووا إلى الكهف، فقال تعالى: « نحن نقص عليك نبأهم بالحق » أي نتلو عليك يا محمد خبرهم بالصدق والصحة « انهم فتية » اي أحداث وشباب « آمنوا بربهم وزدناهم هدى » اي بصيرة في الدين، ورغبة في الثبات عليه بالألطاف المقوية لدواعيهم إلى الايمان، وتهيئة الدلالات لذلك « وربطنا على قلوبهم » اي شددنا عليها بالألطاف والخواطر المقوية للايمان، حتى وطنوا انفسهم على إظهار الحق، والثبات على الدين، والصبر على المشاق، ومفارقة الوطن « إذ قاموا » اي حين قاموا بين يدي ملكهم الجبار دقيانوس الذي كان يصد اهل الايمان عن دينهم « فقالوا » وهم بين يديه مصارحين « ربنا رب السموات والأرض » اي ربنا الذي نعبده خالق السموات والأرض « لن ندعو من دونه إلهاً » اي لن نعبد إلهاً سواه « لقد قلنا إذاً شططاً » اي ان دعونا مع الله إلهاً

(١) كان ملك الروم وثنياً ومعادياً للنصارى وهم باستئصالهم سنة ٢٥٠ من البلاد ثم بعد خمسين سنة صار قسطنطين ملكاً آمن بالمسيح وآمن الروم معه.

آخر فلقد قلنا إذاً قولا مجاوزاً للحق ، وغاية في البطلان ، قالوا ذلك مندفعين بقوة الايمان « هؤلاء قومنا » أي اهل بلدنا « اتخذوا من دونه » أي من دون الله « آلهة » يعبدونها « لولا يأتون عليهم بسلطان بين » محتجين عليه وعليهم ، أي هلا يأتون على عبادتهم لغير الله بحجة ظاهرة ، وفي هذا ذم وزجر للتقليد ، وإشارة إلى انه لا يجوز أن يقبل دين إلا بحجة واضحة ، وان الأصول والعقائد ليست كالفروع في جواز التقليد بها « فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا » فزعم أن له شريكا في العبادة ، والاستفهام إنكاري .

رأي كبيرهم في التخلص

قال تعالى حاكياً عما استقر عليه رأيهم في حفظ دينهم ، ومقاطعتهم لملكهم في طريقته الضالة « وإذا اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله » .

قال ابن عباس : هذا من قول تمليخا وهو رئيس أصحاب الكهف قال لهم فاذا فارقتموهم وتنحيتم عنهم جانباً من عبادة الأصنام ، ولم تعبدوا إلا الله فهم لا يتركونكم على معتقدكم ويؤذونكم ، وربما يقتلونكم « فأووا إلى الكهف » أي صيروا اليه واجعلوه مأواكم للتخلص من معاشرة الكافرين والهجرة إلى رب العالمين ، وعند الالتجاء اليه سبحانه « ينشر لكم ربكم من رحمته » أي يبسط من نعمته عليكم « ويهيء لكم من أمركم مرفقا » أي ويسهل عليكم ما تخافونه من الملك وظلمه ، ويأتيكم باليسر والرفق واللطف .

ويعضده قوله تعالى في الحديث القدسي : يا موسى من ذا الذي توكل عليّ فوكلته إلى غيري ... الحديث .

رحلتهم الى الكهف

أو هجرتهم الى الله تعالى

في قصص الراوندي باسناده إلى ابن عباس قال : لما كان في عهد خلافة (عمر) أتاه قوم من أحبار اليهود ، فسألوه عن أقفال السماوات ما هي ؟ وعمن أنذر قومه وليس من الجن ولا من الانس ، وعن خمسة أشياء مشت على وجه الأرض لم يُخلقوا في الأرحام ، وما يقول الدراج في صياحه ؟ وما يقول الديك والفرس والحمار والضفدع والقنبرة ؟ فنكس عمر رأسه ، ثم قال : يا أبا الحسن ما أرى جوابهم إلا عندك ، فقال لهم علي ﷺ : إن لي عليكم شريطة إذا أنا أخبرتكم بما في التوراة أن تدخلوا في ديننا فقالوا : نعم ، فقال ﷺ : اما أقفال السماوات فهو الشرك بالله ، فان العبد والأمة إذا كانا مشركين لا يرفع لهما إلى الله تعالى عمل ، فقالوا : وما مفاتيحها ؟ فقال ﷺ : شهادة أن لا إله إلا الله وان محمداً عبده ورسوله ، فقالوا : اخبرنا عن قبر سار بصاحبه ، قال : ذلك الحوت حين ابتلع يونس فدار به في البحار ، فقالوا : اخبرنا عمن أنذر قومه وهو لا من الجن ولا من الانس ، قال ﷺ : تلك نملة سليمان إذ قالت : « يا ايها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده » قالوا : اخبرنا عن خمسة أشياء مشت على الأرض ما خلقوا في الأرحام ، قال : ذلك آدم وحواء وناقة صالح وكبش ابراهيم وعصا موسى ، قالوا : اخبرنا عما تقول الحيوانات ؟ قال : الدراج يقول : الرحمن على العرش استوى ، والديك يقول : اذكروا الله يا غافلين ، والفرس يقول : اللهم انصر عبادك المؤمنين على عبادك الكافرين ، والحمار يلعن العشارين ينعق في

عين الشيطان ، والضفدع يقول : سبحان ربي المعبود في لجج البحار ، والقنبرة تقول : اللهم العن مبغضي محمد وآل محمد ، قال : وكانت الأحبار ثلاثة فوثب اثنان وشهدا الشهادتين ، فوقف الحبر الآخر وقال : يا علي لقد وقع في قلبي ماقد وقع في قلوب اصحابي ، ولكن بقيت خصلة أسألك عنها ، فقال : سل : قال : اخبرني عن قوم كانوا أول الزمان فماتوا ثلاثمائة وتسع سنين ثم أحياهم الله ما كانت قصتهم ؟ فابتدأ علي ﷺ وأراد أن يقرأ سورة الكهف فقال الحبر : ما اكثر ما سمعنا قراءتكم ، فان كنت عالماً فاخبرنا بقصة هؤلاء وبأسمائهم وعددهم واسم كلبهم واسم كهفهم واسم ملكهم واسم مدينتهم ؟ .

أبتداء القصة

فقال علي ﷺ : لا حول ولا قوة إلا بالله يا اخا اليهود حدثني محمد ﷺ انه كان بأرض الروم مدينة يقال لها (اقسوس) وكان لهم ملك صالح فمات فاختلفت كلمتهم ، فسمع ملك من ملوك فارس يقال له (دقيوس) فأقبل في مائة الف حتى فتح مدينة اقسوس فاتخذها دار مملكته واتخذ فيها قصراً طوله فرسخ في عرض فرسخ واتخذ فيه مجلساً طوله الف ذراع في عرض مثله من الزجاج الممرد واتخذ فيه الف اسطوانة من ذهب والف قنديل من ذهب تسرج بأطيب الأدهان واتخذ في شرقي المجلس ثمانين كوة ـ أي نافذة ـ وكانت الشمس إذا طلعت تشرق في المجلس كيفما دارت ، وجلس على سرير من الذهب وقوائمه من فضة مرصعة بالجواهر ، وأجلس بطارقته وأعاظم دولته عن يمينه ويساره ـ وأخذ ﷺ في وصفه بالأعاجيب إلى أن قال ـ واتخذ ستة غلمة وزراؤه ثلاثة عن يمينه وثلاثة عن يساره ، فقال اليهودي : ما كان أسماء الثلاثة والثلاثة ؟ فقال ﷺ : الذين

عن يمينه أسماؤهم تمليخا ومكسلمينا ومنشليليا ، واما الذين عن يساره فأسماؤهم مرنوس ودرنوس وساذريوس ، وكان يستشيرهم في جميع اموره ، فلما رأى ما هو فيه من النعمة والعظمة طغى وتجبر وادعى الربوبية وقتل من لم يقبل ذلك منه ، فجاءه بطريق يوماً فأخبره بأن عساكر الفرس قد غشيته ، ففزع لذلك حتى سقط التاج عن رأسه فقال تمليخا في نفسه : لو كان إلهاً كما يزعم لما فزع وما كان ينام ويبول ويتغوط ، وليس هذا من شأن الاله ، وكان الفتية يجتمعون كل يوم عند أحدهم ، وفي ذلك اليوم كانوا عند تمليخا فأخبرهم بما وقع في قلبه وبما كان يفكر فيه سابقاً من أمر السماء وما فيها والأرض وما فيها ومن تكوينه جنيناً إلى آخر مراحله ، فقالت الفتية : ونحن قد فكرنا بهذا « فعزموا على الفرار من دار الكفر والهجرة إلى الله تعالى » وبعد أن بعدوا عن البلاد نزلوا عن خيولهم ومشوا على ارجلهم سبعة فراسخ تذللا لله تعالى ، حتى جعلت ارجلهم تقطر دماً فاستقبلهم (راع) فطلبوا منه شربة لبن او ماء ؛ فقال : عندي ما تحبون واني أرى وجوهكم وجوه الملوك ، وما أظنكم إلا هراباً من دقيانوس ، فلما اخبروه بقصتهم انكب على أقدامهم يقبلها ويقول : وقع في قلبي ما وقع في قلوبكم ورد الأغنام إلى أهلها ولحق بهم يتبعه كلبه فقال اليهودي : ما اسم الكلب وما لونه ؟ فقال ﷺ : لونه ابلق بسواد واسمه قطمير فقال : بعضهم نخاف أن يفضحنا بنباحه فألحوا عليه بالحجارة فأنطقه الله وقال : ذروني أحرسكم من عدوكم وسار بهم الراعي حتى علاهم جبلا فانحط بهم على كهف يقال له الوصيد ، فلما ناموا ووكل الله بهم ملائكة تقلبهم من ذات اليمين إلى ذات الشمال والشمس تزاور عن كهفهم ذات اليمين وتقرضهم ذات الشمال ، ولما علم دقيوس بهربهم تبعهم بجنوده ووقف عليهم وهم في صورة أموات فقال : كفى بهذا عقاباً لهم وبنى عليهم ، ثم قال لأصحابه متجبراً قولوا لهم يقولوا لالههم في السماء لينجيهم ويخرجهم من هذا

الموضع . قال ﷺ : فمكثوا ثلاثمائة وتسع سنين ، ولما أراد الله تعالى إحياءهم قاموا من رقدتهم وقدبزغت الشمس ، قال بعضهم : قد غفلنا هذه الليلة عن عبادة إله السماء فقاموا فرأوا عين الماء قد غارت ، والأشجار قد يبست في ليلة واحدة وقد مسهم الجوع فبعثوا أحدهم وهو تمليخا إلى المدينة ليأتيهم بالطعام ومعه الورق ـ النقود ـ وقد لبس ثياب الراعي لئلا يُعرف ودخل المدينة وهو يرى مواضع وطرقاً ينكرها ، فرأى علماً أخضر مكتوب عليه لا إله إلا الله عيسى رسول الله ، فتعجب وأتى خبازاً وسأله عن اسم المدينة ؟ فقال : اقسوس ، فقال : وما اسم ملككم ؟ قال : عبد الرحمن ، ثم قال : ادفع لي بهذه الورق طعاماً فتعجب الخباز من ثقل الدراهم وكبرها ، فقال اليهودي : ماكان وزن كل درهم منها ؟ قال ﷺ : عشرة دراهم وثلثي درهم ، فقال الخباز : يا هذا انت أصبت كنزاً ، فقال تمليخا : ما هذا إلا ثمن تمر بعته منذ ثلاث وخرجت من هذه المدينة والناس يعبدون (دقيوس) فأوصلوه إلى الملك فقال الملك له : يا فتى لا تخف فان نبينا عيسى أمرنا أن لا نأخذ من الكنز إلا الخمس ، فقال : إني ما أصبت كنزاً ، واني رجل من أهل هذه المدينة ، فقال الملك : فهل تعرف بها أحداً ؟ قال : نعم ، فقال له : ما اسمك ؟ قال : تمليخا ، فقال : ما هذه أسماء اهل زماننا هل لك في المدينة دار ؟ قال : نعم ، فركبوا حتى أتى بهم إلى أرفع دار في المدينة وقال : هذه لي ، فقرع الباب فخرج شيخ وقد وقع حاجباه على عينيه من الكبر وقال : ما شأنكم ؟ فقيل له : إن هذا الغلام يزعم ان هذه الدار داره ، فقال له الشيخ : من انت ؟ قال : تمليخا بن قسطيكين ، فانكب الشيخ على رجليه يقبلها وهو يقول : جدي ورب الكعبة ، ثم قال : أيها الملك هؤلاء الفتية الستة الذين خرجوا هرباً من دقيوس ، فنزل الملك عن فرسه وحمله على عاتقه وجعل الناس يقبلون يديه ورجليه ، فقال الملك له : ما فعل أصحابك ؟ فأخبر انهم بالكهف

وكان يومئذ بالمدينة ملك مسلم وملك نصراني ، فركبوا في أصحابهم وصاروا قريباً من الكهف فقال لهم تمليخا : إني اخشى ان تسمع اصحابي اصوات حوافر الخيل فيظنون ان دقيوس قد جاء في طلبهم ، فامهلوني حتى أتقدم وأخبرهم فلما علموا الحال قالوا : أنكون فتنة للعالمين ، فلندع الله تعالى ليقبض ارواحنا فلما دعوا أمر الله بقبض ارواحهم ، وطمس باب الكهف على الناس ، وبقي الملكان يطوفان على الكهف سبعة ايام لا يجدان له باباً فقال الملك المسلم : ماتوا على ديننا ، نبني على الكهف مسجداً ، وقال الآخر : ماتوا على ديننا نبني عليه كنيسة ، فاقتتلا فغلب المسلم وبنى عليه مسجداً .

يا يهودي أيوافق هذا ما في توراتكم ؟ قال : ما زدت حرفاً ولا نقصت وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

كرامة أخرى له عليه السلام

بسبب أهل الكهف

فيه ايضاً مسنداً إلى ابي جعفر عليه السلام ، ورواه الثعلبي في تفسيره ايضاً بأسانيد عديدة في باب معجزات النبي صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام قال : صلى النبي صلى الله عليه وآله ذات ليلة ثم توجه إلى البقيع فدعا ابا بكر وعثمان وعلياً .

وفي رواية اخرى انه صلى الله عليه وآله دعا عشرة من أصحابه فقال : امضوا حتى تأتوا أصحاب الكهف (١) وتقرأوهم مني السلام ، وتقدم انت يا ابا بكر فانك اسوة القوم ، ثم انت ياعمر ، ثم انت يا عثمان ، فان أجابوا أحداً منكم وإلا تقدم

(١) في قصة البساط المشهورة .

انت يا علي ثم امر الريح فحملتهم ووضعتهم على باب الكهف ، فتقدم ابو بكر فسلم فلم يردوا فتنحى ، وتقدم عمر وسلم فلم يردوا ، وتقدم عثمان وسلم فلم يردوا . فتقدم علي ﷺ وقال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، أهل الكهف الذين آمنوا بربهم وزادهم هدى وربط على قلوبهم ، أنا رسول رسول الله اليكم فقالوا : مرحباً برسول الله وبرسوله ، وعليك السلام يا وصي رسول الله ورحمة الله وبركاته ، قال : كيف علمتم اني وصي النبي ؟ قالوا : إنه ضرب على آذاننا أن لا نكلم إلا نبياً او وصي نبي ، ثم قالوا : اخبر أصحابك هؤلاء إنا لا نكلم إلا نبياً او وصي نبي ، فقال لهم : أسمعتم مايقولون ؟ قالوا : نعم ، قال : فاشهدوا ثم حول ﷺ وجوههم نحو المدينة فحملتهم الريح حتى وضعتهم بين يدي رسول الله ﷺ فأخبروه بالذي كان ، فقال ﷺ : قد رأيتم وسمعتم فاشهدوا ؟ قالوا : نعم ، فانصرف النبي ﷺ إلى منزله وقال لهم : احفظوا شهادتكم .

رموز القصة من القرآن

قال تعالى على أثر ما سبق ذكره من الآي : « وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين » أي تميل وقت طلوعها عن كهفهم إلى جهة اليمين « وإذا غربت تقرضهم » أي تعدل عنهم وتتركهم « ذات الشمال » أي إلى شمال الكهف « وهم في فجوة منه » أي في متسع من الكهف ويدخل عليهم الريح فأخبر سبحانه عن لطفه بهم وحفظه إياهم في مضجعهم واختياره لهم اصلح المواضع لرقادهم فبوأهم مكاناً من الكهف مستقبلا « بنات نعش » تميل الشمس عنهم طالعة وغاربة كي لايؤذيهم حرها ، او تغير ألوانهم ، او تبلي ثيابهم وهم في متسع ينالهم فيه روح الريح ، وكان باب الغار مقابل القطب الشمالي « ذلك من آيات الله » من

براهينه وأدلته « من يهد الله فهو المهتدي » كأصحاب الكهف حيث علمهم سبحانه كيف يضحون في سبيل عقيدتهم وحفظ دينهم ، فمدهم بزيادة الهدى والألطاف « ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً » كقوم أصحاب الكهف حيث علمهم تعالى شأنه عاكفين على الضلال عابدين انفسهم والشيطان ولم يتأثروا بعظيم آثار قدرة الله ودلائل وحدانيته ، لذا قطع عنهم ألطافه ، وسد عليهم طرق هدايته « وتحسبهم إيقاظاً » منتبهين « وهم رقود » نائمون في الحقيقة ، لأنهم مفتحوا العيون ، يتنفسون كأنهم يريدوا أن يتكلموا ولا يتكلمون .

وقيل : إنهم ينقلبون كما ينقلب اليقظان « ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال» لأنهم لولم ينقلبوا لأكلتهم الأرض ، ولبليت ثيابهم ، قيل : كانوا يقلبون كل عام مرتين ، وقيل : مرة «وكلبهم» الذي تبعهم «باسط ذراعيه » مبسوطتين على الأرض « بالوصيد » أي بفناء الكهف ، وقيل : عتبة الباب « لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً» وذلك لأن الله منعهم بالرعب والخوف منهم لئلا يصل اليهم أحد حتى يبلغ الكتاب أجله لطفاً منه تعالى كي لا ينالهم مكروه من سبع وغيره ، ويكونوا محروسين من كل سوء « وكذلك بعثناهم » أي وكما فعلنا بهم الأمور العجيبة ، وحفظناهم تلك المدة المديدة ، بعثناهم من تلك الرقدة ، وأحييناهم من تلك النومة التي أشبهت الموت « ليتساءلوا بينهم » أي ليكون بينهم نزاع واختلاف في مدة لبثهم ، فينتهوا بذلك على زيادة معرفة صانعهم ، وعظيم قدرة خالقهم ، فيزدادوا يقيناً على يقين « قال قائل منهم كم لبثتم » في نومكم « قالوا لبثنا يوماً او بعض يوم » قال المفسرون : دخلوا الكهف غدوة وبعثهم الله في آخر النهار ، فلذا قالوا : يوماً ، فلما رأوا الشمس قالوا : او بعض يوم ، وكان قد بقيت من النهار بقية « قالوا ربكم أعلم بما لبثتم » وهذا القائل رئيسهم تمليخا « فابعثوا أحدكم بورقكم هذه » أي الدراهم ، وكان عليها صورة

ملكهم « إلى المدينة » التي خرجوا منها « فلينظر أيها أزكى طعاماً » أطهر وأحل ذبيحة ، لأن عامتهم كانوا مجوساً وفيهم قوم مؤمنون يخفون إيمانهم « فليأتكم برزق منه » بما تأكلونه « وليتلطف » يتخفى « ولا يشعرن بكم أحداً » من اهل المدينة « انهم ان يظهروا عليكم » يطلعوا بمكانكم « يرجموكم » يقتلوكم بالرجم وهو من اشد القتل يوضع في حفيرة إلا رأسه ويرمى بالحجارة حتى يموت « او يعيدوكم في ملتهم » إلى دينهم « ولن تفلحوا إذاً أبداً » أي إذا فعلتم ذلك لن تفوزوا أبداً بشيء من الخير « وكذلك اعثرنا عليهم » أي اطلعنا عليهم اهل المدينة كما تقدم تفصيله في جواب امير المؤمنين عليه السلام لليهودي .

وقيل : إن رجلين مؤمنين كتبا شأن الفتية وأنسابهم وأسماءهم وخبرهم في لوح من رصاص ، وجعلاه في تابوت من نحاس ، وجعلا التابوت في البنيان الذي بنوه على باب الكهف وقالا : لعل الله يظهر على هؤلاء الفتية قوماً مؤمنين قبل يوم القيامة ليعلموا خبرهم حين يقرأون هذا الكتاب .

الله تعالى يحقق امنية المؤمن

ثم انقرض اهل ذلك الزمان ، وخلفت بعدهم قرون وملوك ، وملك اهل تلك البلاد رجل صالح يقال له (تدليس) وتحزب الناس في ملكه أحزاباً (١) منهم من يؤمن بالله ويعلم ان الساعة حق ، ومنهم من يكذب فكبر ذلك على الملك الصالح وتضرع إلى الله بأن يبعث لهم آية تبين لهم ان البعث حق والساعة آتية لا ريب فيها ، فألقى الله في روع رجل من اهل ذلك البلد الذي فيه الكهف ان

(١) شأن كل زمان لكن الفرق انه إذا كان الملك صالحاً ينتهي أمرهم إلى الصلاح بحسن تدبيره والعكس بالعكس .

يهدم البنيان الذي على فم الكهف ، فيبني به حظيرة لغنمه ففعل ذلك وبعث الله الفتية من نومهم فأرسلوا أحدهم ليطلب لهم طعاماً ، فاطلع الناس على أمرهم وبعثوا إلى الملك الصالح يعلمونه الخبر ليعجل القدوم عليهم ، وينظر إلى آية من آيات الله جعلها الله في ملكه ، فلما بلغه الخبر حمد الله وركب وركب معه اهل مدينته حتى أتوا اهل الكهف فذلك قوله : « وكذلك أعثرنا عليهم » « ليعلموا ان وعد الله » بالبعث والثواب والعقاب « حق وان الساعة لا ريب فيها » أي القيامة لاشك فيها ، فان من قدر على أن ينيم جماعة تلك المدة المديدة إحياء ثم يوقظهم قدر ايضاً على ان يميتهم ثم يحييهم بعد ذلك « إذ يتنازعون بينهم أمرهم » أي فعلنا حين تنازعوا في البعث ، فمنهم من أنكره ، ومنهم من قال يبعث الأرواح دون الأجسام ، ومنهم من أثبت البعث فيها .

وقيل : إن معناه إذ يتنازعون في قدر مكثهم في الكهف وفي عددهم وفيما يفعل بهم بعد ان اطلعوا عليهم ، لأنه لما دخل الملك عليهم مع الناس وجعلوا يسألونهم سقطوا ميتين فقال الملك : إن هذا الأمر لعجيب فما ترون ؟ فاختلفوا فقال بعضهم : ابنوا عليهم بنياناً كما تبنى المقابر ، وقال بعضهم : اتخذوا مسجداً على باب الكهف « فقالوا ابنوا عليهم بنياناً » هذا قول المشركين في ذلك الوقت « ربهم أعلم بهم » انهم أحياء أم أموات « قال الذين غلبوا على أمرهم » يعني الملك المؤمن وأصحابه « لنتخذن عليهم مسجداً » موضعاً للعبادة يتعبد الناس فيه تبركا بهم ، ودل على ان الغلبة كانت للمؤمنين .

وروي كما تقدم انه لما دخل عليهم صاحبهم وأخبرهم بما كانوا عنه غافلين من مدة مقامهم سألوا الله أن يميتهم فأماتهم « سيقولون » المختلفون في عددهم « ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب » أي قذفاً بالظن من غير يقين « ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم » .

وقيل : إن هذا إخبار منه تعالى بأنه سيقع نزاع في عددهم ، ثم وقع لما وفد نصارى نجران إلى النبي ﷺ فقالت اليعقوبية منهم : كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم ، وقالت النسطورية : خمسة سادسهم كلبهم ، وقال المسلمون : سبعة وثامنهم كلبهم « قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل » معناه قل لهم إني لا أستمد علم ذلك منكم بل من ربي ، لأنه العالم بكل شيء .

قال ابن عباس : أنا من ذلك القليل هم سبعة وثامنهم كلبهم ، وقد عرف ذلك من النبي ﷺ .

لمحة

من حياة الوالد

قدس سره

اعتذار واخبار عما للوالد من الآثار

لقد هممت غير مرة بطبع مؤلف للوالد قدس سره ونشر كتاباته رفع مقامه وكنت أقدم رجلا وأؤخر اخرى فأتقدم وأصمم تارة لأداء بعض حقوقه أولا ولواجب العلم والانسانية ثانياً ، وأتأخر وأترك تارة اخرى لما ذكرت في موجز مقدمة الكتاب من كثرة ما ألف علماؤنا في ذلك ، وإن الموجود منه فوق درجة الكفاية لو عمل به ورغب فيه ، خصوصاً وإن معظم كتابته نوّر الله مرقده في الأصول وفي مقدمتها تعليقته على فرائد الأصول للشيخ الأنصاري اعلى الله مقامه وقد اسماها بالوجيزة تحتوي على ستمائة وستين صحيفة من اول مباحث القطع إلى آخر مباحث التعادل والتراجيح ، وبالأخير رجحت الترك خوف ان يكون الدافع حب السمعة بعد الذي بيناه ، وان الوالد نفسه لا يرضاه فأكون قد أسأت اليه حسب علمي بسجيته ، وما انطبعت عليه سيرة حياته من زهده بكل مايؤول إلى الدنيا نتاجه ، وإلى حب الذات ثماره ، حيث كان جاهداً في تدريس جماعات على هيئة حلقات لا يقل يومياً عن ثمان ساعات في داخل مدرسة السيد كاظم اليزدي اعلى الله مقامه ولم يسمح بالخروج في دروسه منها إلى ما تعارف عند العلماء يوم ذاك من إلقاء محاضراتهم في المساجد والصحن الشريف ، بالرغم من مكرر الطلب والالحاح من طلابه ومريديه ، وكان ملازماً للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مجالسه ، طالباً رضاء ربه في كل أحواله ، مكباً على طلب العلم كسباً وإنفاقاً شاباً وشائباً ولم يخرج من النجف مسقط رأسه طيلة حياته لغير زيارة العتبات المقدسة في العراق إلا مرتين أولاهما للجهاد في الحرب العالمية الأولى في نواحي العمارة ، وثانيتهما إلى العمارة نفسها بتنسيب الأطباء في تغيير الهواء لمرضه الذي

كان فيه انتقاله إلى جوار ربه الكريم بعد رجوعه من سفره بشهرين إلى مسقط رأسه ومحل رمسه في اليوم الثاني من شهر شوال سنة الف وثلاثمائة وخمس واربعين هجرية .

وله ايضاً ديوان من الشعر قد رتبه على حروف الهجاء من الألف إلى الياء يحتوي على الفين وستمائة وأربعة وعشرين بيتاً في مائة واثنتين وخمسين صحيفة ومعظمه في الغزل ، ويظهر من تاريخ فراغه من تسويده انه كان فيما قبل العشرين من عمره ، وقد آثرت ترك نشره ايضاً ، لعدم إحرازي رضاه في ذلك ، وهذه نماذج منه :

مما قاله (رض) في رثاء الزهراء (ع)

من قصيدة مؤلمة :

اليك أشكو رسول الله أشجانا ... أورت بأحشاي حتى الحشر نيرانا
إذ جرعوا البضعة الزهراء فاطمة ... من بعد فقدك اشجاناً وأحزانا
لم أدر أي رزاياها أعددها ... فلست أسطيع ابدي كل ما كانا

إلى ان قال :

ولم تزل حرة الأحشاء ساهرة ... ما غمضت ليلة للنوم أجفانا
حتى قضت وهي قرحى القلب صابرة ... مغصوبة حقها ظلماً وعدوانا

ومن قصيدة له في رثاء الحسين عليه السلام تبلغ سبعة وخمسين بيتاً :

ما شجاني هوى الحسان الغيد ... لا ولا همت في غزال زرود
لست من بات والهاً مستهاماً ... لعبت فيه مائسات القدود

بل شجاني وهام بالقلب حزناً وبصدري اورى زناد الوقود
وعراني الأسى فبت كئيباً قلقاً لم اجد سوى التسهيد
يوم عاشور الذي فيه اضحى الشرك سام والحق واهي العمود
يوم لفت جيوشها آل حرب واتت تملأ الفضى بالجنود
تبدل الرشد بالعمى وهي قدماً ما أقرت بالواحـد المعبود
وسرت للحسين بالطف بغياً واتت بالعمى بغير رشيد
ورجت انه يصافح ضرعاً وصغاراً لابن الدعي يزيد
سيم اما الحياة ذلاً واما الموت عزاً بمـاضيات الحدود
فأبى وهو للأذلاء عز مستذلا يلوي لهم بالجيد
كيف وهو الأبي من آل فهر ورث العز من اب وجدود
فرماهم بفتية لا يرون الحرب عند اللقاء إلا كعيد
إلى ان يقول :
عانقوا البيض ثم من بعدها قد عانقوا الحور في جنان الخلود
وغدا السبط مفرداً بين اهل الغي من كل مشرك وجحود
لم يجـد ناصراً له ومعيناً غير سيف وذابل املود
إلى ان يقول :
بأبي ضامئاً يصول فيروي سيفه من دماء كل عنيد
وقضى بعد ان قضى بالمواضي حق ذاك الشرع الحنيف المشيد
إلى ان يقول :
لهف نفسي لزينب حين جاءت تندب الندب عن حشىً مكمود
فرأته موزع الجسم ملقىً عافراً خـده سليب البرود
وطأوا صدره ورضوا ضلوعاً منه في طيهن سر الوجود

إلى ان يقول :

وعلى الرمح رأسه يعظ القوم بفصل من الكتاب المجيد
ولكم شوهدت له معجزات وهو سام على الرماح الميد
وغدت مغنما بنات علي يا لقهر لكل عات عنيد
سلبوها برودها وحلاها ومن الأسر زينت بعقود
إن بكت طفلة وحن يتيم ألموا رأسه بقرع الحديد
لم تجد من مجاوب لنداها غير ضرب السياط فوق الزنود
وحماها فوق المطي يعاني الضر فيه ونهسة التصفيد
لهف نفسي عليه وهو عليل غللوه مكبلا بقيود

إلى ان يقول :

عجباً لم تلن له آل حرب وله رق قاسيات الوجود
يا له الله كم تحمل شجواً وهواناً يذيب كل جمود
فعليكم آل النبي سلامي ما تغنت حمائم بالنشيد

وقال في رثاء الحسين عليه السلام ايضاً :

يا راكباً كوماء خفَّ بها السرى رملا تجوب من المفاوز مقفرا
عرِّج على وادي الغري وناد فيه من بني مضر العلى ليث الشرى
من غالب غيث الصريخ وغوثه إن اجدبت عاماً وإن خطب عرى
من فيه قد ظهرت شريعة احمد وضياء انوار النبوة اسفرا
قف واصرخن بشجو صوتك ناعياً قتل الحسين وعز فيه حيدرا
فلقد قضى بالطف بين امية صادي الحشى بدم الوريد معفرا
وفدته خير عصابة من هاشم طابوا فروعاً في العلاء وعنصرا

إلى ان يقول :

وانصاع فرداً سبط احمد بعدهم غير الحسام له نصيراً لا يرى

إلى ان يقول :

وأدارهم دور الرحى وأبادهم نظما ونثراً في ضحى وبأسمرا

إلى ان يقول :

ومذ الاله دعاه لبى مسرعاً وهوى صريعاً فوق صالية الثرى

ترب المحيا بالدماء مزمـــلا يشكو الظمى والقلب منه تفطرا

إلى ان يقول :

وخرجن ربات الحجال صوارخاً يندبن شجواً كهفها خير الورى

إلى ان يقول :

فبرئت منهم للنبي وآله ومن الذين رضوا بما منهم جرى

ورجوت ان الله يسكن روعتي يوم المعاد ومعكم ان احشرا

ولوالدي واخوتي وعشيرتي وأحبتي طراً ولي ان يغفرا

ومن قصيدة له في الغزل :

كساني منه ثوب الوجد صد لذلك شب بالأحشاء وقد

بنفسي أفتدي ريماً فؤادي له مرعى وماء العين ورد

ذكرت الريم تشبيباً ومالي سوى بدر التمام بذاك قصد

يعير الريم جيداً والتفاتاً ويزري بالشقائق منه خد

إلى ان يقول :

بحبك انني أصبحت فرداً وانك بالبهى والحسن فرد

* * *

رشى وجناته جنات عدن . ولكن مالنا فيهن خلد

* * *

أقام عقارب الاصداغ فيها   لكيلا يجتنى منهن ورد
بخديه غدا للشمس برج   تغيب به وأخرى منه تبدو
لئن أحيي المتيم منه قرب   فقد أفناه هجران وبعد

نموذج من قصيدة له في الغزل ايضاً :

بدا فالناس من دهش حيارى   تظن إذا رأيتهم سكارى
اليكم ايها العشاق عنه   فمن فتكات ناظره حذارا
رمى عن قوس حاجبه فأدمى   فؤاداً بالصبابة مستطارا

* * *

فلولا جنة الفردوس اضحت   بخديه لما شاهدت نارا

وقال (رض) مشطراً :

ولي غادة إن دنت غادة)   تميط عن البدر ليل الشعر
حنت فأبديت شوقاً وقد   (فتلت اليها حبال النظر
تغني الخلاخل في ساقها)   فأخرست الورق عند السحر
وانسى غناها إذا غردت   (غناء البلابل فوق الشجر

وقال مخمساً :

غرام بقلبي له جذوة   تشب فتزداد بي لوعة
تجاذبني للهوى زفرة   (ولي غادة إن دنت غادة
فتلت اليها حبال النظر

تصد وتدنو لمشتاقها   وكم جرحته بأحداقها
وإن خطرت بين عشاقها   (تغني الخلاخل في ساقها
غناء البلابل فوق الشجر

ومما قال :

زفرتي تذكو بقلبي دائماً دائماً تذكو بقلبي زفرتي
حسرتي بعدالفراق قد ذكت قد ذكت بعد الفراق حسرتي
مهجتي من فرط وجدي تلفت تلفت من فرط وجدي مهجتي
دمعتي سالت بقلبي اسفاً اسفاً سالت بقلبي دمعتي

إلى ان يقول :

جنتي في وجنتيه زهرت زهرت في وجنتيه جنتي

* * *

خلتي هل تسعدوني بالبكا بالبكا هل تسعدوني خلتي

ومن قصيدة له طويلة :

كبد المشوق من الجوى تتقطع ومن الأسى ذاب الفؤاد المولع
امسي وأصبح في هواك متيما ولكم اذل لمن احب واخضع
عطفاً ولو طيف الخيـال فانني بعد النوى في وصل طيفك اقنع
لي مهجة تدمى بألحاظ المهى وحشاشة ذابت وقلب موجع
حتى إذا انفصل الحبيب فأدمعي قد اظهرت ما اضمرته الأضلع

إلى ان يقول :

بدر يعاطي الصب شمس رضابه لـكن بها تبدو النجوم اللمع

* * *

حكم الهوى بالصب ان فؤاده للريم مرعى والحشاشة مربع

وقال مشطراً :

بدا ورنت لواحظه دلالا) وقد انضت لنا البيض الصقالا
تلفت شادناً ومشى قضيباً (فما ابهى الغزالة والغزالا
واسفر عن سنى قمر منير رشى يحكي بغرته الهلالا)

اليه قد اهتديت بنور وجه (ولكن قدوجدت به الضلالا
صقيل الخد ابصر من رآه) به للشمس إذ طبعت خيالا
رأى في خده الوضاح وهماً (سواد العين فيه نخال خالا
وممنوع الوصال إذا تبدى) رمى عن قوس حاجبه نبالا
وإن سائلته يا صاح وصلا (وجدت له من الألفاظ لالا
عجبت لثغره البسام ابدى) لنا سمطين من برد تلالا
ويبدي ان تبسم عن ثنايا (لنا دراً وقد سكن الزلالا
فيا عجباً لحسن قد حواه وقد قدحوى الغصن اعتدالا
جعلت محبتي قصراً عليه (وقد اهدى إلى قلبي الوبالا
سأشكوا الحب مابقيت حياتي) اليه عساه يمنحني الوصالا
واذكر هجره فأزيد شوقاً (واشكر من صنايعه الجمالا

ومن قصيدة له هذا مطلعها :

شوقي اليك شديد يا منى املي فأي ذنب بدا مستوجب مللي
إن كان صدك عن ذنب وعن زلل فها انا تائب عنه وعن زللي
اوكان من غير ما جرم ولا سبب فالحكم حكمك ان تهجر وان تصل

ومن اواسط قصيدة له في الغزل :

كم سقاني ريقه مجتنياً ورد خديه وقد بات نديمي
جؤذر تاه دلالا فانثنى كلما مر به غض النسيم
فضح ألبان واقمار الدجى معطفاً ليناً وبالوجه الوسيم
خلع النسك واضحى كلفاً فيه قلبي ذا شجون وكلوم
مذ جلى تفاح خديه لنا باسم الثغر عن الدر النظيم
راق خداً وقسا قلباً لذا كنت منه في عذاب ونعيم

مثله الريم جمالا وبهىً وهو صداً ونفوراً مثل ريم

وبعض من قصيدة له :

حقاً بأني في هواك متيم اخفيه فيك عن الوشاة واكتم
يا مانحي حر الصدود ومانعي برد الوصال وانني بك مغرم
فكأنما عني صدودك واجب ووصالك المضنى المشوق محرم

وقال مخمساً :

بهواك همت صبابة وتزفرا وتسهدت عيني فلم تذق الكرى
يا مخجل الأقمار ساعة اسفرا (زدني بفرط الحب فيك تحيرا
وارحم حشى بلظى هواك تسعرا

غلب الهوى فأذاب مني مهجة وأسال من آماق عيني عبرة
فامنن عليَّ بوصل طيفك رحمة (وإذا سألتك ان اراك حقيقة
فاسمح ولا تجعل جوابي لن ترى

صب وقد اودى الغرام بلبه مهما دعا داعي الهواء يلبه
لا غرو إن عز الوصال بقربه (يا قلب انت وعدتني في حبه
صبراً فحاذر ان تضيق وتضجرا

لا تشكون يا قلب من تعذيبه إذ قد نهيتك ان تهيم بحبه
واصبر على مرّ الغرام وعذبه (إن الغرام هو الحياة فمت به
صباً فحقك ان تموت وتعذرا

امسي واصبح في هوى الخشف الأغن ذا مقلة عبرى وقلب مفتتن
يا ايها القلب الصحيح من الشجن (قل للذين تقدموا قبلي ومن
بعدي ومن اضحى لأشجاني يرى

اني انا شيخ الصبابة مولع وابو الغرام فلست عنه ارجع

يا من غدوا صاحبين لم يتوجعوا (عني خذوا وبي اقتدوا ولي اسمعوا
وتحدثوا بصبابتي بين الورى

يا ليلة سمح الزمان بها لنا والورق فوق الأيك تسجع بالغنى
قضيتها طرباً بكاسات المنى (ولقد خلوت مع الحبيب وبيننا
سر ارق من النسيم إذا سرى

كبد تذوب وعبرة ارخصتها يوم الوداع ومهجة ودعتها
وصبابتي حذر الوشاة سترتها (وأباح طرفي نظرة املتها
فغدوت معروفاً وكنت منكرا

قمر بدا يسعى بكأس زلاله ما بيننا ويميس في ميـاله
حتى نظرت لحسنه ودلاله (فدهشت بين جماله وجلاله
وغدا لسان الحال عني مخبرا

أي لائمي فيه وفي شغفي به إقصر فلست بعادل عن حبه
ولئن تكن متغافلاً عن حسنه (فأدر لحاظك في محاسن وجهه
تلق جميع الحسن فيه مصورا

يزري بأوراد الشقائق وجنة والريم يفضحها بجيده لفتة
كملت محاسنه فكانت جنـة (لو أن كل الحسن يكمل صورة
ورآه كان مهللاً ومكبرا

ومن قصيدة له تزيد على مائة بيت :

أهواك يا ريم الأراك وطالما قد كنت من فرط الصبابة هائما
فاسمح بسلسال المباسم انني امسيت من حر الهوى بك ذا ظما
لا غرو إن لام العذول فانه قد كان في تلك الملامة ظالما
فلئن رأى النعمان ما بخدوده من رقة فله الشقائق ما نما

او لو رآه الورد في اكمامه　امسى الوزير له وكان الحاكما
او لو بدا فرآه يوماً راهب　لهوى اندهاشاً ساجداً له قائما

إلى ان يقول فيها :

والبدر من خجل تَنحّى انه　ابداً يغيب ولا يراه باسما
والشمس تحسده لأنه قد غدا　بالحسن ضرتها وأضحت خادما
تتعلم الأغصان منه إذا انثنى　عطفاً ويفتك بالحشا مهارمي
من ذا الذي افتاه في تلك النفوس أطرفه ام فيه لم يك آثما
من حيث ان النفس في شرع الهوى　كانت محللة ولم أك عالما

إلى ان يقول منها :

ولكم نهيت القلب عن شرك الهوى　كي لا يُصاد به فيصبح نادما

* * *

واحذر يغرك عذبه فلربما　عادت اواخره عليك علاقما

وله من قصيدة :

ملكت لحاظك عاشقاً لك مغرما　فغدا فؤاد الصب فيك متيما
عذّب مشوقك بالهوى فيما تشا　يا منية المشتاق يا ريم الحمى
يستعذب التعذيب فيك متيم　فارحم بوصلك من لحكمك سلما

إلى ان يقول فيها :

قلبي وطرفي ذا بروض خدوده　يرعى وذاك معذب بجهنما

وله من قصيدة :

اصبحت فيك غريم القلب حيرانا　فما اتخذت سوى الأشواق ندمانا

إلى ان يقول فيها :

نبي حسن اظلتنا ذوائبه　ونور غرته الغراء اهدانا

وارسل الصدغ منه كي يحذرنا فتك العيون إذا ما سل قضبانا
فذ بدا الصدغ بالآيات ينذرنا لم يبق منا بدين الحب ما دانا
اني خلعت عذار النسك فيه وقد آمنت من بعد ما ابديت كفرانا

إلى ان يقول :

لقد روينا حديث البرق عن فمه لما تبسم عن در به كانا
تخال في خده إن انت تنظره سواد عينيك خالا فيه قد زانا

وقال مشطراً :

يا من هواه أعزه وأذلني) عطفاً ولو طيف الخيال يزورني
يا من بسحر جفونه سحر الورى (كيف السبيل إلى وصالك دلني
عاهدتني أن لا تميل مع الهوى) وبسهم هجرك والنوى لم ترمني
ومنحتني منك الوصال سماحة (وحلفت لي يا غصن أن لا تنثني
هب النسيم فمال غصنك وانثنى) ودنا الرحيل فبالبعاد جرحتني
أين المودة بيننا والحب بل (أين اليمين وأين ما عاهدتني
فلأقعدن على الطريق وأشتكي) شوقاً ووجداً من غرامك شفني
ولأنشرن بالدمع صحف صبابتي (وأقول مظلوم وانت ظلمتني
ولأدعون عليك في غسق الدجى) ان تجرع الكأس الذي جرعتني
وتذوق ما قد ذقت من ألم وأن (يبليك ربك بالذي ابليتني

ومن قصيدة له (رض) :

نشر تضوع ام شذى رياه وسنىً تألق ام بدا خـداه
يهتز إن مال النسيم بقده تيهاً فتزري بالقنـا عطفاه
جرحت متى سُلت سيوف لحاظه قلب المتيم بالهوى يصلاه
خفق الفؤاد من الصبابة كلما خفقت على وجناته قرطاه

يسطو ويرمي من لحاظ جفونه   نبلا فلم يخط الحشا مرماه
إن رمت لثم شقائق في خده   رمت الفؤاد بأسهم عيناه
رقت محاسنه ولكن قلبه   جلمود صخر فهو ما اقساه

إلى ان يقول فيها :

يسعى بصهباء المدام مهفهف   طوراً ويمزج صرفها بلماه
شمس تجلت في يديه وانه   بدر تعاطيني المدام يداه

* * *

حمراء صافية كورد خدوده   قد خضبت في كأسها كفاه

ومن قصيدة له (رض) طويلة :

بدا قمراً يسعى بشمس لمى فيه   فقم طرباً يا صاح كيما تحييه

إلى ان يقول فيها :

ويسعى على الندمان فيها مهفهف   رقيق اديم الخد والقلب قاسيه
كحيل غرير فاتر الطرف اجيد   اغن رشيق القد والخد قانيه
يميل بعطفيه الدلال فينثني   وما ماس غصن البان لولا تثنيه
أفاعيه فوق الخد تحمي شقيقه   لذلك قلبي ذائب من أفاعيه
فلو ان غزلان الصريم بحاجر   لقد سمعت مغناه كادت تناغيه
روينا باسناد النسيم عن الحمى   عن الشيح عن نشر الشذى انه فيه

واقول في الختام : إن لي بعض الشعر قد قلته في مناسبات فضلت ترك ذكره ، ما عدا اربعة ابيات اثريات بيتان منها قد كتبا بالحفر في الخشب على جبهة الباب الغربي للصحن الشريف في سامراء ، وكانا مني بطلب من سادن الحرم السيد صفاء وجماعة من اعيان البلدة ، يتضمنان تاريخ فتحها ومدح فاتحها الملك فيصل الثاني ، وذكر السادن لسعيه وان لا يزيد على بيتين لضيق محل الكتابة

ولكافتها ، حيث انها بالحفر كما اسلفناه ، وكان الخطاب فيها موجهاً إلى الامام الهادي ﷺ فقلت :

وبقلع جدك باب خيبر نصبت باب لكم تهدي نفوساً ما اهتدت
باب لهادينـا بفخر أرخت أركانها بصفاء فيصل شيدت
سنة ١٣٧٦ هـ

وبيتين قد رسما على جبهة باب الجامع الموسوي في مدينة الحرية بغـداد عندما وفقت لتشييده بمعونة الله تعالى في مدة لا تزيد على ثمانية وخمسين يوماً من يوم حفر أساسه إلى يوم فتحه ، بينما اني لم أسدد القروض التي تحملتها لاشتراء ارضه إلا بعد سنتين ، وقد لاقيت من جرائها أشد المضايقات ، ولا اشك انها كانت دورة امتحان منه تعالى لي في المثابرة على العمل والصمود أمام الصواد قاصداً وجهه الـكريم ، وخدمة المؤمنين ، وتوجيه الجاهلين ، وحيث انه جل شأنه قد علم صدق المقال ، واقتضاء الحال ، فمدنا باسعاده سبحانه لانجاز تشييده بصورة كمعجزة بالرغم من قيامي به بمساعدة ضعفاء المؤمنين ، وبهذه السرعة مما لم يتسن حتى لذوي الثراء في تشييد مثله ، ونسأله المعونه لجميع امورنا ، وفي مختلف أحوالنا ، فقلت مؤرخاً تأسيسه ، ومادحاً جماعة المؤمنين المؤازرين :

قيم الدين تجلت عندما ظهرت أضدادها من ذي حسد
مسجد قد قلت في تاريخه شيد بالتقوى وإرشاد بجد
سنة ١٣٨٤ هـ

وإلى هنا فقد انتهى الجزء الثالث من كـتاب (الآيات الساطعة في العبر النافعة) راجين من الله القبول ، ونيل رضاه المأمول ، وله الحمد على إكماله ، والشكر على إنجازه ، والصلاة والسلام على محمد وآله .

فهرست الجزء الثالث

من كتاب الآيات الساطعة

الصحيفة	الموضوع
٢	(الفصل الثاني) من العقد الخامس في الجهل
٣	حقيقة الجهل
٤	طريق التخلص من رذيلة الجهل
٥	أضر جهل وأقبحه
٧	حسن التضاد في اسماء الله تعالى
٨	إيضاح قول الحكماء (غاية ظهوره تعالى منشأ بطونه ... الخ)
١١	إيضاح آخر لظهوره جل شأنه
١٢	الارشاد منه تعالى لازاحة الجهل على لسان علي عليه السلام وأولاده (ع)
١٣	آيات الأمر بالتفكر ودلالتها على وجوده تعالى وقضائها على الجهل
١٤	فضل الآيات (وخلاصة العقد الخامس)
١٦	(العقد السادس) الانسان فيما بين الدارين وفيه فصول (الفصل الأول) حالته في الاحتضار
١٧	الرواية بسندها إلى امير المؤمنين عليه السلام في مفصل حالة الانسان عند الاحتضار
١٨	الرواية بسندها إلى الباقر عليه السلام في ذلك
١٩	وصف أمير المؤمنين وأولاده (ع) للموت بأقسامه ودفع الشبهات في ذلك
٢١	حضور رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام عند الميت في احتضاره ورؤيته لهما
٢٢	الأسانيد بتفاصيلها في ذلك
٢٣	مأثرة اخرى عن الصادق عليه السلام تخص المؤمن مستشهداً بالآية
٢٥	إيضاح آخر منهم (ع) في ضمن وفات ابن سابور (رض)
٢٦	إنارة مشهورة عند احتضار السيد الحميري (رض)
٢٧	بشارة اخرى للموالين
٢٨	(حتمية الموت) وفيه تصفح ملك

الصحيفة	الموضوع
	الموت البيوت في كل يوم خمس مرات
٢٩	(تنبيه و تحذير) وفيه بيان من هو قابض الأرواح
٣٢	في الترغيب منه تعالى على العمل قبل حلول الأجل مخاطباً عيسى عليه السلام
٣٥	في التذكير منه تعالى لعباده مكلما موسى عليه السلام
٣٦	أمير المؤمنين عليه السلام يوصي عند وفاته بأعز ما لديه ولأعز من عنده
٣٨	(الانذار وقاطع الأعذار) وفيه وفات إدريس الغريبة
٤٠	نداء القبر لابن آدم مع شعر حكمي
٤٢	قصة غريبة وعبرة عجيبة في طرابلس
٤٥	أقوال الحكماء والموعظة
٤٦	صلة الرحم تنسىء الأجل
٥١	الاحياء بعد الموت في الدنيا وتكلم الشاة المشوية
٥٥	معجزة لعلي عليه السلام باحياء الميت
٥٥	من الاحياء بعد الموت قصة البقرة
٥٦	شرح القصة وسبب نزول الآي في ذلك
٦٠	عملية الاحياء بغرابتها تتضمن دقيق الحكم
٦١	عودة على بر الولد بأبيه بقصة غريبة
٦٥	(الفصل الثاني) في حالة الانسان في القبر
٦٧	في شعور أهل القبور
٦٨	جبرئيل يكلم ميتين باذن الله تعالى
٦٨	(مصير الروح في القبر) وتحقيق معنى (البرزخ) ووجود جنة و نار من الآثار
٧٢	الخلاصة لأقوال أساطين الحكماء في البرزخ
٧٣	دليل على وجود هذه الجنة ومعجزة لأمير المؤمنين عليه السلام
٧٥	الدليل من القرآن على الحياة بعد الممات قبل البعث
٧٦	(إشكال ودفع) وفيه كيفية زيارة القبور وفائدتها
٧٨	(الفصل الثالث) في البعث والنشور والفلسفة في ذلك بتطبيق الآيات وإيضاح معانيها

الصحيفة	الموضوع
٨٤	(الأخبار) في البعث وكيفيته
٨٦	مفاجأة النفخة الأولى
٨٧	كيفية إحياء الأموات
٨٨	تفسير (إذا زلزلت) وثواب قراءتها والفلسفة في ذلك وفيها كلمة جد الفرزدق العظيمة في وروده على النبي صلى الله عليه وآله
٩١	من هو الانسان القائل (ما لها)
٩٢	الوحوش والبهائم تحشر
٩٥	(ما هو التناسخ) وفيه بيان منشأ تعدد الفرق في المسلمين وإن ركيزتها الشبهات السبعة لابليس اللعين
٩٩	ردع النبي صلى الله عليه وآله أمته عن التفرق بزيادة الايضاح وانهم سيفترقون على ثلاث وسبعين فرقة والناجية واحدة
١٠٠	(من هي الفرقة الناجية)
١٠١	الرجوع إلى الوجدان والأخذ بالعيان
١٠٣	نموذج من معتقدات الفرق ليتضح الفرق (القدرية) (النظامية) (الاسكافية) ... الخ
١٠٦	(فرق) اخرى تنسب إلى الشيعة
١٠٧	عقيدة الشيعة (الامامية) وبراءتهم من غيرهم
١٠٨	النقد على وجود المنتظر عجل الله تعالى فرجه بأمرين
١٠٩	الجواب عن الأمر الأول
١١١	الجواب عن الأمر الثاني
١١٢	الجواب الأخير وبيان منافع غيبته عليه السلام
١١٥	أقوال المتكلمين فيه عليه السلام
١١٦	فوائد أخرى لغيبته عليه السلام وهي حجج على العباد
١١٨	لمحة من أحوال ظهوره عليه السلام
١١٩	رواية المفضل عن الصادق عليه السلام المفصلة لذلك
١٢٥	مدى قوته عليه السلام وسيطرته وأنواع الخير في عصره
١٢٦	حكمه عليه السلام وفق البواطن والواقع
١٢٧	مدة خلافته
١٢٧	خاتمة المطاف
١٢٩	مواقف القيامة وأهوالها وحديث العشرة أصناف

الصحيفة	الموضوع
١٣٠	موقف المؤمنين من القيامة وما لهم من الكرامة
١٣٢	الأعمال تدفع الأهوال
١٣٣	ومن الأهوال الميزان وعنده تكون الحسرات وفيه جزاء من ارضى خصمه في الدنيا
١٣٥	رحمة الله لا تحد
١٣٥	ما هي ارض القيامة
١٣٦	الاحتجاج بين الله تعالى وعبده يوم القيامة
١٣٧	من أحوال القيامة الكوثر وساقيه
١٣٨	مقام رسول الله ﷺ وعلي عليه السلام في القيامة
١٤٠	فضيلة فاطمة الزهراء عليها السلام في يوم القيامة
١٤١	من أهوال القيامة الصراط وفيه (معنى) الصراط
١٤٣	ختام الفصل وفيه تفسير صورة القارعة
١٤٥	(الفصل الرابع) في المصير الأخير (الجنة) او (النار) نتيجة الحساب والميزان
١٤٦	عمق جهنم لا يدرك
١٤٧	فريق الجنة وما لهم من النعيم والتكريم (بسنده) وفيه صفة الجنة
١٥٠	اكرام الله تعالى لأوليائه بزيارته
١٥٢	رجوع الوفد من ربه إلى أهله
١٥٣	وفود الأنبياء على الله تعالى وموكب نبينا محمد ﷺ يفوق المواكب
١٥٤	علي عليه السلام بمنزلة الأنبياء في الوفادة عليه تعالى
١٥٤	عظمة فواكه الجنة واللذات المعنوية
١٥٥	رد الزيارة من الله تعالى على أوليائه
١٥٦	لذة معنوية أعدها تعالى لأوليائه
١٥٦	عدد الجنان وأبوابها وأصناف الداخلين منها
١٥٧	كرامة أخرى لأولياء الله في الجنة وفيها تفسير شجرة طوبى
١٦١	رفع الاختلاف في أوصاف شجرة طوبى وأخيراً كلمتنا في فريق الجنة وما ينبغي له
١٦٤	فريق النار والسعير وفيه تفسير (لابثين فيها أحقابا)

الموضوع	الصحيفة
تفسير (انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب لا ظليل ولا يغني من اللهب انها ترمي بشرر كالقصر كأنه جمالة صفر ... الخ) مع آيات اخرى في حق فريق النار	١٦٦
التفصيل لأحوال فريق النار	١٦٩
المرحلة الثانية لأهل النار	١٧٠
صورة أخرى من النار وأهلها	١٧٣
أثر عن الصادق عليه السلام لشيعته	١٧٣
منافخ النار تقطب وجه جبرئيل	١٧٤
إشكال ودفع وفيه أسماء النيران وصفاتها من القرآن	١٧٤
الفلسفة في وضع الأغلال	١٧٦
فلسفة اختلاف طبقات النار	١٧٧
التشديد في العذاب لا ينافي الرحمة والعدالة	١٧٧
تفسير (وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً) مع دفع إشكال دخول المؤمن	١٧٩
فلسفة دخول المؤمنين النار وفيها كرامة لأهل البيت وشيعتهم	١٨١

الموضوع	الصحيفة
الكلام في عذاب الفاسق من المؤمنين	١٨٢
(من أنذر أعذر) وفيه التحذير من الشيطان	١٨٤
تحذير عن الشيطان من القرآن مع ذكر السبب لعدم رؤيته	١٨٧
(من وسائل إبليس الخفية) وفيه قصة (سبأ) من القرآن	١٨٩
البطر يدفع إلى الكفر وفيه مفصل القصة وخلاصة الفصل	١٩٣
(الخاتمة في اللطف) والكلام في تعريفه ولوازمه وأحكامه وأقسامه	١٩٥
الكلام في وجوبه على الله تعالى	١٩٦
خلاصة القول وفيها الدلائل من القرآن	١٩٨
تحقيقات علماء الكلام في وجوب اللطف	٢٠٠
تواتر الأخبار في ذلك وان وجود الامام لطف	٢٠٢
انقسام اللطف إلى ضدين ترغيب وترهيب	٢٠٤
من اللطف الترغيبي قوله تعالى : (والذين اجتنبوا الطاغوت) وفيه سبب النزول وتفسيرها	٢٠٦

الصحيفة	الموضوع
٢٠٨	الخلاصة من معنى الآية
٢٠٨	لون آخر من ألطافه تعالى
٢٠٩	لطف بصورة خطاب وتنبيه
٢١١	لطف بصورة ترغيب على السباق وفيها ثبوت إسلام أبي طالب ﷺ من طريق الحس والوجدان
٢٠٤	لطف بصورة المدح والتكريم وفيه (معنى الامام) في قوله تعالى : (يوم ندعو كل أناس بامامهم)
٢١٩	لطف بلون التذكير على عظيم النعم
٢٢١	القسم الثاني من اللطف الترهيب وتفسير قوله تعالى : (اقترب للناس حسابهم) الآية
٢٢٤	ومنه قوله تعالى : (ولا تحسبن الله غافلا) الآية وتفسيرها
٢٣٠	ومن ألطافه على شكل التهديد قوله (أفأمن الذين مكروا السيئات) الآية وتفسيرها
٢٣٢	لطف بصورة احتجاج
٢٣٤	لطف بلسان بيان العاقبة
٢٣٩	لطف وتسلية لنبيه محمد ﷺ

الصحيفة	الموضوع
٢٤٢	لطف بلون إنذار مؤلم
٢٤٥	أبو لبابة الأنصاري ويهود قريظة ونزول الآي في ذلك
٢٤٨	النداء الصريح باللطف
٢٥٢	لون من اللطف بمدح المتقين
٢٥٤	أمير المؤمنين ﷺ في وصف المتقين
٢٥٧	لطف غريب الاسلوب في قصة أصحاب السبت وما فيها من المسخ
٢٦٢	الأمم الممسوخة
٢٦٨	الاقامة مع العصاة معرضة الهلاك
٢٧١	لطف بشكل الاستدعاء إلى الدعاء
٢٧٣	لطف هو ركيزة أغلب الألطاف
٢٧٥	الاشكالات على حسن التكليف وأجوبتها
٢٧٨	إثبات وجوب التكليف بعد إثبات حسنه مع ذكر شرائط حسن التكليف
٢٨٠	تقسيم مورد التكليف
٢٨١	انقطاع التكليف
٢٨١	عموم التكليف للكافر
٢٨٣	تعذيب أطفال المشركين
٢٨٤	التكليف بقسميه لطف

الصحيفة	الموضوع
٢٨٥	التهجد بصلاة الليل وبيان فضلها
٢٨٨	النبي ﷺ وصلاة الليل
٢٩١	صعود علي (ع) على منكب النبي ﷺ
٢٩٢	صعود علي (ع) والشعراء
٢٩٤	تكليف ندبي بعمارة المساجد
٢٩٥	أجر عمارة المساجد
٢٩٦	تعميم الملاك لعموم رحمة الباري تعالى
٢٩٨	حرمة المساجد
٣٠٠	تطبيق آية (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد) الخ . وسبب النزول
٣٠٢	التكليف الأزلي الغامض
٣٠٤	الدلائل على التكليف الذري
٣٠٧	تكليف أهل الشمال بدخول النار قبل الخلقة
٣٠٩	الحجر الأسعد والميثاق
٣١٠	فلسفة التنافر والتآلف في هذا العالم
٣١١	الفرح والحزن لغير سبب ظاهر
٣١٢	أصل الطينة وفرعها
٣١٥	التطبيق والايضاح
٣١٩	ورود شبهة الجبر والجواب عنها
٣٢٠	النواهي الشرعية ألطاف

الصحيفة	الموضوع
٣٢١	في حرمة الغناء والآيات فيه
٣٢٥	علي (ع) يفسر رؤياً لجابر ولآخر نصراني بالتلاعب في الأديان آخر الزمان
٣٢٨	لطف جذري بالنهي عن اكل الحرام
٣٢٩	اكل الحلال ينوّر القلب
٣٣٠	قطع اليد للسرقة لطف
٣٣١	لطف على مسلك التنبيه وفيه إبطال رؤيته تعالى بالباصرة
٣٣٤	بيانات لأمير المؤمنين (ع) أفحم بها دعلب والأشعث وأخيراً تأييد الخضر (ع) له (ع)
٣٣٩	علم اهل البيت (ع) لا يختلف
٣٤١	أبو حنيفة والبهلول في صراع عقلي
٣٤٢	تحقيق في البصر والابصار والأقوال في سببه
٣٤٥	من أحوال الناس في الآخرة
٣٤٧	لطف بعصب التنوير
٣٥١	قول أبي طالب في الرسول
٣٥٥	لطف الله في قصص كتابه
٣٥٦	لطف قصصي

الصحيفة	الموضوع
٣٥٩	مفصل قصة صالح
٣٦٠	الرجوع إلى قاطع الحجة
٣٦٢	إبليس يهيء أسباب معصيتهم
٣٦٣	الانذار يقطع الأعذار
٣٦٤	سبب آخر لعقر الناقة
٣٦٦	حلول العذاب
٣٦٧	تشبيه بديع منه ﷺ
٣٦٨	فلسفة تواتر أخبار التشبيه
٣٦٩	في وجوه التشبيه
٣٧١	لطف قصصي آخر
٣٧٢	بيان سبب النزول
٣٧٣	بيان المعنى
٣٧٥	القصة
٣٧٦	رأي كبيرهم في التخلص
٣٧٧	رحلتهم إلى الكهف
٣٧٨	ابتداء القصة
٣٨١	كرامة أخرى له
٣٨٢	رموز القصة من القرآن
٣٨٤	تحقيق أمنية المؤمن
٣٨٨	اعتذار وإخبار عما للوالد من الآثار
٣٨٩	مما قاله (رض) في رثاء الزهراء (ع)

يطلب الكتاب من

مكتبة السيد مرتضى الكشميري	النجف
مكتبة الشيخ محمد علي الوراق	النجف
المكتبة الاسلامية لصاحبها السيد محمدعلي الحيدري	الكاظمية
دار الكتب العراقية لصاحبها الحاج علي محمد اعتماد	الكاظمية
شارع الرشيد قرب سوق الصفارين بائع الصحف عربي كريم	بغداد
المؤلف الجامع الموسوي ـ مدينة الحرية	بغداد

Library of

Dei Sub Numine Viget

Princeton University.

Princeton University Library
32101 072238262